من هدى القرآن

٦

تفسير سور

النحل - الأسراء - الكهف

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة النحل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة

عن الامام الباقر (ع) قال :

«**من قرأ سورة النحل في كل شهر كفي الغرم في الـدنيا ، وسـبعين نوعا من أنـواع البلاء ، أهونه الجنـون والجـذام والـبرص ، وكـان مسـكنه في جنة عدن وهي وسط الجنان**»

نور الثقلين ـ ص 38 ـ الجزء 3 ـ

عن النبي محمّد (ص) قال :

«**من قرأها لم يحاسبه الله تعـالى بـالنعم الـتي أنعمها عليه في دار الدنيا ، وان مات في يــوم تلاها أو ليلته ، أعطى من الأجر كالـــذي مـــات وأحسن الوصية**»

البيان ـ ص 347 ـ الجزء 6 ـ

الإطار العام

لأنّ سـورة النحل تـذكرنا بنعم اللـه. حـتى سـميت بسـورة النعم عند البعض. وسـورة النحل (والعسل واحد من أفضل أنواع الشراب) عند الآخرين. فان الإطار العـام للسورة ـ كما يبدو لي ـ هو كيف نتعامل مع نعم الخالق .. وجملة القول في ذلك.

1 ـ ضـرورة توحيد الله ونفي الشـركاء عمن أنعم علينا.

2 ـ تكميل نعمه الـتي لا تحصى بـأعظم نعمة وهي الوحي والرسالة.

3 ـ الالتزام بحدود الله في الاسـتفادة من هـذه النعم (التقوى).

كل ذلك يجعلنا من اتبـاع إبـراهيم الخليل الـذي كـان شاكرا لأنعم الله.

وتكـاد آيـات الـدرس الأول تـذكرنا بكل موضـوعات السورة جملة واحدة.

وتستوقفنا للتدبر الآية الثانية (**يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبـادِهِ* أَنْ أَنْـذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ**) وهكذا تذكرنا بالوحي. والتوحيد

والتقوى. وهي الموضوعات الرئيسية في السـورة. والـتي يريـدنا الـذكر الحكيم. ان نسـتفيدها من نعم اللـه. ونجعل الأيمان بها شكرا عليها :

ثم تــذكرنا بآيــات اللــه. تمهيــدا لــذكر النعم وأعظم الآيـــات خلق الســـموات والأرض وثم خلق الإنســـان من نطفة. وخلق ما يحتاجه من الأنعام ..

وبعد ذكر أهم المنـــافع للأنعـــام. تـــبين الآية (9) ان السبيل القويم للحيـاة. الطيبـة. وبالتـالي لطريقة الانتفـاع بنعم الله. انما هو السبيل الذي يهدينا اليه الله سبحانه اما السبل الآخرة فهي جائرة. وهكـذا يصل السـياق بين نعمة الوحي وسائر النعم باعتباره متمما أساسيا لها.

وفي الآيـات (10) يـذكرنا الـرب بنعم المـاء والـزرع والثمرات وكيف سخر لنا الشـمس والقمـر. وسـخر البحر وما فيه من نعمة الأســماك والطـــرق البحرية للتجـــارة. ونعمة الجبــال وما فيها من فائــدة حفظ الأرض ومخــازن الماء وكيف جعل النجوم علامات.

ويأمرنا بالتفكر والتعقل والتذكر والشكر. لعلنا نهتـدي الى حقيقة التوحيد. وان الله الـذي يخلق ليس كالشـركاء الذين لا يخلقون.

وتتابع الآيـات (19) التـذكرة بالخـالق. الـذي يحيط بنا علمه. وان علينا الخشية منه. والا نستكبر أو نستنكف عن عبادته ســـــــــــبحانه. لأنه يعلم ذلك منا وانه لا يحب المستكبرين.

ويحـــذرنا من انكـــار الرســـالة. ويـــذكرنا بمصـــير المســـتكبرين كيف أتى الله بنيـــانهم من القواعد فـــاذا بالســـقف يخر عليهم. في الـــدنيا. اما في الآخـــرة فلهم الخزي والنار ، وانهم أسـلموا حين جـاءهم ملائكة المـوت فادخلوهم جهنم لأنهم تكبروا.

ويســتمر الســياق (38) في معالجة حالة الاســتكبار (ولعلها أعظم عقبة في طريق الأيمـــان بـــالوحي) وذلك بالتذكرة بالبعث. وكيف ان الهـدف منه بيـان الواقع الـذي يتمثل في كذب الكفار.

وفي الآية (41) يذكرنا الرب بأجر المهـاجرين لمـاذا؟ لعل ذلك تنبيه الى ضــرورة مقاومة اغــرار النعم. إذا خيّر المؤمن بينها وبين الحق.

ويعود ويذكرنا بالوحي. وكيف ان النبي ليس بدعا من الرسل.

ومـرة أخـرى (45) يـذكرنا الله سـبحانه بـان الـذين مكروا السيئات لا أمان لهم من مكر الله. ولعلّ ذلك لكي يعالج غرور الاستكبار في النفس ثم يذكرنا بان كل شــيء في الطبيعة يسجد لله سبحانه وان الملائكة لا يســتكبرون عن عبــادة اللــه. بل يخــافون ربهم وأن الله قد نهى عن اتخاذ شريك له وأمر بالخوف منه وتقــواه. أو ليست النعم منـه. وإذا فقـدنا منها شـيئا أو لسـنا نجـأر اليـه؟ ومع ذلك يشركون بالله بعد ان يكشف عنهم الضر.

ويستمر السياق في تسفيه فكرة الشــرك. والاعتقــاد بأن النعم من غـير اللــه. ونسـبة الأمثلة السـيئة الى ربهم سبحانه مثلا. ان الواحد منهم يكره البنت ولكنهم يزعمون ان لله البنات سبحانه.

كلّا لله المثل الأعلى. وللمشــركين مثل الســوء. وان لهم النار وان الشيطان وليهم.

ولعلّ آيات الدروس الأخيرة هـذه تهـدينا الى ضـرورة التسليم بـان النعم من اللـه. وعـدم الانبهـار بـالنعم وبمن يملك النعم من البشر. أو بما هي وسيلة للنعم من مصادر الطبيعـة. أقـول عـدم الانبهـار بها لكي يهبط الإنسـان الى حضيض الشرك فينسى ان

المثل الأعلى لله سبحانه.

وهكذا الآيات (64) فهي في الوقت الذي تـذكرّنا بـانّ الرزق والوحي من الله. تبيّن لنا : مجموعة من النعم مثل المـــاء الـــذي ينزله الله من الســـماء فيحي به الأرض. ويرزقنا شرابا لذيذا من بين فرث ودم لبنا خالصا. ويرزقنا السكر من ثمرات النخيل والأعناب. وشراب ثــالث يرزقنا من النحل فيه شفاء للناس.

تلك نعم الله فلما ذا نشـــكر غـــيره أم نعبد ســـواه؟ ويقلب الله البشر من حيــاة الى مــوت. وربما الى هــرم ويفضل بعض النــاس في الــرزق. فهل نعبد ســواه. فهل يملك الرزق غيره؟

وهو الــذي جعل للنــاس من أنفســهم أزواجا وأولادا وحفدة. ورزقهم من الطيبات فلما ذا يكفرون بنعمة اللــه. ويعبـــدون غـــيره وهو لا يملك رزقـــا. أو يقرنـــوه بســـوء ويضربون له الأمثال سبحانه؟

ويبدو ان الآيات هذه تخفف من (سورة) الانبهـار بنعم الله. لكي يخلص المرء لربه عبادته. ويمحّضه حبّه.

وهكذا الآيات (75) تذكر الناس بـان الله وحـده يملك ناصية الأقدار بينما الشركاء المزعومون هم كعبد مملــوك لا يقدر على شيء. فمن هو أحق بالعبادة؟ وان الله يملك غيب السموات والأرض. كما يملك امر الساعة. وهو الذي أنعم على البشر بالعلم بعد أن خـرج من بطن امه لا يعلم شيئا. وهذه الطيور في جوّ السماء ما يمسكهن الّا الله.

هكذا الولاية لله. وانه السلطان القائم بـأمر العـالمين وهكذا نعم السكن الدائم أو المتنقل كالخيم ونعمة الأثـاث والمتاع. ونعمة الظلال. والأكنان والثياب أيام

السـلم والـدروع للحـرب أو ليست من تمـام نعمة اللـه؟ فلما ذا الكفر وانكار نعمة الله؟

ويسـتمر السـياق وعـبر الآيـات (84) ينـذر الكفـار والظـالمين والمشـركين الـذين يبعثـون ولا يخفف عنهم العـذاب ولا هم ينظـرون. ولا ينقـذهم شـركاؤهم والقـوا جميعا السلم الى الله. وبيد ان كبراءهم أشد عذابا. ويؤكد السياق على شهادة الرسول هنا لك. وان الكتاب لا بدّ ان يقرن بالشاهد على الناس. وانهما لن يفترقا.

ويعود القـرآن الكـريم (90) يـبيّن واحـدا من أهم نعم الله. وهو الكتاب الذي أوحاه الـرب لعبـده يتم نعمته على الناس. ويبين السبيل الى الانتفاع بالنعم وجملة القول في تنظيم الحيـاة حـتى تكـون طيبة : هي العـدل. والإحسـان وإيتـاء حقـوق ذوي القـربى. واجتنـاب الفحشـاء والمنكر والبغي. وهكـذا الوفـاء بعهد اللـه. والالـتزام بالأيمـان. (ويشـدد عليها القـرآن توكيـدا وربما لأنها أهم منظم للعلاقات الاجتماعية).

ورعاية التسـاوي امـام القـانون. لكي لا تستضـعف طائفة طائفة ثانية. بل لما تعتقد انها أرجى منها. واجتنـاب استغلال اليمين استغلالا سيئا.

ثم الصبر (ولعله لمقاومة إغراء الشهوات).

ويشـجع السـياق العمل الصـالح لأنه مفتـاح الحيـاة الطيبة. وهكذا يبين الكتاب منهاجا كاملا للحياة الطيبة.

ولكن كيف نسـتفيد من القـرآن؟ لأن الشـيطان قد يغوينا عنه. أو يجعلنا نحرف آياته فان الآيات (98) تبين لنا منهاجا لفهم القرآن.

أولا : بالاستعاذة بالله حين قراءته من الشيطان.

ثانيا : بالتسـليم لكل آياته لأن روح القـدس قد نزله بـأمر الله فلا اختلاف ولا نقص فيه وشـبهات الكفـار مرفوضة حيث قـالوا بـان رجلا أعجميا يعلم الرسـول هـذا القرآن الذي هو قمة البلاغة.

ثالثا : اجتناب الافتراء على الله «الكذب».

السـبيل الى الأيمـان التعـالي عن الحيـاة الـدنيا. واسـتحباب الآخـرة عليهـا. وهكـذا تكـون النعم في الـدنيا نافعة لمن ملكها وأما من ملكته النعم واسـتحب الحيـاة الـدنيا على الآخـرة فـان الله لا يهديه لأنه يكفر بالله وبرسالاته.

هكـذا تـبيّن الآيـات (106) الموقف السـليم من نعم الله. ويبـدو ان الـذين يسـتحبون الحيـاة الـدنيا. ويفضـلون نعمها على نعم الله في الآخرة هم الذين يشـرحون للكفر صـدرا فيسـلب منهم الـرب أدوات الـوعي. وأولئك هم الغافلون.

أما من يسمو بنفسه عن الـدنيا. ويهـاجر بعد ان يفتن في الله ويجاهد ويعبد فان الله بعدها لغفور رحيم.

أن تساميه عن الدنيا ينفعه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

وإنّ الكفر باللـه. يسـلب النعم في الـدنيا أيضـا. كما ضرب الله مثلا قرية أسـبغ الله عليها نعمة الأمن والـرزق فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والخوف.

هكـذا جـزاء من امتلكته الـدنيا ولم يسـمع لنـداء الرسول. وبالتالي لم يستفد من نعمة الوحي التي تحافظ على سائر النعم.

وهذا لا يعني أبدا ترك نعم الله. كلّا. بل يعني :

اولا : تنظيم العلاقة معها. بحيث لا تنسينا ذكر الله.

وثانيا : تنظيم الاستفادة منها كما امر الله.

وهكـذا تـبيّن الآيـات (114) حـدود الله في الانتفـاع بنعمـه. وهـذا بعد من ابعـاد التقـوى الـتي جـاءت الآيـات الأولى في هذه السورة لتأمرنا بها.

علينا الاّ نحــرم الطيبــات على أنفســنا. بل نأكل منها ونشكر الله على نعمه.

أما المحرمات فهي الميتة والـدم. ولحم الخـنزير وما اهلّ لغير الله به (الا عند الاضطرار).

وحــرام الافـتراء على الله ، والكـذب عليه بـان هـذا حلال وهذا حرام.

أما اليهـود فقد ظلمـوا أنفسـهم فحـرم عليهم أشـياء بسبب ظلمهم.

أما رحمة الله على هـذه الأمة فهي واســعة حيث ان الله رفع القلم عمّن عمل سوء بجهالة ثم تاب وأصلح.

ويعطي القـرآن الكـريم وعـبر الآيـات (120) أسـوة للذين آمنوا من قصة إبراهيم كيف كان شاكرا لأنعم اللــه. وعلينا اتباع ملته.

أما قصة الســبت وحرمة الصــيد فيــه. فهي خاصة بالذين اختلفوا فيه (124).

والرســــول مهبط وحي الله يـــــدعو قومه بالحكمة والموعظة الحسـنة. وهو المثل الأعلى للعـدل والإحسـان وللصـبر والاسـتقامة. وسـعة الصـدر. وسـيرة الرسـول شاهدة على صدق رسالته. و (**إِنَّ اللهَ مَـعَ الَّذِينَ اتَّقَـوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**) (125).

وهكـذا تحـدد سـورة النحل العلاقة السـليمة مع نعم الله. حيث يزداد المؤمن بها ايمانا لربه. وتسليما لرسالات ربه ونبذا للشركاء واستقامة امـام المفسـدين والحمد لله رب العالمين.

سورة النّحل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ

---

6 [تريحون] : من أراح بمعنى رد الانعام بالعشي الى المراح وهو محل استراحة الحيوانات.
[تسرحون] : ترسلونها صباحا الى محل الـرعي والسـرح وهي مـأخوذة من السروح.

الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَؤُفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْـلَ وَالْبِغـالَ وَالْحَمِـيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَـةً وَيَخْلُـقُ ما لا تَعْلَمُـونَ (8) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

---

9 [قصد] : القصد استقامة الطريق.

وعلى الله قصد السبيل

هدى من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

باسم الله ، برحمته الواسـعة الدائمة ، بعلمه وحكمته ، بقدرته وتدبيره ، تشرع هذه السورة.

يستعجل المشركون دائما جزاء أعمالهم ، زاعمين أن التــأخير دليل العــدم ، كلا .. فها هو أمر الله المتمثل في تحقيق ما أنــذر به الرســول قد أتــاكم ليجــازيكم على شرككم ، دون أن يقدر الشفعاء على انقـاذكم من عـذاب الله.

وتهبط الملائكة بين حين وآخر من أمر الله ، بـــالروح الــذي يحمل رســالة ربه إلى النــاس بالإنــذار بضــرورة التوحيد ، والأمر بـــالتقوى. ولا أحد يفر من الجـــزاء ، لأن خلق السماوات والأرض قـائم على أسـاس الحق ، ولا إله ينقذ البشر من عذاب الله. تعالى الله عن شركهم.

ومن الذي يستكبر على الله؟! إنّه هذا الإنسـان الـذي كان أصل خلقه نطفة ، فإذا به يديم الجـدال وبكـلّ وقاحة في الحقائق ، بالرغم من انه لا يزال بحاجة إلى نعم الله ، فهذه الأنعام خلقها الله للإنسان يستدفئ بها ، وينتفع منها ، ويأكل منها ، ويتخذ منها وسـائل الزينة ، ووسـائل النقل الى بلد بعيد يشق على الأنفس الوصـول إليه ، كـلّ ذلك آية رحمة الله ورأفته بالبشر ، كما خلق الـــــرب الخيل والبغـال والحمـير لكي يمتطيها البشر ويتخذ منها زينة ، هذه نعم ظاهرة ، وهناك نعم باطنة لا نعرفها ، والله الذي هيأ النعم حـدد الـبرامج التفصـيلية للانتفـاع الأفضل منها ، حين بين لنا بفضـله السـبيل المسـتقيم إليها ، ولكن دون أن يفرض علينا السير عبره ، ولو شـاء الله لهـدى النـاس جميعا.

بينات من الآيات :

بين الخلق والأمر :

[1] يبـدو ان أمر الله هو إبداعه وانشـاؤه الـذي يتم باحداث الإرادة ، ويعبر عنها القـرآن بكلمة ــ كن ــ قـائلا : «**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَـيْئاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ**» ويبدو أن هناك فرقا بين الأمر والخلق ، فالخلق قد يكـون بالواسطة ، وحسب السـنن الـتي أجراها الله ، بينما الأمر هو الخلق المباشر الـذي لوحظ فيه الإنشـاء والإبـداع. وعذاب الله للأمم المنحرفة ، كما ورسـالة الرسل أمـران إلهيان إبداعيان ، لا يخضعان للسنن المعروفة لدينا.

وحين جاء الرسل بالإنذار اسـتعجل الكفـار ما انـذروا به ، واتخـذوا من التـأخير دليلا على عـدم وجـود الجـزاء ، وجاءت الآية تنذرهم باقتراب ساعة الجزاء ..

(**أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**)

والواقع أن شـــركهم بالله ، وزعمهم ان هنـــاك آلهة تمنعهم من دون الله ، هو الـــذي جعلهم يطمئنـــون ولا يأخذون الإنذار بجدية كافية ، ونفي ربنا ما أشركوا به ..
(**سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**)
فهو مـنزه وهو أسـمى من أن تسـاويه بشـريك ، وهو خالق كل شيء.

روح رسالات الله :

(**يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ**)
[2] والله يـــنزل الملائكة ملكا بعد ملك ، مؤيـــدين بـالروح ، والـروح ـ حسـبما يظهر من النظر في مختلف الآيـات الـتي تحـدّثنا عنه ـ هو : ذلك الملك العظيم الـذي يؤيد الله به رسله ، والذي يأتي الى الأرض في ليلة القدر مع الملائكة وهناك قول آخر يقول : ان الروح كلمة الحياة الـتي يلقيها الله سـبحانه الى الأشـياء فيجيبها لمشـيئته ، وعـدّ إلقـاءه وانزاله على نبيه إيحـاء في قوله : «**وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا**» [1] فـإن الـوحي هو الكلام الخفي والتفهيم بطريق الإشـارة والإيمـاء ، فيكـون إلقـاء كلمته تعـالى ـ كلمة الحيـاة ـ الى قلب النـبي (ص) وحيا للروح إليه [2]
وإذا كـان الـروح ملكا ، فـإن البـاء هنا تـدلّ على الاستعانة ، أي مستعينا بالروح ومؤيدا ، أما إذا كان الـروح جوهر الرسالة المركب من نور العلم والهدى ، وهو الـذي يحـيي البشر كما قـال سـبحانه : «**اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذا دَعـاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ**» فـإن الـروح يكـون النـور الـذي جـاء به الملائكة الى الأرض ، وهـذا المعـنى قريب أيضا من

---

(1) الشورى (52)
(2) الميزان للعلامة الطباطبائي ـ ج 12 ـ ص 206.

قوله سبحانه : «**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِهِ**».

(**مِنْ أَمْرِهِ**)

والملائكة تصـــــــــدر انطلاقا من أمر الله ، فلا تعمل حسب أهوائها ، لـــــذلك فهم يهبطـــــون الى عبـــاد الله المصطفين.

(**عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ**)

فالرسل عبـاد لله وليسـوا أنصـاف آلهة ، أما محتـوى الرسالة وجوهرها فهو التالي :

(**أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ**)

إخلاص العبادة لله في كـلّ الشـؤون ، والـذي يتجسد في التقوى ، هو جوهر الرسالات الإلهية.

[3] وحين ينـــذر ربنا عبـــاده من الانحـــراف عن خط التوحيد ، فإن ذلك ينسـجم مع أسـاس الخلق ، حيث خلق السـماوات والأرض بـالحق ، وانه هو المهيمن عليها دون شـريك ، فالبشر إذا شـذوا عن سـنة الكـون ، فلا أحد ينقذهم من جزاء انحرافهم ، لأنّ ربنا تعـالى عن الشـركاء الـذين يـدعوهم الكفـار أنـدادا له سـبحانه فلا يغنـون من عذاب الله شيئا.

(**خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ تَعـالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

[4] ومن هو هذا الإنسان الذي يخالف سـنة الكـون؟! أو لم يخلق من نطفة ، فـإذا به يتحـول الى مجـادل يلقي الحجة بعد الحجـة. ويختـار رأيه الخـاص به ، ويفند سـائر الآراء بل تراه قد يتحدى سنة الحق بلا استحياء!!.

(**خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**)

[5] والإنســان بحاجة الى الطبيعة من حوله ، يتفاعل معها ، فلا بد ان يكيّف نفسه مع الســـنن العامة الـــتي تحكمها ، فــنرى الانعــام كــالغنم والبقر والإبل خلقها الله لكي ينتفع بها البشر من عدة أبعاد.

أولا : انها تدفئ جسد الإنسان ، بأصوافها وأشعارها.

(**وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ**)

ثانيا : ان للانعــام (وهي الإبل والبقر والغنم) منــافع أخـــرى في أنها تحمل الإنســان. أو ليس الإبل ســـفينة الصحراء أو لم تكن الأبقار أفضل وسيلة للزراعة سابقا؟! فهي تحرث الأرض وهي تـروي الأسـرة بـاللبن ومشـتقاته وهي الى جانب ذلك ثروة عظيمة بسبب سرعة تناسلها.

(**وَمَنافِعُ**)

ثالثا : يأكل الإنســـان من الأنعـــام باعتبارها أفضل مصــدر للغــذاء ، وأنسب طعــام للإنســان ، ومن أخصب الحيوانات نسلا ، وأسرعها نموا ..

(**وَمِنْها تَأْكُلُونَ**)

[6] رابعا : وهي تشـــبع حاجة نفســـية للبشر ، حاجة الســيطرة على الطبيعة ، وتســخيرها لأهدافه ، والتفاعل معهـــا. إن منظر الأنعـــام حين تعـــود من مراعيها بالليل ليريحها أصحابها في مرابضـها. إن هـذا المنظر يملأ العين بهجة والقلب سرورا ، ويشـبع كـلّ أبعـاد النفس البشـرية التي تحن إلى أمها الطبيعـة. كما ان منظرها وهي تسـرح أول الشـروق ، يطلب أصـحابها لها الـرزق ، يشـبع غـرور المسؤولية عند

البشر.

(**وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**)

إن الحيوانـــــات الأليفة تشـــــبع تقريبا ذات الحاجة النفسـية الـتي يشـبعها الأولاد عند أبنـاء آدم ولكن بدرجة أدنى.

إن خـــالق الإنســـان وجاعل الغرائز في نفسه ، هو خالق الأنعام التي تشبع هذه الغرائز ، وهذا هو الحق الذي أرسى عليه الله بناء السماوات والأرض.

[7] خامسا : ويحتـــاج البشر الى مـــراكب في الـــبر كحاجته إليها في البحر ، وفي ذات الأنعـــام وبالـــذات في الإبل هذه الفائدة الكبيرة ..

(**وَتَحْمِـلُ أَثْقـالَكُمْ إِلى بَلَـدٍ لَمْ تَكُونُـوا بالِغِيـهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ**)

أي تحمل الأنعـــام أحمـــالكم الى البلاد البعيـــدة الـــتي يشق عليكم بلوغها.

(**إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ**)

وفر هـــــــذه النعم جميعا لكم لأنه ذو رأفة ورحمة ، وربما الفـــــــرق بين الرأفة والرحمة يكمن في أنّ الأول يلاحظ النفع الحـــالي ، بينما يلاحظ في الثـــاني النفع حـــالا ومستقبلا.

[8] والى جـانب الأنعـام خلق الله للإنسـان حيوانـات أخر للركـوب والزينة ، فيها ــ تقريبا ــ ذات المنـافع ولكن بدرجات متفاوتة لا يعلمها البشر ..

(**وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ**)

من أنواع المنافع المادية والمعنوية التي لا نعلم مـدى حاجتنا إليها.

[9] والله الـذي خلق كـلّ هـذه النعم فصّـل لنا كيف نسـتفيد منها ، ووضع الـبرامج الـتي تمنع الإسـراف أو الإفساد فيها ، أو الشذوذ في الاستفادة منها!!.

(**وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**)

فقد كتب على نفسه الرحمة فـبين بفضـله الطريق القاصد المسـتقيم إلى الغايـات النبيلة ، فلأنه الـذي خلق تلك الأحياء لفائدة البشر ، فهو العليم بمنهاج الانتفاع بها ، فهو الذي يـبين لنا السـبيل المسـتقيم في ذلك ، ولكنه لم يجبرنا على ذلك جبرا ، فمن الناس من يسـلكون السـبيل الجائر المائل عن الحق.

(**وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ**)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَـرابٌ وَمِنْـهُ شَــجَرٌ فِيــهِ تُسِــيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِــهِ الــزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِيـلَ وَالْأَعْنـابَ وَمِنْ كُـلِّ الثَّمَـراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَـخَّراتٌ بِـأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ (12) وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفـاً أَلْوانُـهُ إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَـذَّكَّرُونَ (13) وَهُـوَ الَّذِي سَـخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْـهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْـتَخْرِجُوا مِنْـهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُـونَها وَتَـرَى الْفُلْــكَ مَــواخِرَ فِيــهِ وَلِتَبْتَغُــوا مِنْ فَضْــلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ (14) وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِـيَ أَنْ تَمِيـدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَـدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُــقُ كَمَنْ لا يَخْلُــقُ أَفَلا تَــذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللهَ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ (18)

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

هدى من الآيات :

بعد ان ذكرنا الرب بآياته. من خلق السموات والأرض ، ثم خلق الإنسـان من نطفة ، وإعطائه النطق ثم خلق الأنعام. والخيل والبغـال والحمـير. مبتـدء بـالخلق الأعظم فالأعظم وأنعمه الأكبر فالأكبر. أقول : بعد ان ذكرنا الرب بها في الـدرس السـابق لعلنا نخلص العبـادة لله ، ونـترك الشركاء من دونه.

أخذ السياق ـ بعدئذ ـ يتدرج عـبر سـائر النعم الأقـرب منها إلينا فـالأقرب. فـذكرنا بالمنـافع الـتي جعلها في المطر. وتغير الأنـواء واختلاف الليل والنهـار. وما فيها من منافع ونتساءل من الذي انزل المطر من السـماء فـاخرج المراعي والثمرات ووفر الماء للشرب؟

إنه الله.

ومن الذي أنبت في الأرض زرعا بماء السماء ، وأنبت أشجار الزيتون والنخيل

والأعناب وألوانا من الثمرات الأخرى؟

انه الله ، ولكن المتفكــرين من النــاس هم الــذين يهتدون بهذه الآيات وسخر الليل والنهار للإنسان ، وسـخر الشمس والقمر كما سـخر النجـوم. كل تجـري في فلـك. أن هــــذه الآيــــات ينتفع بها من ينتفع بعقله ، وهيّء في الأرض للبشر ألـوان المنـافع ، فمن تـذكر اهتـدى بهـذه الآيات الى الله. خالقها ومدبرها.

وجعل الله البحر بحيث يســتفيد منه الإنســان لحما طريا ، كما أودع في قاعه أنـواع الزينة ، وهيـأه للسـفن الـتي تمخر فيه ، كل ذلك لكي يسـعى الإنسـان من أجل رزقه ثم يشكر الله عليه.

وإذا خرجت الى الـبر رأيت الجبـال الـتي تقـوم بـدور المراسي [1] تحافظ على تعـــــادل الأرض وتمنع ميلانها ، وأودع فيها مخـازن الميـاه الـتي تتفجر أنهـارا ، كما جعل فيها طرقا يســـلكها البشر ويهتـــدي فيها بعلمه ، ولعله يهتدي الى ربه بذلك العلم.

والله سـبحانه أودع في السـماء علامـات يهتـدي بها البشر ، ووراء كل آية حقيقة ، ووراء آيـات الكـون حقيقة الالوهية ، فهل الذي يخلق كمن لا يخلق ، لماذا لا نتذكر؟

كل تلك النعم ـ التي لو عديتها لما أحصيتها ــ شـاهدة على ان الله غفور رحيم بعباده.

بينات من الآيات :

[10] الله الذي قدّر الكون بحيث انزل لكم ومن أجل اسـتمرار معاشـكم مـاء من السـماء تشـربون منه ، كما ينبت لكم الله به مراع لانعامكم ، ولو لا المطر من اين

---

(1) المراسي : جمع مرسـاة بمعـنى انجر السـفينة الـذي تقف به في البحر.

تأكل الانعام؟!

(**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ**)

قال الازهري : الشجر ما ينبت من الأرض قام على ساق أو لم يقم. وهذا الرأي أقرب الى السّياق هنا ، كما هو الأقرب الى أصل معنى الشجر وهو ظهور الشيء أو اختلاطه ببعضه.

(**فِيهِ تُسِيمُونَ**)

الكلمة مأخوذة من الاسامة ، وهي الرعي يقال اسمت الإبل أي رعيتها.

وقال بعض المفسّرين : ان الآية تدل على ماء الشرب انما هو من السّماء فقط. وهو كذلك واقعا.

[11] والماء الواحد يهبط على الأرض الواحدة ، فاذا بها تنبت به ألوانا مفيدة من الثمرات.

(**يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ**)

وأكثر طعام البشرية من الحنطة والحبوب والخضروات وبالتالي من الزرع.

(**وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ**)

وهي الثمرات الأكثر نفعا للجسم البشري ، والأكثر انتشارا في مختلف الأقاليم.

(**وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ**)

يوفر الله لكل ارض ما يناسبها ، ويناسب حاجة أهلها ، ففي ثمرة كل ارض

المواد الأشد ضرورة بالنسبة الى سكان تلك الأرض.
(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)

مراحل العلم وهدف الانعام :

[12] تختم هذه الآيات بالكلمات التالية «يتفكـرون ــ يعقلــــــــــون ـــــــــ يـــــــــذّكرون ـــــــــ (**لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) ـ تهتدون ــ» فما هي العلاقة بينها؟ ولماذا جاءت متدرجة. علما بـأن التـدبر في نهايات الآيات يفهمنا معاني الآيات ولربما أعطانا علما جديــدا؟ يبــدو ان مراحل تكــون العلم عند الإنســان هي التالية :

ألف : مرحلة جمع الحوادث وربطها ببعضها والتعـرف على علاقتها الثابتة ببعضـها ، والحصـول منها ــ بالتـالي ــ على قانون عام يحكمها ، وهذا يحصل عن طريق التفكر ، لان التفكر ــ حســبما يبــدو لي ــ هو تقليب المعلومــات وخلطها واعـــــــــادة فرزها جـــــــــاء في المنجد (الفكر ج أفكــار : تــردد الخــاطر بالتأمل والتــدبر بطلب المعاني).

والآية الماضــية ربطت الحــوادث الظــاهرة (هطــول الأمطــار ، واخضـرار الأرض واختلاف الثمـرات) ببعضـها ، وجعلتها جميعا آية الخلق عن طريق التفكر ، فقــال ربنا : «**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**» لأنه بسـبب تقليب المعلومات نحصل على انها آية الله.

باء : مرحلة تخزين التجارب والاستفادة منها في فهم الحوادث الجديدة ، ويبدو ان هذه العملية تسمى بالعقل ــ حسبما تدل عليه الكلمة ـ إذ أن أصل العقل مستوحى من العقال ، وهو الّذي يحفظ الناقة ، وجاء في الحديث :

«**العقل حفظ التجارب**»

وربطت هـذه الآية بين العقل وبين التعـرف على سر تسخير الطبيعة للبشر ، لان

فهم هــذه الحقيقة أصــعب وبحاجة الى تجــارب مختزنة أكبر. يقول ربنا :

(**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ**)

فاختلاف سـنن الله في الليل من الظلام والسّـكون ، وركـون الطبيعة الى الراحــة. اختلافها عن النهـار وما فيه من الضوء والضوضاء ، والنشاط في السّعي كل ذلك جاء لمصلحة البشر ، كما سخر الله الشمس والقمر.

(**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ**)

وقد لا تكـون النّجـوم جميعا مسـخرات للبشر إلا انها تنفع البشر ، وترتبط بتســخير الشّــمس والقمر ، أيــتي النّهار والليل.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)

فعن طريق تخـزين التجـارب والاسـتفادة منها سـوف يبلغ البشر درجة من العلم تؤهله لمعرفة ســـرّ الطبيعة ، وان كل شيء فيها قد نظم لمصلحة البشر ، وان عليه ان يسـتفيد منها لحياته ، ولكن لا يـزال أمامنا مسـافة حـتى نصل الى ذروة العلم ما هي تلك المسافة؟ انها التذكر.

[13] بعد العقل يـــأتي دور التـــذكر وهو المرحلة المتقدمة في مسيرة المعرفة.

جيم : وهي مرحلة استيعاب التجـارب من أجل العمل ، فكيف نستفيد من الطبيعة المسخرة لنا؟ هل كل شــيء فيها صالح في كل وقت ولكل شخص؟ كلا .. إذ ان حقيقة الأشــياء مختلفة ، وكل شــيء نــافع لــوقت ولشــخص ، بالرغم من انها جميعا خلقت للبشر.

(**وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ**)

ما أظهـــره الله في الأرض وما انشـــأه وفطـــره من اجلكم ولمنفعتكم.

(**مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**)

[14] والله ســــخر الطبيعة للإنســــان ، ولكن على الإنسان ان يسعى هو بدوره من أجل إنجاز هـذا التسـخير في بعض الأحيان ، فليس النّعم تأتي دائما كماء السّـماء ، بل قد تحتـاج الى معالجة جـادة والى المخـاطرة كالصـيد في البحر. والسّفر عبره للتجارة.

(**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْـهُ لَحْمـاً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها**)

فالبحر مثل مخزن كبـير لأفضل أنـواع اللحـوم تحصل عليها فيه بأقل جهد وكذلك للحلى.

(**وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ**)

المخر : شق المـاء عن يمين وشـمال. ويحـدث هـذا الشّق صوتا يشـبه صـوت العاصـفة ، وهنا يـذكرنا القـرآن بمرحلة رابعة للعلم هي :

دال : مرحلة الاسـتفادة العملية من العلم ، تلك الـتي نسميها اليوم التقنية ، وربما يسميها القرآن بالاكتساب.

(**وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

أي تسعوا في البحار للحصـول على رزقكم الّـذي هو فضل الله ، وبعدها تأتي المرحلة الخامسة وهي :

هاء : مرحلة الرضا النّفسي ، ذلك الّذي يفرزه الشّكر فان إشباع حاجات الجسد

عن طريق النّعم لا تكفي ، إذا ظلت النّفس قلقة ، تحرص أبدا على شيء مفقود ، اما إذا شكر الإنسان ربه ، وعـرف ان النّعمة ليست من حقه ، بل هي من فضل الله ، وتـذكر الأيـام الـتي كـان يحتـاج إليها وكيف حصل عليها بسـعيه أو بـرزق الله ، فـان نفسه تمتلأ سـكينة وهـدوءا «**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**».

وتبقى أمامنا درجة نعـرج فيها الى ذروة الكمـال في درجـات العرفـان ، وهي درجة الهداية الـتي تـذكرها الآية التالية.

[15] كما السّـــفينة في اعـــالي البحـــار بحاجة الى مرسـاة تحفظها وسط الأمـواج المجنونة ، كـذلك الأرض التي تسبح في الفضاء تدور حول محور الشّـمس ، بحاجة الى ثقل يرســـيها ويوقف اهتزازها ، والجبـــال هي تلك المراسي.

(**وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ**)

أي وضع الله فوق الأرض جبالا عالية.

(**أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**)

أي لكي لا تتحـرك بكم فـتزعجكم إنّ الجبـال متصـلة من الـداخل ببعضـها ، لتكــون حصــنا منيعا للأرض يمنع الزلازل والهزات التي يتعـرض لها كوكبنا بسـبب الغـازات الداخليـة. كما انّ الجبـال تمنع العواصف الشّـديدة الـتي تجوب سطح الأرض باسـتمرار ، وتمتص قوتها وهي ـ في ذات الوقت ـ تعطي قـوة اضـافية للأرض لمقاومة جاذبية القمر ، وفجر خلال الجبـال عيونـا. بسـبب مخـازن الميـاه العظيمة في بطن الجبال.

(**وَأَنْهاراً**)

ولقد كـان من الممكن ان تمنع الجبـال اتصـال البشر ببعضـــهم ، بيد أنّ الله هيأ بينهما ســبلا وهــذه من أعظم النّعم الإلهية حيث انك لا تجد سلســـــلة جبـــــال متراصة كالجدار يفصل بين الأراضي.

(**وَسُبُلاً**)

كيف يهتدي الإنسـان الى مآربه في الأرض عــبر هـذه السّــبل؟ هكــذا ينبغي ان يهتــدي الى الحقــائق من وراء الآيات ، إذ الآيات هي السّبل المؤدية الى الحقائق.

(**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**)

[16] يهتـــدي البشر عن طريق معـــالم السّـــبل الى غاياته في الـــدنيا ، وهكـــذا ينبغي ان يهتـــدي عن طريق الآيات في الأرض وفي السّموات الى حكمة الله وقدرته.

(**وَعَلاماتٍ**)

كتلك التي يضعها على السّبل.

(**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**)

وإذا كان البشر يهتدي بالنجم الى سـبيله في الأرض ، والعلاقة خفية بين النّجــوم في السّـــماء وســبل الأرض ، فكيف لا يهتـدي الى الله عــبر آياتــه؟! وآيـات الله أوضح شــــهادة. وأصــــرح دلالة ومن آياته في الأرض النّـــبيّون والأوصياء عليهم السّلام يهتدي بنورهم المؤمنون.

أفلا تذكرون :

[17] كيف لا يميّز بين الخـــالق والمخلـــوق ، بين اله السّماء والأرض ، وبين

الأرباب المخلوقين العاجزين؟!

(**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**)

[18] وأنّى ألقينا بنظرنا ، وجدنا آية عظيمة من آيـات الله تـــــدلّنا على أحديّته ، وأنّى تقلبنا فانما تحيط بنا نعم الله التي لا تحصى ، فلما ذا الجهل؟ ولماذا الكفر؟!

(**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللـهَ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ**)

ان كل ســـــنة الهية نعمة ، وكل موهبة نعمة ، وكل قـــدرة نعمة ، وكل عضو بل كل جـــزء من عضو ، بل كل خلية نعمة ، ان خلايا المخ تعد بـالبلايين وفقـدان كل خلية يسبب نقصا.

وربنا الغفـــور ذو الرحمة ، فلو لا غفرانه ، إذا لسـلبنا بعض النّعم بســـبب غفلتنا عنها وعن شـــكرها ، كما انه برحمته ، يفيض علينا من نعمه التي لا تحصى.

وَاللــهُ يَعْلَمُ ما تُسِــرُّونَ وَما تُعْلِنُــونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْواتٌ غَيْـرُ أَحْيـاءٍ وَما يَشْـعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُـونَ (21) إِلهُكُمْ إِلــهٌ واحِــدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُــونَ بِــالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـتَكْبِرِينَ (23) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْـزَلَ رَبُّكُمْ قـالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُـوا أَوْزارَهُمْ كامِلَـةً يَـوْمَ الْقِيامَـةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِــلُّونَهُمْ بِغَيْــرِ عِلْمٍ أَلا ســاءَ ما يَـزِرُونَ (25) قَـدْ مَكَـرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَـأَتَى اللـهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26)

---

21 [أيان] : في اي وقت.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُـولُ أَيْنَ شُـرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَـــاقُّونَ فِيهِمْ قـــالَ الَّذِينَ أُوتُـــوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِـزْيَ الْيَـوْمَ وَالسُّـوءَ عَلَى الْكـافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّـلَمَ ما كُنَّا نَعْمَــلُ مِنْ سُــوءٍ بَلى إِنَّ اللـــهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (28) فَـادْخُلُوا أَبْـوابَ جَهَنَّمَ خالِـدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

---

27 [تشاقون] : تخاصمون وتنازعون.
28 [السلم] : الاستسلام والخضوع.

التكبر أسبابه وجزاؤه

هدى من الآيات :

من الّذي تحق عبادتـه؟ الّـذي خلق وأنعم وغفر ورحم أم الّذي لا يخلق ذبابا؟ حول هذا كان الدرس السّابق.

ونكرر من الّـذي تحق عبادتـه؟ الله الّـذي يعلم السّـر وأخفى ، أم الذين يدعوهم المشركون ، من الأصنام الـتي لا تخلق شيئا وهم يخلقون؟ وليس فقط لا يعلمون السّر ، بل ولا يملكون الحياة ، ولا شعور عندهم حتى يبعثون يـوم القيامة؟!

والله إله الخلق أجمعين ، واحد لا شـــــريك له ، أما المشـركون فهم لا يؤمنـون بـالآخرة والسّـبب ان قلـوبهم جاحـدة للحق لصـعوبته عليها ، ولأنهم يفتشـون عن العلو فهم مستكبرون.

حقا يعلم لله ســــــرهم واعلانهم ، والله لا يحب المسـتكبرين الـذين يبتغـون علـوا في الأرض ، فيخـالفون الحق بوعي وإصرار ، لذلك يستصـغرون الحق الّـذي هبط عليهم من الله ، ويقولون انه أساطير الأولين.

وهؤلاء يحملون أثقال ذنوبهم من دون ان تنقص عنهم بـالتبرير ، ويحملـون أيضا شـيئا من ذنـوب النّـاس الـذين يضلونهم ولبئس ما يحملون.

وأنّ المستكبرين يمكـرون في آيـات الله ، ويحـاولون منع النّاس عنها بشتى الحيل ، كما فعل الذين من قبلهم ، ولكن الله ينسف بناءهم من الأساس فاذا بالسقف ينهـدم عليهم ويهجم عليهم العذاب من حيث لم يحتسبوا.

أما في يـوم القيامة فـان الله يـذلهم بـان يقـول لهم شماتة : اين الذين كنتم تعبـدونهم من دون الله وتشـقون عصى الوحـــدة من أجلهم؟! فيســـكتون. أما أهل العلم فإنهم يقرّون للمشركين الخزي والسّوء لكفرهم.

ومن هم الكافرون؟

أنهم الذين يظلمون أنفسـهم ، وعند المـوت يتـبرءون من أفعـالهم وينكرونها ، ويـدعون انهم لم يكونـوا يعملـوا شـيئا من السّـوء ، بيد ان الله يخـبرهم بعلمه بأعمـالهم فيدخل كل منهم في النّـار ، من بـاب الـذنب الّـذي ارتكبه ويبقى خالدا فيها ، وتلحقه اللعنة بسبب تكبره في الأرض.

بينات من الآيات :

من نعبد؟

[19] علم البشر محـــدود ويتكامل عـــبر مراحل ، ويختص بظواهر الأمور ، والله محيط علما بالسّر والعلن ، وبالسرّ قبل العلن ، لأن كل شـيء يقع في السـرّ قبل ان يعلن عن ظهوره.

(**وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ**)

[20] ومن يعلم السّـر والعلن أحق بالـدعوة ، ممن لا يخلق ولا يعلم!!

(**وَالَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ لا يَخْلُقُـونَ شَـيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ**)

والسّؤال من هم هؤلاء؟

قـــالوا : هي الأصـــنام ، ويبـــدو لي أنهم الطغـــاة والمســتكبرون الــذين ترمز إليهم الأصــنام ، ووفق هــذه النّظرة نجري في تفسير الآيات التالية.

[21] إن أول صفات الآلهة المزيفة هي انها أمــوات ، لا علم لهم ولا قــدرة الا بقــدر ما يهب الله لهم من علمه وقدرته.

(**أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ**)

وربما جـاء التأكيد على انهم غـير احيـاء ، لان المـراد بالأموات ليس حقيقة الموت ، فوجب التأكيد.

(**وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**)

أي انهم ينتظــرون الجــزاء لكفــرهم من دون معرفة يومه ، فهم مسئولون أمام الله.

قــال الطبرسي (ره) وهو يفسّــر الآيــات : الأصــنام أموات غـير احيـاء ، وأكـثر كونها أمواتا بقوله غـير احيـاء ، لنفي الحياة عنها على الإطلاق ، وما يشعرون أيان يبعثون معناه : وما تشعر هذه الأصنام مـتى تبعث للجـزاء ، وقيل في الآية هم أمــوات يعــني الكفــار في حكم الأمــوات ، لذهابهم عن الحق والدين ولا يدرون متى يبعثون! [1]

وإذا فسرنا الآيات بالأرباب الــذين هم بشر ، لا نحتـاج الى هذه التفسيرات والوجوه البعيدة عن ظواهر الآيات.

(1) عن كتاب نور الثقلين ج 3 ص 48.

[22] أما الإله الحق الّذي ينبغي ان تخلص العبـادة له فهو اللـه. وليس عـدم ايمـان البعض به الا بسـبب نقص فيهم ، حيث ان قلـوبهم منكـرة تستبعد ما يـرد عليها من الحق.

(**إِلهُكُمْ إِلـهٌ واحِـدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ**)

وسبب جحودهم هو طلب العلو والاستكبار.

(**وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**)

[23] ولكنهم يخفون السّبب الحقيقي لجحـودهم وهو الاسـتكبار ، وتكـريس عبـادة الـذات ، بينما الله يعلم اسرارهم واعلانهم ، ويكره حالتهم هذه.

(**لا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُـونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**)

كلمة لا جـرم مـأخوذة من الكسب (حسـبما جـاء في المجمع عن أبي مسـلم) يعـني لا يحتـاج معرفة هـذا الأمر الى اكتسـاب علم ، لأننا نفهمه بلا تكلف وبوضـوح. وقـال البعض إن (الجـرم) بمعـنى قطع التمر من الشّـجر وإذا أضـيف إليه (لا) فانه يعـني ليس هنـاك شـيء يقطع هـذا الأمر أو يخالفه.

[24] ولكي يغلفـوا اسـتكبارهم بتـبرير مقبـول عند النّـاس ، تجـدهم يحسـبون أنفسـهم تقـدميين ، وينسـبون الأفكار الصحيحة الى العصور الماضية ، وكأن الزمن يعتّق الحق ويجعله باليا.

(**وَإِذا قِيـلَ لَهُمْ ما ذا أَنْـزَلَ رَبُّكُمْ قـالُوا أَسـاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)

والأسـاطير جمع أسـطورة ـ في مثل وزن أحدوثة ـ وهي ما كتب وربما توحي اللفظة بما كتب باطلا.

جزاء الاستكبار :

[25] إن المستكبر يرى في الحق عدوه الخطير ، لأنه يريد ان يستغل النّاس ويبسط عليهم جناح طغيانه ، وإذا كان النّاس عارفين بالحق فلن يسمحوا له بذلك ، لـــذلك يبث الدعاية تلو الدعاية ضد الحق ، ولكن ما هي العاقبة؟

ان عاقبته تحمّل أوزار الـــذين يضـــلهم بدعاياته ، بالإضافة الى أوزاره.

(**لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ**)

والأوزار هي أثقال الذنوب ، باعتبار ان الذنب لا ينتهي بل سوف يبقى كثقل يتحمله صاحبه يوم القيامة ، وقد يشترك اثنان في تحمل وزر ذنب دون ان يخفف أحدهما عن الآخر ، وقد جاء في الحديث النّبوي الشّريف :

«**من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها دون ان ينقص من اجره شيء ، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها**»

والآية توحي بان فرض السّيطرة على أحد ، إذا لم تكن في طريق يعلم الفرد سلامته ، يعتبر جريمة كبيرة.

[26] ولا يكتفي المستكبرون بالدعاية ، بل يتآمرون ضد الحق وجبهته بشتى أنواع المكر والخدع ، ومكرهم يشبه مكر الذين كانوا من قبلهم ، وكيف ان الله نسف أساسهم حتى وقع عليهم السّقف.

(**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ**)

هبط السّقف بسـبب تزلـزل القواعد الـتي قـام عليها وهم تحته.

(**وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ**)

فهم كانوا يزينون السّقف ، ويحاولون المحافظة عليه ، فاذا السّقف ينهدم بسبب نسف قواعده.

ان آيات سورة العنكبوت قد تكون أفضل تفسير لهذه الآية ، حيث ان الكفـار الـذين اعتمـدوا على المـاء ، وبنـوا بنـاءهم على قواعد الحضـارة غرقـوا في البحر فتلاشـوا كقوم فرعون ، وكذلك الذين ركنوا الى مناعة بيوتهم كعاد دمّروا بالريح وبالصـخور الـتي بنـوا بنـاءهم بها وهكـذا كل قـوم اعتمـدوا من دون الله على قواعد مادية أتى عليها الله ، ودمرهم بها وهم لا يشعرون ان خطأهم الأكبر كـان اعتمادهم على هذه القوة الزائلة.

[27] ثم عذابهم في الـدنيا لا العـذاب في الآخـرة بل ان استكبارهم سوف يجر إليهم العار والخزي.

(**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَـةِ يُخْـزِيهِمْ وَيَقُـولُ أَيْنَ شُـرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ**)

أي تشـقون عصى الوحـدة من أجلهم ، أو بتعبـير آخر كنتم تتعبـون أنفسـكم دفاعا عنهم ، تناضـلون جبهة الحق من أجلهم ، وكان الحري بكم ان تحاربوهم.

(**قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّـوءَ عَلَى الْكافِرِينَ**)

فلهم عـذاب نفسي هو العـار ، وعـذاب جسـدي يسوؤهم ، وهذه الآية توحي بقيمة العلم وفائدته. حيث انّ أعظم سبب لاستكبار المستكبرين واستغلالهم للنـاس هو انعدام العلم عند النّاس.

[28] وهل الكافرون هم الـذين يجحـدون بألسـنتهم ، أو ان كل مســتكبر عن الحق وظــالم لنفسه يواجه ذات العذاب؟

(**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ**)

أي في الوقت الّذي كانوا يظلمـون أنفسـهم ، أما من تاب قبلئذ فحسابه يختلف.

(**فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ**)

بــالرغم من انهم قبل ذلك كــانوا يســتكبرون ، ويحسبون أنفسهم فوق الحق ، وفوق المسـؤولية ، فـوق القانون ويستضعفون النّاس.

(**بَلى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

إن الاستكبار يبدأ من ظلم النّـاس واستصـغارهم وقد يرتكبه واحد من ادنى النّاس تجـاه من هو ادنى منـه. جـاء في نص شـريف مـأثور عن الأمـام أمـير المؤمـنين (عليه السّلام):

«**ومن ذهب يـــرى ان له على الآخر فضلا فهو من المستكبرين**».

فقلت : انما يـــرى ان له عليه فضلا بالعافية إذا رآه مرتكبا للمعاصـي؟ فقـال «**هيهـات هيهـات فلعله أن يكون قد غفر له ما أتى ، وأنت موقـوف تحاسب أما تلوت قصة سحرة موسى**» [1].

[29] آنئذ يساقون الى أبـواب جهنم ، كل جـزء منهم يدخلها من البـاب الّـذي اختـاره في الـدنيا لنفسه ، فمنهم من اختار باب الطغيان على العباد ، ومنهم من اختار بـاب طاعة الطغـاة ، ومنهم من يـدخل من بـاب الفسـاد في الأرض وهكذا.

---

(1) الجزء 6 الصفحة 355 (الكلام منقول بتصرف واختصار).

(**فَــادْخُلُوا أَبْــوابَ جَهَنَّمَ خالِــدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**)

الــذين اســتكبروا عن الحق ، واســتكبروا في الأرض وكانت قلوبهم منكرة.

وآيــات هــذا الــدرس إذا ما قســناها بآيــات الــدرس السّابق التي كـانت حـول العلم رأيناها تعـالج حالة التكـبر عن الحق التي هي أخطر أعداء العلم ، وتتدرج من الإنكار الى الاسـتكبار الى التكـبر. كما ان الآيـات السّـابقة كـانت تتــدرج من التفكر الى التعقل الى التــذكرة الى الشّــكر فالهداية.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا فِي هـذِهِ الـدُّنْيا حَسَـنَةٌ وَلَـدارُ الْآخِـرَةِ خَيْـرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ لَهُمْ فِيها ما يَشـاؤُنَ كَـذلِكَ يَجْـزِي اللـــهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَــةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (32) هَـلْ يَنْظُـرُونَ إِلاَّ أَنْ تَـأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَـةُ أَوْ يَـأْتِيَ أَمْـرُ رَبِّكَ كَـذلِكَ فَعَـلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ كـانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ (33) فَأَصـابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِـهِ يَسْـتَهْزِؤُنَ (34) وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَـوْ شـاءَ اللـهُ ما عَبَـدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ

---

34 [حاق بهم] : حل بهم وأحاط.

شَـيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِـهِ مِنْ شَـيْءٍ كَـذلِكَ فَعَـلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَـلْ عَلَى الرُّسُـلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْـهِ الضَّـلالَةُ فَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ تَحْـرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (37)

والعاقبة للمتقين

هدى من الآيات :

في الـدرس السّـابق بيّن السّـياق موقف الكفـار من الرسالة وأما المتقين فان موقفهم هو انها خير ، حيث تهيأ منهاج الإحسان الّذي يؤدي الى الحسنات في الدنيا ، وفي الآخرة جزائهم الأوفى حيث يستقر المتقون فيها بسلام.

هنا لك حيث الجنان الخالدة الـتي يـدخلونها ، يجـدون فيها الأنهار تجري من تحتها ، وتتحقق أمانيهم وذلك جــزاء المتقين الذين تنتهي حياتهم بخـير ، يسـلم عليهم الملائكة الــتي تتوفــاهم ، ويبشـــرونهم بـــدخول الجنة بأعمـــالهم الصالحة.

ولا يهتــدي الكفــار بعقــولهم ، بل ينتظــرون هبــوط الملائكة لينظـروا إليها بـأعينهم ، أو نـزول العـذاب الّـذي ينذرون به ، ولكن الدنيا دار ابتلاء ، فـاذا ظهـرت الحقـائق فان العذاب لا يرد عنهم ، ولا تقبل توبتهم ، بـأنهم ظلمـوا أنفســـهم ولم يظلمهم الله ، هنا لك يجـــدون ســـيئات أعمالهم ، ويأخذهم ذلك العذاب الّذي استهزءوا به.

ومن الكفـار من يـبرر انحرافه الفكـري والسّـلوكي بالفكرة الجبرية ، ويقـول : لو شـاء الله لمنعنا عن عبـادة الشّركاء ، أو اتباع القانون الباطل ، وهذا تبرير قـديم ، ولا يسع الرسل ســــــوى البلاغ الواضح ، وبعدئذ تبقى لهم حـريتهم واختيـارهم ، وابتلاء الله لهم ، والله لم يـأمرهم بعبـادة الطـاغوت ، بل بعث الأنبيـاء لخلاص النّـاس من الطـاغوت ، فمنهم من اسـتجاب لـدعوة الرسل فهـدي ، ومنهم من لم يسـتجب فاضـلّه الله ، والمكـذبون بالرسل أخـذوا بأشد العـذاب باعتبـارهم أحـرارا في تصـرفهم وتكذيبهم ، فانظروا في آثار السّابقين.

والله لا يكره أحدا على الهدى ، بل لا يهدي من يختار الضلالة ، ولا ينصره ولن ينصره أحد.

بينات من الآيات :

جزاء المتقين :

[30] تلك كانت نظرة المستكبرين الى الرسالة ، أما المؤمنـون الـذين اتقـوا فلم تحجب الـذنوب عقـولهم عن فهم الحقائق فإذا سئلوا عن الرسالة قالوا أنها خير.

(**وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً**)

ولا يـذوق حلاوة الايمـان غـير المتقين وابـرز سـمات المتقين هو الإحســان الّــذي يثمر حســنات في الــدنيا والآخرة.

(**لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا فِي هـذِهِ الـدُّنْيا حَسَـنَةٌ وَلَـدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ**)

[31] أما دار المتقين فهي متمثلة في جنات خالدة.

(**جَنَّاتُ عَـدْنٍ يَـدْخُلُونَها تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ**)

وهذا الإطلاق يدل على ان أهل الجنة تتحقق أمـانيهم هناك ، فهم راضون عن وضـعهم بالكامل ، وهـذا الرضا لا يتحقق أبدا في الدنيا ، حتى قـال قـائلهم : ما كلما يتمـنى المرء يدركه! وهذا فارق كبير بين أهل الجنة وأهل النّار.

(**كَذلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ**)

أما غيرهم من المؤمنين فانّهم يظلـون في نـار جهنم حتى تذهب آثـار الـذنوب الـتي ارتكبوها ، وبعدئذ يـدخلون الجنة.

[32] والمتقي يبقى في خطر عظيم حـــــــتى يأتيه اليقين وهو الموت ، إذ يخشى ان تزل قدمه قبل ان يصل الى نهايته فـاذا اسـتمر على الهـدى حـتى المـوت فهو الطيب.

(**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ طَيِّبِينَ يَقُولُـونَ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

وبـالرغم من أن هنـاك مسـافة زمنية واسـعة بين الموت ودخول جنات الخلد ، الا ان الملائكة تبشر المتقين عند موتهم بأنهم داخلوها حتما ، مضافا الى أنهم يعيشـون خلال الفترة في جنان ورياض مماثلة بجنـات الخلد ، (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**).

[33] أما غـير المتقين ، فـان أكـبر خطأ لهم انهم ينتظـرون احاطة الخطر بهم حـتى يعـترفوا به ، وانئذ لا ينفعهم ايمانهم ، ذلك أن الدنيا دار اختبار وانما يختبر مدى ايمان الفرد وتقواه ، وقوة إرادته وعقله إذا انـذر بـالخطر وأبلغ بالحقائق قبل ان يراها ، أما بعدئذ فكل النّاس سواء ، وكل شـخص يهـرب من الخطر الّـذي يبصـره ، ولكن العقلاء

وحـدهم يتجنبـون الخطر في الـوقت المناسب ، وعند ما تأتيهم نذره. وتظهر لهم ارهاصاته.

(**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**)

أي هل ينتظـرون الملائكة حـتى يؤمنـوا ، وإذا نـزلت الملائكة انعدم الابتلاء.

(**أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**)

من العذاب ، فآنئذ يؤمنون ، وماذا ينفعهم ايمـانهم إذا رأوا العذاب؟

(**كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

فدمرهم الله شر تدمير.

(**وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

ان مثل هؤلاء كمثل رجل يبصر بعينه بـئرا فلا يعـترف بها حتى يقع فيها وتتهشم عظامه ، فيقـول الآن آمنت انها كـانت بـئرا! فلما ذا إذا زودت بعين ، أو ليس لكي تـرى أمامك الطريق؟! وتتجنّب البئر قبل الوقوع فيه.

لماذا زوّد الإنسان بالعقـل؟ أو ليس لكي يبصر الغيب ، أما الشـهود فيحس به حـتى الحيـوان! ولمـاذا زود بالإرادة؟ أو ليس لكي يتحدى الشـهوات ، أما الاسترسـال معها فانه ليس بشيء! هكـذا الخطر مـتى يقـدر الإنسـان على معالجته؟! عند ما ينتبه له بسـبب علاماته المبكـرة ، أما إذا أحدق به فكيف الفرار؟!

[34] هكذا قامت الـدنيا على أسـاس الانتفـاع بالعقل والارادة ، والكفار لم يستفيدوا منهما.

(**فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحـاقَ بِهِمْ ما كـانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

أي حــلّ بهم الفكر الّــذي اســتهزءوا به ، فقد انتقم منهم الفكر الحق الّــذي ســخروا منه ، كما ان أفعــالهم السيئة ، تحولت الى مشاكل وصعوبات دمرت حياتهم.

[35] إذا فأن انتظـار تحـول الحق المبلّغ به الى واقع مشهود خطأ كبير ارتكبه الهـالكون من قبلنا ، وعلينا تجنبه ، وخطأ آخر هو القدرية ، والاعتقـــاد بـــان الله لم يتركنا أحرارا في تصرفاتنا ، الا لأنه فوّض إلينا شؤون الحياة فيه نفعل كما نشاء ، ولو كان يريد غير ذلك لأجبرنا على تـرك عبادة الطغاة.

(**وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شـاءَ اللـهُ ما عَبَـدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ**)

فلا عبـدنا المـال المتمثل في الرأسـمالية ، ولا عبـدنا القوة المتمثلة في الطـاغوت ، ولا عبـدنا الـتراث المتمثل في الاباء.

(**نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ**)

فقلنا هـذا حلال وهـذا حـرام حسب اهوائنا ، كما فعل الجـاهليون ، حينما حرّمـوا البحـيرة والسـائبة ، وكما يضع الجاهليون اليوم قوانين تكبل طاقات النـاس. وبتعبـير آخر لم نخضع لســـيادة الســـلطة الفاســـدة ، ولم نطبق التشريعات البشرية.

(**كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**)

عبدوا الطاغوت ، وشرّعوا لأنفسهم ، وادّعــوا ان الله فوّض إليهم ذلك الأمر ، ولكن لماذا بعث الله الرسل؟

(**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**)

فلا الله فــــوّض أمر الحيــــاة الى البشر ، لأنه بعث الرسل ، ولا أنه يريد ان يكـره النـاس على الهداية ، فـاذا لم يكــرهم فهو راض عنهم ، لأن مهمة الرسل تنتهي عند البلاغ ، لتبدأ مسئولية الإنسان نفسه.

الكلمة البالغة :

[36] وهكـذا بعث الله الرسل بكلمة بالغة الوضـوح : عبادة الله ورفض الطاغوت.

(**وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولاً أَنِ اعْبُـدُوا اللـهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**)

الطـــاغوت يفـــرض نفسه على النــــاس ولا يكفي السـكوت عنه ، بل انه رجس يجب الاجتنــاب عنه ، يجب التحصن منه ، يجب الحـذر ، يجب التمـرد والثـورة عليه ، إذا لم يفــوّض الله أمر العبــاد إليهم ليختــاروا لأنفســهم حكـومتهم ، أو ليسـكتوا ان شـاؤوا عمن يريد اسـتغلالهم وتضــليلهم ، كلا .. بل أتم حجته عليهم بــان بعث في كل أمة رسـولا يـأتمون به ، ويتفـاعلون مع بعضـهم ، حـتى لا يبقى أحد منهم يقول لم أكن أعلم.

ولكنه لم يشأ ان يكرهم على قبول الهداية.

(**فَمِنْهُمْ مَنْ هَـدَى اللـهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْــهِ الضَّلالَةُ**)

الّـذي يهتــدي فالله يهديه ولكن بعد ان يختــار ذلك ، والّـذي يضل فالله يضـله ولكن بعد ان يختـار ذلك ، لـذل قال ربنا : «**حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّـلالَةُ**» أي وجبت ضـلالته بعد أن أختار ذلك ، وكلّ يتحمل مسئوليته.

(**فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِينَ**)

فلو ان الله يرضى لعبــــاده الكفر ، إذا لم يعـــــذب الكافرين؟!

[37] ومرة أخرى يؤكد ربنا ان الهدى ليس جــبرا من الله ، ولـــذلك فلا ينتظر أحد ان يـــأتي نـــبيّ يكرهه على الهداية ، ولا يقـولنّ إذا لم يـأت من يجـبره فما تقصـيري. كلا .. أنت مسئول ، والرسول ليس مسئولا عنك.

(**إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُـداهُمْ فَـإِنَّ اللـهَ لا يَهْـدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ**)

فلا يسلّوا أنفسهم بهذه التبريرات ، ولا ينتظـروا أحـدا لينصــرهم ، كلا لا أحد ينصــرهم ، الله وحــده هو الناصر ، وأنت إذا اهتديت اليه حصلت على سعادتك المنشودة.

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللـهُ مَنْ يَمُـوتُ بَلى وَعْـداً عَلَيْـهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُـــونَ فِيـــهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (39) إِنَّما قَوْلُنا لِشَـيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُـونُ (40) وَالَّذِينَ هـاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْـرُ الْآخِـرَةِ أَكْبَـرُ لَـوْ كـانُوا يَعْلَمُـونَ (41) الَّذِينَ صَـبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ (42) وَما أَرْسَـلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْـئَلُوا أَهْـلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُـونَ (43) بِالْبَيِّنـاتِ وَالزُّبُـرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْـكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)

آثار الإيمان بالآخرة

هدى من الآيات :

ولكي يتهرب الكفار من صعوبة العلم بالآخرة ، حلفوا بالله الايمـــان المغلظة ان الله لا يبعث من يمـــوت! فأكد الله لهم انه قد وعد أن يبعثهم فلن يخلف الله وعـــــده ، وأكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة.

والهـــدف من البعثة تبيـــان الحق في اختلافـــاتهم ، وإثبات كذب الكفار لهم ، وليست هناك صعوبة في البعث (**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**).

وفي المقابل نجد الّـذين يتحملـون مسـئولية ايمـانهم بالحق ، فإذا هم يهاجرون عن أرضهم حين لا يجدون حربة العمل بالحق ، فيعـدهم الله حسـنة في الـدنيا وأكـبر منها في الآخرة ، حيث أخفيت عنهم نعمها التي لا توصف ، لأن هـــؤلاء يصـــبرون على الأذى ، ويتوكلـــون على الله في مقاومة الكفار.

وبعضهم يناقش في صـدق الرسـول لأنه بشر كسـائر الناس ، علما بان الله قد

بعث من قبله رجالا لا يميزهم عن غيرهم سـوى الـوحي ، ألا فسـألوا أهل العلم الّـذين ذكـروا بالبينـات والزبـر. والقـرآن ذكر أنـزل على محمد (ص) بهـدف توضـيح الرسالة الـتي نـزلت عليهم تـدريجيا ، والغاية الأسـمى لها اثارة عقولهم ، وتحريضهم على التفكير.

بينات من الآيات :

العلم دليل الحقيقة :

[38] السياق القرآني يتبع عادة أكـثر من خط فكـري واحد خلال درس أو سورة ، لأنه كتاب الله الّذي لا يشغله شأن عن شأن ، وإذا تدبرنا في نهايات آيـات هـذا الـدرس الكـريم تـبين لنا أن السـياق يحـدثنا أيضا عن العلم ، بالإضافة الى حديثه عن الإيمان بالبعث ، وعن الهجرة في الله ، وعن الرسـالة ، بل يكـاد العلم يكـون الخط الرابط بين موضـوعات الآيـات هـذه ، ذلك ان العلم مسـئولية خطيرة لأنه قرين العمل ، ويهتف به فإن وجده وإلّا ارتحل ، ولو لا العمل بالعلم فإن القرآن لا يسميه علما ، ذلك ان العلم ـ في الإسلام ــ ليس مجـرد تـراكم المعلومـات في الحافظة البشرية كما تراكمها مثلا في الكمـبيوتر ، بل هو انكشـاف المعلومـات بوضـوح أمـام العقل النـير. وعند ما تنكشف الحقائق فإن العمل وفقها نتيجة فطرية لها.

ولكن هل العمل بـالعلم سـهل؟ كلا .. أو لم يقل الحديث الشريف :

«حديثنا صعب مستصعب»

فـإن أمـام العمل عقبـات نفسـية وواقعية لا بـدّ من تجاوزها والتغلب عليها.

ولكي يتهـرب البعض من مسـئولية العلم يجهلـون ، ويحلفون الإيمان المغلظة على جهلهم.

ومن جهة أخرى فإن العلم بالآخرة يبدو كحجر الزاوية في العلم ، لأن فهم الـدنيا وما فيها من مسـئوليات وقيم وحقائق لا يمكن دون الاعتراف بـالآخرة ، وإلّا فكل شـيء في الدنيا يبدو لغزا وسرا كبيرا.

ومن هنا كان إنكار الآخـرة بمثابة جهل مطبق بالحيـاة الـــدنيا ، هـــذه الـــتي قد تنتهي في أية لحظة ومن حكمة معروفة.

ومن جهة ثالثة : العلم بـــالآخرة ، يجعلنا نـــؤمن بـــان هنـــاك حقا ثابتا في هـــذا العـــالم ، واننا ســـوف نعرفه ونحاسب على أساسه في يـــوم ما لـــذلك لا بد أن نبحث عنه وأن نجعله هو المحور لتفكرنا وعملنا.

وفقـدان محورية الحق يشـبه سـقوط قاعـدة البنـاء ، كـلّ شـيء فيه ينهـدم ، فـإذا لم يكن هنـاك حق وباطل واقعيان ، وإذا لم يكن هناك حسن وقبح عقليـان ـ حسب تعبـير الفلاسـفة ـ فلما ذا ترانا نبحث في العلم؟ وما هو المقيـــاس في الصـــراعات؟ هل المقيـــاس هو الأنا ، أم الأقوى ، أم ماذا؟

ويبدو ان الآيتين توضحان هذه الحقيقة :

(**وَأَقْسَمُوا بِاللـهِ جَهْـدَ أَيْمـانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللـهُ مَنْ يَمُوتُ**)

القسم فيما لا يعلم الفـــرد دليل على تأكيـــده على جهله وفـــراره من العلم بـــالحق ، وإلّا فلما ذا التأكيد على القسم على ان الله لا يبعث الموتى؟

(**بَلى وَعْـــداً عَلَيْـــهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَـــرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**)

إن وعد الله حق ، وقد وعد أن يبعث من يمـــــوت ، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك.

يقـــول العلامة الطباطبـــائي : (أيّ لا يعلمـــون انه من الوعد الّذي لا يخلف ،

والقضاء الّذي لا يتغير لاعراضهم عن الآيـات الدّالة عليه ، الكاشـــفة عن وعـــده وهي خلق الســـماوات والأرض ، والعدل والإحسان ، والتكليف النازل في الشرائع الإلهية).[1]

وقال البعض : أن المعنى لا يعلمـون وجه الحكمة في البعث فلا يؤمنون به.[2]

ويبدو أن القرآن ، ينفي علم أكثر الناس كعلم ، كي لا تتخذ الأكثرية مقياسا ، بل يكون المقيـاس هو الحق الّـذي يتــبين في الآخــرة ، وتنتهي الآية الى بيـــان حقيقة العلم ومقاييسه ، والله العالم.

لماذا البعث؟

[39] من أهـداف النشـور بعد المـوت تبيـان الحق ، وكشف زيف الكفــار ، وهكـــذا يكـــون من حكم الزمـــان بالآخرة ، الإيمـان بوجـود مقيـاس ثـابت للحق ، يرجع إليه الناس ، فيحكم بينهم فيما اختلفوا.

(**لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُــونَ فِيـــهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ**)

فلا يستطيع أحد من أن يبـدل الحق بالباطل ، ويخـدع نفسه ان الباطل قد أصـــبح حقا ، لأنّ رأي الأكثرية ـــــ حســبما يــزعم أغلب النــاس ـــ هو مقيــاس فهم الحق والباطل ، كلا .. ان وراءنا يوما يميز فيه الحق عن الباطل بوضوح كاف.

[40] ويزعم الكفار أن البعث مستحيل ، ولا يعلمــون ان الله لو أراد شيئا ، قال له : كن فيكون.

---

(1) الميزان ـ ج 12 ـ ص 247.
(2) مجمع البيان ـ ج 5 ـ ص 360.

(**إِنَّما قَوْلُنا لِشَـيْءٍ إِذا أَرَدْنـاهُ أَنْ نَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ**)

وتكــرار كلمة (القــول) ربما جــاء لبيــان ان الإرادة ليست نعمة في القلب ، أو ترويا في النفس ، كما هي لنا نحن البشر ، انما هو كـالقول (فعـل) يبدعه الله إبــداعا ، وقد جـاء في الحـديث الشـريف عن أبي الحسن ـــ عليه السلام ـ حينما سأله أحد أصحابه عن الإرادة : من الله أم من الخلق؟ قال (ع):

«**الإرادة من الخلق الضـمير ، وما يبــدو لهم بعد ذلك من الفعل ، وأما من الله تعـالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك ، لأنه لا يتروى ولا يهمّ ولا يتفكر ، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق ، فإرادة الله الفعل لا غـير ذلك يقـول له : كن فيكـون بلا لفظ ، ولا نطق بلســـــان ، ولا همة ، ولا تفكر ، ولا كيف لذلك ، كما انه لا كيف له**» [1]

واجب الهجرة :

[41] وكثير من الناس يتركون ما يعلمون ، ويعلمــون بالجهل خشــية المجتمع الفاسد والطــاغوت ، بينما ينبغي أن يتمردوا عليهما فإذا ظلموا ، ولم يجدوا حيلة ، هــاجروا من تلك الأرض ، وأرض الله واسعة ، دعهم يهــاجروا لكي يعودوا أقوى الى بلادهم.

(**وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ**)

أيّ في سبيل الله ، ومن أجل العمل بأوامر الله.

(**مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً**)

فسوف يهيء الله لهم : أرضا رحبة ، وحيـاة حسـنة ، وحرية وأمنا.

---

(1) الميزان ـ ج 12 ـ ص 259.

(**وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**)

وعليهم ألا يبحثوا فقط عن أجر الـدنيا ، وفائـدة العلم انه ينقلنا الى رحاب الآخرة وما فيها من أجر كبير.

[42] كـلّ ذلك بشـرط أن يتحملـوا الأذى في سـبيل الله ، وألا يستسـلموا لضـغوط الطـاغوت ، ولا ينسـوا قضيتهم الرسالية.

(**الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**)

سبيل المعرفة :

[43] إنهم يجادلون في رسـالة محمد (ص) لأنه رجل مثلهم ، وهل بعث الله إلّا رجـالا أهم ما يمـيزهم عن غيرهم الوحي؟!

(**وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ**)

وعلى الإنسان أن يبحث عن الحقيقة بنفسه ، فإذا لم يجـدها يبحث عمن وجـدها من الّـذين صـاغت المعرفة شخصياتهم ، فتميزوا عن غيرهم بمعرفة البينات والزبر.

(**فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**)

فإن كنتم تعلمون فلا يحق لكم تقليد الآخـرين ، كما لا يجـوز إتبـاع من لا يعـرف شـيئا عن البينـات والزبر ، أو يعـرف ولكن لم ينتفع بها عمليا فلم يتـذكر هو شخصـيا بالوحي ، ولم يتعظ بمواعظه الرشيدة ، وهذه الآية والـتي بعدها تحدد شـروط التقليد ، أو بتعبـير آخر تحـدد شـروط اتبـاع الجاهل للعـالم ، وهما يشـيران الى حقـائق عقلية فطر البشر عليها.

البينات والزبر :

[44] عالم الطبيعة وعالم التـاريخ وعـالم الطب ومن أشبه ، لا يمكن تقليد أحدهم في شؤون الحيـاة مما يتصل بالــدين ، بل عــالم الــدين الّــذي تــذّكر بالأدلة وعــرف المحتويات.

(**بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ**)

البينات هي الشواهد الواضحة ، أما الزبر فانها الكتب التي تحتوي على العلـوم الإلهيـة. ولان البينـات قد جـاءت في آيـات قرآنية أخــرى مقارنة بكلمة الهـدى ، مثل قوله تعالى : (**شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ هُـدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُـدى وَالْفُرْقـانِ**) ، فـإن معناها ـ حسبما يبدو لي ـ هو التفاصيل الواضحة للتعاليم السماوية ، بينما الهــدى أو الزبر الــتي تحتــوي عليه ، هي البصــائر والإشارات (المحكمات) .. التي فصّلت بعضها فقط.

وبنـاء على هـذا التفسـير فـإن كلمة بالبينـات والزبر متعلقة بقوله تعــالى : (**أَهْـلَ الـذِّكْرِ**) وقــال البعض انها متعلقة بقوله ســبحانه : (**وَما أَرْسَـلْنا**) وقـــال العلامة الطباطبــائي : (أيّ أرسـلناهم بالبينــات والزبر ، وذلك ان المعــنى في الآية الســابقة ، أنما هي ببيــان كـون الرسل بشرا على العـادة فحسب ، فكأنه لما ذكر اختلج في ذهن السـامع انهم بمـاذا أرسـلوا؟ فـأجيب عنه فقيل بالبينـات والزبر ، أما البينات فلإثبات رسـالتهم ، وأما الزبر فلحفظ تعليماتهم). [1]

وأقـــول : كما أرسل ربنا رســوله بالبينـــات والزبر ، كـذلك كـان أهل الـذكر يتـذكرون بها ، علما بـان المتعلق أقرب الألفاظ السابقة ، والأقرب هنا : الذكر ،

(1) الميزان ـ ج 12 ـ ص 259 ـ وقريب منه في المجمع وغيرهما.

خصوصا بإضـافة الأهل ، ولا سـيما والكلمة غامضة وأكـثر إثـارة للتسـاؤل من كلمة «أرسـلنا» ثم إن المتعلق ينبغي أن يكون حسب رأيهم كلمة الوحي لا أرسلنا ، فتدبر.

هدف البعثة :

وهكذا انـزل الـذكر الى الرسـول بهـدف تحقيق واحد من أمرين :

الأول : أن يكـون الرسـول قـدوة يتبع ، وهـذا يشـبه التقليد.

الثـاني : أن يثـير عقـول النـاس ويحـرك الراكد من أفكارهم ، فيحصـلون على العلم مباشـرة. والهـدف الأول يشمل جميع الناس ، بينما يختص العقلاء بالثاني.

(**وَأَنْزَلْنا إِلَيْـكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)

أَفَـأَمِنَ الَّذِينَ مَكَـرُوا السَّـيِّئاتِ أَنْ يَخْسِـفَ اللـهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَـذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْـعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُــذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِــزِينَ (46) أَوْ يَأْخُـذَهُمْ عَلى تَخَـوُّفٍ فَـإِنَّ رَبَّكُمْ لَـرَؤُفٌ رَحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللـهُ مِنْ شَـيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُـهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِــرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْــجُدُ ما فِي السَّـــماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَــةُ وَهُمْ لا يَسْــتَكْبِرُونَ (49) يَخـــافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُـونَ ما يُـؤْمَرُونَ (50) وَقـالَ اللهُ لا تَتَّخِـذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُـوَ إِلـهٌ واحِـدٌ فَإِيَّايَ فَـارْهَبُونِ (51) وَلَـهُ ما فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَـهُ الـدِّينُ واصِـباً أَفَغَيْـرَ اللـهِ تَتَّقُـونَ (52) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذا مَسَّـكُمُ الضُّـرُّ فَإِلَيْـهِ تَجْئَرُونَ (53) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِــرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَـوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

إنما هو إله واحد

هدى من الآيات :

ان الّـــذين يعملـــون الســـيئات بمكر ، ويعالجونها بأفكـــارهم معالجة ، ينبغي الا يـــأمنوا من مكـــرهم ، فقد يخسف الله بهم جانبا من الأرض ، أو يتعرضـــون للعـــذاب من حيث لم يتوقعـــوا ، أو يحيط بهم عـــذاب الله وهم يبحثون عن المعـاش في الـبر والبحر ، فلا يسـتطيعون رد العـــذاب عن أنفســـهم ، أو يأخـــذهم الله بعذابه وهم مـتيقظون في كل وعيهم فلا يسـتطيعون ردّه ، ولكن الله يؤخر عنهم العذاب لأنه رؤف بهم رحيم.

ولماذا يمكرون السيئات؟ لماذا لا يعبدون ربهم؟ أو لا يـــرون الى خلق الله أنى نظـــروا كيف يتحـــول ظلاله عن اليمين الى الشـــمائل ، وكل هـــذا الخلق يســـجدون لله خاضـــعين ، بلى كل ما في الســـماء ، وكل ما في الأرض يسجد لله ، من الأحياء والملائكة ، دون ان يستكبروا شيئا ، وهم يخافون ربهم ان يأتيهم عذابه من فـوقهم ، ولـذلك يطيعون الله في كل ما يأمرهم به.

أما الناس فبعضـهم يتخـذون الشـركاء من دون الله ، بينما أمرهم الله الا يعبدوا

الهين اثـــنين ، لأنه لا اله إلا الله إلها واحـــدا ، ينبغي ان يرهب جانبه ، وان لله كل شـيء في السـموات والأرض ، وله الحاكمية الواجبة ، فلما ذا يحـــــذرون غـــــير الله فيعبدونـــه؟! بينما النعم منه وعند النعم يســتغيثون اليه ، ولكنهم إذا كشف الضر عنهم يشركون بالله ، كـافرين بما آتاهم الله من خير ومن كشف الضر ، فدعهم إذا يتمتعون فسوف يعلمون غدا مصيرهم المحتوم.

بينات من الآيات :

الحاكمية الإلهية :

[45] الله هو الحاكم ، وله الدين الواجب ، أما الّـذين يشـرّعون لأنفسـهم الأنظمة الباطلة ، ويبتـدعونها بقـوة خيـالهم ، من أجل الوصـول الى أهـدافهم السـيئة الـتي يخططون للوصـول إليها تخطيطا واعيا ، فـإنهم لا يـأمنون عذاب الله.

(**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ**)

أي مكروا مكرا يعملـون به السـيئات ، فالهـدف كـان شيئا ، ولكنهم استخدموا حيلتهم الشيطانية للوصـول إليها ، فهم أكـــثر ذنبا ممن يعمل الســـيئات مخطأ أو حسب الصدفة ، فهل أمن هؤلاء مكر الله؟ مثلا :

(**أَنْ يَخْسِـفَ اللـهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَـأْتِيَهُمُ الْعَـذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ**)

من فوقهم أو من أطرافهم.

يقول العلامة الطباطبائي : هـذه الآية والآيتـان بعـدها إنـذار وتهديد للمشـركين ، وهم الّـذين يعبـدون غـير الله سبحانه ، ويشرّعون لأنفسهم سننا يستّنون بها في الحيـاة ، فما يعملـون من الأعمـال مسـتقلين فيها بأنفسـهم ، معرضين عن شرائع الله النازلة من

طريق النبوة ، استنادا الى حجج داحضة (واهيـة) اختلقوها لأنفسهم ، كلها سيئات. وأضـاف قـائلا : السـيئات مفعـول مكروا بتضمينه معنى عملوا : أي عملوا السيئات ماكرين. [1]

وكلمة الدين واصبا في السياق تدل على ما استوحاه العلامة الطباطبائي من معنى التشريع في الشرك.

[46] والبشر بحاجة الى الكسب ، والاكتسـاب محفـوف بالأخطـار ، والله سـبحانه يحفظ الإنسـان حين يسـعى لرزقه ، ولكنه إذا شـرّع لنفسه قـوانين باطلة لسعيه ، فقد يتركه الله فريسة للأخطار.

(**أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ**)

أي في سيرهم في البر والبحر لاكتشاف الرزق.

(**فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ**)

لا يهربـون من ملاحقة العـذاب ، ولا يفلتـون من يد العقوبة.

أنواع العذاب الإلهي :

[47] عذاب الله ألوان :

الأول : العذاب الفجائي الّـذي لا ينتظـره ، ويـأتي من دون سابق إنذار مثل الخسف والزلازل.

الثـاني : العـذاب الّـذي يسـببه البشر بأخطائه كـأن يركب البحر فتنقلب به

---

(1) الميزان ص 262 ج 12.

السفينة.

الثـالث : العـذاب التـدريجي كـأن يعـذب الله أمة بالقحط فيموتـوا بالتـدريج. ولكل لـون من العـذاب ألم خاص يـدعنا نتحـذر منه ، وقد حـذّرنا القـرآن منها جميعـا. فعن اللون الأول من العـذاب والثـاني حـذرتنا الآية الأولى والثانية ، أما عن اللون الثالث فيقول سبحانه

(**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ**)

قال الطبرسي : التخوف والتنقص وهو ان يأخذ الأول فـالأول حـتى لا يبقى منهم أحد ، وتلك حالة يخـاف منها الفناء ويتخوف الهلاك ، ويقال : تخونّه الدهر. [1]

وجاء في الحديث المأثور :

«**التخوف هو التيقظ**»

والواقع ان معنى التخوف الأصلي هو التيقظ اشـتقاقا من كلمة الخوف ، ولكن يسمى الهلاك التـدريجي بـذلك ، لأن الإنسـان يخشـاه ويسـعى جهـده لتجنبه ، فلا يسـتطيع ذلك مما يسبب له ألما جسـديا ونفسـيا ، وربما كـان هـذا اللون من العذاب هو الأكثر ألما ، ولذلك طمأن ربنا عباده بأنه رؤف رحيم.

(**فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ**)

فبـالرغم من اسـتحقاقهم العـذاب التـدريجي ، الا انه يتابع نعمه عليهم برأفته ورحمته.

---

(1) مجمع البيان ص 363 ج 6.

آيات الخلق وحقيقة العبودية :

[48] لماذا الشرك بالله العظيم؟ أو ليس الكـون كله ساجد لله ، خاضع لمشيئته.؟

(**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ**)

أولا يرون ناظرين ما خلق الله من أشياء!!

(**مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ**)

اي يتحرك ظلاله من اليمين الى اليسار.

يقول الطبرسي : التفيؤ التفعل من الفيء ، يقال فاء الفيء يفيء إذا رجع وعاد بعد ما كـان ضـياء الشـمس قد نسخه ، ويضيف قائلا : الفيء ما نسـخه ضـوء الشـمس ، والظل ما كـان قائما لم تنسـفه الشـمس ، ويسـتنتج من ذلك ان معنى الآية يتميل ظلاله عن جانب اليمين وجـانب الشمال.

(**عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ**)

وربما جـاء السـياق بلفظ اليمين مفـردا بينما جمع الشمائل ، لأنه قد اتخذ جـانب اليمين مبـدأ الحركة ، بينما جعل جانب الشمال مآلها ، والحركة تبدأ من مكـان ولكنها تسير في أماكن مختلفة.

(**سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ**)

كل شيء يسجد لله داخرا خاضعا صاغرا ، بالرغم من أننا نراها وكأنها واقفة ، حيث لا يتحـــرك الا ظلاله فقط ، ولكنها في الواقع تسجد لله ، تسبحه وتستجيب أوامره

وفي السـجود معـنى لا نفهمه من الخضـوع وهو معـنى الفعل.

[49] وكما الأشياء الجامدة التي تتحرك حولها الظلال وهي جامدة ظاهرا ، لكنها تسـجد لله ، كـذلك الأحيـاء في الأرض والملاك في السماء.

(**وَلِلَّهِ يَسْـجُدُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**)

بـالرغم من عظمتهم بالنسـبة إلينا نحن البشر الّـذين نستكبر ونتحدى ارادة الله.

[50] وكل شـيء يخشى ربه الّـذي يشـعر انه فوقه قاهره.

(**يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**)

العذاب يـأتي من فـوق وكـذلك الثـواب ، يقـول ربنا : «**وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَـدُونَ**» وهـذا هو شـعور الفرد أيضا تجاه ربه المحيط به علما وقدرة ..

(**وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ**)

[51] ويبقى الإنسـان بين الخلق أجمعين يخضع لما هو خاضع لله ، يخضع للشـمس والقمر والنجـوم ، يخضع للأنـوار والأشـجار والأحجـار ، يخضع للـثروة ، والقـوة ، والدعاية.

(**وَقـالَ اللـهُ لا تَتَّخِـذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُـوَ إِلـهٌ واحِدٌ**)

فلما ذا نرهب جـانب الطبيعة ، حـتى نعبـدها ، ولمـاذا نـرهب الطـاغوت حـتى نستسـلم لـه؟! ألا فلنخشى ربا واحدا صمدا.

(**فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**)

«ومن خاف ربه أخـاف الله منه كل شـيء ،ومن لم يخف ربه أخافه الله من كل شيء»

إن أكثر ما تتم العبادة من جانب البشر للأشـياء ، انما تتم بسـبب الهيبة والرهبة ، الا فلتسـقط هيبة الطبيعة الا فلنرهب ربها! وخالقها فقط!!

تجاوز الخوف شرط العبادة :

[52] وإذا تجاوزنا الخشـية من الطبيعة ، وتحررنا من رهبتها أسلمنا الوجوه لـرب العـالمين ، وخضـعنا لحاكميته وسيادته القانونية ، وبالتالي لدينه الواجب.

(**وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

ومن بيده ناصية الطبيعة له السيادة التشريعية.

(**وَلَهُ الدِّينُ واصِباً**)

قـال الطبرسي : وصب الشـيء وصـوبا إذا دام ، ووصب الدين وجب. [1]

(**أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ**)

لماذا نتحذر ممن لا سيادة له؟

إن السـيادة لله ، وان التشـريع الـذي يعكس هـذه السـيادة هو لله ، وان مخالفة تشـريعه وسـيادته هي ما نحذر منه.

[53] وعمليا نحن بحاجة الى الله في كل صـغيرة وكبيرة ، فما من نعمة الا وهي لله ، وعند فقدها نسـتغيث به ليعيدها علينا. فله السيادة أم لغيره؟!

(1) مجمع البيان ص 365 ج 6.

(**وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّـرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ**)

الجؤار : الاستغاثة برفع الصدمة.

[54] ولكنه ما ان يرفع الضر حـــــتى تعـــــود حجب الشرك تفصل بين قلب البشر وربه

(**ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِـرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**)

والشرك هنا قد يعني الخضوع لقانون غير قانونه ، إن لحظات الحاجة هي أكبر شاهد على سفاهة الشرك ، لأننا آنئذ نـرى بوضـوح شـديد عجز الشـركاء ، فهل الطـاغوت والسـلطة السياسـية الفاسـدة الـتي تخضع لها هي الـتي تنقذ من أمواج البحر حين تكاد تبتلع السفينة؟!

أم ان الثروة والأثرياء تقـدر ان تنقذ طفلنا المشـرف على الهلاك في غرفة العناية القصوى؟! من الـذي نتوسل اليه آنــذاك؟ أو ليس الله ، فلما ذا نعــود ونخضع لقــانون البشر؟!

[55] إن ذلك كفر بنعم الله الّتي وهبها الله لنا.

(**لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ**)

والشكر هو الذي يدعم النعم ، أما الكفر بها فصــاحبه ينتظر اليوم الأسود.

(**فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**)

فان المتعة اليوم ، تستتبع ندما طويلا طويلا.

وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ

---

59 [يتوارى] : يستتر حياء وخجلا.

لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُـونَ (62) تَاللـهِ لَقَـدْ أَرْسَـلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَـزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطانُ أَعْمـالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63)

لله المثل الأعلى

هدى من الآيات :

إن الشرك يقتضي أن يتنازل البشر عن جزء من نعم الله عليه لمصلحة الآلهة الّتي يـزعم ان لها تـأثيرا حقيقيا عليه ، ولا يحق له ذلك وهذ كـــــــــذب على الله يتحمل المشرك مسئوليته غدا.

وينســـبون الى ربهم الأمثـــال الســـيئة ، فمثلا لأنهم يكرهـون البنـات ، يجعلـون لـربهم البنـات ، بينما يجعلـون لأنفسـهم الـذكور الّـذين يشـتهونهم ، فحين يبشر أحـدهم بمولـود أنـثى ، يبقى وجهه مسـودا لزيـادة الغضب الـذي يكظمه ، وتراه يتخفى عن النـاس ، وهو مـتردد هل يخفي ابنته في التراب أم يبقي عليها على ذلة وهوان؟

وساء ما يصفون به ربهم. انهم لافتقارهم الى مقياس الحق ، وذلك بســبب كفــرهم بــالآخرة ، يتخــذون أســوأ القدوات لأنفسهم.

فدعهم في غيهم ـ بـالرغم من نسـبتهم السـيئة لله ـ فإن الله لو أخذ الناس كلما

ظلموا أنفسهم ، لما ترك عليها من دابة ، ولكنه ـ ولحكمة ـ (**يُـؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى ، فَـإِذا جـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**).

وتـــراهم يصـــفون ربهم بما يكرهـــون لأنفســـهم ، ويزعمون أن لهم الحسنى بينما ليس لهم إلّا النـار ، وانهم مجموعــون إليها ، وهــذا ليس خاصا بهم ، فلقد بعث الله الأنبيــاء بهــذه الرســالة للنــاس ، فــزيّن لهم الشــيطان أعمالهم ، وهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم.

بينات من الآيات :

الشرك عبودية وذل :

[56] الشرك عبودية وتقيد ، وفقدان لاستقلال البشر وحريته أمام قوى الطبيعة أو القــوى الاجتماعية ، ويتجسد الشــرك في الأغلال الّـتي يضـعها الإنســان لنفسه باسم الأنظمة والقـــوانين ويقيد بها حياته ، وعـــادة ما يقـــدس البشر هذه الأنظمة.

وبكلمة : الشـــرك هو تنـــازل طـــوعي عن رزق الله لمصلحة الطبيعة أو لمصلحة مراكز القوى.

(**وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ**)

من الأصــنام ، ورؤســاء القبائل ، وقــادة الأحــزاب ، وقـــوى التســـلط ، وكلما لا يعلم الإنســـان ان الله أمر باتباعها ، وان في اتباعها مصـــلحة الإنســـان الحقيقية ، يجعل المشركون لهؤلاء ..

(**نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ**)

أي جـــزء من نعم الله ، وذلك بســـبب جهلهم بواقع الأصنام الحجرية والبشرية ،

وانها لا تملك لهم شـيئا ، والله لا يرضى أن يتنـازل البشر عن حريته وكرامته وعن حقوقه شيئا ، لأنّه هو الذي رزقه له لا لغيره.

(**تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ**)

[57] للحياة مثلان ، وفيها خطان ، الأول : مثل القيم السامية الكريمة ، وخط القوة والعلم والحرية ، والثـاني : مثل الشهوات والأهواء ، وخط الضعف والجهل والعبودية.

والمشرك يجعل نفسه محور عقيدته ، فيقيس العـالم كله بما يشـتهيه ويهـواه ، وتنقلب عنـده المعـايير ، ويتخذ مثله من أرذل المثل ، كما يتبع خط الضـــــعف والجهل والعبودية.

إنّه يصـبح أنانيا الى درجة ينسب كـلّ خـير إلى نفسه وينسب الى ربه تعـالى الكـذب ، وبـالرغم من أن الخـير والشر عنـــده ليسا هما الخـــير والشر في الواقع ، إلّا انه ينسب الى ربه ما يراه هو شرا. إنك تـراه ينسب الى الله البنـات اللاتي يـزعم أنهن منقصة لأبيهنّ ولكنه يـرفض أن تكون له البنات ، ويبحث دائما عن الذكور ، فإذا افترضنا ـ جـدلا ـ ان البـنين خـير فلما ذا لا تنسب الخـير لربك ، بل لنفسك فقط؟!.

(**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ**) من الأولاد.

مكانة المرأة في الجاهلية :

[58] بينما الواحد منهم يشـــتد غضـــبه إذا أخـــبر بأنه رزق مولودا أنثى.

وهـذا مثل من واقع المشـرك الـذي يحـرم نفسه من أفضل نعم الله من ريحانته من الـدنيا ، من بهجة الـبيت ، من البنت النظـــرة ، بســبب جهله وشـــركه وخضـــوعه للأعراف الجاهلية ، انه حكم سيء جدا.

ولقد كـــانت عـــادة وأد البنـــات من أســـوأ العـــادات الشركية ، وأول ما بدأ لهم ذلك أن بني تميم غزوا كسرى فهزمهم ، وسبى نسـاءهم وذراريهم ، فـأدخلهن دار الملك ،

(**وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا**)

من شدة الحنق والغضب.

(**وَهُوَ كَظِيمٌ**)

يكظم غيظه لأنه لا يجد من ينفس عنه غيظه.

[59] ويتهـــرب من النـــاس خجلا ، ولكي يختلي الى نفسه ويفكر في حل لمشكلته ، فهل يــدفن أبنته حية في التراب ، أم يبقيها ويتجرع الهوان والذل على نفسه؟

(**يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِـكُهُ عَلى هُونٍ**)

أي يحتفظ بالمولود بما فيه من ذل وهوان.

(**أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ**)

أي يخفيه في التراب.

(**أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ**)

واتخذ البنــات جــواري وســرايا ، ثم اصــطلحوا بعد برهة واستردوا السبايا فخيرن في الرجوع الى أهلهن ، فامتنعن عدة من البنات ، فاغضب ذلك رجال بني تميم فعزمـوا ألا تولد أنــــــثى إلّا وأدوها ودفنوها حية ، ثم تبعهم في ذلك بعض من دونهم ، فشاع بينهم وأد البنات. [1]

عبادة الذات جذر الانحراف :

[60] والجاهلي الـذي لا يـؤمن بوجـود مقيـاس للحق غـير ذاته ، حيث يجعل أهـواءه وشـهواته ونزعاته الفردية والإقليمية ، والاسـتكبار على النـاس ، وظلمه للضـعفاء ، ويجعل خيالاته وأسـاطيره الموروثة ، يجعل ـ بالتـالي ـ كلما يتصل بجانب الضـعف والعجز والاستسـلام مثلا أعلى لنفسه ، لأنه لا يـــرى أن هنـــاك يوما يطبق فيه الحق بلا لبس ولا خـــداع ولا نقيصة ، فلما ذا البحث عن الحـــق؟ ولماذا يجعله أساسا لحياته ، ومقياسا لتقييم الأشياء؟

وشـيئا فشـيئا يرحل عن قلبه ذلك الضـوء الـذي كـان يهديه أبدا للحق ، فلا تبقى في قلبه إلّا ظلمات الشهوات.

(**لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ**)

وهـذه الآية الكريمة تشـهد بما شـهدت به الآية الأخر في سورة (ص) : (**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِـالْحَقِّ وَلا تَتَّبِـعِ الْهَوى ، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ**). [2]

فلقد كان نسيان الحساب ويومه سببا للضلالة.

---

(1) الميزان ـ ج 12 ـ ص 277.
(2). 26 / ص.

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

إن أعلى مثل يتطلع لتحقيقه البشر ، هو الوصول إلى القوة والفضيلة ، لكي يحقق الفضيلة بما يملكه من قوة ، والله عزيز وحكيم ، ومن يتبع مثل الله فهو يصل إلى العزة والحكمة باذنه.

والقـرآن يهـدي بهـذه لكلمة الى ما يحب به كـلّ منا بوجدانه ، إذ أن هنـاك خطـان خط الهـدى والعقل ، وخط الظلم والطغيان. ومن يؤمن بـالآخرة سيصل بإيمانه بيـوم الحساب الى الخط الأمثل.

حكمة الأجل :

[61] ولكن لمــاذا يــترك الله العزيز الحكيم النــاس يخالفون الحق ، بل ينسبون الى الله الأمثال السـيئة؟ أفلا يـــــدل ذلك على رضا الله بما يفعلــــون؟ كلا .. انما هي حكمته ورحمته.

(وَلَـوْ يُؤاخِـذُ اللـهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَـرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَـلٍ مُسَـمًّى فَـإِذا جـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

إنّ كـلّ دابة تظلم في الأرض في أيّ وقت وبالنسـبة إلى أيّ شـيء ، تكفي سـببا لعـذاب الله ، ولأن الله الـذي خلق الأحيـاء للإنسـان وسـخرها له ، فـإن ظلم الإنسـان يكفي سـببا في هلاك الـدواب جميعا ، وهكـذا أغـرق الله فرعــــون وجـــزء من دوابه ، وأهلك الله عـــادا وثمـــود والمؤتفكة وقوم لوط بدوابهم ومواشيهم.

[62] ويكفي الجاهليين ذنبا ما يفترون على الله ، أفلا نرى كيف يجعلون لله تلك البنات الّتي يكرهونها لهم؟!

(**وَيَجْعَلُــونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُــونَ وَتَصِــفُ أَلْسِــنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى**)

ويزعمون أن الأولاد الذكور شيء حسن ، وانهم لهم ، كلا .. أن الأولاد فتنة ، وعـدم الوفـاء بحقـوقهم يـؤدي بهم إلى وسط النار.

(**لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**)

أي حقا ، وبلا حاجة إلى تفكر.

(**وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ**)

أي معجلون إلى النار من قولهم : فرط وإفـراط ، إذا تقـدم ، والإفـراط الإسـراف ، وسـره ان صـاحبه يتقـدم الآخرين ، ومعنى الآية ـ على هـذا التفسـير ـ ان أصـحاب هذه النظرية أول من يدخل النار.

لماذا التسافل؟

[63] ويبقى السؤال : لماذا هبط هذا الفريق الى هذا الحضيض؟ لماذا افتروا على الله الكذب؟

لأنهم عملوا السيئات فزين لهم الشـيطان أعمـالهم ، فأصبح الشـيطان أقـرب صـديق لهم ، وكـان لهم العـذاب الأليم.

(**تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِـكَ فَـزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ**)

ربما يــدل لفظ اليــوم على مرحلة ما بعد الــتزيين ، سواء في الدنيا أو بعد الموت ، أما

هنا فــان انحــرافهم عن الحق يجعلهم يبحثــون أبــدا عن شـياطين الأنس لاتبــاعهم ، أما في الآخــرة فــان هــؤلاء الأشخاص يقودونهم الى نار جهنم.

(**وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللهُ

فَضَّـــلَ بَعْضَـــكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الـــرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّـلُوا بِـرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمـانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَـةِ اللـهِ يَجْحَـدُونَ (71) وَاللـهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْواجـاً وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَـــدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبـــاتِ أَفَبِالْباطِـــلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللـــهِ ما لا يَمْلِـــكُ لَهُمْ رِزْقـــاً مِنَ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ شَـيْئاً وَلا يَسْـتَطِيعُونَ (73) فَلا تَضْـرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (74)

الكتاب مقياس الحق ومظهر الرحمة

هدى من الآيات :

إن للحق مقياسا يتجسد في الآخــرة في الحســاب ، ويتجلى في الدنيا بالكتاب الذي أنزله الله لفض الخلافـات ، وإيصـال النـاس إلى صـميم الحق ، وتوفـير الرفـاه لمن يؤمن منهم به.

والكتـاب مظهر لرحمة الله ، كما مـاء السـماء الـذي يحـيي به الله الأرض بعد موتها ، ومن يسـمع حق السـمع يســتدل بهــذه النعمة على رحمة الله ، فلا يضــرب لله الأمثال الباطلة ، بل يهتدي إلى أن لربه المثل الأعلى ، أو ليس الله أودع في حياة الأنعـام عـبرة ، كيف يسـقي الله من بعض الأجهزة والأعضاء المودعة في بطونها المحتوية على فرث ودم ، يسقينا لبنا خالصا هنيئا لمن يشربه؟!

ومن رحمته انه رزقنا من ثمــــرات النخيل وأنــــواع التمور ، ومن ثمرات الكروم ، وأنواع الأعناب ما نتخذ منه سكرا حلوا ، ورزقا حسنا ، إن هذه عبرة أخرى وآية لقوم يعقلون.

وقد أوحى ربنا الى النحل لكي تتخذ من الجبال بيوتا ، وكـذلك تبـني بيوتا في الشـجر ، وفيما يبنيه النـاس من العمـــارات المختلفة ، ثم أمرها الله بـــأن تأكل من كل الثمرات ، ثم تتحرك عبر السبل الّتي جعلها الله لها ، فإذا ببطونها تصبح بـإذن الله ينبوعا لشـراب (**مُخْتَلِفٌ أَلْوانُـهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ**) ، وهكذا يصل المتفكرون إلى ما وراء هذه الظاهرة من آثار رحمة الله.

وتقلبات الحياة البشـرية كيف أنه يخلقه الله ثم يميته ، والبعض من النـاس يطـول عمـره ويصل إلى وضع غـير محمود ، حتى لا يعلم بعد علم شيئا.

وهكذا فضّل الله النـاس بعضا على بعض فيما رزقهم إيـاه بحكمته ، فلا يسـتطيع ذوي الفضل أن يعطـوا رزقهم لمن هو دونهم ، ويملّكونهم حتى يصبحوا سواء ، ولكن مع كل ذلك نجدهم يكفرون بنعمة الله ، ويتخذون من الـرزق وسيلة للاستعلاء.

وهكذا جعل الله للناس أزواجا من أنفسـهم ، ورزقهم الذرية والأولاد ، ورزقهم من الطيبـات ، ومع ذلك يـتركون نعمة الله ويؤمنـــون بالباطل المتجسد في الشـــركاء من دون الله ، الّذين لا يملكون شيئا من الرزق من السموات والأرض ، ولا يستطيعون شيئا.

كل هذه الآيات وغيرها تدل على أن لله المثل الأعلى ، ولا يجـوز لنا ان نقيس ربنا بخلقه ، ونضـرب له الأمثـال الباطلة ، فإن الله يعلم الحق ونحن لا نعلم ، ولا يجـوز أن يحكم الجاهل على العالم سبحانه!

بينات من الآيات :

الكتاب ميزان الحق :

[64] كما أن للحق مقياسا ثابتا يتجلى في اليـــــــوم الآخر على شكل جزاء ، فلا

تختلط هنا لك الشـهوات بـالعلم ، ولا الخرافـات المزيفة للنفس بـالحق ، كـذلك في الـدنيا أنـزل الله كتابا ينطق بالحق ، ويفرّق الحق عن الباطل.

(**وما أَنْزَلْنا عَلَيْـــكَ الْكِتـــابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ**)

ولكن ليس هـــذا هو الهـــدف الوحيد ، بل لكي يبلغ الإنسـان بالكتـاب عمق الحق فيهتـدي اليه ، ثم لكي ينـال بتطبيقه على ذاته رحمة ورفاه جم.

(**وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

ان من لا يؤمن بالحق ينتفع بالكتاب فائدة واحدة هي : رفع الخلاف الظـاهر بينه وبين الآخـرين ، كما اسـتفاد الأعـراب من الإسـلام قبل أن ينفذ الأيمـان الى قلـوبهم ، فقد خضعوا للإسلام كحكم سياسي ، فنفعهم تسليمهم له وحدة سياسية ، ولكن بعد أن آمنـوا وصـلوا بأنفسـهم الى الحق ، ونالوا الخير الواسع.

القرآن مطر الرحمة :

[65] وكتـاب الله كمـاء السـماء يحـيي الله به الأرض بعد موتها.

(**وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**)

سوف نستمع الى ثلاث عبارات جاءت كشرط مسبّق لاسـتيعاب عـبرة الحيـاة ، وفهم خلفيـات الطبيعة وهي بالتـدريج. السـمع ، والعقل ، والتفكر ، وهي مراحل العلم الـذي يهب الله للإنسـان نـوره ، ثم يسـلبه إذا بلغ أرذل العمر ، وهي مرحلة الإحســــاس المباشر ، أو التجربة البسيطة الآتية عن طريق السمع ، وهي أقرب الاحاسيس إلى الشـؤون العقلية ، كما أنها وسـيلة حضـارية لنقل تجارب الأجيال

لبعضها ، ولنقل تجـارب النـاس المعاصـرين لبعضـهم ، ثم تـأتي مرحلة الحفظ وتـراكم التجـارب الّـتي هي العقل حسبما جاء في الحديث الشريف :

«**العقل من العقال**»

وان «**العقل حفظ التجـــارب**» في النهاية تـــأتي مرحلة التفكر ، وذلك بربط التجـــارب إلى بعضـــها مما نسـميه نحن بالتحليل أو التعقل ، ويبـدو أن المعرفة الحق لا تحصل من دون اجتيـاز المراحل جميعا ، ولكن القـرآن الحكيم ربط بين كل مرحلة وبين آية إلهية لحكمة بالغة قد لا نفهمها الا بالتدبر.

الأنعام عبرة ورحمة :

[66] ويتجلى اسم الرحمة الإلهي في الأنعــام الّــتي نعتبر بها عند أدنى نظـرة ، ونتعـرّف من خلال النظر إليها على الهدف من خلقها ، وما يتصل بهذا الهـدف من هـدف أسمى لخلقة البشر هو العلم والعمل.

(**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً**)

فمن خلال النظر فيها والتــدبر في أمورها ، ننفذ إلى الهدف منها ، ولكن كيف؟

(**نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ**)

كيف يميز الله اللبن عن الفـرث ، وهي الزيـادة الّـتي تهبط إلى الكـرش قبل ان تخـرج فتصـبح سـرجينا ، وعن الدم الذي يجري في العروق ليصبح.

(**لَبَناً خالِصاً**)

من الشوائب والجراثيم.

(**سائِغاً لِلشَّارِبِينَ**)

ففيه الفائدة لخلوصه ، واللـذة لأنه هـنيء يحبه الطبع البشري.

[67] وآية أخرى هي الثمـار النافعة كـالرطب والعنب ، وما ينتهيان اليه من السكر والتمر والزبيب.

(**وَمِنْ ثَمَـراتِ النَّخِيـلِ وَالْأَعْنـابِ تَتَّخِـذُونَ مِنْـهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)

ولا ريب أن ثمرات النخيل والكروم من أفضل الـرزق مـذاقا ، وفائـدة طيبة ، أما السّـكر فقد اختلفت كلمـات العلماء فيها ، وأمثل القول ما جاء مـأثورا عن ابن عبـاس أنه قال : «السكر ما حرم من ثمرها ، والـرزق الحسن ما حل من ثمرها» [1]

وقد يوسع في معـنى السـكر حـتى يشـمل عـدم الانتعــاش ، ولا ريب أن العنب والتمر يســببان انتعاشا ، والانتعـاش بها لا يبلغ مسـتوى فقـدان العقل حـتى إذا زاد منه الشارب.

النحل آية بينة :

[68] وهناك رزق الهي يختلف عما ينبت من الزرع أو يجـري من الضـرع هو : العسل الـذي هيّأ الله النحل له ، حيث ألهمه أن يبـني بيوته السداسـية الشـكل ، البارعة والبالغة الدقة ، وذلك في كنف الجبــال ، أو في ســوق الأشجار ، أو في الأبنية.

---

(1) مجمع البيان ج 6 ـ صفحة 371

(**وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْـلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِنَ الْجِبـالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**)
وقال بعضهم أن العرش هو : الكروم الّتي تقام فـوق ساباط مرتفع.

معنى الوحي :

ونتسائل : كيف الوحي؟
قبل الإجابة لنعرف معـنى الكلمة ، والّـتي يقـول عنها اللغوي الراغب : الـوحي الإشـارة السـريعة ، وذلك يكـون بالكلام على سبيل الرمز ، أو بصوت مجرد عن التركيب ، أو بإشارة ونحوها.
وقـــال العلامة الطباطبـــائي : والمحصل من مـــوارد اســتعماله : أنه إلقــاء المعــنى بنحو يخفى على غــير من قصد إفهامه.
1) / فالالهــام بإلقــاء المعـنى في فهم الحيـوان من طريق الغريزة من الوحي : «**وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**».
2) / وكـذا ورود المعـنى في النفس عن طريق الرؤيا : «**وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى**» (القصص).
3) أو ورود المعــنى في النفس عن طريق الوسوسة : «**إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ**» (الأنعام).
4) ومن الوحي التكليم الإلهي لأنبيائه ورســله : «**وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً**» (الشورى).

والوحي من الله الى النحل يتناسب وجو الآيات العام ، الذي يهدينا الى آيات الله في الحياة ، ليـبرز دور الإلهـام في العلم ، ابتــداء من إنــزال الكتــاب ، إلى العلم الــذي يسلبه الله عمن يبلغ أرذل العمر.

حيث ان الآية هذه تشير الى دور الألهـام المباشر من قبل الله في حيـــاة النحل ، فكيف بالإنســـان؟ وان من يتعالى على الوحي المـنزل من السـماء فانما يتكـبر على أوضح وأبسط الحقائق الّتي يعيشها في حياته ، وهي النور الــذي يضــيء له دروب الحيــاة ، وقد يكــون ذلك ســببا لتسمية هذه السورة المباركة باسم النحل.

[69] ثم أمر الله النحل بان تأكل من زهـرة الأثمـار ، والّتي هي خلاصة مواد الثمر قبل بـروزه ، متخـذة السـبل الإلهية ، والأنظمة الّتي وضعها الله للحيـاة ، حـتى تتحـول تلك الزهرات الى شراب سائغ.

(**ثُمَّ كُلِي مِنْ كُـلِّ الثَّمَـراتِ فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً**)

أي الطــرق المعبــدة الّــتي هيأها الله لك ، فقد جعل الله للهـواء سـبلا كما للأرض ، وهي الأيسر سـلوكا والأقل مطبات هوائية ، ويتعـرف عليها الطيـارون بصـعوبة ، بينما أوحى الله بها إلى النحل وغيره مما يطير بجناحيه.

(**يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ**)

والعسل يلقيه النحل من فيه ، بعد أن يتفاعل في بطنه ، ولــذلك عــبر ربنا عن ذلك بأنه يخــرج من بطــون النحل.

(**فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ**)

من أمــــراض مختلفة ، ويعطي الجسم حيوية ومناعة عن الأمراض.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)

إن النحل هذا الحيوان المستهان في الدنيا ، يأمره الله بأن يحقق هذا الهدف ، وعلّمه وسائل ذلك وكيف يبني بيته؟ وكيف يتخذ لنفسه يعسوبا ، وكيف يتوالد؟ كل هذه السنن الإلهية تستقطب اهتمامنا ، وتجعلنا نعترف خاشعين بأن للكون المهيب إلها يدبر شؤونه سبحانه ، ويبدو أن معرفة أسرار النحل بحاجة إلى بحث مثابر ، ولذلك عقّب الله الآية بأن النحل آية للمتفكرين ، بينما لا تحتاج آية الثمرات إلى ذلك الجهد الفكري ، بل إلى حفظ التجارب الزراعية ، لذلك بين السياق هناك ان الثمرات آية لمن يعقلون ، واكتفى في مراقبة الأمطار بالسماع فقال : «**لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**» وهكذا تختلف أسرار الحياة فبعضها تفهم بأقل دراسة ، بينما بعضها الآخر تفهم بدراسة معمقة ، وتبقى بعضها متوسطة.

دليل التدبير :

[70] وتطورات الحياة البشرية تهدينا إلى تلك الإرادة الّتي توجه حياتنا ، لقد خلقنا الله وحين يشاء يسترد أمانته منا فيميتنا ، وقد يشاء أن يعمّر الفرد طويلا حتى يبلغ سن الدناءة ، فاذا به يفقد ما حصل عليه أيام شبابه من علم وخبرة.

(**وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ**)

أي العمر الأكثر هبوطا ، كما كان في أيام الصبا والطفولة.

(**لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**)

فأصل علم الإنسان هبة الهية ، ويزداد بالسمع والاعتبار والتعقل والتفكر ، بينما علم الله واسع دائم.

حدود الحرية البشرية :

[71] والإنسان حرفي الحياة ، ولكن حريته محدودة ، مما يهـــدينا إلى أنّ يد الغيب تـــدبر حياته ، وأن الحرية المحدودة التي يملكها إنما هي لاختباره وليست من ذاته ، لذلك تـرى مواقع النـاس في المجتمع والـدرجات العليا أو الدنيا التي يتفاضلون عبرها ، إنها نفوذ إلى أصـول تكوينية صعبة التغيير ، أو مستحيلة التغيـير ، فلقد فضل الله بعض الناس على بعض في الذكاء ، أو في النشـاط ، أو الصـحة ، وتهيئة فـــرص التقــدم ، فهل يقــدر هــؤلاء على تحويل صفاتهم إلى أولئك؟ كلا ..

(**وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**)

وهو النعمة الّـتي يهبها الله للإنسـان بسـعيه ، وطيب نفسه ، أو امتحانه وابتلاء الناس به مثل : العلم ، والعافية ، والأمن.

(**فَمَا الَّذِينَ فُضِّـلُوا بِـرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ**)

فلا يقدر الّـذين فضـلهم الله أن يعطـوا رزقهم الإلهي لمن هم دونهم ، ولمن هم محكومون لهم.

والتعبـــير القـــرآني : «**ما مَلَكَتْ أَيْمـــانُهُمْ**» يـــوحي بالرّقيّة الّتي كانت شائعة في أيام نـزول القـرآن ــ ويبـدو لي ـ أنه يشمل أيضا كل المراتب الاجتماعية الّتي يقتضيها التفاضل بين النــــاس في الكفـــاءات الطبيعية ، ذلك لأن الكفاءة تقتضي ـ بالطبع ـ هيمنة صاحبها على من هو دونه فيها ، فالعلم والقوة يعلوان الجهل والضـعف ، وصـاحبهما يملك ولو بنسبة معينة من لا علم ولا قوة له.

ولا أحد ينكر اختلاف النـــاس في الكفـــاءة الطبيعية ، وان هذه الكفاءة لا تقبل التحـول من صـاحبها الى من هو دونه ، حتى يصبحوا جميعا سواء فيها.

إن نظام الكـون قـائم على التفاعل بين أجزائه ، وقد أمـرت سـنة الله في النـاس ان يتعـاون بعضـهم مع بعض مثلما تتفاعل أجزاء الكون ، ولكي يتعاونوا احتـاج بعضـهم إلى البعض الآخر ، واختلفت كفـــــاءاتهم ، ولو اســـــتغنى الناس عن بعضهم إذا لبقوا كالحيوانـات يعيشـون أفـرادا ، ولم يتقدموا ولا خطوه واحدة في طريق الحضارة.

(**أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ**)

إن نعمة التفاضل الّـتي تنتهي إلى التعـاون والتقـدم نعمة كبيرة ، لا بد من شـكرها عن طريق رضا النـاس بها وقبولها كواقع ، ثم انطلاق كل واحد من موقعه في سـبل الخير والفضيلة.

نعمة الأزواج :

[72] والى جـــانب نعمة التفاضل الطـــبيعي ، ونعمة الحاجة المتبادلة ، وبالتالي نعمة التعاون الذي فـرض على البشر فرضا ، نجد نوعا آخر من الحاجة المتبادلة والّـــتي تؤدي إلى التعاون وهي الحاجة الى الزوج.

(**وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً**)

فلو لا الحاجة النفســـية والفيســـولوجية والاجتماعية القائمة بين الـــزوج والزوجة لما تم هــذا التعــاون العميق والواسع بين الزوجين.

إنها نعمة كبـــيرة أســـبغها الله علينا ، إذ جعل لنا من أنفسنا أزواجا ، وكأنهن

فلقة منا ، انتزعت من كل ابعـاد وجودنا ، وكـأن كل جـزء في الــذكر أنفصل عنه جـزء في الأنــثى ، وانه يبحث عنه حـتى يلتقي الـذكر بـالأنثى ، فتلتقي كل أجـزاء وجوديهما الجسدية والنفسية والعقلية.

ومن الأزواج ينسل البــنين والبنــات ، وأزواج البنــات وهم الحفدة ، أو أبناء البنين كما جـاء في تفسـير آخر ، أو أبنـاء البنـات كما جـاء في حـديث كـريم ، وأصل الكلمة مشـتق من لفظة الحفد وهو : الإسـراع في العمل ، ومنه قيل للأعوان «حفدة» لإسراعهم في الطاعة [1].

ويبـدو أن الحفيد هو الفـرد الـذي يخـدم الشـخص ، سواء كان ابن ابنه أو ابن بنته أو زوج بنته أو ابنها.

(**وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ**)

وكلما كـــثر نسل الفـــرد زادت نعم الله عليه ، بينما يقتضي الحساب البشري ان يتنـاقص ، أو لا يـدل على أن الله هو الرزاق؟

(**أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ**)

ويزعمون أن رازقهم الأغنياء أو الدولة أو الأصنام.

(**وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ**)

أي هــؤلاء الّـذين أنعم الله عليهم ، تــراهم يكفــرون بنعمته ، حيث يتوجهون تلقاء الشركاء من دونه.

---

(1) مجمع البيان ج 8 ـ صفحة 373

لماذا الإصرار؟

[73] أترى الغباء والسفاهة؟ كيف يترك البشر خالقه الرزّاق ، ويتوجه بالعبــادة والطاعة لمن لا يملك رزقا ، ولا يقدر على أن يسلبه رزقه؟!

(**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ**)

وربما توحي كلمة الاستطاعة بالقـدرة الّـتي يكتسـبها البشر اكتسـابا ، بينما الـرزق والملك قد يأتيـان بلا تعب ، والأصـنام لا تملك ولا تسـتطيع ، أو بتعبـير آخر : لا تقـدر على شيء من الرزق سعت أو لم تسع في سبيل القدرة.

[74] كيف يشبه البشر ربه بخلقه؟

(**فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ**)

فتقولوا : فلان يرزقنا.

(**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**)

الله يعلم انه الخالق الرازق ، والبشر لا يعلم شـيئا الا بما علّمه الله ، فلا يحق للبشر ان يتخيل ربه أو يتوهمه سبحانه ، أو يحدد لفعله كيفا أو مكانا.

ضَـرَبَ اللـهُ مَثَلاً عَبْـداً مَمْلُوكـاً لا يَقْـدِرُ عَلى شَـيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقـاً حَسَـناً فَهُـوَ يُنْفِـقُ مِنْـهُ سِـرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللـهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَـدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْـدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَـوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْـهُ لا يَـأْتِ بِخَيْرٍ هَـلْ يَسْـتَوِي هُـوَ وَمَنْ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَهُـوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

---

76 [أبكم] : الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهم.

(78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَـوِّ السَّـماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) وَاللهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ بُيُـوتِكُمْ سَـكَناً وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقـامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْـوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْـعارِها أَثاثـاً وَمَتاعـاً إِلى حِينٍ (80) وَاللـهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَـقَ ظِلالاً وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبـالِ أَكْنانـاً وَجَعَـلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَـرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَـكُمْ كَـذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـلِمُونَ (81) فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْـكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُـونَ نِعْمَتَ اللـهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (83)

يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها

هدى من الآيات :

قد يفقد البعض منا القـــدرة الطبيعية ، إمّا لقـــانون اجتماعي أو لنقص طـبيعي ، فيقعد به العجز عن أيّ عمل ، كالعبد المملـوك أو الأبكم ، ويضــرب القــرآن بهما مثلا على واقع الكافر الذي يفقد قدرة الايمان والعدل والحق.

والله سبحانه الذي يؤمن به المؤمنون عالم ، وقـادر ، فعنـــده غيب الســـماوات والأرض ، وتتجلى قدرته في الساعة ، فأمرها مثل خطفة أو أقرب.

والله مصـــدر العلم ، أو لم يخرجنا الله من بطـــون الأمهــات لا نعلم شــيئا؟ ثم وهب لنا الســمع والأبصــار والقلوب بهدف الشكر له!

والله مصدر القدرة ، فهو الـذي سـخر الطـير في جو الســماء ، لا يســتطيع أحد أن يحفظهن الا الله ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

والله مصــدر الرحمة ، فقد جعل للنــاس ســكنا في بيوتهم ، كما وفر لهم من جلود

الانعـــام بيوتا خفيفة في الســـفر والحضر ، وهيأ لهم من أصـواف وأوبـار وأشـعار الانعـام متـاع الـبيت. من فـراش ودثـار ومعـاش الى حين الانتقـال من دار الـدنيا الى دار القرار.

وهو الـذي وفر للإنسـان الظلال والملابس السـلمية والحربية ، لتقيه من عارية الطبيعة ومن بـأس بعضـهم ، وأتم نعمته على البشر لكي يسـلم وجهه الى الله ، ولكنه يتـولى ويعـرض ، ويكتفي الرسـول بـإبلاغ الرسـالة ، لأن الأدلة واضـــحة إذ يعرفـــون نعمة الله ولكنهم ينكرونها ، وأكثرهم كافرون بربهم.

بينات من الآيات :

ظلم الطاغوت :

[75] عند ما كانت الملكية المطلقة نظاما سـائدا في المجتمعات قبل انتشار نور القرآن ، وكان العبد المملـوك لا يقدر على شيء إلا بـأذن مـولاه. يضـرب القـرآن بـذلك العبد مثلا على واقع ذلك الإنسان الذي يقيد نفسه بـإغلال الشرك ، فيجعل نفسه عبدا لغيره وقد خلقه الله حرا.

(**ضَـرَبَ اللــهُ مَثَلاً عَبْــداً مَمْلُوكـاً لا يَقْـدِرُ عَلى شَيْءٍ**)

ويمكننا ان نضرب ذات المثل من واقع الشعوب الّتي اسـتعبدها الأقويـاء ، ولم يـتركوا لها شـيئا يتصـرفون فيه بحـــريتهم ، هل هم ســواء ومن أنعم الله عليه بالايمــان ، وحـــرر نفسه من أغلال الشـــرك وعبودية ذوي الـــثروة والسلطة والتضليل؟!

(**وَمَنْ رَزَقْنـاهُ مِنَّا رِزْقـاً حَسَـناً فَهُـوَ يُنْفِـقُ مِنْـهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ**)

كلا .. الذي أعطاه الله الحرية وزوده بحب الخـير فهو لا ينفق رياء ، ولا يكتم إنفاقه عن الناس خوفا ، بل ينطلق في إنفاقه من إرادته الحرة ، يستهدف مرضاة الله ،

ولا يرجو ولا يخشى أحدا.

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**)

الذي هيأ للإنسـان كل فـرص الخـير ، ووفر له الحرية الكاملة ، وزوده بالأحاسيس الخيرة.

(**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

والجهل آفة الحرية ، ولأن الجهل يتفشى في الأمم الضالة ، فانه يسهل استعبادهم من قبل الطغاة.

ظلام الجبت :

[76] كـان ذلك مثلا ضـربه القـرآن الحكيم من واقع شخص سلبه الطاغوت حريته ، وحوّله الى موجود عاجز ، ويضرب القرآن مثلا آخر من واقع من يسلبه الجبت حريته ، فـاذا به كـالأبكم الـذي ولدته أمه وأذنه صـماء لا تسـمع شـيئا ، فلم يتعلم اللغة ولم يتفاعل مع الحضـارة ، وبقيت تجاربه محدودة بحدود ذاته ، كالإنسان الذي ينمو في غابة ، هل يستوي هو ومن أوتي العدالة والاستقامة؟

(**وَضَـرَبَ اللـهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَـدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْـدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ**)

أي ثقيل على من يلي أمره ويشرف عليه ..

(**أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ**)

كلما يبعثه الى مكان لا ينفع شيئا.

(**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**)

فهذا الذي يأمر بالعدل فصيح اللسان قـوي الجنـان لا يخضع للضغوط ولا يخشى من التهديد.

(**وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)

فهو قادر على أن يحقق أهدافه من أقرب الطرق ان هـذان مثلان للمشـرك والموحّد ، فبينما المشـرك منغلق على ذاته ، لا يكـاد ينفتح على العـالم من حوله ، بل يجحد بآيـــات الله ويعبد ذاته ، ولا يســـمع ولا يعقل ولا يتفكر ، ولـــذلك فهو ليس فقط لا يقـــدر على التخطيط الســـليم لنفسه ، بل إذا خطط الآخـــرون له شـــيئا لا يقـــدر على إنجازه ، أقول : بينما المشـرك هكـذا ، تـرى الموحد ليس فقط عادلا بنفسه ، بل ويقود الآخرين نحو العدالة.

وهـذان المثلان يمكن تطبيقهما على الجاهل والعـالم أيضا ، لأن السياق يتحدث عن العلم أيضا.

[77] والعلم والقدرة عند الله ، والعلم مفتاح القدرة.

(**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

ولعلمه المحيط بكل شيء.

(**وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**)

فهو يأمر بها في أقل من رمشة العين فتأتمر.

(**إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

ومن أراد العلم والقـــدرة ، فعليه أن يـــؤمن بالله ، ويتوكل عليه.

[78] هل العلم من ذواتنا نحن البشـــــــر؟ إذا لكنا عالمين منذ الميلاد؟

كلّا .. حينما أخرجنا الله لم نكن نعلم شـــيئا ، ثم هيّأ الرب لنا وسائل العلم الظاهرة والباطنة ، فأعطانا السمع والأبصار ، كما أعطانا الأفئدة.

(**وَاللـهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهـاتِكُمْ لا تَعْلَمُـونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ**)

والسّمع هو : الأحساس الذي يتقدم ذكره في القـرآن ، لأنه الاداة الأولى لنقل تجـارب الأجيـال الى بعضـها عـبر اللغة ، كما انها تنقل أيضا المفـاهيم العامة الّـتي تتجـاوز الظواهر الجزئية ، ففائدتها أهم والتعبير عنها يأتي بصـيغة مفرد (فلا يقـال اسـماع) لأن المفـاهيم العامة أقـرب الى المجـــردات الكلّية ، ويلاحظ فيها العمـــوم الـــذي يتجلى بـالأفراد ، بينما الجزئيـات الّـتي تعـرف عن طريق البصر يلاحظ فيها التنوع ، فهي أقرب الى الجمع.

(**وَالْأَفْئِدَةَ**)

وهي القلوب الّتي تجمع الأفكـار وتحلل المعلومـات ، ولولاها لما كانت الحواس مفيدة الا بقدر فائدتها للحيـوان أو أقل.

لعلكم تشكرون :

(**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

الهـدف الأسـمى لنعم الله على البشر ليس التكامل الجسدي والمادي ، بل المعنوي والروحي ، والتعرف على النعم وعلى اهميتها ، وعلى الفوائد الكبيرة لها ،

والانتفـــــاع بها فيما أمر الله ، وفيما خصصت النعم لها ، والتعـرف من خلالها بالتـالي ـ إلى ينبـوع الخـير ومعـدن الرحمة ، إلى الرفيق الأعلى .. كل ذلكم أســـــمى من الاسـتفادة الجزئية لهـذه النعم حسب الحاجـات العاجلة ، وكل ذلك يجمعه معنى الشكر.

والآية هــذه لا تعــني أن العقل وبالتــالي العلم ينشأ بتكامل طبيعي عند البشر ، بل بـالعكس تماما ، إذا كـدت الآية على ان ربنا جعل لنا الأفئدة الّـتي هي مركز العقل ، فمن دون هذه النعمة كيف كان يتسنى لنا العلم؟

[79] وأشــــرف العلم معرفة الله ، ولا تتم المعرفة من دون الايمــان ، إذ تبقى الشــهوات وصــفة الشــرك كالســدود المنيعة الّــتي لا تــدع تيــار المعرفة ينفذ الى القلب.

ان الجاحد لا يرى في الطيور الّتي تسـبح في الفضـاء الا ما تسـجله اداة التصـوير ، بينما المـؤمن تنفذ بصـيرته الى معرفة الله الذي أمسك الطيور في جو السّماء.

(**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَـخَّراتٍ فِي جَـوِّ السَّـماءِ ما يُمْسِــكُهُنَّ إِلَّا اللــهُ إِنَّ فِي ذلِــكَ لَآيــاتٍ لِقَــوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

اي في الهــواء المحيط بــالأرض ، ولو لا الهــواء لما كانت الطيور قـادرة على البقـاء في الجو ، ولو لا الجاذبية المحيطة بالأرض لقذفت الطيور بمجرد صعودهن في كرة أخرى ، أو في الفضاء اللامتناهي.

[80] وهكذا القلب المؤمن الذي أسلم لله يعــرف ما وراء نعم الله من عبر وأهداف.

(**وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً**)

أي محلا تسكنون اليه.

(**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ**)

اي بيوت الجلد الّتي هي خفيفة للسفر والحضر.

(**وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها**)

اي أصواف الضأن وأوبار الإبل واشعار المعز.

(**أَثاثاً**)

كالفراش والدثار الّتي يتمتع بها الإنسان لأجل مسمى.

(**وَمَتاعاً إِلى حِينٍ**)

[81] تلك كانت نعمة السّكن ، وأمتعة الإنسان الّتي تحفظ البشر من اختلاف الحر والبرد ، وظلال الأشجار تقي السّائر في الصحراء حر الظهيرة ، والكهوف تحمي الإنسان من عادية البرد والحر ، ومن الوحوش الضارية.

(**وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً**)

كالأشجار الّتي أنبتها الله في الأرض ليستظلها الإنسان.

(**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً**)

اي مواقع تستترون فيها.

(**وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ**)

فهناك ملابس السّلم تقي حرّ الجو ، وملابس الحرب (كالدروع) تقي حرّ

السّيف.

(**كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ**)

هكذا يحوط الله برحمته الواسعة الإنسـان الضـعيف ، ليعلم حاجته الى ربه ، فيسلم اليه وجهه ، ولا يتجبر عليه.

إذا الهدف الأسمى لنعم السّكن وما يحفظ البشر من شـــرور الطبيعة هو : دفعه الى التســـليم لربه ، ليحافظ بذلك على نفسه من غضب الله.

الهداية بين الإكراه والاختيار :

[82] ولكن لا تبلغ قــوة الــدفع درجة الإكــراه ، فالله يريد ان يهدي الإنسان بما يوفر له من نعم ، ولكنه لا يريد أن يجبره على ذلك ، فاذا أعرض عن الرسالة فليس على الرسول سوى إبلاغ الرسالة اليه.

(**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**)

[83] وليس النقص في الآيـــــات ، أو في وســــائل المعرفة عند البشر ، بل في ارادة الكفر الّـــتي عقـــدوا العزم عليها.

(**يَعْرِفُـــونَ نِعْمَتَ اللـــهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَـــرُهُمُ الْكافِرُونَ**)

وَيَـوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ شَـهِيداً ثُمَّ لا يُـؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَــــرُوا وَلا هُمْ يُسْـــــتَعْتَبُونَ (84) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُـوا الْعَـذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَـرُونَ (85) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْــرَكُوا شُــرَكاءَهُمْ قــالُوا رَبَّنا هـؤُلاءِ شُـرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَـدْعُوا مِنْ دُونِـكَ فَـأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَـوْلَ إِنَّكُمْ لَكـاذِبُونَ (86) وَأَلْقَـوْا إِلَى اللـهِ يَوْمَئِذٍ السَّـلَمَ وَضَـلَّ عَنْهُمْ ما كـانُوا يَفْتَـرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَـدُّوا عَنْ سَـبِيلِ اللـهِ زِدْنـاهُمْ عَـذاباً فَـوْقَ الْعَـذابِ بِما كـانُوا يُفْسِـدُونَ (88) وَيَـوْمَ نَبْعَثُ فِي كُـلِّ أُمَّةٍ شَـهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ وَجِئْنا بِـكَ شَهِيداً عَلى هـؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْـكَ الْكِتـابَ تِبْيانـاً لِكُـلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

لا يؤذن لهم ولا هم يستعتبون

هدى من الآيات :

الّذين يتولون ويعرفون نعمة الله وينكرونها ـ حسـبما ذكرهم الدرس السّابق ـ ينتظـرون يـوم العـذاب الأكـبر ، حين يبعث الله شـهيدا من كل طائفة من النـاس ليشـهد عليهم ، فاذا شهد لـزمهم العقـاب دون أن تجـري محاولة لإصلاحهم كما كـان في الـدنيا ، ثم حين العـذاب لا يخفف عنهم شفقة بهم ، ولا تعطى لهم مهلة لـدخولها ، ولا تبقى لـديهم حيلة الّا محاولة يائسة لإلقـاء مسـئولية انحـرافهم على من أطاعوهم واتبعـوهم من دون الله وهم الشـركاء يتـبرءون ــ بـدورهم ــ من أمـرهم ، وسـكت الجميع واستسـلموا لله ، وتبخـرت الأفكـار التبريرية الّـتي كـانوا يفترونها من دون الله.

ولكن الكفار الّذين أضافوا الى كفرهم جريمة إضـلال الناس ، وقطع الطريق على من أراد مرضاة الله ، لهـؤلاء المزيد من العـذاب بسـبب افسـادهم في الأرض وإضـلال الآخرين.

من الشاهد؟

[84] كل جيل من البشر ، وكل فريق من النـــــاس يعيشـون في قرية أو ضـاحية ، يشـهد عليهم واحد منهم ، يكون أفضلهم سلوكا وأقـربهم الى الله زلفى ، ابتـداء من الأنبياء والأوليـاء ، ومـرورا بعبـاد الله الصـالحين والعلمـاء العدول ، وانتهاء بكل من يسـبق من حوله في طريق الله خطـوة واحـدة ، فحـتى هـذا الأخـير شـهيد على الآخـرين بنسبة تلك الخطوة الّتي سبق الناس بها الى الله.

(**وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً**)

وهـذا الشـهيد هو أمـام قومه عند الله ، فـان اتبعـوه ظاهرا قادهم الى الجنة ، وان خالفوه سـاقهم الى النـار ، وشهد عليهم عند رب العالمين.

يقـول العلامة الطبرسي : بيّن سـبحانه أنه يبعث فيه (يوم القيامة) من كل أمة شـهيدا وهم : الأنبيـاء والعـدول من كل عصر ، يشـهدون على النـاس بأعمـالهم. وقـال الصادق (ع):

«**لكل زمان وأمة امام تبعث كل امة مع أمامها**» (1)

(**ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**)

اي انهم لا يمكنهم ان يعتـــــذروا ، ولا يحـــــاول أحد ارضاءهم أو إصلاحهم كما كان الشهداء يفعلون في الـدنيا ، فيسعون من أجل إصلاحهم والاستماع الى حديثهم.

[85] ويـوم القيامة يعـرض الظـالمون الّـذين غصـبوا حقوق الآخرين ، واعتدوا

(1) مجمع البيان الجزء ـ 6 ـ الصفحة 378

على حرمات الله ، يعرضون على النــار ثم لا يخفف عنهم العذاب ولا تعطى لهم مهلة.

(**وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَـذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**)

اما قبل ذلك في الـدنيا فـإنهم قـادرون على تخفيف العذاب عن أنفسهم بالتوبة ، وتأخيره بالدعاء.

مسئولية الانحراف :

[86] ويبدأ يومئذ الصـراع السّـاخن بين المشـركين ، وبين من عبـدوهم من الطغـاة ورمـوز الفسـاد السّياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فيتبرأ كل فريق من الآخر.

(**وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْـرَكُوا شُـرَكاءَهُمْ قـالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ**)

وطلبوا من الله ان ينزل بهم العذاب ويـتركهم ، لأنهم كانوا ـ في زعمهم ـ مجبورين ، كانوا شـعبا اعـزلا لا حـول لهم في مقاومة الطـاغوت ، كـانوا أبنـاء قبيلة لا قـوة لهم في التمرد على رئيس القبيلة ، كـانوا جميعا رعـاع لا علم لهم حتى ينتقدوا علماء السّوء ووسائل الاعلام المضــللة ، إذن ينبغي أن يتحمل القادة العذاب عنهم ، ولكن الشركاء وهم طغاة السّياسة والاجتماع والاقتصاد تبرؤوا بدورهم.

(**فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ**)

اي ألقوا هذا الكلام.

[87] وخضع الجميع ، الشركاء والمشركون بهم ، لله رب العالمين.

(**وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ**)

فرفعوا أيديهم خاضعين لله.

(**وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

فقد زالت عنهم نخوة الجاهلية ، وتلك الأفكار الباطلة الّـتي زينـوا بها شـركهم ، زالت عنهم الأسـماء البراقة ، والعناوين ، والشعارات ، وما فلسفوا به تسـلطهم الباطل ، وما افتروا على الله كذبا.

عذاب المضل أشد :

[88] ولكن لا يعـني هـذا أن الشـركاء متسـاوون في العذاب مع المشركين ، كلا .. القادة الّـذين ظللـوا النـاس أشد عذاب ، لأنهم أفسدوا عقـول النـاس ، ومنعـوهم من ممارسة حريتهم والسّير في طريق الله.

(**الَّذِينَ كَفَرُوا**)

بأنفسـهم .. كفـروا بالله ، ولم يشـكروا نعمة الجـاه والمال والعلم.

(**وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

فاتخذوا هذه النعم وسيلة للتسلط على الناس ، ومنع الناس من ممارسة عبودية الله وتطبيق مناهجه.

(**زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ**)

اي فوق جزائهم الطبيعي من العذاب.

(**بِما كانُوا يُفْسِدُونَ**)

لأنهم صدوا الناس عن سـبيل الله ، وأفسـدوا فطـرة النـاس بتضـليلهم وافـتراء الكـذب عليهم ، كما صـدوا عن سبيل الله عمليا بالإرهاب ، فأفسدوا على النـاس حيـاتهم بسلب الحرية والاستقلال عنهم ، والآية هذه تـدل على أن التضليل نوع من الإفساد.

[89] ويبعث الله الرســول شــهيدا على النــاس في عصره والعصور من بعــده ، بعد ان زوده بكل ما ينفعهم ، كتابا .. فيه تفصـيل منـاهج الحيـاة ، ويهتـدي به من أسـلم وجهه الى الله ، كما يـوفر له أفضل حيـاة ، ويبشر بحيـاة أفضل في الآخرة.

(**وَيَــوْمَ نَبْعَثُ فِي كُــلِّ أُمَّةٍ شَــهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِـكَ شَـهِيداً عَلى هـؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْـكَ الْكِتـابَ تِبْيانـاً لِكُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـدىً وَرَحْمَـةً وَبُشْـرى لِلْمُسْلِمِينَ**)

إِنَّ اللهَ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالْإِحْسـانِ وَإِيتـاءِ ذِي الْقُـرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُـوا بِعَهْـدِ اللــهِ إِذا عاهَـدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَـدْ جَعَلْتُمُ اللـهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللـــهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُـــونَ (91) وَلا تَكُونُـــوا كَـالَّتِي نَقَضَـتْ غَزْلَها مِنْ بَعْـدِ قُـوَّةٍ أَنْكاثـاً تَتَّخِـذُونَ أَيْمـانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُـونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْـئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (93) وَلا تَتَّخِـذُوا أَيْمـانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها

وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (94) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (97)

العلاقات المثلى في المجتمع الإسلامي

هدى من الآيات :

لقد بينت الـــدروس السّـــابقة فضـــيلة العلم وقيمة التقــوى وحاجة الإنســان إلى المدينة ببنائها وأمتعتها وإلى نظـام اجتمـاعي توحيـدي بعيد عن الشـرك ، وإلى قيـادة سماوية تتجسد في الرسـول ، وها هو هـذا الـدرس يأمرنا بالعلاقات الإسلامية المثلى بين أبنـاء آدم ، بـإن يعطى كل فــرد حقه ، وأن يــزاد له بالإحســان ، وأن يبــني الحيــاة الأسرية على أساس العطاء ، وان يتقي الفحشاء والمنكر والاعتداء ، تلك هي موعظة الله الهادفة لتوجيه الإنسان.

وأن يحـترم الجميع عهـودهم وأيمـانهم الّـتي أشـهدوا عليها الله ، والّا ينكثوا أيمـانهم الّـتي أكـدوها بينهم ، كتلك المرأة الخرقاء الّتي كانت تنقض آخر النهـار ما غزلته أوله ، فلا تجعلـوا اليمين وسـيلة للغـدر للحصـول على نصـيب أوفر من الـدنيا. ولا لكي يتعـالى بعضـكم على بعض ، ان الله يختـبركم باختلافـاتكم الطبيعية ، وغـدا يـبين لكم من كان منكم على حق ومن لم يكن ، ولو شاء الله لبيّن ذلك هنا ، فنصر صاحب

الحق بـالغيب الظـاهر ، ولكنه شـاء أن يـدعكم أحـرارا ليسألكم عن أعمالكم ، ولكي (**يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ**) حسب حكمته.

فلا تجعلوا الـدين وسـيلة للغايـات المادية ، فتحلفـوا كـذبا وغـدرا فـتزل بـالكفر قـدم كـانت ثابتة بالإيمـان ، ويصيبكم سوء الجزاء بسـبب انهيـار الثقة بينكم. وصـدكم عن سـبيل الله المتجسد في العهد ، كما يسـجل لكم عذاب عظيم.

وعهد الله الـذي تخونونه أعظم شـأنا من المصـلحة المادية الّـتي تبيعونه لها ، فـإن ما عند الله لمن ثبت على عهده خير من مصلحة الدنيا الّتي تفـنى ويبقى ما عند الله فقط ، والله يجزى الصابرين بخير ما عملوا.

ذلك الخير هو توفير حياة طيبة لهم ، في الدنيا وجزاء حسن في الآخرة.

بينات من الآيات :

العدل سنة اجتماعية وواجب الهي :

[90] على كل واحد من أبنـاء المجتمع الاسـلامي ان يكون عادلا ، يعطي كل شخص حقه الفطري والقـانوني ، وليس الحفـاظ على العـدل مسـئولية الدولة فقط ، لأن المجتمع الـذي لا يشـعر أبنـاؤه بضـرورة تطـبيق القـانون واحـترام حقـوق الآخـرين ، لا يمكن للدولة فيه أنى كـانت أن تجبره على ذلك.

(**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**)

والعدل لا يتنافى مع اختلاف الدرجات الذي تشير اليه الآية الآتية ، إذ قد تكـون المسـاواة أقبح ظلم ، فليس سـواء الجاهل والعـالم ، الكسـول والنشـيط ، المضـحي بنفسه والجبان .. و. و. إلخ.

وبـالرغم من حاجة المجتمع إلى قـانون يحـدد أبعـاد العدالة ، وحقـوق الطبقـات المختلفة ، حسب مسـاعيهم وحاجاتهم وحاجة الناس إليهم ، ومما يجعل للعدالة معـان مختلفة حسب القوانين والأعراف.

إلّا ان العدالة واقع فطـــــــــري لا يختلف البشر في خطوطه العريضة ، وان اختلفوا في التفاصيل.

ولكن قد يتعاسر النـاس في تطـبيق العدالة ، فنحتـاج إلى القضـــاء الـــذي لا يرضى عنه كل الخصـــماء ، كما لا يطمئن الإنسان إلى نتائجه مائة بالمائة.

الإحسان ضرورة العدل :

ولذلك يأمر القرآن بالإحسـان ، الـذي هو التنـازل عن بعض الحقـوق للآخـرين ، والـذي يسع رحابه العدالة ويزيد .. فيقول :

(**وَالْإِحْسانِ**)

ويؤكد الإسلام على الإحسـان لـذوي القـربى ليشـكل الخلية الأولى في الكيان الاجتماعي.

(**وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى**)

وجـاء في بعض النصـوص الاسـلامية ان تفسـير ذي القـــربى هو : «أهل بيت الرســول عليهم أفضل الصـــلاة السـلام» وان الإيتـاء هو الخمس المـذكور في الآية (41) من سورة الأنفال ، وقد نستوحي ذلك من سياق الحـديث عن شهادة الرسول على الأمة في الدرس السابق.

(**وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**)

الفحشاء كما قال في المفـردات : ما عظم قبحه من الأفعال ، ويبـدو من أصل اللفظة أن الفحشـاء هي تجـاوز الحد ، والـــذي يتناسب مع الإســـراف والتبـــذير ، ومن المعلوم : أن الإسراف أصل كل خطيئة ورأس كل رذيلة.

اما المنكر فهو الذنوب التي ينكرها الناس.

ويبـدو ان معنـاه هو كل فحشـاء قبيحة عند النـاس ، وهي أشد من سائر أنواع الفحشاء ، بينما البغي هو تجاوز حقوق الناس بصورة علنية ، أو عن طريق الغش والخداع و.. و..

(**يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)

انها حقـــــائق فطر قلب البشر عليها وهو بحاجة إلى من يذكره ويعظه بها.

الوفاء لا النقض :

[91] المجتمع الـذي يمتلك أساسا لعلاقاته ، وركـيزة يعـود إليها عند الضـرورة ، يسـتطيع ان يتبـادل بسـهولة ، والمجتمع الإسـلامي قـائم على أســاس الالــتزام بالعهد واليمين ، اللّذين يؤكدان باسم الله.

(**وَأَوْفُــوا بِعَهْــدِ اللــهِ إِذا عاهَــدْتُمْ وَلا تَنْقُضُــوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً**)

فلأن أبنـاء المجتمع يتمسـكون بقيمة التوحيد ، ولأنهم لا يضـحون بأيمـانهم ابتغـاء عـرض الحيـاة الـدنيا ، فـإنهم يعتمدون على بعضهم في أمورهم الاقتصادية ، وحـتى في شؤونهم السّياسية.

إن الثقة المتبادلة هي أعظم رصـــيد يملكه المجتمع المسلم في معاملته مع بعضه ،

ذلك لأن شرف التوحيد يأبى لهم ان يغـدروا ببعضـهم وهم يؤمنون برعاية الله عليهم.

(**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ**)

[92] تـروي قصص العـرب أن امـرأة قرشـية خرقـاء كـانت تغــزل هي وجواريها عــرض النهــار ، فــاذا أمسى نقضت الغزل ، وتركته كحالته السّــابقة أنكاثا ، لا فتل فيه ولا إبــرام ، فنهى القــرآن الحكيم أن نكــون مثلها ، نتعب أنفسنا في أمر الدين حتى إذا أحكمناه عــدنا ننقضه بنكث العهد ونقض القسم.

(**وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ**)

اي مثل «ريطة بنت كعب» خرقـاء مكة الـتي غـزلت بقوة ، ثم نقضت من بعد قوة.

(**أَنْكاثاً**)

جـاء في (المجمـع) : وكل شـيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث ، حبلا كان أو غزلا.

(**تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ**)

اي تستخدمون اليمين وسـيلة للغـدر ، والـدخل ـ في الأصل ـــ كلما دخل الشــيء ، وليس منه ، ويكن به عن الخدعة والخيانة.

(**أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ**)

اي بهدف ان تكون أمة أعلى من أمة اخرى وتتسـلط على أختها وتحافظ على سيطرتها بالخداع.

وما الحلف والعهد ، وما نوازع السّلطة والاستعلاء إلا ابتلاء الهي.

(**إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ**)

ولن يصبح الحق باطلا بتضليل الناس ، ولن يصبح السّيء صالحا بتبريره للنفس أو للآخرين ، إذ ان هناك يوما يكشف الله فيه الحق لكل الناس.

(**وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**)

[93] ولكن لماذا لم يبيّن الله في الدنيا واقع الخدّاعين ، المتسلطين على رقاب الناس؟ ان لهذا حكمتين :

الاولى : ليمنح نعمة الهداية للبعض ، ويسلب نور العقل من آخرين حسب اختيارهم هم ، لا حسب علمه سبحانه.

الثانية : ليجازي صاحب الخير ، وفاعل الشر بالعمل الذي ما رسوه بكل اختيار وحرية.

(**وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

آثار اليمين الكاذبة :

[94] وعاد السّياق ينهى عن الخداع في اليمين ، ويحذر من آثاره الفكرية والاجتماعية.

أ/ فمن الناحية الفكرية : حنث اليمين ونكث العهد يسبب ضلالة صاحبه ، فاذا بتلك القدم الثابتة بسبب الإيمان تزل بالحنث والنكث ، وماذا ينفع الثبات في

أوضاع عادية ، إنما الثبات عند ما تهب عواصف المصالح.

(**وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها**)

ب / ومن الناحية الاجتماعية : لا يمكن ان يستخدم الفرد يمينه (وبالتالي شرفه وحسن سمعته عند الناس) إلا مرة واحدة ، وبعدها يكشفه الناس ، بل وتشيع عند الناس فكرة خبيثة هي : أن أهل هذا البلد لا يحترمون اليمين ، فلا يحترم بعضهم يمين البعض ، وإذا سقطت قيمة اليمين الاجتماعية أغلق باب واسع للثقة وللتعاون ، وبالتالي أنهار البناء الاجتماعي ، ويذوق الجميع فاجعة تهاونهم باليمين ، وصدهم عن سبيل الثقة بها.

(**وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**)

وسبيل الله هو كل خير ، وكل تقدم وعمران ورفاه للناس ، ومنع الناس عن سبيل الله. وصدهم عنه قد يكون بإغلاق طرق التعاون واليمين من أفضلها ، إذ لا شيء من القوانين والوثائق والضمانات والرهون بسهولة اليمين ولا بقوته في إشاعة الثقة والتعاون.

(**وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**)

[95] وكما اليمين العهد الذي يشتري به البعض ثمنا قليلا وإن كانت قيمة الثمن الذي يقبضه الفرد بيع شرفه وعهده وايمانه فانها ستكون قليلة ، لأنها تسقط هيبة العهد فيسد باب كبير للرحمة.

(**وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)

فمن يبــدل رحمة الله ببضع دراهم يكســبها من نكث العهد أو بسلطه زائلة أو ما أشبه؟!

خلود الجزاء :

[96] علما بـأن ما عند الله من خـير يبقى ببقـاء الله سـبحانه ، بينما حطـام الـدنيا يـزول بـزوال العوامل الـتي أنشأته.

(**ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ**)

إن الحق الــذي يضــمن الله ثباته ، أبقى من الباطل الذي يضمنه غرور الإنسان ، وخـداع الشـيطان ، لقد خلق الله السّموات والأرض بالحق ، فلذلك تخدم حركة الكـون ســــلطة الحق ، بينما الباطل يجـــــري في عكس حركة الطبيعة والتاريخ.

فطرة الإنسان حق ، لأن القوانين النفسية والجسمية والاجتماعية السّـائدة على أبعـاد حيـاة البشر لا تتغـير منذ خلق الله آدم وإلى الأبد ، فاذا كانت فطرة الإنسان قائمة على أســاس الوفــاء بالعهد ، فــان المجتمع القــائم على أســاس شــرف العهد يكــون أبقى ، وخــير الله أكـثر مما يحصل عليه بعض الأفراد بسبب الغدر والمكر.

إلا أن الحق بحاجة إلى الــزمن حــتى يظهر ، ولــذلك فإنا بحاجة إلى الصبر حتى يخدمنا الزمن.

(**وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَـنِ ما كـانُوا يَعْمَلُونَ**)

فــــان طيبـــات العمل تنمو في عمق الــــزمن ، بينما يذهب العمل السّيء كما يذهب غثاء السّيل برغم ظهـوره وبروزه ، وقال الحديث : «**للباطل صولة وللحق دولة**».

الحق صلاح :

[97] الحق في واقع السّـعي صـلاح ، فمن اتبع الحق فـان عمله صـالح ، ينمو مع نمو الطبيعة ، ويـزرع بـذلك بـذور الحيـاة الطيبة لنفسه في ارض الـزمن المباركة ، ليحصد جزاء حسنا في الدنيا واجرا كريما في الآخرة.

(**مَنْ عَمِلَ صـالِحاً مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْـثى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْـزِيَنَّهُمْ أَجْـرَهُمْ بِأَحْسَـنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

وهكـذا يغفر الله لمن عمل صـالحا سـيئات عمله ، ويحفظ له صالحات عمله ليجزيه بها خيرا.

وجـاء في حـديث مـأثور أن «**الحيـاة الطيبة هي القنـوع**» ولا ريب أنه كـنز من كنـوز الله الـتي لا تنفد ، وتطيب الحيـاة كلما طـابت النفس البشـرية في مواقفها منها ، فإن الرضا أطيب من كل الطيّبات.

وكلمة اخـيرة : إنّ العهد ليس فقط أسـاس التعامل المـالي في المجتمع ، بل قبل ذلك أسـاس التعـاون السّياسي ، وإذا انعدم شرف العهد في أمة ، فسوف يبـدأ بالتشـرذم السّياسي ، وقـديما قيل : «لا وفـاء لملك وأن الملك عقيم».

ولذلك أكد القرآن الحكيم في هذا الدرس على حرمة نقض العهد من أجل سـلطة قـوم على آخر ، وأن تكـون أمة هي أربى من أمة.

فَـإِذا قَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللـهِ مِنَ الشَّـيْطانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُـلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّما سُــلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَـزِّلُ قـالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَـرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَـهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِـالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَهُـدىً وَبُشْـرى لِلْمُسْـــلِمِينَ (102) وَلَقَــدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُـــونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسـانُ الَّذِي يُلْحِـدُونَ إِلَيْـهِ أَعْجَمِيٌّ وَهـذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيــاتِ اللــهِ لا يَهْـدِيهِمُ اللــهُ وَلَهُمْ عَــذابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّما يَفْتَـرِي الْكَـذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِآيـاتِ اللـهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105)

كيف نفهم الكتاب؟

هدى من الآيات :

كان الدرس السّـابق بعض تعـاليم القـرآن الاجتماعية الرشيدة التي لا ينكرها الا الجاحدون ، وهي تــدل على ان الكتــاب من الله ، بيد أن الكتــاب لا يفهمه إلا من تخلص من ســلطان الشــيطان ، ولا يتخلص منه إلا المتوكلــون الــذين يســتعيذون بالله من شــره ، اما الــذين يقوّلونه ويجعلونه شــريكا في أمــورهم بطاعته ، فــإن الشــيطان يتسلط عليهم ولا يدعهم يبصرون نور القرآن.

وقد ينسخ الله آية بآية لعلمه بالمصــالح العامة الــتي تتغير وفق الظروف ، فآنئذ يجد المشــركون فرصــتهم في اتهام الرسول بأنه مفتر ، لجهل أكثرهم بحكم الآيــات. كلا .. إنّ القرآن كتاب الله الذي أنزله روح القدس بالحق من الله ، ليكون تثبيتا لإيمان المؤمنين ، وهدى لهم ، وبشــرى إلى حياة أفضل.

ويقولــون : إنّ الرســول يتعلم من بعض النصــارى المبــادرين بالإســلام ، دون ان يعرفــوا الفــرق بين لســان النبي ولسانهم ، فبينما ذلك اللسان أعجمي نرى القرآن

يحدثنا بلسان عـربي مـبين ، وليس الجـدل في القـرآن إلا بسبب جحودهم به ، ولا يهـدي الله قلبا جاحـدا ، بل يذيقه عذابا أليما.

وكيف يفـتري الكـذب شـخص مخلص لربه ، محسن إلى النـاس كمحمد (ص) والـذي يعـرف أن الكـذب أبعد خصلة عن المؤمن ، ولا يفتري الكذب الا الذين لا يؤمنـون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون حقا؟!

بينات من الآيات :

توكل على الله :

[98] القلب البشـــــري يلفه الظلام الآتي من طبيعة الضعف والجهل فيه ، ومن تأثير جاذبية الطبيعة ، وبالرغم من أن هــذه النفس قد أوتيت قبسا من نــور الحقيقة هو الــذي نســميه بالعقل والارادة ، إلا أن على الإنســان أن يتحـــدى الظلام المحيط بنفسه عن طريق إثـــارة عقله ، ويتحدى ضعفه ويأسه وخوفه بالتوكل على الله.

ان أقوى الحجب الـتي تمنع النـور عن قلب البشر هو : الخـــــوف من الحقيقة ، والجبن عن مواجهة القـــــوى الفاسدة والباطلة التي ترفض الحقيقة.

الاســـــتعاذة بالله ، والطلب المباشر منه لكي يحفظ الإنسـان من خطر القـوى الـتي تـرفض الحق ، إنه العلاج المباشر لمشكلة الخوف من الحقيقة ، ولمقاومة سلطان الشيطان على القلب.

(**فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللـهِ مِنَ الشَّـيْطانِ الرَّجِيمِ**)

لكي نبلغ قمة الحقيقة المتمثلة بـــــــالقرآن لا بد أن نتجاوز جاذبية الأرض ، والقوة التي بها نقاوم هذه الجاذبية المتجسدة في الشهوات هي قوة التوكل على الله ،

والاســــتعاذة نــــوع من التوكل ، وتفــــترق عنه في أن الاســـتعاذة طلب ملح من الله بإنقــاذ الإنســان من شر محـدق ، وأي شر أخطر من شر العقيـدة الباطلة ، أو من شر الجهل بالحقيقة الـذي تخلقه وسـاوس الشـيطان في القلب؟!

وفي طول فترة تلاوة القرآن لا بد أن يسـتعين البشر بربه.

التوكل حصن المؤمن :

[99] الشيطان ينفذ الى قلب الشخص ، ويتجسد في شـكل القـوى السّياسـية والاجتماعية المحيطة به ، ولكن المـــؤمن الـــذي يتوكل على الله يحفظه الله من هــــذا الشيطان الذي يجري فيه مجرى الدم.

(**إِنَّهُ لَيْسَ لَـهُ سُـلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**)

بينما الـذي لا يـؤمن بالله يتسـلط عليه الشـيطان ، فيضله عن الحقيقة لضعف إرادته.

[100] الـــذي يتخذ الشــيطان وليا وقائـــدا مطاعا ، فيشــرك بالله ويتخذ من الشـيطان شـريكا مزعوما لله ، ويعبد الله حينا ويعبد ويطيع الشـــيطان حينا آخر ، إنه يقع فريسة الشيطان الذي لا يستطيع ان يتخلص من شـره إلا بالاستعاذة بالله.

(**إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِـهِ مُشْرِكُونَ**)

يبـدو أن هنـاك فـريقين يتسـلط عليهما الشـيطان ، إنســيا كــان شــيطانهما أو جنّيا ، ظـــاهرا كالطغـــاة والمســــــتكبرين ، أو باطنا كالعقائد الفاســــــدة والعقد النفسية.

الفريق الأول : الـــذين يتخـــذون الشـــيطان وليا ، ويخلصون الانتماء اليه كمثل

أئمة الكفر ، والملأ من حول الفراعنة ، والبطانة من حول الطغاة.

الفريق الثاني : الذين يطيعون الشيطان خوفا وطمعا وسـواء هـذا الفريق أو ذاك فـإنهم جميعا يصـبحون عبيد الشيطان ، ويفقدون حريتهم واسـتقلالهم وثـرواتهم الـتي يصادرها الشيطان.

القـوى الاسـتكبارية في الأرض المتمثلة اليـوم في «امريكـا» و «روسـيا» واقمارها المفسـدين ، لم يفوضـوا بالسـيطرة على الشـعوب المستضـعفة من قبل الله الحكيم سـبحانه ، إنما نحن الـذين خضـعنا لإديولـوجيتهم فأخضعونا لمصالحهم ، أو خضعنا للثروة والقوة رهبا ورغبا ، فـامتلكوا دوننا ناصـية الـثروة والقـوة ، واسـتعبدونا صاغرين.

والآن كيف نتخلص؟

لا بد أولا من التحـرر عن إديولوجية الاسـتعمار ، وعن التبعية المطلقة للمـال والرجـال ، ثم العـودة إلى الله ، والاستعاذة به من شر الشيطان ، ذلك لأن الطبيعة ترفض الفراغ ، والقلب البشري ينقاد إما لسلطة الله أو لتسـلط الطاغوت ، فإذا رفضنا ولاية الله استعبدنا الشـيطان ، ولا حيـاد بين الحق والباطل ، كما لا مسـافة بين الكفر بالله ورفض حاكميته على الإنسـان ، وبين الإيمـان بالطـاغوت والخضوع لتسلطه واستغلاله.

والسّياق القرآني يشـير إلى هـذه المعادلة ، إذ يأمرنا ربنا بالاستعاذة بالله والتوكل عليه ، ثم يبيّن أن الشـيطان عاجز عن التسلط على المتوكلين بالله.

ونتسـاءل معا : هل تعـني الاسـتعاذة مجـرد التوجه القلبي الى الله؟ أم ان تطبيق مناهج السّماء في الوحـدة والصبر ، والاسـتقامة والسّـعي ، والقيـادة الرشـيدة ، كل أولئك بعض معـاني الاسـتعاذة بالله ، وبالتـالي طـرق مقاومة العبودية للشيطان الانسي

والجني؟

شيطان الفكر :

[101] الشـيطان الثقـافي أخطر على الإنسـان من زملائه شياطين الثروة والإرهاب والزينة؟

ذلك لان قـــدرة الإنســـان على التميـــيز بين الحق والباطل ليست عالية ، وذلك لســـبب بســـيط أن القلب البشري يتعرض لعواصف الشهوات ، فيخبو ضـوء العقل ، ولو لا تـدخل قـوة غيبية هي قـوة الإيمـان والتوكل ، فـإن رياح الشهوة تكاد تطفئ مشعل العقل.

من هنا كـانت الشـبهات خطـيرة ، ومن هنا أيضا لم يتخلص حتى المؤمنون من وساوس الشيطان ، فغفر الله لهـذه الأمة المرحومة ما يوســوس به الشـيطان إذا لم يعتقد به المؤمن.

ومن الشبهات ما أثاره الشياطين حول تبدل الأحكـام الشـرعية وفق متغـيرات الظـروف فقـالوا : إذا كـان الرسول صادقا إذا لم يأت كل يوم بقانون جديد ومخـالف للقـانون السّـابق؟ بل قـالوا : إذا كـانت رسـالات السّـماء صادقة إذا ما اختلفت شرائعها؟

ولكن الله اعلم بما يـنزل ، وهم جـاهلون ولا يعلمـون أن الحيـاة تتغـير ، وكل قـانون يناسب وضـعا معينا ، فـإذا نزل فيه كان حكيما ، وإذا تخطاه كان سفها.

(**وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ**)
فهو عالم بحكم النسخ والتغيير.

(**قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

وإذا ترسخت هذه الشبهة في قلب فليس من السّهل إزالتها ، لذلك كـان علينا الاسـتعاذة بالله أبـدا حين قـراءة القـرآن ، بل حين دراسة أيّة قضـية علمية حـتى لا يختلط الحق والباطل في أذهاننا.

[102] ان الـذين يكـذبون ويبـدلون آراءهم كل يـوم ، بل بين ساعة وأخرى انما يتبعون أهـواءهم ، بينما الكتـاب نزّله الله بســبب روح القـــدس المعصـــومة عن الزلل ، والمقدسة عن الأهـواء ، وحكمة هـذه الـروح الـتي ترافق الرسول أن تثبّت المؤمنين وتعصمهم من غواية الشيطان ومن شبهاته.

(**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ**)

فالحق المتمثل في سنن الله ، في الآفـاق والأنفس ، هو باطن آيات الله ، كل آية مظهر لسنة إلهية راسخة في ضـمير الخلـق. والسّـنن ليست واحـدة وكـذلك الآيـات. والاختلاف بين الخلق موجود ، ودليل على وحدة خالقهم ، كذلك الاختلاف في آيات الله الكاشفة لتلك السّنن موجود ، وكاشف عن علم الله سبحانه.

(**لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا**)

فالذين آمنوا يعتصـمون بـروح القـدس ، ويظلهم روح القدس بقبس من نوره.

(**وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ**)

فمن أسـلم وجهه لله ، هـداه الله بـالقرآن وبشـره بحيـــاة طيبة ، وإذا تكامل فانه ســـوف يصـــبح مؤمنا ، والمؤمن يملك قوة الهية تحفظه من كيد الشيطان ، ومن شبهاته وهذا يسمى بالعدالة ، ويقولون خطأ أنها ملكة في النفس؟

من شبهات الشيطان :

[103] وشبهة اخرى يطرحها الشيطان.

(**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌ**)

يلحدون : أي يميلون. فقد قالوا : أن رجلا اسمه (ابو فكيهة مولى بني الخضرمي) كان اعجمي اللسان ، وكان قد اتبع نبي الله وآمن به ، وكان من أهل الكتاب ، قالوا أنه يعلّم الرسول!!

وبعض التفاسير تقول : إنه غير هذا الرجل ، ولكنه على أي فرض كان أعجمي اللسان ، والقرآن نزل بلغة عربية واضحة.

(**وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**)

الرد على الشبهة :

إنّ الترجمة تحمل طابعها مهما كانت بلاغة المترجم ، لان كل لغة تعبر عن ثقافة خاصة صيغت تلك اللغة على مقاسها ، واللغة العربية لم تكن قادرة على التعبير بدقة عن الأفكار الدخيلة ، ولم تكن واضحة بذلك الوضوح المتناهي في البلاغة والنفاذ الى القلب ، لو لا أن ملاقيها قد تعمق في فهم المحتوى ، واهتدى إلى الموضوع الذي يعبّر عنه ، وواضح أن التعبير المفصل لا يكون من دون فهم عميق للفكرة ، فكيف يعبر الرسول عن كل تلك الأفكار المفصلة والدقيقة إذا كان مجرد مترجم؟!

[104] ثم ان القلب الذي لا يؤمن بالله لا يقدر أن يعبّر عن الله ، وأن ينطق باسم الله بهذا الوضوح والصراحة والقدرة ، ذلك لأن.

(**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللـهِ لا يَهْـدِيهِمُ اللـهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

[105] والمــؤمن بالله لا يفــتري على الله ، خصوصا ورسول الله أكّد بوضوح مـدى جريمة الافـتراء على الله ، فكيف يرتكب بنفسه لو كان مؤمنا هذه الجريمة؟!

(**إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِآيـاتِ اللـهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ**)

الذي يؤمن بآيات الله ، وشخص رسول الله هو أظهر مصاديقه بلا ريب ، فإنه يخشى من الكـذب ، بل إنه قـوي لا يحتاج إلى الكذب ، وعالم لا يتورط في الكذب.

ولــذلك جـاء في الحـديث النبــوي : عن عبد الله بن جراد أنه سأل النبي (ص) قال : «هل يزني المؤمن؟ قـال : قد يكـون ذلـك! قـال : هل يسـرق المـؤمن؟ قـال : قد يكون ذلك! قال : هل يكذب المؤمن؟ قال : لا» (ثم اتبعها نــبي اللــه) (ص) «(**إِنَّما يَفْتَــرِي الْكَــذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**).»

مَنْ كَفَـرَ بِاللـهِ مِنْ بَعْـدِ إِيمانِـهِ إِلاَّ مَنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمــانِ وَلكِنْ مَنْ شَــرَحَ بِــالْكُفْرِ صَــدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَــبٌ مِنَ اللـهِ وَلَهُمْ عَـذابٌ عَظِيمٌ (106) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْـتَحَبُّوا الْحَيـاةَ الـدُّنْيا عَلَى الْآخِـرَةِ وَأَنَّ اللـهَ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْكـافِرِينَ (107) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَـمْعِهِمْ وَأَبْصـارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغــافِلُونَ (108) لا جَــرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِــرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْــدِ ما فُتِنُــوا ثُمَّ جاهَــدُوا وَصَــبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْــدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَوْمَ تَـأْتِي كُـلُّ نَفْسٍ تُجـادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ

---

109 [لا جرم] : حقا ـ لا محالة.

نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111) وَضَـرَبَ اللـهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَـداً مِنْ كُـلِّ مَكـانٍ فَكَفَـرَتْ بِـأَنْعُمِ اللـهِ فَأَذاقَهَا اللـهُ لِبـاسَ الْجُـوعِ وَالْخَـوْفِ بِما كـانُوا يَصْـنَعُونَ (112) وَلَقَـدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَـذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمُ الْعَـذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (113)

---

112 [رغدا] : طيبا واسعا.

عاقبة الارتداد

هدى من الآيات :

في الدروس السابقة حـذرنا الـرب الكـريم من الكفر بعد الإيمـان ، والزلل بعد الثبـات وذلك بمناسـبة الحـديث عن النكث والحنث. وها هو الــدرس يفصّــل القــول في الكفر بعد الإيمــان بصــفة عامة ، فيحــذر من غضب الله الـذي يحل بمن يرتد عن دينه ــ قـولا أو عملا ــ إلّا الـذي أكره على الكفر بطريق لسانه ، بينما لا يزال قلبه مطمئنا ، وإنما المرتد من اســتقبل الكفر بصــدر رحب وذلك له عـذاب عظيم ، لأنه فضّــل الحيـاة الـدنيا على الآخــرة ، فسـلب الله منهم نـور الهـدى ، ويطبع الله على قلـوبهم وسمعهم وأبصارهم وهم غـافلون عن أوضح الحقـائق من حولهم ، وبالتأكيد سوف يخسرون أنفسهم في الآخرة.

بينما الثابتون على الهـدى بـرغم ما يتعرضـون له من مكروه ، ويهاجرون الى الديار الآمنة من بعد الابتلاء ، فإن الله بالنسبة إليهم غفور رحيم ، يشملهم برحمته في يــوم تأتي كلّ نفس تدافع عن ذاتها ، فلا تعطى إلّا جــزاء عملها الأوفى ، دون أن

نظلم من عملها شيئا.

وأما من يكفر بعد إيمانه فـإن الله يضـرب له مثلا من واقع قرية كــانت آمنة مطمئنة يأتها رزقها واســعا طيبا ، من كلّ مكان ، ولكنها كفرت بـأنعم الله فشـملهم الجـوع والخوف بسبب أفعالهم ، وكلما حاول رسولهم أن يهديهم لم يسـمعوا له ، بل كـذبوه وكـانوا ظـالمين لأنفسـهم في ذلك.

بينات من الآيات :

الإيمان مسئولية :

[106] ما هو الإيمـــان؟ هل أنه مجـــرد العمـــل؟ أم مجرد كلام؟

كلا .. انهما مظهـران للإيمـان ، ولكن الإيمـان شـيء آخــر. أنه موقف الشــخص من الحيــاة الــدنيا ، ومـــدى اطمئنانه بها ، واستحبابه لها بالقياس الى الآخرة ، فالــذي يريد الـدنيا بقلبه ويفضـلها على الآخـرة فـإن الله لا يهديه سبيلا.

وإذا كان الإيمـان موقفا قلبيا فما هو دور القـول؟! أو ليس مواقف البشر تتحدد بأقوالهم؟!

بلى .. ولكن قد يتلفظ الإنســان بلســانه ما ليس في قلبه ، كما المنافق الذي يدّعي بلسـانه أنه مـؤمن والواقع انه كاذب ، وكـذلك الـذي أكـره على الكفر بلسـانه ، بينما بقي قلبه مطمئنا بالإيمان ثابتا عليه.

هكـذا كـان «عمـار بن ياسـر» الـذي تعـرض لتعـذيب وحشي من قبل كفــار قـــريش ، فأعطـــاهم بلســـانه ما أسـرّهم ، حيث مـدح آلهتهم ونـال من رسـول الله (ص) لإنقاذ نفسه ، فنزلت فيه الآية الكريمة تقـرر تقاته منهم ، وأمره الرسول أن يعود لمثل

ذلك إذا عادوا عليه ..

(**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ**)

وهل يكفر أحد بعد أن آمن؟ أو ليس الإيمـــان معرفة وعلما؟ وكيف يتحول الفرد بين لحظة وأخـرى من عـارف الى جاهل!!؟

بلى .. الإيمـان علم ، ولكن العلم وحـده لا يكفي ، بل للإيمــان عنصر آخر هو : اليقين ، وعقد القلب والثبــات ، ومواجهة الضغوط ، الإيمان موقف وانتماء وسـعي وفـداء ..

جـاء في حـديث شـريف : عن أبي عبد الله الصـادق (ع) قـال : «**فأما ما فـرض على القلب من الإيمـان. الإقـرار والمعرفة والعقد والرضا والتسـليم بـأن لا إله إلّا الله وحده لا شـريك له ، إلها واحـدا ، لم يتخذ صــاحبة ولا ولــدا ، وأن محمــدا عبــده ورســوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله من نـبي أو كتـاب ، فـــذلك ما فـــرض الله على القلب من الإقـــرار والمعرفة وهو عمله ، وهو قــول الله عز وجل : (إِلَّا مَنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمـانِ وَلكِنْ مَنْ شَـرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً)**»[1]

ومن النــاس من يتنــازل عن موقفه وانتمائه فــور ما يتعرض لضـغط ، فيكفر بعد الإيمـان ، ومنهم من يصـمد ، ومنهم من يخلص نفسه باســتخدام التقــاة ، فيكتم إيمانه كما فعل عمار الذي قال ربنا عنه وعن أمثاله ..

(**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ**)

والحــديث المــأثور في قصة عمــار يقــول : لما أراد رسول الله أن يهاجر الى المدينة قـال لأصـحابه : تفرقـوا عني ، فمن كانت به قوة فليتأخر الى آخر الليل ، ومن لم تكن به

---

(1) الميزان ـ ج 12 ـ ص 359.

قوة فليذهب في أول الليل ، فإذا سمعتم بي قد استقرت بي الأرض فالحقوا بي.

فأصبح بلال المؤذن ، وخباب ، وعمار ، وجارية من قريش كانت أسلمت (وهي سمية أم عمار حسبما جاء في حديث ، وأضيف أيضا اسم ياسر والد عمار) فأصبحوا بمكة ، فأخذهم المشركون وأبو جهل ، فعرضوا على بلال أن يكفر فأبى ، فأخذوا يضعون درعا من حديد في الشمس ثم يلبسونها إياه ، فإذا ألبسوها إياه قال : أحد .. أحد .. وأما خباب فأخذوا يجرونه في الشوك.

وأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية ، وأما الجارية فوتد لها أبو جهل أوتاد ثم مدها ، فادخل الحربة في قلبها حتى قتلها ، [1] ثم خلّوا عن بلال وخباب وعمار ..

فلحقوا رسول الله (ص) فأخبروه بالذي كان من أمرهم ، واشتد على عمار الذي كان تكلم به ، فقال له رسول الله (ص) كيف كان قلبك حين قلت الذي قلت؟ أكان منشرحا بالذي قلت أم لا؟ قال : لا .. فأنزل الله : (**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ**).

هكذا صمد عمار فلم يستجب لضغوط قريش ، بل تحداهم بالتقية وظل على موقفه الثابت.

وآخرون ينهارون فيتقبلون الكفر برحابة صدر ، فيتعرضون لغضب الله سبحانه ..

(**وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذابٌ**

---

(1) وهكذا قتل زوج هذه الجارية الشهيدة ياسر وهما أبوا عمار بن ياسر الذين كانا أول شهيدين في سبيل الله في الإسلام ..

(**عَظِيمٌ**)

ذلك لأنهم أرادوا إرضـاء الطغـاة فغضب الله عليهم ، وأرادوا الحصول على نعم الدنيا فلحقهم عذاب عظيم في الآخرة ، ولفظة «فعليهم» خبر لفظة من كفر بالله.

جذر المشكلة :

[107] وجذر المشكلة يتصل بموقفهم من الدنيا التي فضلوها على الحياة الآخرة ..

(**ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ**)

أي بلغ حبهم للدنيا مستوى فضّلوها على الآخرة ..

(**وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ**)

فمن اسـتحب الـدنيا على الآخـرة ، يغضب الله عليه بسلب نور العقل عنه ، فيتركه في ظلمات جهله الـذاتي ، لأنه قد اختار منذ البدء الكفر.

وهذه الآية توحي بـان المعرفة واليقين والهـدى ، كـلّ ذلك يـأتي بعد الإختيـار السـليم ، وتفضـيل الآخـرة على الحياة الدنيا.

الارتداد انحطاط :

[108] الـــذي يرتد عن الإيمـــان لا يهبط فقط الى مستوى الشخص العادي الـذي لمّا يـؤمن ، بل يهبط أكـثر منه بكثير ، إذ يسلب منه الله «جل جلالـه» فرصة الهداية الى الأبد بسبب موقفه الجحودي ..

(**أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللـهُ عَلى قُلُـوبِهِمْ وَسَـمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ**)

بل يصـبح هـؤلاء كمن لا شـعور له غـافلين عن أبسط الحقائق وأوضحها ..

(**وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ**)

[109] ولأنهم اختاروا الدنيا على الآخرة فلا ريب أنهم يخسرون الآخرة ..

(**لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ**)

سبيل المغفرة :

[110] كم ينبغي أن نصمد في مواجهة الضغط حـتى لا نحسب من المرتدين؟

يضرب الله لنا مثلا فيقول :

(**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هـاجَرُوا مِنْ بَعْـدِ ما فُتِنُـوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**)

أجل انها مسئولية كبري ينبغي أن يسـتعد كـلّ مـؤمن لها ، ويعقد العزم على أدائها بإذن الله ، الهجـرة النفسـية والبدنية عن المجتمع الجاهلي بعد التوخي للفتنة (أو تدري إن أصل كلمة الفتنة إدخال الذهب النار لتظهر جودته!!).

وليست الهجرة نهاية المطـاف ، بل لا بـدّ من الجهـاد للعـودة الى الـوطن السـليب ، وتحريـره من طغيـان المفسدين ، والصبر على صعوبات الجهاد ..

وآنئذ يغفر الله لهم ذنـوبهم السـابقة ، مثل سـكوتهم السابق على الظلم ، بل خضوعهم للظالم وهو أكـبر ذنب ، بل هو الشرك ذاته ، كما يغفر الله هفواتهم

اللاحقة.

[111] وغفران الله نعمة كـبري يـدّخرها المجاهـدون الصابرون ليوم القيامة ، حيث يأتي كلّ فـرد وحـده لا أحد ينصره أو ينفعه غير عمله ..

(**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها**)

أي كلّ إنسان يدافع عن نفسه فلا يجد إلّا الحق ..

(**وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)

عاقبة الارتداد في الدنيا :

[112] كلّ ذلك في الآخرة ، أما في الدنيا فإن الكفر بعد الإيمـان ينتهي بـالمجتمع الى سـلب نعم الله ، كمثل تلك القرية الـتي كـانت تتمتع بالرفـاه والسـلام فكفـرت ، فأنزل الله عليها الفقر والحرب.

(**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ**)

يبـدو من الآية ان للأمن درجـات ، وهكـذا للرفـاه الاجتماعي درجات ، وان هذه القرية كانت تعيش في أمن ظاهر وأمن قلبي ، وهو أفضل درجات السلام ، كما كانت تعيش على رزقها ورزق ما حولها من القرى ، وهذا أفضل درجات الرفاه ..

(**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللـهِ فَأَذاقَهَا اللـهُ لِبـاسَ الْجُـوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ**)

وعبّر القرآن عن وضعهم بعد الكفر بأنهم تخلفـوا إلى أن أصــبحوا يحيط بهم الجــوع والخــوف كما يحيط بهم اللباس.

وقد لا تكون هـذه القرية واحـدة عـبر التـاريخ ، فربما تشير الآية الى آلاف القرى التي تردت الى هذا المسـتوى بسبب كفرها ، وفي حديث مأثور يقص علينا قصة واحــدة من تلك القرى فيقول : «**نزلت في قوم كـان لهم نهر يقـال له «الثرثـار» وكـانت بلادهم خصـبة كثـيرة يستنجون بالعجين ويقولون : هو ألين لنا ، فكفـروا بـأنعم الله ، واسـتخفوا فحبس الله عنهم الثرثـار ، فجدبوا حتى أحوجهم الله الى أكل ما يستنجون به ، حتى كانوا يتقاسمون عليه**» [1]

الحجّة التامة :

[113] ولقد جاءهم رسول من أنفسهم يـدعوهم الى الشكر ، فلم يستجيبوا له حتى أخـذهم الله بعـذاب شـديد ..

(**وَلَقَـدْ جـاءَهُمْ رَسُـولٌ مِنْهُمْ فَكَـذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ**)

وفي نهاية هــذا الــدرس القــرآني الكــريم ينبغي أن نطرح عدة نقاط هامة :

ألف : أن قصة هذه القرية التي تتكـرر عـادة في كـلّ عصر ، تـوحي إلينا بضـرورة مواجهة المـؤمن لضـغط قد يكون أشد من ضـغط الإرهـاب ، ذلك هو ضـغط الإغـراء ، فمع الرفاه والأمن يزداد شـره النفس وشـبقها ، وبالتـالي احتمالات الغفلة عن الله وعن حقوق الإيمان به.

---

(1) الميزان ـ ج 12 ـ ص 375.

وإذا كان عمار قد تعـرض لإرهـاب قـريش ومعه أكـثر أصحاب النبي (ص) فتحدوا بإيمانهم ذلك الإرهـاب العظيم ، فإن بعض أصحاب النبي قد غرتهم الدنيا بعد أن فتح الله عليهم ، فأخذوا يخوضـون في أمـوال المسـلمين «خـوض الإبل بنبتة الربيع» ـ كما يقول الإمام علي (عليه السلام).

من هنا أكــدت الآيــات (112 و113) على ضــرورة مواجهة ضـغط الإغـراء بعد أن أكـدت الآيـات (106 الى 111) في هـذا الـدرس على مسـئولية مواجهة الإرهـاب الجاهلي.

بـاء : ان ربنا الـرحيم يرسل أنبيـاء في مراحل هبـوط الحضــارات لكي يوقفــوا تــدهور المجتمع ، ولكن أغلب المجتمعــات تسترسل مع عوامل الانهيــار حــتى النهاية الأليمة ، وهكذا بعث الله رسـول هـذه القرية فلما كـذبوه أخذهم عذاب عظيم.

جيم : لقد أشـرنا في بـدايات هـذه السـورة الكريمة إلى ان سياقها يوحي بمناهج البحث وسبل الحصـول على المعرفة ، وفي هذا الدرس ذكرنا الله بمعنى الإيمان الذي هو أرفع درجات العلم ، كما أشـارت آية كريمة منه ـ هي الأولى ـ إلى المسؤولية التي تتبع الإيمان ، بل هي جوهره ، وإلى استثناءات المسؤولية.

ويشـير حـديث نبـوي شـريف إلى هـذه الآية في هـذا الحقل فيقــول : «**دفع عن أمــتي أربعة خصــال : ما أخطئــوا ، وما نســوا ، وما أكرهــوا عليه ، وما لم يطيقوا ، وذلك في كتاب الله** : ((**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ**))» [1].

---

(1) المصدر ـ ص 359.

فَكُلُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللـهُ حَلالاً طَيِّبـاً وَاشْـكُرُوا نِعْمَتَ اللــهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُــدُونَ (114) إِنَّما حَــرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالـدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيـرِ وَما أُهِـلَّ لِغَيْـرِ اللـهِ بِـهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (115) وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهــذا حَــرامٌ لِتَفْتَــرُوا عَلَى اللــهِ الْكَــذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَـرُونَ عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ لا يُفْلِحُـونَ (116) مَتـاعٌ قَلِيــلٌ وَلَهُمْ عَــذابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هــادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كــانُوا أَنْفُسَــهُمْ يَظْلِمُــونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِـكَ وَأَصْـلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)

---

115 [باغ] : غير طالب للمحرم للذة أو استئثار.
[ولا عاد] : ولا متجاوز ما يسد الرمق.

السبيل الى شكر النعم

هدى من الآيات :

لكي يشـــكر الفــرد نعم الله لا بد ان يعــرف حــدود التصــرف في هـذه النعم ، وبمناسـبة الحـديث عن العلم والايمان والكفر والارتداد الذي مر في آيات سبقت ، ترى هذا الدرس الكريم يأمرنا بان نأكل من رزق الله شــريطة ان يكـــون حلالا من ناحية المكسب وطيبا من ناحية ذات المــأكول ، ولكن علينا ان نــؤدي حقــوق النعم فلا نخضع لغير الله ابتغاء الحصول على بعض النعم.

وعلينا ان نتفقه في الــدين ، فلا نحلل ونحــرم حسب اهوائنا ، كلا .. انما حـــرم الله علينا الميتة والــــدم ولحم الخـنزير والذبيحة الـتي ذكر عليها اسم غـير الله ، اما من اضطر من دون ان يكـون معتـديا ومسـرفا فـان الله يغفر له ، ولا يجوز ان تتحرك ألســنتنا بالحليّة والحرمة من قبل أنفسنا ، فهذا كـذب وافـتراء على الله ، ومن يفـتري على الله الكذب فانه لا يفلح ، لأنه لا يحصل الا على متاع قليل بينما له عذاب اليم.

وقد يحرم الله أشياء اضافية بسبب ظلم الناس ، كما بين لنا في آيات اخرى انه

حرم أشياء على بني إسرائيل لظلمهم.

وقد يعمل الإنسان شـيئا بجهالة ، ثم يتـوب الى الله ، ويصـلح ما أفسـده بعمله ، فـان الله من بعد ذلك غفـور رحيم.

بينات من الآيات :

حدود الانتفاع بالنعم :

[114] العدالة في المعاش تتحقق بالانتفاع المناسب من رزق الله ، اما الـــذين لا يســـتفيدون من نعم الله ويزعمون ان ذلك زهد فانه بعيد عن تعاليم السماء ، فربنا يقول :

(**فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ**)

بيد ان حدودا ثلاث تحيط بهذا الانتفاع وهي :

ألف : ان يكـــون الـــرزق من نصـــيبك ، لا من حق الآخرين حتى يكون حلالا لك.

بـــاء : أن يكـــون طيبا ، فأكل الخـــبيث كـــالنجس والحشرات ـ والخبائث الأشياء المضرة والعفنة ـ لا يجوز.

جيم : ان تؤدي حق النعمة ، بان تعرف انها من الله ، ثم لا تنسى المحرومين ، فاذا قويت بها نشطت في عمل الخير ، بعد ان تذكر ربك بحمده ..

(**حَلالاً طَيِّبـاً وَاشْـكُرُوا نِعْمَتَ اللـهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**)

[115] ولا يجوز أن يحرم الفـرد على نفسه الطيبـات باسم الدين ، بل المحرمات

أشياء معروفة ..

(**إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ**)

اي ذبح باسم الأوثان ، كالتي كان الجاهليون يذبحونها على اقدام أصنامهم!

(**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بـاغٍ وَلا عـادٍ فَـإِنَّ اللـهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ**)

بعد ان استثنى القرآن الإكراه من المسؤوليات ، يبين رفع التكليف عما اضـطر اليه الإنسـان من خلال حاجته الضرورية التي من دونها يتعرض للهلاك.

كيف نشكر الله؟

[116] ولكي نشـكر ربنا لا بد ان نلـتزم بحـدوده وشـرائعه ، ولا بد ان نضـمن صـحة المصـادر التشـريعية ، فلذلك حذر ربنا من إصدار الأحكام من دون تثبت ..

(**وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هـذا حَلالٌ وَهـذا حَـرامٌ لِتَفْتَـرُوا عَلَى اللـهِ الْكَـذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**)

فالـذي يسـعد الإنسـان هو الـدين الحق ، وليست الأهواء التي تفتري وتسمى دينا!

جزاء الكذب والبدع :

[117] إن نهاية المبـدعين والكـذابين أليمة ، إذ ان متاعهم في الدنيا قليل ...

(**مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

يبـدو من هـذه الآية ان المبتـدع لا يغـير في الـدين إلا لهوى في نفسه أو نفس

السـلطان ، ولتحقيق مصـلحة ذاتية ، يحـذر ربنا منها ، ويهـدده بعـذاب اليم في مقابل تلك اللـذة الـتي يصـيبها بسبب التحريف.

[118] ونتسـاءل : إذا كـانت المحرمـات محصـورة بـالتي سـبقت ، فلما ذا نـرى بـني إسـرائيل محـرم عليهم أشياء كثيرة من الطعام وغيره؟!

ويقول ربنا جوابا عن هذا السؤال:

(**وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْـنا عَلَيْـكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)

لقد ضيقوا على أنفسهم وظلموها ، فحرم الله عليهم أشياء كانت حلالا عليهم ، وجـاء في آية اخـرى : «**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هـادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّبـاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**» (160 / النساء).

التوبة والإصلاح :

[119] (**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّـوءَ بِجَهالَـةٍ ثُمَّ تـابُوا مِنْ بَعْـدِ ذلِـكَ وَأَصْـلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْـدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**)

قد يكون وعي الفرد ناقصا وعلمه محـدودا ولم يـؤت فرصة للتوجيه الكـافي ، فـيرتكب بجهالته (وليس بجهلـه) ذنبا سرعان ما يتوب عنه فور ما يعـود الى رشـده ويملك الوعي والتوجيه ، فيغفر الله له ما سبق.

والجهالة غـير الجهل ، فـان الجهل عـذر شـرعي في الموضوعات وفي بعض الأحكام ، فلا يتناسب والتوبة التي وعـدها الله لصـاحب الجهالة ، بينما الجهالة ليست بعـذر شـرعي ، إذ يكفي ان صـاحبها يعلم بصـورة مجملة حـدود الواجب الشرعي الذي عليه ،

ويمكنه ان يفتش عنه حتى يجده.

وقد جاءت في آيـات عديـدة كلمة الإصـلاح بعد التوبة للدلالة على ان التوبة الظاهرية لا تنفع شـــيئا ، إنما ينبغي ان تكون التوبة نصوحا يتغير حال الفرد بها من ســيء الى حسن ، ومن فاسد الى صـــالح ، وفي الآية بحـــوث تتصل بعلم أصول الفقه ندعها الى الكتب العلمية المتخصصة.

إِنَّ إِبْـراهِيمَ كـانَ أُمَّةً قانِتـاً لِلَّهِ حَنِيفـاً وَلَمْ يَـكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شاكِراً لِأَنْعُمِـهِ اجْتَبـاهُ وَهَـداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ أَنِ اتَّبِـعْ مِلَّةَ إِبْـراهِيمَ حَنِيفـاً وَما كـانَ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (123) إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيـهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَــوْمَ الْقِيامَــةِ فِيما كــانُوا فِيـــهِ يَخْتَلِفُـــونَ (124) ادْعُ إِلى سَـــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـــةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ وَجـادِلْهُمْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُــوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـــلَّ عَنْ سَـــبِيلِهِ وَهُــوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَــدِينَ (125) وَإِنْ عـاقَبْتُمْ فَعـاقِبُوا بِمِثْـلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِلصَّـابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللـهِ وَلا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَـكُ فِي ضَــيْقٍ مِمَّا يَمْكُـرُونَ (127) إِنَّ اللــهَ مَــعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128))

شكر النعمة وبرامج الوحي

هدى من الآيات :

الشـــكر يزيد النعمة ، والمجتمع الكــافر يلفه الجـــوع والخـــوف ، والفـــرد الشـــاكر يبعثه الله أمة ويدخله في الصالحين ، كما كان إبراهيم الـذي حنف عن ضـلالة قومه الى الله الواحد ، وشكر أنعم الله فاجتباه الله وهــداه الى صــراط مســتقيم ، وآتـاه في الــدنيا حســنة ، وأدخله في الآخـرة في زمـرة الصـالحين ، ثم أمر الرسـول بـأن يتبع نهجه التوحيدي البعيد عن الشرك.

وأما المجتمع الكـــافر بـــأنعم الله ، فمثله مثل بــــني إسـرائيل الـذين اختلفـوا في السـبت ، فـأخره الله عليهم وحرم عليهم فيه الصيد ، وسـوف يقضي ربنا يـوم القيامة في أمرهم.

وفي نهاية الســورة يلخص الله بــرامج الــوحي الــتي تتلخص في ثلاث كلمات هي :

1 ـ الـدعوة الى سـبيل الله بالحكمة ، دون أن يتكفل الداعية مسئولية الناس

عن إيمانهم أو ضلالتهم ، بل الله ولي ذلك.

2 ـ وعند المواجهة يكـون العقـاب بقـدر الـذنب ، والانتقام بقـدر الجـرم ، والتنـازل عن الحق الشخصي في الله أولى.

3 ـ والاسـتقامة بالصـبر على أذى النـاس ، دون أن يحـزن الداعية على مصـيرهم ، ولا يخشى من مكـرهم ، ذلك لان الله مع أهل التقوى والإحسان.

بينات من الآيات :

إبراهيم قدوة الشكر :

[120] على الإنسـان أن يشـكر نعم الله عليه حـتى ولو كفر بها المجتمع الـذي يعيش فيه ، أو ليس إبـراهيم قـدوة الإنسـانية المثلى ، الـذي شـكر أنعم الله مخالفا سيرة قومه الجاهليين؟!

(**إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً**)

ولو كان رجل آخر في عهد إبراهيم مسلما لذكره الله ، ولكنه وحده تحدى مجتمع الفساد وكان ..

(**قانِتاً لِلَّهِ**)

خاضعا له قلبا ..

(**حَنِيفاً**)

تنكب طريق الضلالة إلى صراط العزيز العليم.

(**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)
الذين أحاطوا به.
وقد جـاء في الحـديث المـأثور عن الصـادق (عليه السلام) : لقد كانت الدنيا وما كان فيها إلّا واحـدا يعبد الله ، ولو كـان معه غـيره لأضـافه اليه حيث يقـول : ((**إِنَّ إِبْـراهِيمَ كـانَ أُمَّةً قانِتـاً لِلَّهِ حَنِيفـاً وَلَمْ يَـكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)) فصبر بذلك ما شاء الله ، ثم ان الله تبـارك وتعالى آنسه بإسماعيل وإسحاق فصاروا ثلاثة.
[121] أبـرز صـفات إبـراهيم الـتي تتناسب والسـياق القـرآني هنا : صـفة الشـكر الـتي أنهت بـإبراهيم الى أن يختـاره الله من بين الملايين من البشر المعاصـرين له ، وأن يهديه الى الصراط المستقيم ..
(**شـاكِراً لِأَنْعُمِـهِ اجْتَبـاهُ وَهَـداهُ إِلى صِـراطٍ مُسْتَقِيمٍ**)
وهكـذا كـلّ من شـكر أنعم الله هـداه الله الصـراط المستقيم.
[122] ولم يبق إبـراهيم وحـده ، بل آنسه الله بذرية طيبة لم تلبث أن تكـاثرت حـتى ملأت الـدنيا ، وأما في الآخرة فهو في عداد الصالحين ..
(**وَآتَيْناهُ فِي الـدُّنْيا حَسَـنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِـرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**)
[123] وجعله الله قدوة الأنبياء وأمـام النـاس ، حـتى أن ربنا أمر نبيه الأعظم أن يتبع دين إبـراهيم وطريقته ، لأنه كان مستقيما معصوما عن الزلل ..
(**ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْـراهِيمَ حَنِيفـاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)
والله لا يأمر باتباع المشرك أنى كانت الظروف.

بنى إسرائيل والابتلاء :

[124] (**إِنَّما جُعِـلَ السَّـبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُـوا فِيهِ**)

ماذا تعني الآية في هذا السياق القرآني بالذات؟

لقد جـاء في التفاسـير : ان السـبت بمعـنى القطع ، وسمي السبت بهذا الاسم لان اليهود كانوا قد كلفوا بقطع العمل في هذا اليوم.

ثم قالوا : ان اختلاف اليهود في السـبت كـان بسـبب انهم خـالفوا أوامر الله في الاسـتراحة فيه ، ففـرض الله عليهم ذلك ، وكان ذلك بمثابة الابتلاء.

وبعضـهم قـال : بل انه فـرض عليهم يــوم الجمعة ، وحين اختلفوا أخّره الله الى السبت.

وبقي السـؤال العـريض : ما هي علاقة الآية بما سبقتها؟

ربما الآية تـوحي الى أن بـني إسـرائيل أمـروا بـأن يعطلـوا يوما يقضـون فيه حاجـاتهم الخاصة ، فلم يتفقـوا على يوم ، بل كان كلّ فريق يتنافس وسـائر الفرقـاء في المكسب ، مما جعلهم في الحـيرة ، وهنا جعل الله عليهم السبت ليقطع خلافاتهم ، وكان ذلك امتحانا لهم.

وهـذا يتناسب مع السـياق الـذي يـدلّ على أن بعض الأحكـام الشـرعية تشـرع بسـبب ظـروف خاصة ، ثمّ إذا تغـيرت الظـروف زال الحكم ، وهـذا أمر كثـير في بـني إسرائيل ..

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَـةِ فِيما كـانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

وصايا للدعاة :

[125] وفي نهاية الســـــورة الـــــتي خصصت آياتها بالوحي تقريبا ، وسميت باسم «النحل» الـذي يـوحي إليه الله سبحانه ما يشاء ، جاءت توصيات الى الدعاة الى الله من الذين يحملون الوحي.

الحكمة :

وأولها : الـدعوة إلى سـبيل الله بالحكمة وقد ذكـرت آيـات القـرآن في سـورة الإسـراء القادمة ، وفي سـورة لقمان ، وسـور أخـرى معـنى الحكمة ، وقد عرفها البعض بأنها الجـانب النظـري من العلم ، ولكنها في الواقع أكـثر من هذا ، انها جماع الصفات النفسية والسـلوكية الحسـنة التي يذكر بها الله في آيات تأتي ..

(**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**)

وتتجلى الحكمة في الحديث الطيب الـذي لا وهن فيه ولا خشـونة ، انما هو حـزم في لين ، وبلاغة في وضـوح ، وجمال في إتقان ..

(**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**)

وحين الجـدال ينبغي ألّا يثـور غضب الداعية ، فيصـدر أحكاما كاسحة على الناس ، ولا يهن أمام الخصم فيتنـازل له عن بعض الحقائق طمعا في استجابته للحقيقة ..

(**وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**)

وقد جـاء في حـديث شـريف ان الجـدال بـالتي هي أحسن هو القرآن ، ولا ريب

أن تفاصيل السـلوك الحسن موجـودة في القـرآن الحكيم ..

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**)

فلا يجــوز اتهــام النــاس بــالكفر والزندقة ، واتخــاذ مواقف سـلبية منهم جميعا ، بل الله يحاسـبهم ، انما على الداعية أن يعمل بواجبه في دعوتهم الى الله.

وجاء في حديث طويل معـنى الجـدال بـالتي أحسن : بأنه اتبــاع الحق في كل مراحل الحـــديث ، فلا ينكر حقا لـزعم انه ينفي حقا أكـبر منه ، ولا يقبل بباطل لأنه ـ في زعمه ــ يثبت حقا أكــبر منه ، كلا .. ينبغي أن نصل الى الهدف الحق عبر وسيلة الحق نفسه.

وكلمة أخيرة : إنّ الآية هذه تدلّ على ضــرورة تحكيم العقل في أسلوب الدعوة الى الله.

العدل :

[126] والوصـية الثانية للـدعاة : الـتزام العدالة في معاملة الأعــداء ، فلا يســرف في العقوبة ، بل يســعى الدعاة في تجاوز أنفسهم ، وأن يتنازلوا عن حقــوقهم من أجل المصلحة العامة ..

(**وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُـوقِبْتُمْ بِـهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**)

وجـاء في حـديث مـأثور عن الإمـام الصـادق (ع) لما رأى رسـول الله ما صـنع بحمـزة بن عبد المطلب قـال : «**اللهمّ لك الحمد ، وإليك المشـــــــــتكى ، وأنت المســتعان على ما أرى**» ثمّ قـــال : «**لإن ظفــرت لأمثلن ولأمثلن**» فأنزل الله : (**وَإِنْ عاقَبْتُمْ**

فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِـهِ وَلَئِنْ صَـبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِلصَّابِرِينَ) فقال رسول الله (ص) : «**أصبر أصبر**.»

الاستقامة :

[127] والوصية الثالثة : صفات الاستقامة.

(**وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**)

فالصـــبر بالتوكل على الله ، وعـــدم التـــأثر بتغيّر الظــروف وأقــوال النــاس ، وســعة الصــدر في مواجهة المشاكل ..

[128] وفي نهاية السـورة يؤكد القـرآن على أن الله يؤيد الدعاة بشرطين :

الأول : أن يتقوا الله.

الثاني : الإحسان والطاعة ..

(**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**)

نرجو أن نكون من الدعاة الى الله والقادة في سبيله .. إنّه عزيز حكيم.

سورة الإسراء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة :

عن النـبي (ص) أنه قـال : «**من قـرأ سـورة بـني إسـرائيل فـرقّ قلبه عند ذكر الوالـدين أعطي في الجنة قنطـــارين من الأجر والقنطـــار ألف أوقية ومائتا أوقية والأوقية منها خير من الدنيا وما فيها**»

عن الصـادق (ع) انه قـال : «**من قـرأ سـورة بـني إسـرائيل في كل ليلة جمعة لم يمت حـتى يـدرك القائم ويكون من أصحابه**» [1]

(1) مجمع البيان ج 6 ص 393.

الإطار العام

لعل أهم الموضـوعات الـتي تناولتها سـورة الإسـراء هي مسـئولية الإنسـان عن اعمالـه. في اطـار الرسـالة الالهية. وتتحدث السورة عن طائفة من المسؤوليات تجاه المجتمع ابتداء من الوالدين وانتهاء بسائر الناس.

وتعالج السورة بتفصيل قضية الشـرك بالله ، أو ليس الشـــرك جـــذر الفســـاد وســـبب تـــبريرات البشر عن مسئولياته؟

كما تبين بتفصيل أيضا خطط الشـيطان لإغـواء البشر وكيفية محاربة تلك الخطط ، ويضـــرب القـــرآن الامثلة التاريخية العديدة.

وتبدأ السورة بقصة بني إسرائيل كمثل لمجتمع سعى مرة وتخاذل اخرى وتنتهي بها.

هذه جملة القول في اطار السورة اما التفصـيل فـان حيـاة البشر تجسـيم لسـعيه ، تلك هي جملة القـول في اطار سورة الإسراء. وتلك هي خلاصة رسـالات الله الـتي هي ـ في

الواقع ـ واحدة.
فبعد ان أشار القرآن الى واقعة الإسـراء ، فـالمعراج ذكرنا بأنه السـميع البصـير ، وبالتـالي محيط بعبـاده علمه مما يوحي بضرورة التقوى منه (1).
وخلاصة الكتـــاب الـــذي أنزله على موسى لبـــني إسرائيل الا يتخذوا من دون الله وكيلا (2) ذلك ان الشرك بالله ، هو جذر كل فساد وضلال.
أفلم يكونـوا ذرية الـذين حملهم الـرب مع نـوح في السفينة لينجيهم من الطوفان. وكان نـوح عبـدا شـكورا (3).
بلى ولكنهم قد أفســدوا (أو يفســدون) مــرتين في الأرض ، ويلاقـون جـزاءهم (5) إذ يبعث الله بعد ان يحين ميعـاد الجـزاء في المـرة الاولى عبـادا له أقويـاء فيـدمر عرشـهم (6) وبعد أن يعيد لهم الكـرة. يـأتي وعد المـرة الثانية ، ويتـــبروهم تتبـــيرا. لمـــاذا؟ لان الله يجـــازيهم بالإحسان إحسانا. وبالاساءة جزاء وفاقا (6) تلك هي سنة الله في التـاريخ. جـزاء كل مجموعة لمجمل أفعـالهم اما في الآخرة فان الله جعل جهنم للكافرين سجنا (8).
الهــدى من الله عــبر القــرآن. اما الايمــان والعمل الصالح فهو من فعل الشر. وعليهما الجزاء الكبـير والكفر قد اعتد لصاحبه العذاب الأليم (9).
والجـزاء يتـأخر. وكـان الإنسـان عجـولا فـتراه يـدعو بالشر كدعائه بالخير. الا ان الجزاء لواقع (11).
الق نظرة في آيات الكون ماذا ترى؟
آية الليل التي محاها الرب بحكمته. وآية النهـار جعلها مبصرة بحسن تدبيره

لكي تسعى لمعاشك وتعد السنوات وتفقه الحساب.

إذا كل شيء منظم ، مقدر ومدبر والـذي دبر شـؤون الليل والنهار ونظمها ، فصل لنا القول فيها تفصيلا.

فيخـــرج البشر عن هـــذا النظـــام؟ كلا. بل هو الآخر محكـوم بسـعيه ، حيث يكتب في صـحيفة عمله المعلقة بعنقه. كل فعاله ليلقى كتابه منشورا يوم القيامة.

ويقال له اقرأ كتاب وحاسب نفسك فأنت الذي تـدين نفسك بنفسك لو كنت خاطئا (12).

الهـدي بسـعيك والضـلالة من عنـدك ، ولا أحد يتحمل وزر الآخرين ، ولا يبدر الرب عباده بالعذاب ان ضلوا حتى ينذرهم برسول ، وهكذا حين يحين ميعاد هلاك قرية يبعث في أمها رسولا ينـذر مـترفيهم وقيـادة انحـرافهم. ولكنهم يفسقون عن أمر الله.

فهنا لك تثبت عليهم الحجة فيدمرهم الله تدميرا.

وكذلك أهلك الله كثيرا من القرون ، من بعد طوفـان نـوح. والهلاك الشـامل للمفسـدين فيـه. (**وَكَفى بِرَبِّكَ بِـذُنُوبِ عِبـادِهِ خَبِـيراً بَصِـيراً**). فلا يـزعمن أحد أن الله غافل عنه (14).

والسـعي ينتج واقعـا. ولكن حسب نية البشـر. فمن أراد الـدنيا أعطـاه الله منها بقـدر ما تقتضـيه سـنن الله وحكمتـه. الا ان جـزاءه في الآخـرة سـيكون جهنم حيث يصلاها مذموما مدحورا.

أما من أراد الآخرة وسعى من أجلها بقدرها فـان الله يشكر سعيه.

والله يمد للأول في دنياه وللثاني في أخراه. وما كان عطـاؤه محظـورا. هكـذا يجعل حيـاة البشر وليـدة إرادته وسعيه.

وكما ان رزق النــاس في الــدنيا متفاضل ــــ بســبب تفاضل سعيهم ـ كـذلك وأكـثر منه جـزاء الآخـرة (18) ثم يحــذرنا الــرب من الشــرك (ويبــدو ان المــراد منه هنا : الاسترســال مع التقاليد وتيــارات المجتمع لأنه ينتمي الى اللوم والخذلان) (22).

ويأمرنا بــألا نعبد الا إيــاه (فلا نعبد الابــاء ولا نخضع لضغوط المجتمع) الا ان علينا إيجاد العلاقـات الايجابية مع الناس (في اطار التوحيد) وأهمها الإحسـان الى الوالـدين. وبالذات عند الكبر. والرحمة بهم والاستغفار لهم (23).

وبعد الوالــدين يلــتزم المــؤمن بحقــوق الأقــارب والمسكين وابن السـبيل ويتقي التبـذير لان التبـذير يجعله في صف الشــياطين (والطغــاة) والكــافرين بالله ، غــير الشاكرين لا نعمه وفي حالة الاعــراض عنهم (ماديـا) لا بد ان تحسن إليهم (معنويا) بالقول الميسور (26)

ويأمرنا الـــرب بالاقتصــاد في الإنفــاق فلا بخل يغل اليدين ولا سـرف ينتهي الى الملامة والضـيق أو ليس الله يبسط الرزق لعباده ويقـدره فلما ذا البخل والســرف (بل علينا ان نتبع أصول الحكمة في الصرف كما ربنا سبحانه) ولماذا قتل الأولاد خشية إملاق ما دام الـرب هو الـرزاق (29).

ومثلما نهى الله عن قتل الأولاد في اطار المســؤولية الاسـرية (بما يشـمل الإجهـاض حسب الظـاهر) ينهى عن الزنا باعتباره ذنبا كبيرا. وساء سبيلا.

وفي اطار المسؤوليات الاجتماعية يحــرم قتل النفس الا بــالحق. ويجعل لمن قتل لوليه حق القصــاص. وينهى عن الإسراف في القتل ويبشره بأنه كان

منصورا (32).

وتلك كانت مسئوليات الإنسان تجاه النـاس. وتتلخص في ثلاث كلمات.

التوحيد (وعـــدم الخضـــوع للتقاليد والضـــغوط) والإحسان. واحترام حقوق الآخرين.

وفي الدرس السابع يحـرم مجـرد الاقـتراب الى مـال اليـتيم «**إِلَّا بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ**» ويـأمر بالوفـاء بالعهد وإيفاء الكيل والوزن.

ولعل هذه المسؤوليات الاجتماعية والتي تـأتي تحصن المجتمع من بعض الثغـرات الـتي يـدخل منها الظلم الى كيان المجتمع فان اقامة العدل لا يمكن الا بسد كل أبواب الظلم والمـــداخل الطبيعية الـــتي اشـــاعة الظلم في المجتمع. وهكذا يأمر الـرب بضـرورة أتبـاع العلم ، وتـرك سوء الظن عن التكبر والاسـتكبار في الأرض. ويجعل ذلك من الحكمة التي اوصى بها الرب الى العباد والتي يجمعها توحيد الله سبحانه (36).

بلى ان بناء المجتمع الفاضل قائم على أساس التثبت من التهم والمساواة أمام القانون.

وينهى الله عن الشرك ، أو ليس الشـرك أسـاس كل جريمة ، وتبرير شائع لكل فساد ولا مسئولية؟

أصـحيح ان الله أختـار لهم البـنين واتخذ من الملائكة بنـات انه بهتـان عظم. وقد صـرف القـرآن لهم من كل مثل. ولكنهم ازدادوا نفورا (40).

لو كان هؤلاء الآلهة كما يزعمـون إذا لتحـدوا سـلطان الرب ذي العرش ، كلا. سـبحان الله وتعـالى عما يقولـون علوا كبيرا. ان السموات السبع والأرض تشهد

بقدس مقامه وتسبح له وكل شـيء يسـبح بحمـده. الا ان البشر عاجز عن فهم تسـبيحهم. والله حليم عن العاصـين غفور للمؤمنين سبحانه.

أما الـدرس الثـامن. فانه يـبين أخطـار الكفر بالحيـاة الآخرة. وكيف ان الله يجعل بين الرسول ومن لا يؤمن بها حجابا مستورا. حيث يحيط بقلوب الكافرين بها سـتارا فلا يفقهـون القـرآن ويجعل الله في آذانهم وقـرا. حـتى انهم يولون نفورا. كلما ذكر الرسول ربه في القرآن وحده.

ان تراكمــات الجهل والضــلالة والعصــبية تجعلهم يســتمعون الى الرســول من وراء شــبهات باطلــة. فهم يقولــون عن الرســول انه رجل مســحور فيضــلون ولا يهتــدون ســبيلا الى الحقــائق. وتــراهم ينكــرون البعث ويتســاءلون ابعد ان نصــبح عظاما ورفاتا يعقل ان يخلقنا الله من جديد؟! (45).

وهكذا تصبح هذه الشبهات حجابا مســتورا بينهم وبين القرآن وفهم حقائقه.

ويردهم الله بقوة : حيث يـذكرهم بـأنهم لو كـانوا من الحجارة أو الحديد أو اي شيء كبير في نظـرهم فـان الله الذي خلقهم أول مـرة قـادر على ان يعيـدهم. ثم يقولـون متى؟ يقول الله عسى ان يكـون قريبـا. ذلك اليـوم الـذي يـدعوهم الله فيسـتجيبون بحمـده ، ويزعمـون انهم كـانوا في الدنيا أو البرزخ أياما قليلة (52).

ولان الشيطان عدو مبين فعلى عبـاد الله ان يختـاروا كلماتهم لكي لا ينزغ الشيطان بينهم بها.

وان يتركوا العصـبية لقـومهم أو تزكية أنفسـهم إذ أن الله اعلم بهم يرحم من يشاء ويعذب من يشاء (53).

هكـذا تـبين آيـات الـدرس التاسع بعض المسـؤوليات الاجتماعية الواجبة على

المؤمنين لبعضهم.

ولعل الصـراعات الداخلية تنشأ من رواسب الشـرك. فيعـود السـياق لبيـان زيف الأنـداد وانهم لا يـدفعون الضر عن أنصارهم (56).

بل هم بدورهم يبتغـون سـبيلا الى الله ربهم ويرجونه ويخافونه.

وكل القـــرى معرضة للهلاك قبل يـــوم القيامة ، أما بالعــذاب أو المــوت. ولقد كــذب الأولــون بآيــات اللــه. فاســـتحقوا العـــذاب. ولان الله لم يشأ إهلاكهم فانه لم ينزله عليهم كلما طلبـوه. إذ لو أوتـوه ثم كفـروا لهلكـوا. فهــذه ثمــود لما أتاها الله الناقة آية مبصــرة كفــروا بها فــاهلكهم اللـــه. وانما حكمة الآيـــات التخويف «**لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**» (57).

وهكــذا ارى الله رســوله رؤيا ، جعلها فتنة لهم ، كما أخبره بالشـجرة الملعونة ، ويخـوفهم الله فلا يـزدادون الا طغيانا (60).

وهكذا كانت الآيـات للتخويف ، وليس من أجل إنـزال العذاب عليهم.

ويبقى ســؤال هــام : لمــاذا الشــرك أساسا ، ولم لا يخلص النـــاس الطاعة لله ، ولمن فـــرض الله طاعته ، ولماذا تنمو على صعيد مجتمع مسلم شجرة ملعونة كبـني امية يفرضـون سـيادتهم على النـاس؟ في آيـات الـدرس العاشر ، نقــرأ الجــواب الــذي يســتوحي منه قصة الخلق وكيف اضـــحى إبليس عـــدو بـــني آدم وما هي خططه الماكرة؟

والقصة بــدأت حين أخذته العصـبية الذاتية وادعى ان عنصره أفضل من عنصر آدم ، ورفض السجود لآدم الـذي سجد له الملائكة جميعا.

وأمهله الله ليوم القيامة ، وتحـدى ربه في السـيطرة على ولد آدم. وأخبره الله

اولا : انه سوف يخسر العاقبة هو ومن اتبعه.

ثانيا : انه لا سـلطان له على عبـاد الله بـالرغم من وسائله الماكرة لأنهم يتوكلون على الله وكفى بالله وكيلا.

اما خطط الشيطان فهي اربعة : التضـليل الاعلامي ، والإرهاب ، وإفساد النظام الاقتصادي والتربوي ، والغـرور (65).

ولكن الله هو الذي يزجي الفلك في البحر وهو الـذي يكشف الضـر. وهو الـذي يخشى مقامه فـاذا أراد ان يخسف الأرض بأهلها ، أو يرسل قاصفا من الريح. فلا أحد ينجيهم من الله.

وهو الـذي كـرم بـني آدم ، وحملهم في الـبر والبحر وفضلهم على كثير من الخلق تفضيلا (70).

وهكذا كان كيد الشـيطان ضـعيفا. لان الولاية لله وله الـدين وبيـده الأمر ، وهو يريد كرامة الإنسـان بينما يريد الآخرون إضلاله.

وحبل الانقـاذ من أمـواج كيد الشـيطان ومكـره هو القرآن.

كيف نقـاوم مكر الشـيطان؟ والى أين ينتهى الصـراع بين بـني آدم وإبليس؟ وما هي عـبر التـاريخ في هـذا الحقل؟

يبدو ان آيات الدرس الحـادي عشر تـدول حـول هـذه الاسئلة.

وتبـدأ بالحـديث عن القيـادة باعتبارها تحـدد خطر البشـر. ففي يـوم البعث يـدعو الله كل أنـاس بإمـامهم ، ويختلف النـاس بين من يـؤتي كتابه بيمينه فيقـرأه ومن يحشر

أعمى وامام الهدى عصمة من مكر الشيطان.

ويـبين القـرآن بعدئذ كيف تعـرض الرسـول للضـغط الاعلامي ليفتنـوه عما اوحي اليه فتحـداه. ولنا فيه أسـوة حســنة. ويعلمنا كيف نقــاوم الفتنة بالتوكل على الله كما فعل الرســـول (ص) فثبته الله كـــان هـــذا مثل لخطة التضليل ويضـرب القـرآن مثلا لخطة الإرهـاب حيث كـادوا يستفزون النـبي (ص) من الأرض ولو فعلـوا لما بقـوا من بعده الا قليلا. تلك سنة الله (77).

ولمواجهة غواية إبليس فرضت علينا اقامة الصــلوات الخمس وأمرنا بنافلة الليل الــتي بعث الله بها نبيه مقاما محمودا.

ولكي نحافظ على النظــام الاقتصــادي والاجتمــاعي والتربوي السليم ولا ندع إبليس يفسده ، فعلينا ان نســأل الله أن يوفقنا للصدق في المـدخل والمخـرج ، وان يجعل لنا من لدنه سلطانا نصيرا. وان نثق بان الحق منتصر وان الباطل كان زهوقا (81).

ولكي نقاوم مكر إبليس وكيده علينا ان نقوم بــأمرين :

1 ـ التمسك بحبل القيادة الإلهية المتمثلة في شخص رســـول اللـــه. والائمة من خلفائه ، ومن ثم الأمثل من الفقهـاء والأقـرب الى نهج الرسـول. وقد بينت آيـات هـذا الدرس صفات الرسول في الاسـتقامة ، والصـبر والتوكل والثقة. وكأنها الصـفات المثلى للقيـادة الـتي تعصـمنا من مكر الشيطان.

2 ـ الاعتصام بالقرآن. باعتباره حبل الله المتين. وفي آيات الدرس الثاني عشر بيان ذلك. حيث تبين ان القــرآن شفاء ورحمة للمؤمنين. بينما لا يزيد الظالمين الا خسارا ، ويمكننا ان نستفيد من آيات هذا الـدرس كيفية الاسـتفادة من القرآن والتمسك بحبله ، ببيان ان الإنسان يغتر بالنعم ، فاذا أوتيها اعرض ونآ ، وان سلبت

منه استبد به اليأس.

والناس مختلفون فكل يعمل على شاكلته. والله اعلم بمن هو أهدى سبيلا.

وانما القرآن من الله. فاذا شاء ذهب بـه. وانه لمعجز ، فلو اجتمعت الجن والانس ما اســـتطاعوا تحديه ، وفيه من كل شـيء مثل وانهم ليطـالبون ببعض الآيـات المادية دون ان يهتدوا الى ان الرسول بشر وانما القرآن من الله ، وانما عليه البلاغ.

ولعل في هذا الدرس أهم محاور سورة الإسراء. وهو الذي يدور حـول الرسـالة. وان الـذي يسـتفيد منه انما هو المؤمن بها ، اما الظالم الذي يعرض عن نعم الله ويتـولى بركنه عنها والــذين مقاييســهم مادية فــإنهم لا ينتفعــون بالوحي.

لماذا لا يؤمن النـاس بالهـدى الـذي جـاءهم؟ وما هي أهم عقبات الايمان برسالات الله؟

اولا : زعمهم بان الرسول ينبغي ان يكون ملكا.

ثانيا : ارتيابهم في البعث.

وهكـذا تعـالج آيـات الـدرس الثـالث عشر العقبـات النفسية التي يضعها إبليس في طريق الايمان بالرســالة (94) فيـــبين ان الرســـول يجب ان يكـــون من جنس من يرسل إليهم. فلو كـان سـكان الأرض الملائكة لا نـزل الله إليهم ملكا رسولا.

وبعد ان يبين ان الله سبحانه شهيد على صدق رسالة النـبي ، وان بيـده الهدايـة. وان من يضـله لا هـادي له ولا ولي. وانه يحشر أعمى وابكم وأصم ، وان عاقبته جهنم التي يستمر سعيرها جزاء على ما عملوا (98).

وبعدئذ يستنطق وجدانهم ويقول أليس الله الذي خلق السموات (**وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**) ، وانما لا يؤاخذهم بالعذاب لأنه قدر لهم أجلا لا ريب فيه ولكنهم لا يستغلون هذه الفرصة.

ولان الإنسان كفور بطبعة ، وبخيل قتور فهو بحاجة الى هاد ومرب وهو الرسول الذي يأتيه بالقرآن شفاء لما في الصدور.

ولم يكن النبي محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ بدعا من الرسل ، فهذه رسالة الله تتنزل على موسى عليه السلام والله سبحانه يؤتيه تسع آيات بينات فتحداه فرعون واتهمه بأنه مسحور ، وبين له موسى انها بصائر من الله وان فرعون مبتور.

وكما جرى لرسول الله محمد جرى لرسول الله موسى عليهما صلوات الله ، حيث أراد فرعون ان يستفز الرسول من الأرض فاغرقه الله ومن معه جميعا وأورث الله الأرض لنبي إسرائيل من بعده الى أجل معدود.

هذا مثل لشهادة الله على صدق رسالاته. ومثل لمكر الشيطان وكيده. ومثل لنصرة الله عباده. وان الحق منتصر وان الباطل كان زهوقا.

ولقد جاء القرآن بالحق ، وما على الرسول الا إبلاغه. وانما فرقه الله على أنجم ليثبت به فؤاد رسوله.

هكذا ابتدأت آيات الدرس الأخير الرابع عشر (105).

وهي تعالج عقبة اخرى للايمان. وهو تفريق القرآن وتنزله عبر سنين البعثة. وتؤكد ان للقرآن أصحابا يؤمنون به وانهم يخرون للأذقان سجدا كلما تليت عليهم آياته. ويزدادون ايمانا بوعد الله ، ويسجدون ويزيدهم القرآن خشوعا لربهم.

وهذه هي صـفات المؤمـنين بـالقرآن. وهم عبـاد الله الذين لا سلطان لإبليس عليهم.

ومن صفاتهم انهم يدعون الله ـ كما أمرهم ـ بأسمائه الحسنى ، وانهم لا يجهـرون بصـلاتهم (ريـاء) ولا يخـافتون بها (خوفــا) انما يبتغــون بين ذلك ســبيلا .. (لان مشــيهم الهون وسيرتهم الاقتصاد. وأمتهم وسط).

وتختم ســورة الإســراء بحمد الله الــذي لا ولد له ولا شــريك له ولا ولي له من الــذل. كما ابتــدأت بحمد الله وتسبيحه (111).

سورة الإسراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)**

---

1 [أسرى] سار ليلا.

قصة الإسراء

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«**بِسْمِ اللهِ**» ذي القدرة والعظمة ، والنور والكمال ، والفضل والانعام «**الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**».

ابتدأت السورة بالتسبيح ، والتسبيح يــدل على التنزيه والتقـــــــــــــــــــــــــــــــــديس ، ومادتها من (سبّح) اي نزه ، ومعــنى ذلك أن نبعد الله عن أي نقص أو عجز أو حدّ.

ان العقل البشــري لا يســتطيع ان يــدرك الّا الأمــور القريبة من ذهنه أو المتعارفة في الطبيعة ، ولكنه يعجز عن ادراك ما وراء ذلك ، ولو أراد الإنسـان ان يتصـور الله لتصوره في حدود مفاهيمه ومعارفه. حيث ان بعضهم قال : ان الله «سبحانه وتعالى عما

يقولون» على صورة إنسان أعلاه مجوف وأسفله مصمت ، وهو نور ساطع يتلألأ ، وله حواس خمس. [1]

والتـاريخ يـدلنا على : ان الأمم الكـافرة والمشـركة ، انما تصـورت الله في حـدود معارفها ، فالامة الـتي كـانت بحاجة الى الزراعة والرعي كانت تقدس المـاء أو البقر أو كليهما باعتبارهما آلهة.

والامة التي كانت بحاجة الى الأنواء والنجـوم لتهتـدي بها في السفر ، كانت تتصور الله نجما أو قمـرا أو شمسا ، اما الامة الـــتي كـــانت تعيش ضـــمن القبيلة والتقاليد الموروثة ، فانها كـانت تقـدس الجد الأكـبر لها ، وبالتـالي فإنهم كانوا يتصورون الله شيخا كبيرا ذا لحية بيضاء.

وقد جـاء في بعض الكتب الحديثة الـتي انطلقت من الغرور العلمي ، أحاديث مسهبة خلاصتها :

(انه لما كـان الله موجـودا في كل مكـان وليس له صوت ولا صورة فهو إذا الجاذبية).

وقال بعضهم بان الله هو الوجود.

وروي عن الامام الصادق (ع):

«**ولو ان النملة تصـــــورت ربها لتصـــــورت له قرنين**» [2].

ومن أجل ان يقطع الإنسـان على نفسه الـدخول في هذه الدائرة عليه أن يقول :

---

(1) بحار الأنوار ج 3 ص 289 نقلا عن بعض الجهلة

(2) الحديث منقول بمحتواه وليس بنصه

«سـبحان اللـه» فينزهه لأنه اجـلّ من ان يتصـور ، وفي حـديث عن الامـام البـاقر (ع) يقـول حين سـأله ابن أبي نجران عن التوحيد : أتوهّم شيئا؟ فقال :

«**نعم غير معقـول ولا محـدود ، فما وقع وهمك عليه من شـيء فهو خلافه ، لا يشـبهه شـيء ولا تدركه الأوهـام ، كيف تدركه الأوهـام وهو خلاف ما يعقل ، وخلاف ما يتصـوّر في الأوهـام. انما يتـوهم بشيء غير معقول ولا محدود**» [1]

وبالتـالي فـان كل ما نتصـوره مخلـوق مـردود إلينا ، والشـــيء الوحيد الـــذي يمكن ان نقوله عن ربنا هو : «سـبحان اللـه» فاننا مـتى ما قلنا ذلك اقتربنا الى الله خطوة.

جـاء في الحـديث عن الامـام البـاقر (ع) وقد سـأله البعض : يجوز ان يقال لله انه شيء؟ فقال :

«**نعم تخرجه من الحـــدين حـــدّ التعطيل ، وحد التشبيه**» [2]

وهذا معنى الاعتراف بالله ، لـذلك بـدء القـرآن حديثه بالتسبيح فقال :

[1] (**سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**)

ما هي علاقة تقـــديس الله وتنزيهه بالحادثة التاريخية الـــتي وقعت لرســـول الله (ص) وهي حادثة الإســـراء والمعراج؟

قال بعض المفسرين ان التسـبيح هنا بمعـنى التعجب اي عجبا. كيف اسرى الله

---

(1) المصدر ج 3 ص 266

(2) المصدر ص 262

بعبده من البيت الحرام الى المسـجد الأقصى ثم عـرج به الى السـماء هـذا صـحيح. ولكن يبقى السـؤال ما هي العلاقة بين التسبيح والتعجب؟ الواقع اننا حين نتعجب من شيء ، فان الشيطان والنفس الامارة بالسوء يوسوسـان لنا بأن ذلك الشيء هو عظيم الى حد الالوهية ، ومن أجل ان نبتعد عن هـذا الشـرك علينا ان نسـبح الله وننزهه لنتذكر بأنه أكبر من أيّ شيء عجيب قد يبهرنا.

وهكـذا عند ما اسـرى الله بـالنبي (ص) من المسـجد الحـرام الى المسـجد الأقصى ، ثم عـرج به الى السـماء كان من الممكن ان يعتقد البعض بان النبي (ص) هو الإله ، لذلك كان يلزم ان تبدأ القصة ب «سبحان الله».

ولمفردات اللغة العربية معـان دقيقة فمثلا : إذا ذهب أحدهم في أول الصباح الى مكان ما يقال عنه (بكّـر) وإذا كـان بعد ذلك بقليل قيل (صـبّح) وبعد مـدة (غـدي) ثم (أضحى) وفي النهار يقـال (سـرب) واما في الليل فيقـال (سرى).

والقرآن في هذه الآية يقول «**سُـبْحانَ الَّذِي أَسْـرى بِعَبْـدِهِ**» يعـني اسـرى به في الليل ، فلما ذا تقـول تتمة الآية : «**بِعَبْدِهِ لَيْلاً**»؟

قد يكون ذلك لما يلي :

أولا : اسـرى بعبـده اي ذهب بالليل ، ولكن هل كـان رجوعه في الليل أيضـا؟ ان كلمة «ليلا» جـاءت هنا لتؤكد على ان الذهاب والإيـاب كـان في الليل ، تأكيـدا لمعجـزة الإسراء.

ثانيا : قد يكـون تأكيد الآية على ان هـذا الحـدث العجيب قد تم في الليل ، حيث السكون والهـدوء ، وحيث لا يتم الانتقـال فيها إلا قليلا ، ثم ان العـروج الايمـاني يتم في الليل أكثر من النهار ، قال ربنا : «(**إِنَّ ناشِـئَةَ اللَّيْـلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً**

وَأَقْوَمُ قِيلاً)».
اما محل انطلاق رســـول الله (ص) للاســـراء فقد اختلفت الروايـات في ذلك ، فمنهم من قـال : بأنه خـرج من المسجد الحرام ، وبعض قال : من بيت أم هـاني بنت أبي طـــالب ، ولكن يمكن جمع الخـــبرين بـــالقول : ان الرســول (ص) كــان في بيت أم هــاني ، ثم خــرج الى المســجد الحــرام ، ومن هنـاك بـدأ رحلته الى المســجد الأقصى ، اي المسجد الأبعد من المسجد الحرام.

واما العــروج فقد كــان من المســـجد الأقصى الى السـماء ، حيث رأى آيـات ربه الكـبرى ، إذ يقـول تعـالى : (**لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا**) وفي آية أخرى يقـول : (**لَقَـدْ رَأى مِنْ آيــاَتِ رَبِّهِ الْكُبْــرى**) [1] ولكن ما هي تلك الآيــات؟ واين هي؟

القــرآن لا يحــدثنا عن هــذه الآيــات انما نجد هنــاك إشارات الى هذه الآيات في الأحاديث كما سيأتي ذكره.

اما كيف تمت تلك الآيـات والحـوادث في ليلة واحـدة في حين انها تحتــاج الى مــدة مديــدة؟ فــان ذلك اثــار التساؤلات لدى العلماء ، فقال بعضـهم : بـان الزمـان في الفضــاء الأعلى يختلف عمّا هو عليه في كرتنا الارضــية ، ولهم في ذلك بحــوث مطولة لا يسع المجــال لــذكرها ، وأساسا هنــاك تســاؤلات حــول كيفية حــدوث الإســراء لشخص الرسول كالتالي

1 ـ كيف قطع الرسول المسـافة بين المسـجدين في ليلة ، علما بأنها كانت تقطع في ذلك الزمان في أسابيع؟

2 ـ وبعدئذ كيف اخـترق جاذبية الأرض الى الفضـاء ، ونحن اليوم لا نقدر

---

(1) سورة النجم (18)

على مثله الا بمركبـات فضـائية متطـورة ومعقـدة ، ومع ذلك فانها لا تستطيع ان تعمل الا في حـدود ضـيقة جـدا ، بالنسبة الى الرسول صلّى الله عليه وآله؟

3 ـ وإذا كانت السموات جميعا عرصة رحلة الرسـول ، فيقتضي ذلك ان تكـون سـرعة المركبة أضـعاف سـرعة النـور بملايين المـرات ، لان الرسـول قطع ــ حسب الروايات ـ تلك المسافات في ساعات.

وتساؤلات اخرى جعلت طائفة من العلمـاء يشـككون أنفسـهم في المعـراج ، حـتى ان بعضـهم أوله بـأن روح الرسـول هي الـتي عـرجت وليس النـبي (ص) بجسـمه وروحه.

بيد ان إجمـاع علمـاء آل الـبيت عليهم السـلام قـائم على ان العـروج كـان بالجسم والـروح كما يحكيه شـيخ الطائفة الطوسي (قـدس الله سـره) والشـيخ الطبرسي (ره) والعلامة المجلسي وآخرون. [1]

وهكذا ذهب أكثر المحققين من علماء المسلمين الى ذلك وعليه روايـات صـحاح مشـهورة حسب ما يحكيه المفسر المعروف الرازي. [2]

ويدل على ذلك :

أولا : ان الآية صـريحة على ان العـروج تم «بعبـده» كما جاء في هذه الآية وتصـرح آيـات سـورة النجم بقوله : (**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى * عِنْـدَها جَنَّةُ الْمَـأْوى * إِذْ يَغْشَـى السِّـدْرَةَ ما يَغْشى * ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى * لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى**). [3]

---

(1) راجع تفسير نمونه ص 13 ج 12
(2) المصدر ، ويراجع أيضا تفسير الرازي
(3) سورة النجم 13 ـ 18

وهذا التعبير صريح في ان العروج تم به وليس بروحه (ص).

ثانيا : ان الرســول (ص) قص على النــاس في مكة وأكثرهم كفار قصة المعـراج ، فكـذبوه وأخـبرهم بما رأى في الطريق مما ظهر صـدقه لهم بعدئذ ، ولو ان العـروج كان بروحه في مثل النوم ، لكـان الأمر غـير ذي بـال ، ولا يثير التساؤلات عندهم.

وعلى العموم لا بد ان نعرف : ان عروج الرسـول لم يكن مثل صـعود المركبـات ، بل كـان اعجـازا مثل صـعود عيسى وإدريس (ع) ومثل ما فعل الله ســبحانه وتعــالى لأنبيائه (عليهم السلام) من طوفان نوح ، وخمـود النـيران لإبـــراهيم (ع) وابتلاع عصى موسى (ع) لحبـــال ســحرة فرعون واحياء الموتى على يد عيسى بن مريم (ع).

وكما القرآن اعجاز تحـدى كل العلمـاء والبلغـاء ، ولم يســتطيعوا أن يــأتوا بمثله ، كــذلك أســراء النــبي (ص) ومعراجه.

اما كيف تم ذلك فـــان العلم يتقـــدم ، وامامه طريق طويل حتى يستطيع ان يكشف اسرار هذه الرحلة المادية الروحية العجيبة.

بل فهـــذا العلم تقـــدم خطـــوات ، وأظهر ان قطع المسافة بين المسجدين في ليلة واحدة ممكنة ، ثم تقدم واثبت ان الصــعود الى الفضــاء هو الآخر ممكن بصــورة اجمالية ، بينما كـان الأمـران محـالان عند السـابقين حين تمت رحلة الإســراء والمعــراج ، وســوف يتقـدم ويتقـدم ليكشف بعض اسرار الرحلة المعجزة.

وأخــيرا لنعلم ان عــروج الرســول كــان رحلة روحية أيضا ، بالاضــافة الى انه كــان رحلة مادية ، حيث شــاهد الملائكة والأنبياء السابقين ، والجنة والنار ومن فيهما.

حديث الإسراء :

في الحــديث المــروي عن تفســير القمي ، عن أبي عمير ، عن هشام بن سالم ، عن

أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال :

«جاء جبرئيل وميكائيل وإسـرافيل بـالبراق الى رسول الله (ص) فأخذ واحد باللجام وواحد بالركـاب ، وسـوّى الآخر عليه ثيابه ، فتضعضـعت الـبراق (اي تحــركت) فلطمها جبرئيل ، ثم قــال لها : اســكني وتطأطئي يا براق ، فما ركبك نبي قبله ، ولا يركبك بعـده مثله ، فـرفّت به (اي طـارت) ورفعته ارتفاعا ليس بالكثير ، ومعه جبرئيل يريه الآيات من السـماء والأرض ، فبينما انا في سـيري إذ نــادى منــاد عن يميــني ، يا محمــد! فلم أجبه ، ولم التفت اليه ، ثم نــادى منــاد عن يســاري : يا محمــد! فلم أجبه ولم التفت اليه ، ثم اســتقبلتني امــرأة كاشــفة عن ذراعيها ، عليها من كل زينة الــدنيا فقــالت : يا محمــد! انظــرني حــتى أكلمك فلم التفت إليها ثم سرت ، فسمعت صوتا افزعني فجاوزته ، فـنزل بي جبرئيل ، فقال : صلّ ، فصليت ، فقال : أتدري اين صليت؟ قلت لا! فقال : صليت بطـور سـيناء ، حيث كلّم الله موسى تكليما ، ثم ركبت فمضــينا ما شــاء الله ، ثم قال لي : انـزل فصـلّ ، فـنزلت فصـليت ، فقال : أتـدري اين صـليت؟ فقلت لا. قـال : صـليت في بيت لحم. (وبيت لحم ناحية من نــواحي بيت المقــدس حيث ولد عيسى ابن مــريم) ثم ركبت ، فمضـينا حـتى انتهينا الى بيت المقـدس ، فـربطت البراق بالحلقة التي كان الأنبياء تربط بها ، فـدخلت المسجد ومعي جبرئيل الى جنبي ، فوجـدنا إبـراهم وموسى وعيسى فيمن شاء الله من أنبيــاء الله (ع) فقد جمعــوا اليّ وأقيمت الصــلاة ـــ ولا أشك الا وجبرئيل ســيتقدمنا ـــ فلما اســتووا أخذ جبرئيل بعضـدي ، فقـدمني ، وأممتهم ، ولا فخـرا (يعـني لا افتخر بذلك) ثم آتاني الخـازن بثلاثة أوان ، إنـاء فيه لبن ، وإناء فيه ماء ، وإنـاء فيه خمر وسـمعت قـائلا يقول : ان أخذ المـاء غـرق وغـرفت أمته ، وان أخذ الخمر غــوي وغــويت أمته ، وان أخذ اللبن هــدي وهـديت أمته ، قــال : فأخـذت اللبن وشـربت منه ، فقال جبرئيل : هـديت وهـديت أمتـك. ثم قـال مـاذا رأيت في مسيرتك؟ فقلت نـاداني منـاد عن يميـني فقال : أو أجبته؟ فقلت : لا ، ولم التفت

اليه ، فقـال : ذاك داعي اليهـود ، لو أجبته لتهـودت أمتك من بعـــدك ، ثم قـــال : مـــاذا رأيت؟ فقلت : نــاداني منــاد عن يســاري ، فقـال لي : أو أجبتــه؟ فقلت لا ، ولم التفت اليه ، فقـــــــــال : ذاك داعي النصــارى ، ولو أجبته لتنصــرت أمتك من بعـدك ، ثم قال : ماذا اســتقبلك؟ فقلت : لقيت امـرأة كاشـفة عن ذراعيها ، عليها من كل زينة الــدنيا فقــالت : يا محمـد! انظـرني حـتى أكلمك ، فقـال : أو كلمتهـا؟ فقلت : لم اكلمها ، ولم التفت إليها ، فقال : «تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارت أمّتك الدنيا على الآخــرة ، ثم سمعت صوتا أفزعني فقال لي جبرئيل : أتسـمع يا محمد ، قلت : نعم ، قال : هذه صخرة قذفتها من شفير جهنم منذ سبعين عاما ، فهذا حين استقرت ، قـــالوا : فما ضـــحك رســـول الله حـــتى قبض عليه السلام»

قصة المعراج

في حـــديث الإســـراء والمعـــراج كثـــير من المواعظ والحكم ، وفي نفس الـــــوقت هو حـــــديث ممتع ، يحمل الإنسان بعيـدا عن آفـاق الزمـان والمكـان ، ويدعه يسـيح في آفـاق بعيـدة وأشـارت الى ذلك الآية القرآنية تقـول : «**لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا**».

في وقت كان الناس يعتقدون بـأن الأرض هي محـور الكون ، وان السماء سقفها ، وان النجوم مسامير وضعت في هذا السقف لكي لا تقع السماء على الأرض ، ولتكون زينة ، وكـــان يتصـــور فريق منهم ان الســـموات عقـــول مجردة لا تحتمل الفساد.

في ذلك الــــــوقت تمت حادثة المعـــــــراج ، ونقلتها الأحاديث ، ولا بد ان نعرف أن قصة السموات تختلف عن موضـــوع الكبد مثلا في جسم الإنســـان ، إذ الكبد شـــيء خفي لا يهتم كلّ إنسان به ، اما السماء فكل إنسان يزعم انه يعرف عنها الشيء الكثـير ، وذلك لعلاقته الوثيقة بها ، فهو يرى الشمس والقمر والنجـوم يوميا ، كما انه يشـاهد تغيـيرات الأنـواء باسـتمرار ، وهكـذا فانه لا بد ان يكـوّن تصورا معينا عن

الســماء في نفسه يكــون خاطئا في الأغلب ، وكثــيرا ما تحولت الأساطير المرتبطة بعلم الهيئة القـديم الى أفكـار مقدسة ، فمثلا : دافعت الكنيسة عن هيئة بطليمـــوس ، وأحرقت أو قتلت من تحـداها ، كما جـرى لجـاليليو ، حين قال : بان الأرض التي تدور حول الشمس وليس العكس.

وبـالرغم من ذلك فقد جـاءت إشـارات صـريحة في بعض الأحاديث عن طبيعة السـماء يقـول الامـام علي (ع) في حديث له :

«**ان وراء عالمكم هذا أربعين عالما**»

وأربعين عدد يدل على الكثرة في اللغة العربية.

ولقد كـان الامــام علي (ع) يقف في مســجد الكوفة فيقول بملىء فيه :

«**سـلوني عن طـرق السـماوات فـاني اعلم بها من طرق الأرض**»

والامام الرضا (ع) يقول في حديث مسهب :

«**ان لكل ارض سماء تحيطها**»

حديث المعراج :

انتهينا في الدرس الماضي من الحديث عن الإسراء ، ونواصل هنا الحديث عن المعراج ، هذا الحديث يقول :

قال رسول الله (ص): «فصعد جبرئيل وصــعدت معه الى السماء الدنيا (يعـني أقـرب سـماء الى الأرض ، فـان لفظة دنيا مؤنث أدنى ، وادنى مقابل أقصــى) وعليها ملك يقال له إسماعيل ، وهو صاحب الخطفة التي قال الله عز وجل (**إِلَّا مَنْ خَطِفَ**

الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ) وتحته سبعون الف ملك وتحت كل ملك سبعون الف ملك». [1]

فقال : يا جبرئيل من هذا الذي معك؟ فقال : محمد رسول الله (ص) قال : وقد بعث؟ فقال : نعم ، ففتح الباب (كأنّ للسماء بابا ولكن ليس كالأبواب المتعارفة لدينا) فسلمت عليه ، وسلّم عليّ ، واستغفرت له ، واستغفر لي ، وقال : مرحبا بالأخ الصالح ، والنبي الصالح ، وتلقتني الملائكة حتى دخلت السماء الدنيا ، فما لقيني ملك الا ضاحكا مستبشرا ، حتى لقيني ملك من الملائكة ، لم أر أعظم خلقا منه ، كريه المنظر ، ظاهر الغضب ، فقال لي مثلما قالوا من الدعاء ، الا انه لم يضحك ، ولم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكة ، فقلت : من هذا يا جبرئيل؟ فاني قد فزعت منه فقال : يجوز ان يفزع منه ، فكلنا نفزع منه. ان هذا مالك خازن النار ، لم يضحك قط ، ولم يزل منذ ان ولاه الله جهنم ، يزداد كل يوم غضبا وغيضا على أعداء الله وأهل معصيته ، فينتقم الله به منهم ، ولو ضحك الى أحد قبلك أو كان ضاحكا الى أحد بعدك لضحك إليك ، فسلمت عليه فردّ السلام عليّ ، وبشرني بالجنة ، فقلت لجبرئيل : ألا تأمره ان يريني النار؟ فقال له جبرئيل : يا مالك أر محمد النار ، فكشف عنها غطاءها ، وفتح بابا منها فخرج لهب ساطع في السماء ، وفارت ، وارتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت ، فقلت : يا جبرئيل : قل له : فليرد عليها غطاءها ، فأمره فقال لها : ارجعي فرجعت الى مكانها الذي خرجت منه [2]

---

(1) مكلفون بإدارة السماء الأولى فقط ، وهناك أحاديث تصف بعض الملائكة فتقول بان جناح الواحد منهم يمتد ما بين المشرق والمغرب ، أو ان الواحد منهم يحمل ثقل الأرض كلها فوق جناحه ، وما هذه الإشارات الا الى سعة السماوات.

(2) ومن هذا الحديث يبدو ان جهنم ضمن اطار السماء الاولى وهي أقرب سماء إلينا ، وقد تكون جهنم مثلا كرة ملتهبة من هذه الكرات الموجودة في احدى هذه المجرات ، أو شمس من الشموس العتيقة التي تحدث فيها انفجارات هائلة تتجاوز عظمتها ملايين المرات عما هي عليه القنابل النووية في الدنيا ، أو يكون ما راه سيدنا ونبينا محمد (ص) جانبا من جهنم والله العالم.

ثم مضيت فرأيت رجلا آدما جسيما ، فقلت : من هـذا يا جبرئيل؟ فقال : هذا أبـوك آدم ، فـاذا هو يعـرض عليه ، فيقــول : روح طيّبة ، وريح طيبة من جسد طيب ، ثم تلى رسول الله (ص) سـورة المطففين على رأس سـبع عشر آية (**كَلَّا إِنَّ كِتــابَ الْأَبْــرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ* وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ* كِتابٌ مَرْقُـومٌ* يَشْـهَدُهُ الْمُقَرَّبُـونَ**) (الى آخر الآيــات) قــال : فســلمت على أبي آدم ، وســلّم عليّ ، واســتغفرت له ، واســتغفر لي ، وقــال : مرحبا بــالابن الصالح ، والنبي الصالح ، المبعوث في الزمن الصالح.

قــال : ثم مـــررت بملك من الملائكة جـــالس على مجلس ، وإذا جميع الـدنيا بين ركبتيه ، وإذا بيـده لـوح من نــور ينظر فيه ، مكتــوب فيه كتــاب ينظر فيه ، لا يلتفت يمينا لا شمالا ، مقبلا عليه كهيئة الحـزين ، فقلت من هـذا يا جبرئيــل؟ قــال : هــذا ملك المــوت ، دائب في قبض الأرواح ، فقلت : يا جبرئيل أدنـــــني منه حـــــتى أكلمه ، فأدنــاني منه ، فســلمت عليه ، وقــال له جبرئيل : هــذا محمد نبي الرحمة الـذي أرسـله الله الى العبـاد ، فـرحّب بي وحيّاني بالسلام. قال : أبشر يا محمـد. ارى الخـير كله في أمتك ، فقلت : الحمد لله المنـــــان ، ذي النعم على عباده ، ذلك من فضل ربّي ، ورحمته عليّ ، فقال جبرئيل : هو أشد الملائكة عملا ، فقلت : أكـــلّ من مـــات أو هو ميت فيما بعد هــذا تقبض روحـــه؟ فقــال : نعم ، قلت : وتراهم حيث كانوا ، وتشهدهم بنفسك؟ قال : نعم ، فقال ملك المــوت : ما لــدنيا كلها عنــدي فيما ســخّر الله لي ومكنــــني عليها الا كالــــدرهم في كف الرجل يقلبها كيف يشاء ، وما من دار الا وانا أتصفحه كل يوم خمس مرات ، وأقول إذا بكى أهل الميت على ميتهم ، لا تبكوا عليه فان لي عودة وعـودة حـتى لا يبقى منكم أحد ، فقـال رسـول الله : كفى بــالموت طامّة يا جبرئيل ، فقــال : جبرئيل : انما بعد الموت اطّم واطّم من الموت.

قال : ثم مضيت فـاذا انا بقـوم بين أيـديهم موائد من لحم طيّب ، ولحم خبيث ، يأكلون اللحم الخبيث ، ويدعون الطيّب ، فقلت من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال : الذين

يأكلون الحرام ، ويـدعون الحلال ، وهم من أمتك يا محمد ، فقـــال رســـول الله (ص): ثم رأيت ملكا من الملائكة جعل الله امره عجيبا. نصف جسده النـار ، والنصف الآخر ثلج ، فلا النــار تــذيب الثلج ، ولا الثلج يطفئ النــار ، وهو ينادي بصـوت رفيع ويقـول : سـبحان الـذي كفى حر هـذه النار فلا تـذيب الثلج ، وكفى بـرد هـذا الثلج فلا يطفئ حر هذه النار ، اللهم يا مؤلف بين الثلج والنار الف بين قلـوب عبادك المؤمنين ، فقلت : من هذا يا جبرئيل؟ فقال : هـذا ملك وكلّه الله بأكنـاف السـماء وأطـراف الأرضـين ، وهو أنصح ملائكة الله لأهل الأرض من عبـاده المؤمـنين يـدعو لهم بما تســــمع منذ خلق ، ورأيت ملكين يناديــــان في الســماء واحـــدهما يقـــول : اللهم أعط كل منفق خلفا ، والآخر يقول : اللهم أعط كل ممسك تلفا.

ثم مضيت فاذا انا بأقوام لها مشـافر كمشـافر الإبل ، يقــرض اللحم من جنــوبهم ويلقي في أفــواههم ، فقلت : من هــؤلاء يا جبرئيــل؟ قــال هــؤلاء الهمــازون اللمــازون (المغتابون النمامون).

ثم مضـيت فـاذا انا بقـوم ترضخ رؤوسـهم بالصـخر ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال : هؤلاء الـذين ينـامون عن صلاة العشاء ، ثم مضيت فاذا انا بـأقوام تقـذف النـار في أفــواههم وتخــرج من ادبــارهم ، فقلت من هــؤلاء يا جبرئيل؟ قـال : هـؤلاء «**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْـوالَ الْيَتـامى ظُلْمـاً. إِنَّما يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ نـاراً وَسَيَصْـلَوْنَ سَعِيراً**» ثم مضيت فاذا انا بـأقوام يريد أحـدهم ان يقـوم فلا يقـدر من عظم بطنه ، فقلت ، من هـؤلاء يا جبرئيـل؟ قـال : هـؤلاء الـذين يـأكلون الربا «**لا يَقُومُـونَ إِلَّا كَما يَقُـومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُـهُ الشَّـيْطانُ مِنَ الْمَسِ**» وإذا هم بسـبيل آل فرعـون يعرضـون على النـار غـدوا وعشـيا .. يقولون : ربنا متى تقوم السـاعة ، قـال : ثم مضـيت فـاذا انا بنســوان معلقـــات باثـــدائهن ، فقلت : من هـــؤلاء يا جبرئيل؟ فقال هؤلاء اللواتي يورثن اموال أزواجهن

ولاد غيرهم [1] ثم قال رسول الله (ص) :

اشــتد غضب الله على امــرأة ادخلت على قــوم في نســـبهم من ليس منهم ، فـــاطلع على عـــوراتهم وأكل خزائنهم.

ثم قـــــال : مررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل : خلقهم الله كيف شاء ، ووضع وجوههم كيف شـاء ، وليس شيء من إطياف أجسادهم الا وهو يسبح الله ويحمده من كل ناحية بأصوات مختلفة ، فسألت جبرئيل عنهم ، فقـال : كما تــرى خلقــوا. ان الملك منهم الى جنب صــاحبه ما كلمه كلمة قط ، ولا رفعــوا رؤوســهم الى ما فوقها ، ولا خفضـوها الى ما تحتها خوفا من الله وخشـوعا ، فسـلمت عليهم فـردّوا عليّ إيمـاء برؤوسـهم من الخشـوع ، فقـال لهم جبرئيل : هــذا محمد نــبي الرحمة ، أرســله الله الى العبـاد رسـولا ونبيّا ، وهو خـاتم النبـيين ، وسـيدهم ، أفلا تكلمونـه؟ فقـال : عند ما سـمعوا ذلك من جبرئيل أقبلـوا عليّ بالسلام واكرموني وبشروني بالخير لي ولا متي.

الرسول في السماوات :

يقول رسول الله (ص): ثم صعدنا الى السـماء الثانية فاذا فيها رجلان متشابهان. فقلت : من هـذان يا جبرئيـل؟ فقــال : أبنــاء الخالة يحــيى وعيسى ، فســلمت عليهما وسـلّما عليّ ، واسـتغفرت لهما ، واسـتغفرا لي ، وقـالا : مرحبا بـــــالأخ الصـــــالح ، وإذا فيها من الملائكة وعليهم الخشوع ، وقد وضع الله وجـوههم كيف شـاء ، ليس منهم ملك الا يسبّح الله بحمده بأصوات مختلفة.

ثم صعدنا الى السماء الثالثة ، فـاذا فيها رجل ، فضل حسـنه على سـائر الخلق ، كفضل القمر ليلة البـدر على سائر النجوم ، فقلت : من هذا يا جبرئيل؟ فقال : هذا

---

(1) يعني أن المرأة تلد من الزنا فتجعله للزوج

أخوك يوسف ، فسلمت عليه وسلم عليّ ، واستغفرت له ، واستغفر لي ، وقال : مرحبا بالنبي الصالح ، والأخ الصالح ، المبعوث في الزمن الصالح ، وإذا فيها ملائكة عليهم من الخشوع مثلما وصفت في السماء الاولى والثانية ، فقال لهم جبرئيل في أمري ، ما قال للآخرين ، وصنعوا فيّ مثلما صنع الآخرون ، ثم صعدنا الى السماء الرابعة ، وإذا بي رأيت رجلا ، فقلت : من هذا يا جبرئيل؟ فقال : هذا إدريس رفعه الله مكانا عليّا ، فسلمت عليه ، وسلّم عليّ ، واستغفرت له ، واستغفر لي ، وإذا فيها من الملائكة لخشع مثلما في السماوات التي عبرناها ، فبشروني بالخير لي ولأمتي ، ثم رأيت ملكا جالسا على سرير وتحت يديه سبعون الف ملك ، تحت كل ملك سبعون الف ملك ، فوقع في نفس رسول الله انه هو ، فصاح به جبرئيل فقال : قم ، فهو قائم الى يوم القيامة.

ثم صعدنا الى السماء الخامسة فاذا فيها رجل كهل عظيم العين ، لم أر كهلا أعظم منه ، حوله ثلة من أمته ، فاعجبني كثرتهم فقلت : من هذا يا جبرئيل؟ فقال : هذا المحبّب في قومه هارون بن عمران ، فسلمت عليه وسلّم عليّ ، واستغفرت له واستغفر لي ، وإذا فيها من الملائكة الخشع مثلما رأيت في السماوات.

ثم صعدنا الى السماء السادسة وإذا فيها رجل آدم (اي أسمر اللون) طويل كأنه من شنوة [1] ولو ان له قميصين لنفذ شعره فيها ، وسمعته يقول : يزعم بنو إسرائيل اني أكرم من ولد آدم على الله وهذا رجل أكرم على الله مني (وأشار الى رسول الله) فقلت : من هذا يا جبرئيل؟ فقال : هذا أخوك موسى بن عمران ، فسلمت عليه وسلّم عليّ ، واستغفرت له ، واستغفر لي ، وإذا فيها من الملائكة الخشع مثلما في السماوات. [2]

---

(1) شنوة قبيلة عربية معروفة طوال القامة

(2) وهكذا فاننا نرى بان الرسول (ص) يلتقي في كل سماء بنبي أو أكثر تعبيرا عن وحدة الرسالات السماوية وعن الاخوة بين الأنبياء ، وعن اختلاف درجات الأنبياء.

ثم صعدنا الى السماء السـابعة فما مـررت بملك من الملائكة الا قـال : يا محمد احتجم ، وأمر أمتك بالحجامة [1] وإذا فيها رجل اشـمط الـرأس واللحية ، جـالس على كرسي ، فقلت : يا جبرئيل من هـذا الـذي في السـماء السابعة على باب البيت المعمور. في جوار الله؟ فقـال : هذا يا محمد أبوك إبـراهيم ، وهـذا محلك ومحل من اتقى من أمتك ، ثم قـرأ رسـول الله : «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِـإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ وَهـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**» فسلمت عليه وسلّم عليّ وقال : مرحبا بـالنبي الصـالح ، والابن الصـالح ، المبعـوث في الـزمن الصـالح ، وإذا فيها من الملائكة الخشع مثلما في السماوات فبشروني بالخير لي ولامتي [2]

قـال رسـول الله (ص): ورأيت في السـماء السـابعة بحارا من نور تتلألا. تلألؤها يخطف بالأبصار وفيها بحار من ظلمة ، وبحـار من ثلج ترعد ، فكلما فـزعت ورأيت هـولا سألت جبرئيل فقال : أبشر يا محمد ، واشـكر كرامة ربك ، واشـكر الله بما صـنع إليك ، قـال : فثبتـني الله بقوته وعونه حتى كثر قـولي لجبرئيل وتعجـبي ، فقـال جبرئيل : يا محمد تعظم ما ترى (هل تراه عظيما)؟! انما هـذا خلق من خلق ربك فكيف بالخـالق الـذي خلق ما تـراه ، وما لا تراه أعظم من هذا!!

ان بين الله وبين خلقه سـبعين الف حجـاب ، وأقـرب الخلق الى الله انا وإسـرافيل ، وبيننا وبينه اربعة حجب : حجاب من نـور وحجـاب من الظلمة وحجـاب من الغمامة وحجاب من الماء.

وقال رأيت من العجائب التي خلق الله ، وسخّر على ما اراده ، ديكا رجلاه في

---

(1) الحجامة تعني ان يأخذ الإنسان مقدارا من دمه كل عام

(2) اننا نجد ان الأنبياء في حـديثهم مع النـبي محمد (ص) يقولـون له : المبعوث في الزمن الصالح وهذا يدل على ان البشرية قد تكاملت عـبر رسـالات الله حـتى بلغت مرحلة النضج في عهد رسـول الله (ص) والعهـود التالية لعهـده ، وإنسـان اليـوم انما يتقـدم في مـدارج الكمـال بفضل رسالات الله.

تخــوم الأرض الســابعة ورأسه عند العــرش وهو ملك من ملائكة الله تعــالى ، خلقه الله كما أراد ، ثم اقبل مصــعدا حتى خــرج في الهــواء الى الســماء الســابعة ، وانتهى فيها مصــعدا حــتى انتهى قرنه الى قــرب العــرش ، وهو يقــول ســبحان ربي حيث ما كنت .. لا تــدري اين ربك من عظم شأنه ، وله جناحان في منكبه إذا نشرهما جاوزا المشــرق والمغرب ، فاذا كان في السّحر نشر جناحية وخفق بهما ، وصــرخ بالتســبيح ويقــول : ســبحان الله الملك القــدوس ، ســبحان الله الكبــير المتعــال لا اله الا الله الحي القيــوم ، وإذا قال ذلك سبّحت ديوك الأرض كلها ، وخفقت بأجنحتها وأخــذت بالصــراخ ، فــاذا ســكت ذلك الــديك في الســماء ســكتت ديــوك الأرض كلها ، ولــذلك الــديك زغب خضر [1] وريش ابيض شديد البيــاض .. ما رأيت مثله قط وله زغب أخضر أيضا تحت ريشه الأبيض كأشد خضــــــرة ما رأيتها قط.

قال : ثم مضيت مع جبرئيل ، فدخلت البيت المعمــور ، فصــليت فيه ركعــتين ومعي أنــاس من اصــحابي عليهم ثياب جدد ، وآخرين عليهم ثياب خلقــان ، فــدخل أصــحاب الجــدد وجلس أصــحاب الخلقــان [2] ثم خــرجت فانقــاد لي نهـــران ، نهر يســـمى الكـــوثر ، ونهر يســـمى الرحمة ، فشربت من الكوثر واغتسلت من الرحمة [3] ثم انقــادا لي جميعا حــتى دخلت الجنة وإذا على حافتيها بيــوتي وبيــوت أهلي ، وإذا ترابها كالمسك ، وإذا جارية تنغمس في أنهــار الجنة فقلت : لمن أنت يا جارية. فقالت لزيد بن حارثــة. [4]

---

(1) والزغب هو الريش الصغير

(2) والقرآن الحكيم يقول في سورة البقرة «**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى**» فلباس التقوى خير لباس وزاد التقــوى خــير زاد ، وكلما كنت تقيا كــان ثوبك في يــوم القيامة أجــدّ وانئذ يمكنك ان تــدخل مع رســول الله (ص) الى البيت المعمور فتصلي فيه.

(3) يعني استوعب رسول الله الخير الكثير ولقّته الرحمة.

(4) الــذي تبنــاه رســول الله (ص) وهو والد اســامة وقد استشــهد في معركة مؤتة ، التي استشهد فيها عبد الله بن رواحة وجعفر الطيار.

وإذا رمّانها مثل الدليّ العظام [1] وإذا شجرة لو أرسل طير في أصلها ما دارها سبعمائة سنة وليس في الجنة منزل الا وفيه غصن منها ، فقلت ما هذه يا جبرئيل؟ فقال : هذه شجرة طوبى قال الله : «**طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**» قال رسول الله : فعند ما دخلت الجنة رجعت الى نفسي فسألت جبرئيل عن تلك البحار وهولها وأعاجيبها ، فقال : هي سرادقات الحجب التي احتجب الله تبارك وتعالى بها ، ولو لا تلك الحجب لهتك نور العرش كل شيء فيه.

وانتهيت الى سدرة المنتهى فاذا الورقة منها تظل امة من الأمم ، فكنت منها كما قال تعالى : (**قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى**) فنادى الله سبحانه وتعالى : (**آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**) فقلت انا ، مجيبا عنّي وعن أمتي : «**وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**» فقال الله : «**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ ، وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ**» فقلت : «**رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا**» فقال الله : «لأحملنّك»

فقلت : «**رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ**».

فقال الله تبارك وتعالى : «**قد أعطيتك ذلك ولامتك**»

قال الصادق (ع):

«**ما وفد على الله تعالى أحد أكرم من رسول الله حين سأل لامته هذه الخصال**» [2]

---

(1) حيث أن رمان الجنة كالدلو ، ودليّ جمع دلو.

(2) وتلك هي الآيات الاخيرة من سورة البقرة ، وقد جاء ذلك في مضمون حديث عن رسول الله (ص) حيث قال : رفع عن أمتي تسع : الخطأ والنسيان وما لا يعلمون و... والى آخر الحديث).

فقـال رسـول الله : «يا رب أعطيت أنبيـاؤك فضـائل فـاعطني! فقـال الله : قد أعطيتك فيما أعطيتك كلمـتين من تحت عرشي : لا حـــول ولا قـــوة الا بالله ، ولا منجى منك الا إليـك» قـال : وعلمتـني الملائكة قـولا أقوله إذا أصـبحت وأمسـيت : «اللهم ان ظلمي أصـبح مسـتجيرا بعفـوك ، وذنـبي أصـبح مسـتجيرا بمغفرتك ، وذليّ أصـبح مستجيرا بعزتك وفقري أصـبح مسـتجيرا بغنـاك ، ووجهي الفاني أصبح مستجيرا بوجهك الباقي الذي لا يفني».

ثم سـمعت الأذان وإذا ملك يـؤذن لم ير في السـماء قبل تلك الليلة.

فقال : الله أكبر .. الله أكبر.

فقال الله : «صدق عبدي انا أكبر من كل شيء».

فقال : اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان لا اله الا الله.

فقال الله : «صـدق عبـدي انا الله لا اله الا انا ولا اله غيري».

فقال : اشهد ان محمدا رسول الله ـ اشهد ان محمدا رسول الله.

فقال الله : «صدق عبدي ان محمدا عبدي ورسـولي. انا بعثته وانتجبته».

فقال : حي على الصلاة ـ حي على الصلاة.

فقـال الله : «صـدق عبـدي دعا الى فريضـتي ، فمن مشى إليها راغبا محتســبا كـانت له كفـارة لما مضى من ذنوبه».

فقال : حي على الفلاح ـ حي على الفلاح.

فقال الله : «حيّ الصلاح والنجاح والفلاح»

ثم اممت الملائكة في السـماء كما اممت الأنبيـاء في بيت المقدس.

وللحديث بقية حول ان الرسول (ص) كلّف بخمسـين صلاة ، وحين جاء الى موسى (ع) وأخبره بذلك ، فقال له موسى (ع) : ان أمتك لا تطيق ذلك ، فـــارجع الى ربك فليقلّلها ، فعمل بـذلك وقلّلها الله حـتى خمس صـلوات ، فقـال له موسى (ع) : ان أمتك لا تطيق ذلك أيضا ، لكن النـبي (ص) خجل من ربه واسـتحيا ان يطلب من الله التقليل. وقال (ص) اصبر عليها وتصـبر أمـتي وقـال الله : «**ان أديت ذلك أنت وأمتك فـاني سأحسب الصـلاة الواحدة بعشرة صلوات**»

وهناك أحاديث اخرى في هـذا المجـال يمكن الرجـوع إليها في الكتب التي احتوت على النصوص الاسلامية.

وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (3) وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (4) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (6)

---

4 [وقضينا] : القضاء فصل الأمر على إحكام.
6 [الكرة] : الرجعة والدولة.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَــإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَـدْخُلُوا الْمَسْـجِدَ كَما دَخَلُــوهُ أَوَّلَ مَــرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَــوْا تَتْبِــيراً (7) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَــرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُـــدْتُمْ عُـــدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (8)

---

7 [ليسوؤا وجوهكم] : يحزنوكم.

7 [ويتبروا] : التتبير الإهلاك.

8 [حصيرا] : الحصير الحبس ويقال للملك حصير لأنه محجوب.

ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم

هدى من الآيات :

ان القـــــرآن الحكيم يكـــــرس في الإنســــان روح المســؤولية ، ويــبين له بــأن طبيعة حياته ليست الا نتيجة لإرادته وسـعيه ، ويضـرب ربنا مثلا في هـذه السـورة عن واقع بني إسـرائيل ، وكيف انهم عند ما أحسـنوا تقـدموا ، وعند ما أساؤوا تخلفوا ، وشروط السعادة اتباع هـدى الله الــذي يحمله رســوله في صــورة كتــاب الهي ، ورســالة الكتاب تتلخص في التوكل على الله وحده ، ونبذ الشركاء والأنداد.

وبنو إسرائيل الذين ذرأهم الله من صلب الناجين عن واقعة الطوفـان ، وحملهم في سـفينة نـوح (ع) ذلك العبد الشاكر لربه ، هؤلاء منّ الله عليهم ـ مرة اخرى ـــ بكتـاب ورسول هو موسى (عليه السلام).

وقضى الــرب الى بــني إســرائيل في الكتــاب : انهم يفسـدون ـــ بالتأكيد ـــ في الأرض مـرتين ، ويطغـون فبعد اولى المرتين يبعث الله عليهم عبادا له ، ولكنهم يعودون

ـ بفضل الله ـ أقوياء ، ويغلبون أعداءهم ، حيث يجعلهم الله أكثر أموالا وأولادا. وبسبب قوتهم أو ضعفهم ، إحسانهم أو إساءتهم ، وهكذا يعود أولئك العباد الى سابق قوتهم ، ويدخلون المسجد وهذه سنة الله قائمة على أساس الجزاء ، ليس في الدنيا فقط وانما في الآخرة أيضا حيث ان ربنا يجعل جهنم للكافرين حصيرا.

بينات من الآيات :

ماذا جرى على بني إسرائيل؟ يقول تعالى :

[2] (**وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً**)

قد جمعت رسالة الله لبني إسرائيل والتي حملها موسى في كتاب التوراة في كلمة (توحيد الله) وأثر التوحيد في استراتيجية العمل «**أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً**» هو الاعتماد على الله ، والاستفادة من مواهبه العظيمة التي أسبغها على الإنسان ، وعدم الاعتماد على الناس وما لديهم من أفكار وأشياء ، وبالتالي الاستقلال السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي الذي هو من أعظم ثمرات توحيد الله.

ويبدو ان هذا هو أهم ما توحي به كلمة «**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها**» إذ التوكل على الله وليس على الناس رمز التقدم ، وعكسه عنوان التخلف.

[3] (**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً**)

هناك فرق بين من يدخل مكتبته فيجد الكتب متراكمة فيها ، وبين من يستوعب الكتب ويحفظها ، فيعرف السقيم منها والسليم ، فليس كل من امتلك مكتبة كان عالما ، كما أن هناك فرق بين من يستوعب علما ، وبين من يعمل بذلك

العلم ، فليس كل عالم عامل ، وهكذا يوجد فـرق بين من يعـرف الحقـائق الروحية والنفسـية وبين من يـربي نفسه عليها ، فـاغلب النـاس عـالمون غـير عـاملين ، وقليل من العاملين يربّون أنفسهم على الأخلاق الفاضلة.

فقد تعـرف الشـكر خلال لحظـات وتعـرف حقيقته ، ولكن إذا أردت ان تحوّل هذه الحقيقة الى سـلوك فتكـون من الشـاكرين فـان ذلك ليس بـالأمر الهيّن ، والمسـافة بينهما مقدار الارادة.

معرفة الذات منطلق الشكر :

ان الشكر عند الإنسان يتجسد تبعا لأحد مــوقفين من الطبيعة حوله :

الاول : ان يعتقد بأنه موجــــود متكامل بالأصل ، وانه يملك بذاته الجــــوارح ، والجــــوانح ، والعقل ، والعلم ، والسعادة ، والرقي ، فليس بحاجة الى ان يشكر أحدا.

الثاني : ان يعتقد بأنه كان قطرة من ماء مهين فصار إنسـانا ، ثم أعطـاه الله الجـوارح والنعم وهي ليست ملكا ذاتيا له ، وانما وهبها الله له فتنة ، فان شــكره عليها زاده منها ، وان كفر فانه سيعذبه عـذابا شـديدا ، يقـول تعـالى (**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَـرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ**) (7 / إبراهيم)

وهكذا فـان كل نعمة تسـتحق الشـكر الجزيل والثنـاء الجميل ، فبالعين ترى الأشـياء ، وبـالاذن تسـمع ، والقلب ينبض بانتظام لتبقى حيا بـإذن الله ، وما على الإنسـان الا ان يستفيد من كل ما قدّره الله له ، فلا يعمل الا صـالحا ، ولا ينظر الى ما حرمه الله ، ولا يســمع الا الكلام الطيب. وهذا هو معنى الشكر.

الكثير من الناس بدل ان تكون النعم عاملا يؤكد فيهم صــفة الشــكر ، والتواضع للــذي منّ عليهم بها وهو الله ، بدل ذلك يتكبرون لأنهم يشعرون بالكمال ، فيقدسون

ذواتهم ، ويقولـون : انما أوتينـاه على علم عنـدنا كما فعل قارون ، اما المؤمنون فإنهم يزدادون ايمانا وشكرا لله.

وفي حــديث عن عائشة ان رســول الله (ص) كــان يغيب عن فراشه ويتوجه الى البقيع ، فيتعبد ويبكي ويتضرع فتقـول له عائشة : يا رسـول الله أو لم يغفر لك ربك ما تقـدم ذنبك وما تـأخر؟ فيقـول : نعم. فتقـول له : فلما ذا تتعب نفسك؟ فيقول :

«**أفلا أكون عبدا شكورا**»

هكذا كان نـوح عبـدا شـكورا ، وهكـذا يـأمر الله بـني إسـرائيل الـذين أنقذ آبـاءهم مع نـوح من ذلك الطوفـان العظيم ان يشــكروا ربهم ، وهو بعدئذ منّ عليهم بكتــاب فيه هـــدى يحمله إليهم نــــبي عظيم وهو موسى (عليه السلام) الذي قادهم بإذن الله من نصر الى نصر.

فلو أنهم شــكروا نعمة الرســالة ، ونفّــذوا تعاليمها ، فقد أحسنوا لأنفسـهم ، وكـان هـذا في الكتـاب مسـطورا كما بينته الآية التالية.

الظالم سيف الله :

[4] (**وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ**)

لقد انبأ كتاب التوراة بني إسـرائيل بقضـاء الله الـذي سوف يتحقق.

(**لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً**)

علو بني إسرائيل يشبه علو فرعـون الـذي يقـول عنه ربنا : «**إِنَّ فِرْعَـــوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَـــلَ أَهْلَها شِيَعاً**» (4 / القصص).

والعلو هو حالة الغرور بالذات ، والاستكبار على الحق ، والاستعلاء على الآخرين ..

[5] (**فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما**)

يعني حان وقت الفساد الاول.

(**بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**)

البـأس : الشـدة والغلظة وهي كلمة تسـتخدم عـادة عند الحديث عن الحرب.

ولكن من هم هؤلاء العباد؟ هل يصدق هـذا على بخت نصّـر ، هكـذا قـال البعض فلقد كـان ملكا على بابل في العراق ، فقاد جيشه نحو فلسطين ، فأنهى حضارة اليهـود ، وهدم الهيكل ، وقتل سبعين ألفا منهم ، وسـبى الآلاف ، ثم تـأججت الحـروب بين بابل وبلاد فـارس ، والـتي كـان يرأسها كورش الاول ، فانتصر الأخـير وحـرر المسـتعبدين من بـني إسـرائيل ، وأعـادهم الى فلسـطين ، وبـنى لهم الهيكل ، وحينما رأى اليهـــــود ذلك علو في الأرض ثانية وأفسدوا فيها.

ولو كان هذا المقصـود فهل يمكن ان يسـمي القـرآن السفاكين كبخت نصر «**عِباداً لَنا**»؟

بلى ، إذ الصـــــالح والفاسد كلاهما عبد ان لله ، وقد يكون الظالم وسـيلة انتقـام الـرب من العصـاة حيث جـاء في حديث قدسي «الظالم سيفي انتقم به وانتقم منه»

(**فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ**)

وجـــــاس من التجسس اي دخل بخت نصر وجماعته أعماق البلاد ، وتجسسوا عن أحوالها.

(**وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً**)
فحينما يـــنزل البلاء قد لا يدفعه الـــدعاء ، ولا الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر ، وحين يـولى على النـاس شـرارهم بسـبب تفـريطهم في جنب الله ، وتـرك وظيفة الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر لا يسـتجاب دعـاؤهم. لماذا؟ لان الذنب قسـمان ، فـاذا كنت قد أذنبت أنت ، ثم رفعت يديك بالدعاء وتبت الى ربك فان الله قد يغفر لك ، ما إذا فسد المجتمع كله ، فانه لا ينفعه دعـاء فـرد واحد ، انما يجب ان يتوبوا الى الله جميعا. ويصـلحوا ما فسد من أمورهم.

[6] (**ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ**)
اي صـــارت الكـــرّة لبـــني إســـرائيل على أهل بابل والحاكمين فيها.
(**وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً**)
النفير جمع نفر ومعناه العدد المقاتل.

الإنسان قرين عمله :

[7] (**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها**)
لقد كان علـوكم وقـدرتكم بسـبب أعمـالكم الحسـنة. والإنسان قرين عمله حسنا كان أو سيئا ، وقد قيل ـ مـرة ـ لهرتزل مؤسس الكيان الصهيوني الغاصب في فلسطين : كـان اليهـود خلال اربعة آلاف سـنة بؤسـاء محـرومين ، فكيف تبادر الى ذهنك تأسـيس دولة لهم؟ فقـال : قـرأت قـرآن (محمـد) فـرأيت فيه آية تقـول : «**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها**» فعـرفت ان البـؤس الـذي يعانيه اليهـود في العـالم ليس الا من عند أنفسهم.

هـــؤلاء الصـــهاينة حين غصـــبوا أراضي الآخـــرين ، وطردوهم من ديارهم ، واستبدوا في البلاد ظلما وبطشا ، لن يـتركهم الله ، بل سـوف يسـلط عليهم عبـادا له ذوي بأس شديد ، فيصيبهم ما أصابهم في المـرتين السـابقتين إذ أفسدوا في البلاد.

(**فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ**)

اي حان وقت الإفساد الثـاني. سـلط الله عليهم ملك الــروم (اســبيانوس) الــذي بعث قائــده (طرطــوز) الى فلسطين فدخل البيت المقـدس ، وقتل أهلها ، وسـباهم ، وعمل الفضائع في بني إسرائيل حيث يقول تعالى :

(**لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْـجِدَ كَما دَخَلُـوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)

بالطبع ان (بخت نصر) غير (اسبيانوس) ولكن القرآن يريد ان يذكرنا بـان الطغـاة سـواء جـاؤوا من الشـمال أو الجنوب فهم ذووا مسلك واحد وهدف مشترك.

وما ذكرنــاه سـلفا واحد من التفاسـير المعروفة في هذه الآيات ، وهناك من يرى غير ذلك ، مثلا :

1 ـ ان (القـــدس) قد بـــني مـــرة على عهد داود وسليمان (عليهما السلام) فهدمه بخت نصر ، ومرة اخرى بني على عهد ملوك الفرس من سلسلة (هخــامنش) وان قائــدا باسم (طيطــوس) هدمه وبقي مهـدما حـتى فتحه المسلمون على عهد الخليفة الثاني.

2 ـ وقالوا : بأن فسـاد بـني إسـرائيل الاول كـان في عهد بداية الإسلام ، حيث قمعه عبـاد الله المسـلمون. اما فســادهم الثــاني فهو اليــوم ، وســوف يقمعه عبــاد الله المسلمون ، أيضا. نرجو ان يكون ذلك قريبا بأذن الله.

(**وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً**)

إذ كـانوا يقطعـون الأشـجار ، ويحطمـون العمـران ويهلكون الحرث والنسل.

[8] (**عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا**)

فـاذا تـركتم الفسـاد ، وتـوجهتم الى تعـاليم الله فانه سـوف يغـنيكم ويـرحمكم. هـذا في الـدنيا اما في الآخـرة فانه تعالى يقول :

(**وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً**)

ان بـني إسـرائيل لم ينتفعـوا بهـذه الحكمة الالهية البالغة ، فجـاءوا الى فلسـطين جبـارين بعد أن ربطـوا أنفسهم بالقوى المفسدة في الأرض ، وقتلوا ، وشـردوا ، وارهبوا ، وارتكبوا أبشع الجـرائم بحق النـاس الآمـنين من أهالي فلسطين باسم حقّهم في ارض الميعـاد ، ولعمـري لو كان دينهم يعطيهم شـرعية الظلم والعـدوان فانه ليس دين الله ، ولا هو ينسـجم مع وجـدان الإنسـان ، انما هي عقد نفسية تراكمت عبر التاريخ ، وانفجـرت اليـوم ، ولإن امهلهم الرب العزيز الحكيم ، فلسـوف يأخـذهم أخذ عزيز مقتدر.

هذا عنهم ، اما عنا فلقد جعلنا هذه الآية خلف ظهورنا ، ولم ننتفع بحكمتها أيضا ، فلقد كسـلنا ، وتقاعسـنا ، واختلفنا ، ولم نتضرع الى الله ، ونصلح أنفسنا حين أحاط بنا البلاء ، وكان بنوا إسرائيل اليوم بالنسـبة إلينا كما كـان بخت نصر بالنسـبة إليهم ظـالمين ، ينتقم الله بهم منا ، وثم ينتقم منهم بمن يشاء سبحانه.

إِنَّ هــذَا الْقُــرْآنَ يَهْــدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْــوَمُ وَيُبَشِّــرُ الْمُــؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُــونَ الصَّــالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْـراً كَبِيراً (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ أَعْتَـدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (10) وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعـاءَهُ بِـالْخَيْرِ وَكـانَ الْإِنْسـانُ عَجُـولاً (11) وَجَعَلْنَا اللَّيْـلَ وَالنَّهـارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَـةَ اللَّيْـلِ وَجَعَلْنا آيَـةَ النَّهـارِ مُبْصِـرَةً لِتَبْتَغُــوا فَضْــلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُــوا عَــدَدَ السِّــنِينَ وَالْحِسـابَ وَكُـلَّ شَـيْءٍ فَصَّـلْناهُ تَفْصِـيلاً (12) وَكُـلَّ إِنسـانٍ أَلْزَمْنـاهُ طـائِرَهُ فِي عُنُقِـهِ وَنُخْـرِجُ لَـهُ يَـوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (13) اقْـرَأْ كِتابَـكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَـوْمَ عَلَيْـكَ حَسِـيباً (14) مَنِ اهْتَـدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ

---

9 [أقوم] : الأشد استقامة.
12 [طائره] : عمله المقدر عليه.

عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـولاً (15) وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِـكَ قَرْيَـةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَـدَمَّرْناها تَـدْمِيراً (16) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُـرُونِ مِنْ بَعْـدِ نُـوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِـذُنُوبِ عِبـادِهِ خَبِـيراً بَصِـيراً (17) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَـةَ عَجَّلْنا لَـهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْـلاها مَـذْمُوماً مَـدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرادَ الْآخِـرَةَ وَسَـعى لَها سَـعْيَها وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كـانَ سَـعْيُهُمْ مَشْـكُوراً (19) كُلاًّ نُمِـدُّ هـؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20) انْظُرْ كَيْـفَ فَضَّـلْنا بَعْضَـهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِـرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)

---

14 [ولا تزر وازرة] : ولا تحمل نفس.
[وزر أخرى] : إثم أخرى.

الإنسان ذلك المسؤول

هدى من الآيات :

بعد أن بيّن القـرآن الحكيم في الآيـات السـابقة قصة بـني إسـرائيل الـتي تركز البحث فيها حـول العلاقة بين أعمـالهم وما أصـابهم تبعا لـذلك ، لخص فكـرة القصة وعبرتها في كلمة حين قـال : «**إِنْ أَحْسَـنْتُمْ أَحْسَـنْتُمْ لِأَنْفُسِـكُمْ وَإِنْ أَسَـأْتُمْ فَلَها**» تؤكد هـذه الآيـات ذات الفكرة ، وهي مسئولية الإنسان الفرد أو المجتمع ، ويـبين أبعادها ، وكيف انها اخطر فكـرة ينبغي على الإنسـان ان يفهمها ، في حين انه ابعد ما يكون عنها ، ذلك لأنها تدعوه الى السـعي والعمل الجـدّي ، والتحـدي ، والصـمود ، وما الى ذلك من أسباب التقدم والتي تبدو صعبة على النفس البشرية.

ولذلك فانه تعـالى يضـرب لنا مثلا من التـاريخ مـرة ، ويؤكد مرة اخرى اهمية تحمل المسؤولية في الحياة الدنيا ودور هـذا الاحسـاس في تقـدم البشـرية ، ثم انه يـذكرنا بيوم القيامة ومدى مسئولية الإنسان عن اعماله فيها.

بينات من الآيات :

[9] لقد أتم الله حجته على خلقه حين انـــزل عليهم القرآن الذي يهديهم الى الصراط القويم.

(**إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**)

«يهـدي» من أراد الهداية «**لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ**» بعيـدا عن الهــوى ، والضــلالة ، والخرافة ، وفي كل المجــالات السياســـــية ، والاقتصـــــادية ، والاجتماعية ، والثقافية والتربوية و.. و.. وبالتـالي فهو ينسّـق بين سـعي الإنسـان من جهة ، وبين فطرته ، والطبيعة من حوله ، والتــــاريخ وسننه من جهة اخرى ، ويخبره ان الإنسـان قـرين عمله ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، فيقول :

(**وَيُبَشِّرُ الْمُـؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّـالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**)

فلا يكفي الايمـان وحـده ، بل يجب ان يعمل المـؤمن الصالحات ، وعندها يكون له عند الله أجر كبير.

[10] (**وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَـدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً**)

فالإيمــان بــالآخرة وحــده ركن مهم يجعل الإنســان يشـعر بالمسـؤولية إزاء أعماله ، وانه مجـزي عليهما ، ان لم يكن ذلك في الـــدنيا ففي الآخـــرة. مما يدفعه لتحمل المسؤولية والعمل الدؤوب.

[11] (**وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ**)

الخطأ الكبـــير الـــذي يرتكبه الإنســـان دائما هو أنه يحسب الشر خيرا ، والسؤال : أو ليس له عقل يمـيز بين الخير والشـر؟ بلى له عقل ولكنه عـادة ما يكـون محجوبا بأهوائه

ومصـالحه الـتي يسـتعجل بها ، فيقـدم على الكبـائر من الـذنوب ظنّا منه بأنها خـير بمجـرد انها تـوفر له بعض اللـذات الآنية ، ولا يثـور على السـلطان الجـائر خشـية فقدان بعض المصالح العاجلة.

(**وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً**)

وهـذه الطبيعة هي الـتي تجعل الإنسـان يتـوهم بـان عصـفورة في الحاضر خـير من عشـرة في المسـتقبل ، فيتقرب الى الدنيا لأنها عاجلة وان كانت شرا ، غـافلا عن ان (ربّ اكلة منعت أكلات) بينما يتنازل عن الآخـرة ويحيد عن طريقها.

وقوله تعالى : (**وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُـولاً**) تعليل لقوله (**وَيَدْعُ الْإِنْسـانُ بِالشَّـرِّ دُعـاءَهُ بِـالْخَيْرِ**) ذلك لان الخـير بحاجة الى صـبر. والمسـؤولية لا تنمو في قلب عجـول ، وانما في قلب مطمئن صـبور ، ولعل الآية الكريمة تـذكر أيضا بان تأخر الجـزاء عن وقت العمل قد يغـري الإنسـان الغافل بارتكاب الجرائم لان الإنسان كان عجولا.

والعجلة من ذات الإنسان ، حيث انها نابعة من الجهل بالمسـتقبل ، والاحتجـاب عن غيب الـزمن ، بينما الصـبر وليد العقل ، والعلم بالنتائج المستقبلية ، ومعلـوم ان ذات الإنســـان جهل ، والعلم من الله ، وهكـــذا تكـــون الآية منتظمة الى سياق الآيات التي تذكرنا بالمسؤولية.

المسؤولية وعامل الزمن :

[12] (**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ**)

فالليل وما فيه من سكون وهدوء آية من آيـات الله ، وكذلك النهار وما فيه من تحرك ونشاط آية أيضا.

(**فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً**)

اي جعلنا الليل سكنا وهدوءا ـ وكأن الليل آية ممحاة ـ ذلك لان الليل لمن ينامه قصير ، أما النهار فآيته مبصرة لأنه عامر بالنشاط والتحرك من أجل الحصول على الرزق.

(**لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ**)

تعاقب الليل والنهار مبدأ للحساب الزمني ـ هذا هو ظاهر الآية ـ اما المغزى منها فهو : ان حركة الزمان تدعو الإنسان الى تحمل مسئوليته في الدنيا ، وادراك حقيقة نفسه ، فالإنسان الذي يجمّد فكره فلا يتحرك فانه لا ينتج شيئا سوى العبث وضياع الوقت ، والله تعالى يقول في حديث قدسي : «يا ابن آدم انما أنت أيام فاذا مضى يوم فقد مضى بعضك» فالذي يعرف ان للزمان قيمة (يحاسب نفسه على الساعات والدقائق) يتقدم لأنه يعلم ان «من كان مطيته الليل والنهار يسار به وان كان واقفا»

(**وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً**)

فالأيام لها حسابها ، واليوم يختلف عن الغد ، وهذا الشهر يختلف عن الآخر ، وان كانت كلها لله ، وقد فصّل الله لنا بيان حقيقة الزمان ، والتقدير لكي نتذكر ونعي واقع أنفسنا ، والله الذي دبر شؤون الليل والنهار والقمر والشمس ، وقدرهما بالسنين والحساب ، جعل للإنسان أيضا كتابا وحسابا ، فما من عمل يقوم به أو خطوة يخطوها ، أو فكرة تجول في ضميره إلّا وتسجل في كتابه ، ويحاسب عليها يوم القيامة.

[13] (**وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**)

وهـذه الآية دعـوة ضـمنية الى تحمل المسـؤولية لأنها تـذكر الإنسـان بمسـؤوليته عن عمله والـذي يـترتب عليه جزاؤه في الحاضر والمستقبل.

(**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً**)

فللإنسـان كتـاب عند الله ، فيه تفصـيل ما عمله في دنياه. ينشره له يوم القيامة ليقرأه.

[14] (**اقْـرَأْ كِتابَـكَ كَفى بِنَفْسِـكَ الْيَـوْمَ عَلَيْـكَ حَسِيباً**)

الإنسـان يعـترف بأعماله ، ويحكّم نفسه بنفسه ، فلا حاجة الى محكمة تقضي عليه ، ولا الى شهود يثبتون عليه جرائمه ، بالرغم من وجود تلك المحكمة وأولئك الشهود.

وبعد ذلك يوضح لنا ربنا بعدا آخر من ابعاد المسؤولية وهي مسئولية الإنسان عن هداه وضـلالته كمسـؤولية عن سعيه وعمله ، إذ يقول تعالى :

[15] (**مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها**)

وكثـيرا ما تـرى أناسا يضـلّون ، فيلقـون اللـوم على عاتق الآخرين كأن يقـول : لم يكن هنـاك من يهـديني ، أو ان الحكومة ضـــللتني ، أو ان البيئة الثقافية والتربوية لم تكن مسـاعدة لي على الهدايـة. كلا .. ان الله اعطى لكل إنسان قـدرة الكشف والاهتـداء ، ووفر له فرصة الهداية ، وانما يتبع البشر هـواه لأنه أسـهل له وأقـرب الى طبيعته الجاهلية العجولة.

ومثلما هو مســئول عن ضــلالته ، فهو مســئول عن اعماله ، وحرام ان يلقي اللائمة

على الآخرين.

(**وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**)

فلا يستطيع أحد ان يهدي أحدا الا إذا أراد الآخر ان يهتدي بهداه ، كما لا يستطيع أحد إضلال الآخر الا إذا أراد هذا ان يضل بضلالته ، ولكن القرآن ينفي ذلك ويقول : ان لكل عمله. ولا أحد يقدر على تحمل وزر عملك.

والآية هنا تقول «وازرة» وهي اسم فاعل للمؤنث ، كناية عن النفس البشرية ، وهنا تتبين العلاقة بين النفس والمسؤولية العملية للإنسان.

(**وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**)

ان التاريخ يحدثنا بان العذاب لم ينزل على امة ما الا من بعد ان يرسل الله إليهم هاديا ينذرهم ، ويبلغهم رسالات ربهم.

كلمة «الرسول» عامة تشمل كل من حمل رسالة التوحيد بصورة مباشرة كرسول الله (ص) أو غير مباشرة مثل الائمة المعصومين (ع) أو الفقهاء المجتهدين ، أو الرساليين والمجاهدين.

كيف تنهار الأمم؟

ودليل مسئولية البشر ، هو جزاؤه في الدنيا على سيئات عمله ، وعلينا ان نقيس الآخرة بالدنيا ، ودليل رحمة الله وحكمته ، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث اليه رسولا ، انه سبحانه لم يهلك قرية الا بعد ان أتم حجته عليهم بالرسل.

(**وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها**)

يربط القـرآن الحكيم في هـذا السـياق بين الإسـراف وهلاك القرى ، ولكن بماذا امر الله المترفين؟

المــأمور به هنا محــذوف وهو معطــوف على قوله تعالى : (**حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**) فالله سبحانه وتعـالى يـأمر الناس بالهدى والخير والتقوى ، ولكنهم حين لا يعملون بها بل يفسقون عنها ، ويحاربون الله ورسوله ، فما ذا يحدث آنئذ؟

(**فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً**)

اي تحققت عليهم المســؤولية وأصــبحت لله الحجة البالغة عليهم ، فدمرهم بسـبب تـركهم لها تـدميرا ، ولعل الآية تشير الى حقيقة تاريخية هامة هي : ان الله سـبحانه يبعث الرسل عادة على القـرى الـتي ينتشر فيها الفسـاد. ويتســـلط عليها المـــترفون ، وذلك لكي يرتـــدعوا ، ولا يستمروا في رحلة الفنـاء حـتى النهاية ، وعـادة لا يتوبـون فيحق عليهم العذاب ، وربما تشير الآية أيضا الى الدورات الحضارية في التاريخ.

[17] (**وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُــرُونِ مِنْ بَعْــدِ نُــوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**)

فـاذا قلنا باننا لسـنا من قـوم نـوح ، أو قـوم عـاد ، أو ثمـود ، فـان الله يؤكد لنا بأنه سـبحانه اعلم بـذنوبنا منا ، وليست المسـألة محصـورة في عنصر ما ، بل هي سـنة الله في الخلق.

[18] قد جـــاء في الآية (12) من هـــذه الســـورة المباركة : (**وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعـاءَهُ بِـالْخَيْرِ وَكـانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً**) وهذه الآية تكلّمنا وتقول :

(**مَنْ كـانَ يُرِيـدُ الْعاجِلَـةَ عَجَّلْنا لَـهُ فِيها ما نَشـاءُ لِمَنْ نُرِيدُ**)

فـاذا أراد الإنســان الـدنيا فـان الله يؤتيه منها بقــدر حكمته ووفق سنته.

(**ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً**)

فيذم نفسه ، ويذمه الآخرون ، ويدحرونه ، اي يبعدونه عنهم وكذلك الله يذمه ويدحره.

(**وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً**)

وتشير الآية الى ان سـعي الإنســان في الـدنيا مفيد ، فان كان يريد الـدنيا فـان الله سـبحانه يعطيه منها بقـدر ، ومن أراد الآخرة يشكره الله على سعيه.

ولكسب رضى الله والفوز بالجنة لا يكفي الإنسان ان يحلم بـــذلك ، بل عليه ان يســعى من اجله ، وان يكـــون مؤمنا بعمله ، يؤديه عن خلوص نيّة.

[20] (**كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطـاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**)

وقد يتساءل المرء : من اين تأتي قوة الإنســان الـتي يختار بها طريقه ويسعى بها فيه؟

الحقيقة ان قوة الاختيار ، وقـوة السـعي هي من عند الله ، فحـتى العصـاة يسـتمدون قـوتهم من الله ، فليس عطاء الله ممنوعا عن أحد ، وهذا منتهى الحرية الممنوحة للبشر.

[21] (**انْظُـرْ كَيْـفَ فَضَّـلْنا بَعْضَـهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ**

دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

فاذا كان الفـرق بين إنسـان وآخر في الـدنيا الأمـوال الكثيرة ، والرفاه الواسع ، فان هـذه الفواصل في الآخـرة تكون أكبر بكثير ، والمسافة بينهما أعرض ، فـترى إنسـانا مؤمنا يخرج من قـبره في يـوم القيامة ، فيجتـاز الصـراط بسرعة الى الجنة ، وهناك مؤمن ينتظر خمسين الف سنة في صحراء القيامة حـتى يصل دوره للحسـاب ، بينما نجد جارهما المنـافق أو الكـافر يلقى في نـار جهنم مـذموما مدحورا.

لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُـدَ مَـذْمُوماً مَخْـذُولاً (22) وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُـــدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِـــدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَـرَ أَحَـدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُـلْ لَهُما قَـوْلاً كَرِيمـاً (23) وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الـذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَـةِ وَقُـلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِــكُمْ إِنْ تَكُونُــوا صــالِحِينَ فَإِنَّهُ كــانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُـوراً (25) وَآتِ ذَا الْقُـرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْـكِينَ وَابْنَ السَّــبِيلِ وَلا تُبَـذِّرْ تَبْـذِيراً (26) إِنَّ الْمُبَـذِّرِينَ كـانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27)

---

23 [ولا تنهر هما] : النهر هو الزجر بإغلاظ وصياح.
25 [للأوابين] : الراجعين بعد الذنب.
26 [تبـذيرا] : التبـذير التفريق بالإسـراف وأصـله أن يفـرق كما يفـرق البذر.

وَإِمَّا تُعْرِضَــنَّ عَنْهُمُ ابْتِغــاءَ رَحْمَــةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَــةً إِلى عُنُقِـكَ وَلا تَبْسُـطْها كُـلَّ الْبَسْـطِ فَتَقْعُـدَ مَلُومـاً مَحْسُــوراً (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُــطُ الــرِّزْقَ لِمَنْ يَشــاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِـيراً (30) وَلا تَقْتُلُـوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كـانَ خِطْـأً كَبِـيراً (31) وَلا تَقْرَبُـوا الـزِّنى إِنَّهُ كـانَ فاحِشَـةً وَسـاءَ سَـبِيلاً (32) وَلا تَقْتُلُـوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللـهُ إِلاَّ بِـالْحَقِّ وَمَنْ قُتِـلَ مَظْلُومـاً فَقَـدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33)

---

28 [تعرضن] : الاعراض صرف الوجه عن الشيء.
[ميسورا] : القول باللطف واللين.
31 [إملاق] : خوف الفقر.

المسؤولية الاجتماعية للإنسان المؤمن

هدى من الآيات :

تحدد الآيات الكريمة هذه عدة جوانب من المسـؤولية الاجتماعية للإنسـان ، وكمثل تنفيـذي لفكـرة المسـؤولية ذلك ان القــرآن الحكيم لا يحــدثنا عن قضــية في جانبها النظــري ، الا وتطــرق الى جانبها العملي أيضا ، فلا يــدع النظريات بلا بـرامج عملية ، كما لا يـترك المنـاهج العملية من دون جذور نظرية.

ولمسؤولية الإنسان في الحياة الـدنيا علاقة بالمنـاهج التي جاءت بها الآيات ، ولذلك قـال بعض المفسـرين بـان سورة (كذا) قد خصصت للـبرامج العملية وقـال بعضـهم : بأنها تبحث القضايا النظريـة. وكلاهما صـادق في تفسـيره لان السورة تحدثنا عن الواقع كواقع ، سواء كان نظريا أم عمليا.

فمثلا الآيــــات (22) و (39) تبحث في التعـــــاليم الاجتماعية والــــبرامج العملية ، ولكنها تبـــدأ بقوله : (**لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَـذْمُوماً مَخْـذُولاً**) ــ (22) ــ وتختم البحث الآية (39) بقوله : (**وَلا تَجْعَـلْ مَـعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً**).

والسـؤال : لمـاذا تبـدأ هـذه الآيـات وتنتهي بموضـوع واحد هو النهي عن الشرك بالله سبحانه وتعالى؟

ان الشرك بالله يشـكل جـذر كل مشـكلة ، اجتماعية كـانت أو نفسـية ، فالشـرك وجهها النظـري بينما وجهها العمل فهو الكذب والغدر والخيانة ، وعـدم الوفـاء ، وغـير ذلـك. وكـذلك الايمـان بالله وتوحيـده من جهة ، والصـلاة والصـــوم والحج وغيرها من مظـــاهر التعبد لله من جهة اخرى يعتبران وجهين لقضية واحدة.

وهناك أمر لا بأس بالاشـارة اليه وهو ان الله سـبحانه وتعالى في سورة النحل (الآية 90) يقول : (**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالْإِحْسـانِ وَإِيتـاءِ ذِي الْقُـرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ**) وفي الآيات التالية من سورة الإسراء يؤكد هـذه المعـاني. إذ ان العـدل هو : ان تتحـرك في الصـراط المسـتقيم فلا تفرط ولا تفرّط ، وان تفي بحقوق الآخرين ، اما الإحسان فهو : ان تحسن الى غـــيرك في المعاملة ، والإحســـان اســـمى درجة من أداء الحقـــوق ، والبغي هو : القتل ، والفحشـاء هو : الزنا ، والمنكر هو : الكـذب ، وهكـذا بقية المعاني ، ومن أراد التأكيد في مدى تطابق هذه الآيات مع تلـــك. عليه ان يراجع تفســيرنا لســورة النحل ، وهنـــاك ملاحظة : «ان العـــدل هو إعطـــاء كامل الحقـــوق ، وأما الإحسان فهو إعطاء الزيادة».

بينات من الآيات :

الشرك جذر الانحراف :

[22] (**لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَـذْمُوماً مَخْذُولاً**)

جاء النهي عن الشرك في مقدمة الحديث عن قضـايا اجتماعية لان الإنسان قد يعبد صـنما فيتخـذه إلها ، سـواء كان هذا الصنم رمزا لـرئيس القبيلة أو لصـاحب المـال أو لصاحب الصـولجان أو لأية قـوة اجتماعية اخـرى ، وإذا ما فعل ذلك فانه سيندم ،

ويذمّه عقله ، وكذلك العقلاء كما سيكون بعيدا عن نصــرة الله.

من حقوق الوالدين :

[23] (**وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**)

فالعبادة يجب ان تكون خالصة لله وحده في حين انه يمكن للإنسان ان يحسن لمن يشاء.

(**وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً**)

والإحسان هو العطاء بنفس راضية ، وهو ممدوح عند الله. بعكس العبادة التي هي الخضوع والتسـليم وبالتـالي العطاء بإكراه.

(**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْـدَكَ الْكِبَـرَ أَحَـدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً**)

فـالأب أو الام عند ما يكـبران تتغيّر حالتهما النفسـية فتكون طلباتهما بحيث قد لا يستطيع الابن ان يوفرها لهما ، فعندئذ يجب الا تـــرد طلباتهما ولا يؤذيـــان ولو بكلمة «أف» وهي تعبـير عن الضـجر ، بل على الابن ان يجيبهما بكلمات تبعث الأمل في نفسيهما وتحفظ لهما كرامتهما.

[24] (**وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**)

على المســـلم ان يخفض جناحيه لوالديه كما يفعل الطـير مع أفراخه ، وهـذا لا يعـني خضـوع العقل والارادة وانما خضوع الرحمة والشفقة وبالتالي فـان على الابن ان يرفع كفيه بالدعاء :

(**وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً**)

فكم يتعب الأب والام على الابن ، فـــالام تنهض في الليالي الظلماء من نومها ، وتترك فراش الراحة من أجل ان تغذي طفلها وتهدأه كما يخوض الأب غمار الاخطار من أجل إطعـام ولـده ويسـهر على راحته ، فلا بد ان يطلب الابن لوالديه الرحمة من الله. والآية تدل على : ان الدعاء بحق الآخرين نـافع لهم كما ان الشـفاعة ـ وهي نـوع من الدعاء ـ نافعة بحق المذنبين.

[25] (**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِـكُمْ إِنْ تَكُونُـوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً**)

فالله يعلم بما يجـري في نفـوس الأبنـاء من تمنيـات وطلبات ، فقد تـرى الابن يسب أبويه إذا ما مرضا ، ولكن الله يـدعونا الى ابعـاد الشـيطان ووساوسه عن النفس ، والاستغفار لهما عما مضى فانه تعـالى غفـور ودود. ولعل الآية تعالج ـ عـبر الأمر بالإحسـان والرحمة والاسـتغفار ـ وهي الـتي تنظم علاقة الأبنـاء بالآبـاء في هـذه المجموعة من الآيات. ـ تعالج عبرها مشـكلة صـراع الأجيـال ، إذ كل جيل يعيش وضـعا مختلفا عن الجيل الماضي ، وبالتـالي : ينتقد الجيل الماضي ، كما يتعـرض عـادة لانتقـادات لاذعة منه ، والسبيل الى حل المشكلة :

اولا : بالإحسان ، إذ ان جيل الأبنـاء ذي القـوة النامية يجب ان يجعل بعضا من قدراته للجيل الــذي تتلاشى الآن قـــواه. ليمتص كثـــيرا من تحفظاته النابعة عن فقـــده لمصالحه.

وثانيا : بالأخلاق الحسنة ، كالتشاور والاحترام والتذلل رحمة وليس صغارا.

وثالثا : بالعفو عن سيئاتهم والاسـتغفار لهم فهل انهم كانوا مخطئين أفلا

يستحقون المغفرة من الله؟ بلى ولعل الآية الاخيرة تشير الى انه ليس من المعلــوم من هو المــذنب بل الله اعلم بكم فلا تخطئوا الآخرين عبثا.

الإنفاق زكاة المال :

[26] (**وَآتِ ذَا الْقُــرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْــكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً**)

الــذي لديه امــوال طائلة ولا يعطي حقوقها فانه لا بد ان يكون مسرفا ، لان صاحب الدنيا انما يمنعه من العطاء السرف أو البخل ، وما الإسراف الا استعمال الشــيء في غير محله الذي خلقه الله من اجله ، وبـذلك فانه انحـراف عن مشـيئة الله وسـننه في الحيـاة وكل ما خـالف أوامر الله وســننه في الخلق فهو نــوع من الكفر ، والشــيطان كافر ، يقول تعالى :

[27] (**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً**)

والشّـياطين من الانس هم الطغـاة ومن يبـذر ماله لا بد ان يفتش عن مصــادر غــير شــرعية لجمع المــال ولا يجدها الا بالتحالف مع الطغاة.

[28] (**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغـاءَ رَحْمَـةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً**)

إذا أنت أعرضت ولم تعطهم القليل أو الكثـــــــــير ، فقابلهم بالابتسامة ، والرد اللطيف. وهذا ادنى الحق الذي يجب عليك تجاه الرحم والأقرباء.

كيف ننفق؟

[29] 1 ـ (**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ**)

وهنا يشــبه القــرآن البخلاء بالــذين يربطــون أيــديهم بأعناقهم فيخنقون أنفسهم. ذلك انما يجمع الإنسان المال من أجل ان يكــون حــرا في التصــرف. وليســهل عليه الصعاب ، فاذا بخل فان الهـدف من امتلاك المـال سـوف يتلوث ويصبح العكس. إذ سيصبح هو خادما للمـال وهكـذا يكون البخل هو الفقر الحاضر.

2 ـ (**وَلا تَبْسُــطْها كُـلَّ الْبَسْـطِ فَتَقْعُـدَ مَلُومـاً مَحْسُوراً**)

وهنـاك ــ على العكس من البخلاء ــ أنـاس يبسـطون أيـديهم الى درجة انهم يفقـدون كل شـيء ، فيتحسـرون على ما فـاتهم ويتـأوّهون ، وبالتـالي فـان النـاس سـوف يذمونهم ويلومونهم على فعلتهم.

وهؤلاء انما يفقدون توازنهم وحسن التصـرف بسـبب حبهم المفرط للمساكين ، ولهذا الفريق من الناس يقـول تعالى :

[30] (**إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**)

فالله يبسط الــرزق بحكمة ويضــيق ويقــدر بحكمة أيضــا. فلا يفكر أحد بأنه ســيكون ارحم من الله لعبــاده. ولعل الآيــتين تنظمــان ســلوك البشر فيما يرتبط بالمــال بصفة عامة فعلى الإنسان ان يتوخى القصد في الصــرف. فيعطي بقدر ، ولا يبذر ولا يبخل.

الثقة بالله مفتاح السعادة :

[31] (**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ**)

كــان بعض الاعــراب يقتلــون أولادهم خشــية الفقر والفاقة فطمأنهم الله بقوله :

(**نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً**)
لان قتلهم يحرمكم من نعمة الولد من جهة ويحـرمهم من نعمة الحياة من جهة ثانية.

[32] (**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كـانَ فاحِشَـةً وَسـاءَ سَبِيلاً**)
الزنا أسوء طريق يتخذه الإنسان في إشـباع غريزته ، لان الزنا ظلم للنفس وتعدي على القـانون ، فكما انه من الظلم ان يقتل الإنسـان نفسا حرمها الله ــ كـذلك حـرم الله العبث بمصير الأجيـال الناشـئة من أجل السـرف في الشّـهوات. ذلك ان الزنا يهـدم البنـاء الاسـري وبالتـالي ينسف قواعد البناء الاجتمـاعي القائمة على أسس التربية والتكامل والتعاون ، وهكذا نجد المجتمعات الجاهلية الـتي فقدت الاسرة كيف فقدت أكثر القيم الانسانية.

[33] (**وَلا تَقْتُلُـوا النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللـهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومـاً فَقَـدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُـلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً**)
فـــــــالمقتول ظلما يحق لوليه ان يقتص من قاتله ، ولكن بشرط الا يتعدى الحدود ، والا يستبد به غضبه ، فهو في كل حال منصور من قبل الله. وهذه احـدى سـنن الله في الحياة.

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35) وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (36) وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (37) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39) أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40)

---

37 [فرحا] : فرحا وبطرا واختيالا.
40 [أفأصفاكم ربكم] : أفخصكم ربكم؟

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (41) قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (44)

---

41 [صرفنا] : كررنا بأساليب مختلفة وطرق متنوعة.
46 [أكنة] : أغطية وأغلفة.

الإنسان بين الشّرك

والهروب من المسؤولية

هدى من الآيات :

هناك تساؤل : إذا كـانت سـورة الإسـراء تتحـدث عن المســؤوليات الــتي يجب على الإنســان أداؤهــا. فلما ذا يتطرق هذا الدرس الى بيان التوحيد والشّرك وابعادهمــا؟ وبشكل عام لماذا يحـدثنا ربنا سـبحانه وتعـالى عن قضـية الشّرك والتوحيد كلما تحدث عن المسؤولية؟

الجـــــــواب : ان المســـــــؤولية هي ذات التوحيد ، واللامســـئولية هي ذات الشّـــرك ، بل ان التهـــرب من المسؤولية والتبرير انما هما الهدف من وراء الشّرك.

النفس البشرية ، قوة نسميها بالقوة المســوّلة عملها تبرير الكسل والجمود ، وتسويل الفحشاء والمنكر ، وهذه القوة التي يثيرها الشّـيطان أيضا تـزين الاستسـلام للدعة والاسترسال مع الشّهوات بطرق أبرزها :

1 ـ الحتميـات حيث يخيل للنفس عجزها عن مقاومة ضغوط الطبيعة والمجتمع

علية. فيتملص عن المسؤولية باسم الحتمية التاريخيــة. أو الاجتماعية أو الطبيعية أو ما أشبه.

وهذا نوع من تأليه الطبيعة أو المجتمـع. وجعلها فـوق قدرة الله. وفوق قدرة الارادة التي منحها الله للإنسان.

2 ـ الفداء حيث يزعم البشر انه إذا كانت أوامر الرب شـاقة ، ولا يمكن احتمالها إذا دعنا نتصـور وجـود أربـاب آخرين نهرب من الرب الأعلى إليهم لينقذونا عن صعوبات المسؤولية التي يفرضها ربنا الأعلى سبحانه وتعالى.

وهـذه هي فكـرة الفـداء الـتي تسـربت الى مـذهب النصاري.

وسواء فكـرة الحتميـات أو الفـداء فـان الايمـان بالله الواحد الأحد ، ينفيها ويجعل البشر وجها لوجه امـــــــــام المسؤوليات الكبيرة.

ان من يـــــــؤمن بالله ولا يتخذ بينه وبين عقله حجابا يشـــعر في اعمـــاق ذاته بـــان الله قد جعله مســـتقلا في قراراته حـــرا فيما يشـــاء. فـــاذا وصل الى هـــذه الحقيقة تحمّل مسئولياته اعتقادا منه بان متغـيرات حياته كالصـحة أو المـرض ، والاسـتغلال أو العبودية والغـنى أو الفقر وما الى ذلك انما هي من عند نفسه أيضا ، والإنسان البســيط غـــير المعقد والبعيد عن الشّـــهوات يشـــعر دوما بهـــذه الحقيقة وهذا الاحسـاس يـدفع به نحو تحمل المسـؤولية ، لأنه حينما يعــترف بواقعه يرسم لنفسه خطة حكيمة لكي يصل بها الى اهدافه.

في المقابل نجد إنسانا يتصور بان هناك أشياء اخــرى فوق عقله ، تلك ما يسمونها اليـوم بالحتميـات ـ حتميـات التــاريخ والاجتمــاع والاقتصــاد والســيكولوجيا والتربية ـــ فيزعم أحـدهم بـان الحتميـات هي الـتي تصـنع الإنسـان ، وليس للإنسان ان يتخذ

قــرارا نابعا من فكــره وإرادته ذلك لان العقل في نظــره ليس الا صورة متطورة للمادة.

لقد قسم الأطباء قديما الناس حسب أمزجتهم ، فهذا مزاجه صــفراوي ، وذاك بلغمي والآخر ســوداوي وهكــذا فزعموا ان ارادة النـاس تتبع أمـزجتهم اما أحد الفلاسـفة الجـدد فانه يقــول : بـان ارادة الإنسـان نابعة من الغــدة الدرقية ، فاذا صار أحدهم طبيبا والآخر عاملا بسيطا فــان ذلك يعود الى مقدار ونوع افرازات الغــدة الدرقية في دم الإنسان ، حيث تؤثر هذه الغدة في قراراته.

ويقــــول الفيلســــوف البريطــــاني المعــــروف (براندراســــــــل) : انك انما تتبع بما تأكل ، لان العناصر الكيمياوية الموجـــود في أنـــواع الاغذية ، تـــؤثر في مخ الإنسان وقراراته وهكذا سـلبت هـذه النظريـات الشّـركية قدرة القــرار من البشر وإذا كـان الإنسـان لا يسـتطيع ان يقرر لنفسه قرارا ، فهو بمنزلة ريشة في مهب الـريح ، لا يسـتطيع ان يتحمل مسـئولية ، إذا فهو غـير مسـئول عن شيء.

اما الفكر اليونــاني القــديم فانه يعتقد بتعــدد الآلهة ، فللحرب اله وللسلم اله ، وللمطر اله وللنور اله وللظلمة اله وهكـذا .. وكـان اليونـانيون ينحتـون أصـناما ويتخـذونها رمزا لتلك القوى التي كانوا يتصورون بان لها تـأثيرا حتميا على أعمــالهم ونفســياتهم وهكــذا جــردوا أنفســهم عن مسـئولية أعمـالهم حين نسـبوها الى الآلهة وهكـذا تربط آيات هـذا الـدرس بين المسـؤولية والتوحيد فتبـدأ بـالنهي عن أكل مــال اليـتيم (اشـارة الى حرمة المــال) وتــأمر بالوفـاء بالعهد (للتـذكرة بـاحترام العهـد) وتـأمر بـاحترام المال ، واحترام سمعة الناس وتحـرّي الحقـائق ، ثم تنهى عن الشّــرك بالله وتــأمر بتســبيح الله ســبحانه ، ولعل محرمات هذا الـدرس تسـدّ أبـواب الظلم ، وتضع قـوانين اجتماعية تحافظ على حقــوق النــاس ، ابتــدءا من حفظ حقوق الأيتـام (وهم حلقة ضـعيفة في المجتمـع) واحـترام الكيل والـوزن واحـترام سـمعة النـاس ، وضـرورة الوفـاء بالعهود وما أشبه.

بينات من الآيات :

مسئوليات اجتماعية :

[34] (**وَلا تَقْرَبُــوا مــالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِــالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**)

يحق لولي اليتيم ان يأخذ مال اليتيم فيستثمره لصالح اليتيم ، ولكنه لا يجـوز له التصـرف في هـذا المـال الا في هـذا المجــال ، حــتى يبلغ أشــده حينما يصل الى مرحلة البلـوغ فتسـلم اليه أمواله ، ولان اليـتيم ضـعيف فـاحترام ماله يدل على ضرورة احترام اموال الأقوياء بالطبع.

(**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً**)

والعهد ركيزة اجتماعية في الإسلام ، ومحور للتعــاون والتبــادل الفكــري والسياسي والتجــاري ، والإســلام يحث على أداء العهود لهذا الســبب اولا ، ولســبب اخلاقي ثانيا ، ولان الوفاء بالعهود يجري عليه حكم الشّــرع ثالثا : والعهد واحد من اخطر مسئوليات البشر في حياته.

[35] (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ**)

القسطاس المستقيم : هو الــبيع الــذي لا غبن فيه ولا غش ولعل احترام الكيل يدل على أكثر من احترام حقوق النــاس ، حيث يــدخل ضــمن احــترام قــوانين البلد وعــدم الخروج عليها لمصلحة ذاتية.

(**ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**)

فهـــــــذا امر حسن فطريا واجتماعيا ، وأحسن نهاية وعاقبة ، لان الغش لو ســاد مجتمعا فســتحل به كارثة لا يمكن التخلص منها ثم انك لو تجاوزت حقوق الناس أفلا

تخشى ان تسلب حقوقك أيضا.

[36] (**وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**)

اي تتبع امرا لا تعلم مبدأه ومنتهاه.

(**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كـانَ عَنْـهُ مَسْؤُلاً**).

حيث تؤكد هـذه الآية على مسـئولية جـوارح الإنسـان التي يجب ان تتحرك حسب مقياس صحيح وان مسـئولية قلب الإنسـان عن أفكـاره وهواجسه وظنونه وحسـده وحقـده وجـوارح الإنسـان عن غمزها ولمزها ، والغيبة والنميمة.

انها لأعظم مسئولية اجتماعية ولو سمى المؤمن الى مسـتوى ضـبط فـؤاده وسـمعه وبصـره فيما يخص علاقته بالمؤمنين لكان جديرا بان يدخل جنات عدن ..

[37] (**وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً**)

الإنسان المرح هو الذي يعيش حيـاة اللامسـئولية وما يتبعها من ظـواهر كـالفراغ واللهو واللعب والتكـبر على الآخرين.

(**إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً**)

فانك لن تقهر الطبيعة فتشق الأرض ، وتخرقها ، أو تبلغ الجبال عظمة.

[38] (**كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً**)

يبدو ان تفسير هذه الآية انه ينبغي للإنسـان ان يتكـبر أحيانا وذلك حينما يقابل الظالم الجائر حـتى لا يشـعر بأنه ضعيف امامه ، لذلك يؤكد القرآن بان السيئة (مكروهة) ـ فيكون ما عدى السيئة غير مكروه ـ فالتكبر على المتكـبر ليس

مكروها ، بل هو مستحب ، وفي الحديث :

«**التكبر على المتكبر عبادة**».

[39] (**ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ**)

والحكمة هي الجــانب العملي من العلم ، وهنا تعــني السلوك الحسن.

(**وَلا تَجْعَلْ مَـعَ اللـهِ إِلهـاً آخَـرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً**)

لا تتخذ لنفسك إلها غـير الله فتلقى في جنهم. يلومك النـــاس ولا ينصـــرك الآلهة ، وهـــذه الآية تشـــير الى ان الإنسـان هو الـذي يجعل من الصنم إلها ، ومن الطـاغوت إلها وحين يحطم المـــؤمن الأصـــنام الثقافية والاجتماعية والاقتصــــادية فانه يشـــعر باســـتقلاله وحريته ويتحمل مسئولياته بعزم راسخ.

[40] (**أَفَأَصْـــفاكُمْ رَبُّكُمْ بِـــالْبَنِينَ وَاتَّخَـــذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً**)

كـان الكفـار يريـدون النيل من الله سـبحانه وتعـالى لأنهم يتصـورون الملائكة ضـعافا ، ولأنهم كـانوا يعتـبرون الأنـثى رمـزا للضـعف فـإنهم نسـبوا الانوثة الى الملائكة ، ويردّ سبحانه قولهم هذا :

(**إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً**)

[41] (**وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً**)

فقد ضـــرب الله الامثلة في القـــرآن ليـــبين لنا آياته ونعرفه بحقائق الايمـان ولكن على العكس من ذلك نـرى الكفار لا تزيدهم التذكرة الا نفورا من الحق.

[42] (**قُـلْ لَـوْ كـانَ مَعَـهُ آلِهَـةٌ كَما يَقُولُـونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**)

فلو كـانت الآلهة متعـددة ، إذا لاتخـذت طريقها الى السماء ، ولقاومت الإله الكبير كما يدعون وتمردت عليه ، ونالت منه واسترجعت حصتها من الألوهيـة! ولاسـتطاعت ان تقهر الـرب سـبحانه علما بأنه لا حـول لهم ولا طـول فكيف تتخذ آلهة من دون الله.

[43] (**سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً**)

فالله أكبر من هذه الخرافات التافهة وهو الذي.

[44] (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّـماواتُ السَّـبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَ**)

ذلك ان السـماوات على عظمتها وما فيها من شموس وكواكب ومنظومـات ، والأرض وما فيها من حجر ومدر فانها جميعا تسبيح لله وحده وتشهد على وحدانيته ، ويبدو ان الأشياء كلها ذات شعور بنسبة معينة.

(**وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً**)

فكل يسـبح بحمـده ولكننا لا نسـتطيع ادراك ألفاظها وتسبيحاتها لان لكل شيء لغته الخاصة.

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48) وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

---

49 [رفاتا] : ما تكسّر وبلي من كل شيء.

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْـكَ رُؤُسَـهُمْ وَيَقُولُـونَ مَـتى هُـوَ قُـلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (52)

---

51 [فسينغضون] : النغض تحريك الرأس باستهزاء واستخفاف.

الحجب وضرورة التصحيح

هدى من الآيات :

حينما يتخذ الإنســان موقفا تجــاه فكــرة ما ، فانه لا يســتطيع ان يعــرف الحقيقة لأنه قد ينظر إليها من وراء حجاب. وهذه صفة الكافرين بالحياة الآخرة ، وهـذه سـمة الكثـير من النـاس ، فلا يتلـون آيـات القـرآن الا من وراء حجاب ، ولا يسـتمعون اليه الا عـبر مجموعة من الأحكـام المسبقة التي اصدرتها أنفسهم.

ويبقى الســؤال : كيف يمكن للإنســان ان ينظر الى رسالة الله نظرة مجردة عن المواقف المسبقة؟

الاجابة على ذلك : ان قـــوة العقل محـــــدودة عند الإنسـان ، فـاذا تـراكمت الشّـهوات على قلبه ، وتكـاثفت غيـوم الجهل والضـلالة والخرافـات عليه ، فانه بحاجة الى عملية صــعبة ومجهــدة حــتى يتجــاوز هــذا الركــام من الترسبات ، كما يحتاج الى هزّة عنيفة ليهدم البناء الفكري الفاسد وثم يقيم محله بنــــاء قويما وليس ذلك بــــالأمر اليسـير. ونتسـاءل : كيف تتصـلب الارادة ، وينمو العقـل. وما هي الهزّة العنيفة التي تهدم

بناء الأفكـار الفاسـدة ، والمتراكمة فـوق بعضـها في قلب البشر؟

الجواب :

بالايمـان بالحيـاة الآخـرة ، حيث انها قـوة التعـادل ، وثقل السـكينة عند الإنسـان ، فمن آمن بـالآخرة سلا عن الشّهوات ، وتعالى فوق الضغوط ، وتجاوز العقد النفسـية ، وكل ذلك يحفظ قلبه عن الأفكار الـتي تمليها الشّـهوات والضغوط والعقد ، و. و.

اما الذي لا يؤمن بها ، فان الله تعالى يجعل بينه وبين القرآن حجابا لا يراه ، ولا يمكنه إذا اختراقه ، كيـف؟ فـاذا قلبه مستور ان يفقه ، وإذا اذنه ثقيلة بالوقر وإذا به يهرب عن حقيقة التوحيد ، ويبحث عن الآلهة الكاذبة ، وإذا به لا يستمع ـ وهم يناجون بعضهم ـ ان هذا الرسول مسـحور ، وليس بعاقل ، وبسـبب هـذه الأمثـال يضـلون الطريق ولا يهتدون الى سبيل الحق.

وجذر مشكلتهم كفرهم بالآخرة إذ يقولـون : هل نحن نعـــود الى الحيـــاة بعد ان نكـــون عظاما ورفاتا ، دعهم يكونون حجارة أو حديدا ، أو اي شيء كبـير في نظـرهم ، فان الذي خلقهم أول مـرة يعيـدهم أما مـتى؟ فـان علمه عند الله فعسى ان يكون قريبا ، يوم يـدعوهم الله ، فـاذا بهم يستجيبون لداعي الله وهم يحمدون ربهم ، ويزعمون انهم ما لبثوا في القبر الا قليلا.

بينات من الآيات :

[45] (**وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً**)

من الطـبيعي ان الـذين يتـذكرون المـوت ويؤمنـون بـالآخرة وما تشـتمل عليه من ثـواب وعقـاب ، فـإنهم يشعرون بالمسؤولية دائما ، وينظرون الى القـرآن نظـرة واقعية

بعيدا عن الـرؤى والخيـال ، بل نابعة عن موضـوعية كاملة وتدبّر ، ولـذا فـان افئـدتهم بصـيرة وبصـيرتهم نافـذة. اما الــذين لا يؤمنــون بــالآخرة فــإنهم محجوبــون عن الواقع بسبب عدم ايمانهم.

وقد قال المفسـرون عن «**حِجابـاً مَسْـتُوراً**» انه لم يكن أحد من الكفار يمكنه رؤية الرسول (ص) حينما يقــرأ القرآن حتى لا يصيب رسول الله بأذى.

ويبــدو ان التفســير الأقــرب القــول بــان الحجــاب المستور ، وهو النظرة السـلبية الـتي يتخـذها الكفـار إزاء آيات القرآن والآيات التالية تفسر ـ فيما يبدو لي ـــ معـنى الحجاب المستور.

[46] (**وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**)

لكي لا يفقهـوا القـرآن ، جعل الله قلـوبهم في اكنـة. ولفظة الاكنة ، جمع للفظة كنان وهو السـتر وهـذا السـتر هو ذلك الحجـاب المسـتور الـذي ضـربه الله بين القـرآن وبين قلوب الذين كفروا بـالآخرة عقابا لهم على تكـذيبهم بـــالبعث ، واســـتهانتهم بقـــدرة الله على اعـــادة الخلق واستجابتهم لشهواتهم وعصبياتهم.

ونتساءل هل هذا الحجاب هو تلك السنة الإلهية الــتي جــرت في خلقه ان من يتعصب لفكــرة فاســدة فانه لن يـــــرى الحقيقة ، أم انه فعل الهي جديد ، حيث يزيد الله الكافرين ضلالة وكفرا ، ويدعهم في ظلمات يعمهون؟

بلى انه فعل جديد ، انه حجاب يجعله الله بين الكفـار والقرآن. وانه لعقـاب عظيم ان يشـاء الله ضـلالة البشر ، بعد ان كفر بالهدى ، وان علينا الحذر أبدا من هذا العقـاب العظيم ، ونســـأل الله دائما الهداية ، والا يضـــلنا بعد ان هدانا ، انه مجيب الدعاء.

(**وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً**)

الوقر : هو الثقل. والاذن الـوقرة هي الثقيلة السـمع. وفي هـذه الحالة لن يكـون باسـتطاعة الاذن أداء وظيفتها بشكل جيد ، كما انه إذا ما أصـيب العقل بضـعف فسـوف لن يستوعب ما تنقله الاذن ولا سائر الجوارح.

(**وَإِذا ذَكَـرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُـرْآنِ وَحْـدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً**)

ولان الكفـار لم يعتقـدوا بوحدانية الله فـإنهم كـانوا ينفرون من سماع القرآن لان أفكار القرآن تخالفهم وانما كان فرارهم بسبب خوفهم من صحوة الضمير.

[47] ان جـــوارح البشر نوافذ قلبه على العـــالم الخـــارجي ، وإذا كـــان القلب قد ران عليه الشّـــهوات والتعصب لافكـــار باطلة ، فـــان الجـــوارح تشل أو تعمل خلاف المطلـوب ، ذلك ان القلب المـريض سـوف يفسر كل الحقائق التي تتوارد عليه عبر الجـوارح تفسـيرا بـاطلا يتناسب وامراضه الـتي رانت عليه وكما ان من يضع على عينيه نظارة ملونة يرى كل شيء بذلك اللون ، كـذلك من وضع على قلبه سـماعة مضـللة فانه يسـمع كل شـيء عبرها ، بصورة خاطئة ، انه قد صنع لنفسه قـوالب ثقافية معينة يضع كل معلوماته الجديدة فيها فلا يـزداد بالحقـائق الا ضلالا ، ربنا يقول :

(**نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ**)

ولعل (البـاء) هنا للاسـتعانة وتعـبر عن تلك الأحكـام المسبقة والقـوالب الفكرية الجـاهزة الـتي بها يسـتمعون الى الحقـائق فيفسـرونها حسب أهـوائهم والآيـات التالية توضح تلك القوالب :

(**إِذْ يَسْـتَمِعُونَ إِلَيْـكَ وَإِذْ هُمْ نَجْـوى إِذْ يَقُـولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا**

رَجُلاً مَسْحُوراً)

كـــانوا يـــبررون مـــواقفهم بحجج واهية يقولـــون انه مسحور وليس بساحر يمارس الكذب والـدجل بينما كـانوا يـدعون الرسـول (ص) (بالصـادق الأمين) فلم يبق هنـاك مجال للتهمة سوى القول بأنه مخـدوع بسـحر السـاحرين فهو مسحور. ويسفه القرآن هذه التهمة فيقول :

[48] (**انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثـالَ فَضَـلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**)

لأنهم اتهمـــوا رســـول الله (ص) تهما واهية وأضـــلوا الطريق ، وانحرفوا عن الجادة ، وبذلك صـاروا لا يفقهـون آيات القـرآن ولا يعرفـون مغزاها ، ولا يهتـدون الى سـبيل الحق.

وكما قلنا سلفا : ان الايمـان بـالآخرة ضـمان للتفكـير السليم في الحياة ، وان الكفار لم يكتفوا بإنكـار الآخـرة ، وانما كـانوا يسـعون لتـبرير اعتقـاداتهم بأفكـار سـخيفة ، وشبهات واهية ، ومنها الشبهة التالية :

[49] (**وَقـــالُوا أَإِذا كُنَّا عِظامـــاً وَرُفاتـــاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**)

إذا كـان الإنسـان مبعوثا يوما ما فلم يصـبح رفاتا اي خلقا يتلاشى؟

هذا ما كان يتسـاءل الكفـار عنه مسـتنكرين فأجـابهم الله :

[50] ـ [51] (**قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً* أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**)

فســواء أكنتم حجــارة أو حديــدا أو اي شــيء آخر ، تتصورونه في أذهانكم كبيرا

كالجبال والبحار والصحاري وما الى ذلك.

(**فَسَـيَقُولُونَ مَنْ يُعِيـدُنا قُـلِ الَّذِي فَطَـرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)

وبديهي ان الخلق ثانية أهون من الخلق ابتــداء. ولعل الكفــار كـانوا يزعمــون ان الحديد والحجر لا ســبيل الى التحكم فيهما ، باعتبارها صلبة ، وليس كـاللحم والعظم ــ في نظرهم ـ أو يزعمــون انهما ابعد عن الخلق باعتبارهما جامدين بخلاف البشر المركب من مواد حيّة.

وأجــاب الســياق عن شــبهتهم بــان كلامهم يخضع لمقاييس المخلوقين اما الخالق فهو على كل شيء قدير.

(**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ**)

اي سيهزون رؤوسـهم ويمـدونها الى الامـام في هيئة الشـخص المتعجب ويتسـاءلون مـتى موعـدنا ان كـان لنا موعد؟

فمن عادة الإنسـان انه إذا احتمل في امر احتمـالين ، فانه يحتمل وقوع الأيسر منهما ويسـتبعد وقـوع الاحتمـال الثاني ، ويشير هنا ربنا الى استبعاد الإنسان وقوع الآخــرة ، ولكنه تعالى يؤكد له هذا الاحتمال فيقول :

(**قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً**)

إذ ان مجرد اعتقـاد الإنسـان بأنه قد يـترك الـدنيا في ايّة لحظة وان القيامة ستقوم متى أراد ــ الله يجعله متّقيا لله في اعماله صغيرها وكبيرها.

[52] (**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً**)

فليست الدنيا من الآخرة الا قليل ، إذ ان معــدل عمر الإنسان في الدنيا هو سبعون سنة أو أكــثر من ذلك بقليل ، وليس لهذه السنين قيمة امام الخلــود في الآخــرة ــ أما في الجنة وأما في النار ـ.

وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (55) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (56) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ

---

53 [ينزغ بينهم] : يفسد ويهيج الشر بينهم.
57 [محذورا] : يحذر منه ويتقي.

أَوْ مُعَـذِّبُوها عَـذاباً شَـدِيداً كـانَ ذلِـكَ فِي الْكِتـابِ مَسْـطُوراً (58) وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِـلَ بِالْآيـاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُـوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفـاً (59) وَإِذْ قُلْنا لَـكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحـاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنـاكَ إِلاَّ فِتْنَــةً لِلنَّاسِ وَالشَّــجَرَةَ الْمَلْعُونَــةَ فِي الْقُـرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيراً (60)

العلاقات الاجتماعية البناءة

هدى من الآيات :

لكي لا يبث الشـيطان روح العـداء بين عبـاد الله ، عليهم ان يختاروا أفضل القـول ، ذلك أن الشـيطان عـدو مـبين للإنسـان ولا يجـوز ان يجعل البشر نفسه وكيلا عن النـاس (فيكفّـرهم حسـبما يشـاء ، ويحكم عليهم بعـذاب الله).

والله اعلم بعباده فهو (وليس الداعية) يرحم ان شـاء ويعـذب ان شـاء وقد أحـاط علما بمن في السـماوات والأرض ، وانما يتفاضل النـاس بمشـيئة الله ، أو ليس قد فضل بين أنبيائه وأتى داود زبورا؟

ويبدو ان هذه الآيات تـبين بعض المسـؤوليات الواجبة على المؤمـنين تجـاه بعضـهم وتشـمل غـير المؤمـنين ، فـالقول الحسن ، وعـدم التسـرع بـالحكم على النـاس ، وترك التحاسد جزء من مسئولية المؤمن تجاه أخيه.

ولعل عوامل الخلاف تنشأ من عدم خلـوص التوحيد ، من رواسب الشــرك فلــذلك يعــود الســياق الى قضــية الشــرك وان الآلهة الباطلة لا يملكــون كشف الضر عنهم ولا تحويلا.

بل ان من يـدعون من دون الله هم بـدورهم يبتغـون إلى ربهم الوسيلة ، يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وبالرغم من وجود الآلهة الباطلة فـان الله يهلك جميع القوى قبل يوم القيامة مما يدل على انهم لا يملكـون دفع الضر عن شعوبهم.

ولقد كـذب الأولـون بآيـات الـرب فهـذه ثمـود كـذبوا وظلمــوا بالناقة وهي آية مبصــرة ، وآيــات الله ليست الا للتخويف.

والهــدف من التخويف هو امتحــان البشر وقد أحــاط الله بالناس قدرة وعلما ، ولقد امتحنهم بالرؤيا التي أراها رســوله ، كما جعل الشــجرة الملعونة في القــرآن فتنة (شجرة الزقوم التي يجسدها في الدنيا المجرمـون كبـني امية) الا ان آيات التخويف لا تزيدهم الا طغيانا كبيرا.

بينات من الآيات :

القول الأحسن :

[53] هكذا اثار المشركون الشبهات حول الرســول ، فما هي مســـئولية الـــدعاة الى الله ، في مواجهة تلك الشبهات؟ الجواب ان محتوى رسالة الـدعاة الى الله حق وصــــواب ، يبقى الأســـلوب ، فلو أنهم اتبعــــوا أحسن الاســاليب في الـدعوة فنـدوا تلك الشـبهات ولكنه ان لم يتبعوا أفضل نهج للدعوة ، فان الشيطان يســتغل الفرصة ، ويضخّم الاخطاء في عين المشركين ، ويزين في قلوبهم العداوة للمؤمنين ومن ثم

رسالة الايمان بوسـيلة الاخطـاء الـتي يرتكبها الـدعاة في أسلوبهم كأن يفحشوا في القول ، أو يتطرّفوا.

(**وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**)

يبدو ان العباد هنا هم عباد الله الصالحين.

(**إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ**)

فالشـيطان يمشي بين العبـاد بالعـداوة ، ويبث روح العـداء ويسـتفيد من الكلمـات النابية بل من سـقطات اللسان والاخطاء الّتي يتهاون النـاس عـادة فيها ، في بث روح العداء بين المؤمنين.

(**إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً**)

فعداوته ليست بجديـــــدة ، وليست بخفية ، وعلى العاقل ان يحذر العدو العنيد المجاهد بعداوته.

فلما ذا نتبع خطـــوات الشّـــيطان ، ونعطيه فرصة التوغل بين صفوفنا وزرع الشّقاق بين بعضنا والبعض؟

كيف تنظر الى الناس؟

[54] بعض النــاس يحكمــون على الآخــرين احكاما قاسـية دون ان يعرفــوا واقع أنفســهم ، وهل رضي الله عنهم أم لا ، فـــاذا بهم يكفّـــرون النـــاس ويفســـقونهم ويحصون عيوبهم والحديث الشّريق يقول :

«**رحم الله عبدا شـغلته عيـوب نفسه عن عيـوب الناس**»

والإنسـان الّـذي يـدعو الى الله ، ويحمل رسـالته الى الآخرين ، هو أقرب الناس الى هذه الزلة الشّيطانية الّـتي ينفذ من خلالها الى قلبه يـــدعوه لتكفـــير الآخـــرين واسقاطهم من قائمة المؤمنين.

ويعالج القرآن هذه المشـكلة بقوله : لا تحكمـوا على الناس بالباطل لأنكم قد تحكمـون على أحد بـالانحراف ثم يتوب فيتوب الله عليه ، بينما يبقى الّذي حكم بينهم بـذلك رهين خطأه الّذي قد لا يستغفر منه ، فلا يتوب الله عليه ، وربما يستغفر ولكن الله لا يتـوب عليه لان ذلك الشّـخص لم يغفر له ، وهذا هو الذنب الّذي لا يترك في الآخرة.

جـــاء في الحــديث : «الا وان الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفر ، وظلم لا يترك ، وظلم مغفور ، فاما الظلم الّـذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى ، قال تعالى : (**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**) ، واما الظلم الّذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنـــات (اي الـــذنوب الصـــغيرة) ، واما الظلم الّذي لا يـترك فظلم العبـاد بعضـهم بعضا القصـاص هنـاك شـديد (اي في الآخـرة) ليس هو جرحا بالمـدى ولا ضـربا بالسياط ، ولكنه ما يستصغر ذلك معه»

أذن قد يـــدخل الجنة ذلك الإنســان الّــذي نعتقد بأنه منحرف فاسق ، بينما ندخل نحن النار ، قال الله سـبحانه وتعالى : يصف أهل النار : (**وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجـالاً كُنَّا نَعُـدُّهُمْ مِنَ الْأَشْـرارِ أَتَّخَـذْناهُمْ سِـخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ* إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**) إذا فلا تحكموا على الناس احكاما ارتجالية بل ليكن مقياسـنا في الحكم عليهم بمدى التزامهم بالقيم.

إذن لا تغتر بحسناتك ، ولا تعب على الناس سيئاتهم ، ولا تعتـبر نفسك أفضل من النـاس. ولعل الشّـخص يعيب على أخية فعلا وهو يرتكب ما هو أقبح منه ، بل قد

يكون ذلك الفرد معذورا في تصرفه دونه ، فلعل ضـغوطا تربوية أو اقتصادية أو اجتماعية تكره الفـرد على اقـتراف ذلك الفعل القبيح ، بينما الّذي يعيبه يرتكب ذات الفعل بلا ضغوط فيغفر الله لصاحبه ولا يغفر له.

(**وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**) :

[54] (**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَـأْ يَـرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**)

بعث الرسول بالرسالة شـاهدا ومبشـرا ونـذيرا ، ولم يبعث وكيلا على النـاس يـدخل من يشـاء منهم في رحمة الله ، ويخـرج منهم من يريـد. انما هـذه المهمة هي مهمة الله وحده.

فـاذا ليس باسـتطاعتك أنت ان تـرتب النـاس ضـمن خانات تصنعها حسبما تريد ، الم تسمع هذا الحـديث : عن أبي ذر (رض) : ان رسول الله (ص) قال :«**ان رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله : من ذا الـذي تـالى علي ان لا اغفـر؟ فـاني قد غفـرت لفلان ، وأحبطت عمل الثاني بقوله : لا يغفر الله لفلان**»

[55] (**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

اي ربك اعلم بالنـاس وبأعمـالهم مـاذا سـيفعلون؟ لاحظ وجود (من) الموصولة الّـتي تـأتي للعاقل فنسـتطيع ان نقول : ان ربك اعلم بالذي في السماوات والأرض من الجنس العاقل سواء كان بشرا أم ملائكة.

(**وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ**)

الأنبيـاء كسـائر البشر خلقـوا بتفضـيل وأفضل من الأنبياء الرسل فأفضل الرسل

خمسة : وهم أولوا العزم وأفضل اولي العزم رسـول الله (ص) وقد قال رسول الله في حديث له :

«**فضــلت على ســائر الأنبيــاء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصـرت بـالرعب من مسـيرة شـهر ، وأحلت لي الغنــــائم وجعلت لي الأرض مســـجدا وطهـــورا ، وأرســـلت الى الخلق كافة ، وختم بي النبيون**»

(**وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً**) يبدو ان زبور داود هو كتاب دعاء ومناجات مع الله سبحانه ، وكما هو معلوم فان عـدد كتب الله مائة واربعة وعشرون كتابا ، انزل كل كتـاب ليـواكب ذلك الظــرف الزمــني المعين ولعل ذكر زبــور داود دون غيره كان للأسباب التالية :

1 ـ ان الله بشر فيه بـالنبي محمد (ص) وانه سـوف يورث أرضه عباده الصالحين.

2 ـ ان اليهــود زعمــوا ان الله لم يرسل بعد موسى أحدا وكان داود بعده نبيا مرسلا باعترافهم.

3 ـ ان تفاضل الأنبياء لم يكن بالملك بل بالرسالات ، فبالرغم من ان داود كـان ملكا لم يـذكر الله هنا ملكه بل ذكر الكتـاب الّـذي انـزل عليه وهو الزبـور وهو يتمـيز بين سائر الكتب بأنه كتاب دعاء وكان هذا أعظم مـيزة له بين سائر الكتب.

الآلهة الزائفة :

[56] (**قُــلِ ادْعُــوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِــهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً**)

لا بد ان نجعل الايمــان بالله محــورا لحياتنا وتحركنا ، لان ما دونه من الآلهة لن

تستطيع ان تنفعنا أو تضرنا ، وهم بالاضافة الى ذلك أعجز من ان يقوموا بما نريد بل يعجزون عن القيام بما يريدون لأنفسهم ، فكيف يقومون بحاجات الناس ، وهنا نلاحظ من كلمة (زعمتم) اي ادعيتم وصنعتم ، فالإنسان هو الّذي يصنع الطاغوت المتسلط ، ويصنع الصنم الجامد ، ويصبغ عليه القوة ومن بعد ذلك يخافه ، وهو يعلم انه لا يملك كشف الضر عنه عوضا عن تحويله.

[57] (**أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**)

هؤلاء الأولياء الذين يزعمون بأنهم آلهة انما هم عباد له ضعفاء يبتغون رضا ربهم ، ويريدون الوسيلة اليه ، فكلهم فقير محتاج الى رحمته ، ويريد الزلفى اليه بفطرته وربما بإيمانه أيضا في هذه الآية ، وفي آيات مشابهه تحيّر طائفة من المفسرين وتساءلوا من هم أولئك الذين يدعون وكيف انهم يبتغون الوسيلة الى الله ربهم؟

زعم البعض انهم الأصنام ، بينما قال البعض انهم الملائكة والعباد الصالحون الذين اتخذهم اتباعهم أربابا من دون الله.

والواقع ان ذاك وهذا بعض معنى الآية ، الا ان المعنى الاشمل هو كل شيء أو شخص يطاع من دون الله ، ولان أغلب أبناء آدم يعبدون من دون الله ، ذوي القوة والثروة والجاه ، كالملوك والقيادات السياسية والمترفين والأحبار والرهبان.

فان الآيات فيما يبدو تشمل هؤلاء بل تركز عليهم وتسعى لتحرير البشر من نير عبوديتهم ولعل قراءة سريعة لآيات الشّرك توحي إلينا بان الآلهة المعبودة من دون الله هم عادة بشر ، يقول ربنا سبحانه وتعالى : (**وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ**) (86 / النحل)

وقال : (**قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ**)

(**وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ**) (64 / آل عمران)
وقـال : (**اتَّخَـذُوا أَحْبـارَهُمْ وَرُهْبـانَهُمْ أَرْبابـاً مِنْ دُونِ اللهِ**) (31 / التوبة)
وقـال : (**أَأَرْبـابٌ مُتَفَرِّقُـونَ خَيْـرٌ أَمِ اللـهُ الْواحِـدُ الْقَهَّارُ**) (39 / يوسف)
وقال : (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**) (165 / البقرة)
وقــال : (**إِنَّ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللــهِ عِبــادٌ أَمْثالُكُمْ**) (194 / الأعراف).
وهكذا نستوحي من هـذه الآيـات ان الأربـاب والأنـداد والشّركاء عباد من البشر.
(**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَـهُ إِنَّ عَـذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً**)
هـــؤلاء يرجـــون رحمة الله ويخـــافون عذابه ، ومن الملاحظ ان الرجـاء ليس بمرتبة الخـوف ، فـالخوف من العذاب يصلح الإنسان أكثر مما يصـلحه الرجـاء ، جـاء في الحديث عن أمير المؤمنين (ع):
«فمن اشـــتاق الى الجنة سلا عن الشّـــهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات»
ان الخـوف من النـار يمنع الإنسـان عن المحرمـات وبينما رجاء الجنة يبعد الإنسان عن الشّهوات.

سنة العذاب :

[58] (**وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَـوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها**)

(**عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً**)

قال بعضـهم انه : عند ما يتحـدث الله عن بلـدة طيبة في القـرآن يسـميها بلـدا أو مصـرا ، وعند ما يتحـدث عن بلده سيئة يسميها قرية مهما بلغت من الضخامة.

وكـانت الآية تشـير الى قضـية مهمة جـدا في حيـاة القـرى الّـتي تشذ عن امر الله حيث يكتب عليها العـذاب منذ بداية انحرافها ، ولكن مع وقف التنفيذ ، فربما يرسل العذاب في هذه اللحظة وربما لا يعذبهم الا بعد سنين من المعاناة ، ونلمس من هـذه الآية : ان الله اعطى الإنسـان مهلة ، وعليه ان يتحمل تنفيذ الحكم الرباني عليه ان حـاد عن طريقه كما ان الآية تشـــير الى طبيعة البشر النازعة الى الانحراف حيث تجلب إليها عذاب الرب.

[59] (**وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِـلَ بِالْآيـاتِ إِلَّا أَنْ كَـذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**)

ليست مشكلة البشر قلة الآيات بل المشـكلة هي ان النـاس لا يسـتوعبون الآية ولا يعرفـون قيمتها وبالتـالي يكذبون وابرز مثال على ذلك قوم ثمود.

(**وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها**)

هذه الناقة كانت آية جلية واضحة إذ خرجت إليهم من الجبل الأصم نستقيهم اللبن ، ولكن مع الأسف هذه الناقة سببت لهم مصيبة كبري إذ ظلموا أنفسهم بسببها.

السـياق القـرآني يحـذرنا من طـرف خفي من ان نطـالب أبـدا بالآيـات دون ان نكـون مسـتعدين لها ، إذ لو نزلت الآيات ثم كفرنا بها فقد استوجبنا عذاب ربنا الشّديد فنكون قد ظلمنا أنفسنا بتلك الآية ، كما فعلت ثمود.

وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة : حديث مـأثور عن الامام الباقر عليه السلام ان محمدا (ص) سأله قومه ان يأتيهم بآية ، فنزل جبرئيل وقال : ان الله يقول : (**وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**) وكنا إذا أرسـلنا الى قرية آية فلم يؤمنـوا بها أهلكنـاهم فلـذلك أخرنا عن قومك الآيات[1]

(**وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً**)

اي ان هناك نوعين من الآيـات فآية مبصـرة مثل ناقة صـالح كفـروا بها فأتـاهم العـذاب وآية تخـوفهم وتنـذرهم بعذاب الآخرة مثل البأساء والضراء.

ولان الله ختم بنبيه محمد (ص) الرسل فقد أرسل الآيات تخويفا بالقيامة ولم يرسلها بحيث يجلب العذاب لو كفروا بها.

الرؤيا :

[60] ما هي الرؤيا؟ يبدو ان لـدى كل واحد منا حاسة سادسة ونعني بذلك الحس الّذي يلتقط الارهاصـات الّـتي يشـعر بها مثل النعمة أو المصـيبة ، وتلعب هـذه الحاسة دورا أساسيا أثناء الظـروف الصـعبة حيث النفـوس ملتهبة ولعل الرؤيا هي جـزء من هـذه الحاسة ذلك لأن الإنسـان في حالة اليقظة يحجبه عن رؤية الحقـــائق وتفهمها ما يشـــاهده بعينه وما يبتلى به في حياته اليومية ، بينما في النـــوم حين الاحاســيس الاخـــرى هامـــدة تبقى الحاسة السادسة هي الفعالة فـيرى الإنسـان الأمـور ، وكثـيرا ما يحذر الله الإنسان من المسـتقبل وأمـور عديـدة في حالة النـوم ، الا ان غالبية بـني البشر ولتـورطهم بغـرور الـدنيا ونعم الله فيها ، لا يســـتفيدون من رؤيـــاهم ، ولا من احساسـهم بـالخطر المحـدق بهم ، ولعل الآية تشـير الى هذه النعمة.

---

(1) تفسير الصافي ج 3 ص 199

(**وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ**)
علما وقدرة.
(**وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ**)
يعني تجربة واختبارا لهم.
(**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**)
اي وجعلنا هذه الرؤية اشارة للشجرة الملعونة.
(**وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً**)
والله تعالى يقول في الآية الّتي تليها : (**وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**).

ان حالة الغرور والتكبر والاستعلاء على المؤمن وعلى آيات الله المحذرة والنذيرة ، كل ذلك نابع من خطأ قديم ارتكبه أبونا آدم ، دفعه الى ذلك إبليس الّذي تكبر على السجود لله تعالى وهذا لا يزال يزيد الإنسان غرورا وكبرا.

الشّجرة الملعونة :

ما هي الشّجرة الملعونة في القرآن؟

لقد اختلفت التفاسير في معنى هذه الآية فبين من قال ان الشّجرة هذه هي شجرة الزقوم أو اليهود ولكن من بين الأقوال تفسيرا أرتضيه ، وقد وردت فيه روايات كثيرة ومن كافة المذاهب الاسلامية وقبل بيان هذا التفسير ورواياته هناك فكرة هامة علينا بيانها لا ريب ان رسالة الإسلام هي أعظم وأكبر ظاهرة شهدها كوكبنا

الارضي ، ولا ريب ان ما جرى على هذه الظـاهرة الكونية الكبرى من تغيرات هائلة هي الاخـرى تتسم باهمية كـبري أيضا ، وأهم تغيير جرى على هذه الظاهرة هو تغير القيادة الاسـلامية من الخلافة الراشـدة الى ملك عضـوض نـزى عليه الامويون ، وهذا التغيـير هو أكـبر انحـراف حـدث في الامة الاسلامية ومن الطبيعي والإسـلام رسـالة غيبية ، ان لا يسكت عن هذه الانحرافة الكبرى ، وهذا التغيير الخطير في رسالة الله ، والله الّذي يحب رسالته ورسـوله والامة الاسـلامية لم يـترك الأمر الا وقد أشـار اليه بطريقة أو بأخرى ، ولم تكن هذه الاشارة واضحة كأن يذبح الرسـول (ص) قـادة بـني امية جميعا ، لان هـذا ليس من شـأن الرسالات الإلهية لان الله يريد اختبـار النـاس وامتحـانهم ، وفي نفس الوقت لا يـدع الله الأمر من دون حجة بيّنة بل يشـير الى الحق والباطل ، ثم يـترك المجـال مفتوحا لاختيارهم الحق أو الباطل.

والتفسـير المختـار هو ان الرؤيا هي رؤيا الرسـول (ص) في منامه ان قـردة يـنزون على منـبره ويتثـاوبون عليه ، والرسـول قـال هـذا الكلام للنـاس ولكن من الّـذي عقله؟

أهل الذكاء والفطنة ، وأهل التوسّم الايماني هم فقط الذين عرفوا بـان منـبر الرسـول (ص) مركز قيادته ، وان هناك فئات من الامة سوف تسعى لهذا المركز دون حق ، هم بنو امية اما الآخـرون فقـالوا ان طيف الرسـول كطيفهم لا اثر له ، وحقيقة الأمر انه يختلف تماما ، ونـبي الله إبراهيم أراد ان يذبح ابنه بسبب رؤيا.

«**قـالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنـامِ أَنِّي أَذْبَحُـكَ**» فقال له ابنه نبي الله إسـماعيل «**قـالَ يا أَبَتِ افْعَـلْ ما تُؤْمَرُ سَـتَجِدُنِي إِنْ شـاءَ اللـهُ مِنَ الصَّـابِرِينَ**» وهكـذا كانت رؤيا الأنبياء وحيا.

من هنا جـاء في الحـديث ان ذلك رؤيا راه النـبي في منامه ، ان قردة تصـعد منـبره وتـنزل فسـاءه ذلك واغتّم به.

روى سهل ابن سعيد عن أبيه قـال : (ان النـبي (ص) رأى ذلك وقال انه (ص) لم يستجمع بعد ذلك ضاحكا حتى مات).

وروى سـعيد ابن يسـار وهو المـروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (وقـالوا على هـذا التأويل ان الشّـجرة الملعونة في القـرآن هي بنو امية أخـبره الله سـبحانه وتعالى بتغلبهم على مقامه وقتلهم ذريته).

وروي عن المنهـال ابن عمر قـال : دخلت على علي ابن الحسـين عليهما السـلام فقلت له : كيف أصـبحت يا ابن رسول الله (ص).

قـال : (أصـبحنا والله بمنزلة بـني إسـرائيل من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وأصبح خـير البرية بعد رسـول الله ، يلعن على المنـابر ، وأصـبح من يحبنا منقوصا حقه بحبه إيانا).

وقيل للحسن البصري : يا أبا سعيد قتل الحسـين ابن علي.

فبكى حتى اختلج جنباه (اي تحرك كتفاه) ثم قال : وا ذلاه لامة قتل ابن دعيها ابن بنت نبيها.

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61) قـالَ أَرَأَيْتَـكَ هـذَا الَّذِي كَــرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَــوْمِ الْقِيامَــةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (62) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَـكَ مِنْهُمْ فَــإِنَّ جَهَنَّمَ جَــزاؤُكُمْ جَــزاءً مَوْفُــوراً (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِــكَ وَرَجِلِــكَ وَشــارِكْهُمْ فِي الْأَمْــوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِـدْهُمْ وَما يَعِـدُهُمُ الشَّـيْطانُ إِلاَّ غُـرُوراً (64) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُــلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْـرِ لِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (66)

---

66 [اجلب] : الاجلاب الســوق ، يجلبه من الســائق والجلب شــدة الصوت.

66 [يزجي] : الإزجاء سوق الشّيء حالا بعد حال.

وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَـلَّ مَنْ تَـدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (67) أَفَـأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِـفَ بِكُمْ جـانِبَ الْبَـرِّ أَوْ يُرْسِـلَ عَلَيْكُمْ حاصِـباً ثُمَّ لا تَجِـدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيـهِ تـارَةً أُخْـرى فَيُرْسِـلَ عَلَيْكُمْ قاصِـفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِـهِ تَبِيعـاً (69) وَلَقَـدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنـاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّـلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً (70)

---

69 [قاصفا] : القاصف الكاسر بشدة قصفه.

الإنسان بين كرامة الله وغرور الشّيطان

هدى من الآيات :

لمــاذا يتمــرد البشر عن مســئولياته ، وما هو جــزاء المتمردين ، وما هو جذر الشّرك بالله؟

لنعد الى قصة الخلق الاول : فمن عرف البداية هـدي الى العاقبة ، نتـــذكر قـــول الله للملائكة اســـجدوا لآدم فسـجدوا الا إبليس اسـتكبر وعلا بغـير حق فقـال انا نـار (اسـجد لمن خلقت طينـا) فلما لعنه الله ، قـال : سـترى كيف أضل ذرية هذا الّذي كرمته عليّ ان اخرتني الى يـوم القيامة ، الا قليلا منهم وأنـذره الله ومن تبعه ان جـزاءهم جهنم جزاء وافيا.

وبالرغم من ان الشّيطان سوف يستفزهم بالتضليل.

ويـــرهبهم بجيشه ، ويتـــداخل معهم فيشـــاركهم في الأموال والأولاد ويحذرهم

بوعود كاذبة ، فـان عبـاد الله سـوف يتحدونه بعـون الله ، وبالتوكل عليه وكفى بالله وكيلا. والله يملك كل شـــــيء ومن يعرفه ويتوكل عليه فهو حسبه.

فهو الّذي يـزجي السـفن في اعـالي البحـار لمصـلحة البشر ، رحمة بهم اما إذا أحسوا بالضراء في البحر وغاب عنهم آلهتهم الّتي كانوا يشـركون بهم فـان يد الله تنجيهم من ورطتهم بالرغم من انهم يعرضون عنه إذا وصـلوا الى الشّـاطئ آمـنين ، ويقـابلون رحمة الله ، بـالكفران بـدل الشّـكر ، دون ان يتـذكروا ان الله قـادر على ان يخسف بهم جانب البر ، أو يرسل عليهم ريحا تقذفهم بالحجـارة ، فلا يجدون وكيلا يدافع عنهم ، أو يخشوا العـودة الى البحر فتحيط بهم عواصف تغـرقهم بكفـرهم ولا أحد يطـالب بثأرهم.

لقد كرم الله بني آدم ، واسـجد لهم الملائكة وحملهم في البر والبحر ، ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ووعـدهم بالنصر في مواجهة الشّـيطان الّذي يقف لهم بالمرصاد!

بينات من الآيات :

إبليس يتحدى سلطان الحق :

[61] (**وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**)

أشرنا في سورة البقرة ان سـجود الملائكة يرمز الى اخضاع الطبيعة للإنسـان ، وعللنا ذلك : ان كل طبيعة في الكـون لها ملك موكل بها ، فهنـاك ملك للمطر ، وهنـاك ملك للريح ، وآخر للبحـار وملائكة للنهـار وملائكة لليل و.. و.. والمطلـوب من الإنسـان هو ان يخضع نفسه وقـوى الشّر في الطبيعة.

(**قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**)

يبدو ان إبليس كان عنصريا لأنه حيث زعم أن العنصر الناري أفضل من العنصر الـترابي ، ولم يعلم بـان العنصر الـترابي ليس بشـيء ، لو لا تكـريم الله له بتلك القدسـية التي نفخها الله فيه ، منحه العقل والارادة.

[62] (**قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَ**)

قـالوا : معـنى هـذه الكلمة اخـبرني ، ولعل معـنى الكلمة هل ظننت انك تغلبني وفيها نبرة التحـدي والتمـرد وكان أسلوب اللعين بعيدا جدا عن مقـام رب العـالمين إذ كـان أسـلوبه أسـلوب تحد على من كـرم الله وكأنه كـان يقـول : سـتعلم ما افعل بهـذا الّـذي كرمته عليّ وامرتـني بالسجود له!!

(**لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**)

اي امهلتني حتى يوم القيامة لترى ماذا اعمل!!

(**لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً**)

ما هي غاية إبليس؟

هدف إبليس ان يحتنك بني آدم ، والاحتناك ، كما قال المفسرون له معنيان :

الاول : الأخذ من العنق اي سوف اقود بني آدم سوق البهائم.

ثانيا : الاستئصال اي لأستولين عليهم بالكامل قـالوا : احتنك فلان ما عند فلان من مال استقصاه واخـذه بالكلية واحتنك الجراد الـزرع ، اكله بالكلية (الا قليلا) ممن يتمـرد عليّ ويتبع عقله وهـذا قـول الشـيطان ، ويبـدو من هـذا الحـوار ان إبليس يقـول : انا أقـوى من آدم ، أنت كرمته عليّ بيد اني سوف ادخله النار.

[63] (**قالَ اذْهَبْ**)
أعطيتك الفرصة والمهلة.
(**فَمَنْ تَبِعَـكَ مِنْهُمْ فَـإِنَّ جَهَنَّمَ جَـزاؤُكُمْ جَـزاءً مَوْفُوراً**)
ان الله خلق الجن والانس ليعبـدوه وكـرم بـني آدم واهله لعبادته ، اما إذا خـــرج عن حـــدّه ووقع في خط الشيطان ، آنئذ يسحب الله الكرامة منه ويدخله جهنم هو وجنـود إبليس أجمعين. وهكـذا إبليس من أشد الأعـداء خطـورة على ولد آدم جـاء في الـدعاء(الهي أشـكو إليك عـدوا يضـلني ، وشـيطانا يغويـني ، قد ملأ بالوسـواس صدري وأحاطت هواجسه بقلبي ، يعاضد لي الهوى ويزيّن لي حبّ الدنيا ويحـول بيـني وبين الطاعة والـزلفى) الا ان الله سبحانه وتعالى زود الإنسان بـالإرادة والعقل وأعطـاه مزايا عدة كيف؟ تعالوا نستمع الى هذا الحوار.
لما اعطى الله إبليس ما أعطاه من القوة قـال آدم : (يا رب قد ســلطت إبليس على ولـــدي وأجريته منهم مجـري الـدم في العـروق ، وأعطيته ما أعطيته ، فما لي ولولدي؟
قال : (لك ولولدك السيئة بواحـدة ، والحسـنة بعشر أمثالها).
قال : يا رب زدني.
قال : التوبة مبسوطة حتى تبلغ النفس الحلقوم.
قال : يا رب زدني.
قال : اغفر ولا ابالي.

هكذا يمكر إبليس :

وخطـورة الشـيطان انه يسـتخدم أمكر الخطط من أجل إغواء بني آدم ولو لا يقظة

أبن آدم ، وعزمه الراسخ للتخلص منه ، فـــــــان إبليس يصرعه بواحدة من خططه العديدة.

وكم يكــون عظيما ذلك الإنســان الّــذي يتحــدى كل خطط الشـــيطان ويصل الى الجنة بعد تجـــاوز المواقع والعقبــات الشـيطانية العديــدة ويــذكر الســياق القــرآني بخمسة خطط :

التضـليل الاعلامي وتخـريب الاقتصـاد وإفسـاد التربية والإرهاب والترغيب.

الف : التضليل الأعلامي :

[64] (**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ**)

والاستفزاز بمعـنى الاسـتنهاض ، يقـال فـزّت الدابة : اي قامت وتحـركت .. اي حـرّك منهم من تريد واسـتنهض من شــئت باعلامك المضــلل. ويشــمل الصــوت الدعاية والموسيقى والغناء وكل أساليب الغواية المنطوقة.

ويعتـبر التضـليل الاعلامي امضى اسـلحة الشـيطان ، حيث نــــرى بداية الخلق ان إبليس اغــــوى آدم وزوجته ، وأخرجهما من الجنة ، بالقسم الكــــاذب وعلى امتــــداد التاريخ استخدم الشياطين ابواقهم الدعائية لمحاربة الحق ، وكان حول الطغـاة أبـدا جيش من ادعيـاء الفكر والـدين يؤيدون سلطانهم ويغوون عباد الله.

ولا تزال شبكات المستكبرين التضـليلية تقـوم بأسـوأ دور في مد ســيطرتهم الشــيطانية على المستضــعفين وهكــذا ينبغي ان يكــون الشـعب على أعلى مسـتوى من الوعي حتى يقاوم هذا التضليل ، والا فان الجزارين سوف يقودونه الى المذبحة بهدوء بعد ان يخدعوه ويغروه.

باء / الإرهاب :

(**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**)

الإرهاب وسيلة شيطانية يستنجد بها أعوان الشـيطان متى تحرك النـاس تجـاه دينهم ، أو بـدأوا بممارسة حقهم في التفكير ، أو بدأوا يسـتخدمون عقـولهم .. (خيلـك) هم الخيالة أو بمعـنى آخـرهم القـوة المحمولة للشـيطان و (رجلك) اشارة الى جيش المشاة.

جيم / إفساد الاقتصاد :

(**وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ**)

وهذا هو الأسلوب الثالث الّذي يعتمده الشـيطان وهو إفسـاد النظـام الاقتصـادي وحين يكـون الاقتصـاد فاسـدا بسيطرة الرأسمال الكافر فان من الصعب جدا عبادة الله ، لان الشيطان يقطع رزق المؤمـنين بعد سـيطرة اجهزته على المال.

دال / إفساد التربية :

اما المشـاركة في الأولاد فتعـني التربية الفاسـدة للطفل ، فالشـيطان يشـارك الأب في تربية ابنائه فمنذ نعومة اظفـارهم يأخـذهم لـيزرقهم فكـره ، ليكونـوا حملة لرسالته.

والمعـنى العميق لهـذه الآية : ان الإنسـان لو تـرك وفطرته ، لاسـتفاد من حياته ، ولكن الشـيطان يـدخل مع الإنسان في كل شيء ويصير معه شريكا ، فيمتص جهوده ، فلا يستفيد الإنسان من حياته لحياته الاخـرى ، بل تكـون حكرا للشيطان.

هاء / الترغيب :

(**وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً**)

وهذه هي النقطة الاخيرة التي يعتمد عليها الشـيطان وزبانيته وهي أسـلوب الـترغيب ، ولخطـورة هـذه النقطة سـفهها الله سـبحانه وتعـالى ، لان الإنسـان تغريه رنّة الدينار حتى يعمى بصره فيصبح لا يرى الحق الا بلج.

الغـرور هو التغرير ، قـال : الـراغب في مفرداته : الغرور هو كل ما يغر الإنسان من جاه وشهوة وشـيطان ، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغاوين.

عبادة الله عصمة وهداية :

[65] (**إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ**)

ان عبادة الله سـبحانه وتعـالى ، والاتصـال به عصـمة للإنسان لئلا يقع في حبائل الشيطان ان عبـادة الله هـدى في البصـيرة ، وقـوة في الارادة ، وغـوث في الكربة والذين يكفـرون بالله ولا يتمسـكون بحبله فـان الشـيطان يضلهم بغروره ويـرهبهم بجيشه ، ويشـاركهم في الأمـوال والأولاد.

وهكذا لا يمكن لأحد ان يتخلص من برائن الشـيطان ، من دون الاعتصام بحبل الله المتين.

وكما ان امضي اسـلحة إبليس الاسـتفزاز بالصـوت ، فان أعظم حصن للمؤمن هو الّذي يقيه تضليل الناس.

وذلك ببصـائر الـوحي وضـياء العقل ، وهكـذا تكـون الصـلاة والصـيام وسـائر العبـادات وسـيلة للتفكر السـليم ومقاومة عوامل الانحـراف الفكريـة. ويفسر هـذه الآية قوله سبحانه وتعالى في سورة النحل :

(**فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللـهِ مِنَ الشَّـيْطانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى**

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (النحل 98)

(السلطان) هو القدرة.

(**وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**)

من الطـبيعي جـدا ان ارادة الشـيطان لا تسـتطيع ان تقف امــام مشــيئة الله ، لان وعد الله هو الحق وان يعد الشيطان الا غـرورا ، وقد وعد الله عبـاده بأنه وكيلهم في صرف الشيطان عنهم ، وتقطيع مصائده وهدم مكائده.

ان مقاومة أسـباب الانحـراف في النفس تسـير جنبا الى جنب مع التيـار العـام للخلق والفطـرة والّـذي تمثله سنن الله وقوانين الطبيعة. اما الانحـراف فهو السـير ضد هذا التيار ، فلذلك فان الانحـراف يحمل في جوفه عوامل انهياره ، حـتى لو تـذرع بالاسـاليب الملتوية من إرهـاب أو إغراء.

[66] (**رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ**)

هذه مقارنة بين غرور الشيطان ونعم الله ، فاذا كـان الشيطان يرمي الى تلك المقاصد الـتي ذكرها الله ، فـان الله سـبحانه وتعـالى ينقذ الإنسـان من بـراثن الشـيطان ويسـاعده على تسـخير الطبيعة حيث يـزجي السـفن في البحر لمصلحة البشر.

والإزجــاء : هو الــدفع والتحريك ، ولا يتم الإزجــاء الا بخلق عوامل مؤثرة تساعد على هذا الإزجاء سواء بـالريح التي تحرّك المياه وتحدث الأمـواج أو بـالقمر الّـذي يصـنع المد والجزر ، أو بخلق العوامل الـتي تسـاعد على تحريك السفن فوق سطح المياه.

(**لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً**)

فلم تزل السفن أفضل وسـيلة للتجـارة ، ونقل فضل الله المتمثل في ألـوان البضـائع من بلد الى بلد وبـالرغم من تقـدم الوسـائل الاخـرى للنقل الـبري ، كالطـائرات والسيارات والقطار ، فان نسبة نقل البضـائع عـبر البحـار أعظم من غيرها بما لا قيـاس. وبالاضـافة الى ذلك فـان البحــار ستضل أفضل وأعظم مصــدر للطعــام البشــري الطيب.

[67] أســـــلوب القـــــرآن الحكيم يعتمد على إبلاغ الحقيقة الى غور الفكر ، وعمق القلب ، بان يرفع الحجب التي بينه وبينها حتى يشاهد بذاته الحقائق. فهـذا هو العلم الحق انه كشف وشـــــهود واتصـــــال مباشر بين القلب والحقيقة (عبر جسر المعرفة). وهنا يذكرنا الرب سـبحانه : بذاته عبر منهاج وجداني يعتمد على رفع الحجب وشهود الواقــع. ولعل الحــديث التــالي يبلــور في نظرنا هــذا الأسلوب.

جـاء رجل الى الامـام الصـادق (ع) وقـال له : يا ابن رســول الله دلــني على الله ما هــو؟ فقد أكــثر علي المجادلون وحيروني.

فقـال له : يا عبد الله هل ركبت سـفينة قـط؟ قـال : نعم قال : فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سـباحة تغنيك؟ قال : نعم.

قــال : هل تعلق قلبك هنا لك ان شــيئا من الأشــياء قــادر على ان يخلصك من ورطتــك؟ قــال : نعم قــال : الصادق (ع) : فـذلك الشـيء هو الله القـادر على الإنجـاء حيث لا منجي ، وعلى الاغاثة حيث لا مغيث[1]

[67] (**وَإِذا مَسَّـكُمُ الضُّـرُّ فِي الْبَحْـرِ ضَـلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ**)

في لحظــات الخطر يتــذكر العبد ربه ، ويتعلق قلب الإنسان بالله وليس بذاته التي يعبدها أو بالطـاغوت الّـذي يخضع له.

(1) بحار الأنوار ج 3 ص 41

وهكــذا يســتدل بها الله على ذاته ، فلا أحد منا يخلو من لحظــات الحــرج والشــدة ، حيث تحيط بنا الاخطــار ونعــرف بفطرتنا ان أولئك الآلهة المزيفة ، الــتي تعبد من دون الله لا تغني عنا شيئا فتتصل القلوب بــرب الأربــاب ، وتبدأ بالمناجاة الحــارة ، ويفتح الــرب أمامنا أبــواب رحمته وتستقبلنا بشائر فضله وتنقذنا يدعونه وغوثه.

(**فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَـرِّ أَعْرَضْـتُمْ وَكـانَ الْإِنْسـانُ كَفُوراً**)

فبدل ان يزداد شكرا تــراه يــزداد طغيانا وكفــرا بنعمة الله ، (وكفورا) صيغة تدلّ على الاستمرار.

[68] (**أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ**)

اين تهرب من قدرة الله؟! صـحيح انه نجـاك من هـذا البحر الغاضب ، لكن من الّــذي يضــمن لك ان لا تخسف بك الأرض ، أو ينفجر عليك بركان منها ، وهذه الآية اشارة الى إمكان حدوث التغيرات الجيولوجية في اي لحظة.

(**أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً**)

الحاصب الريح المحّملة بالحصى وذرأت الرمل.

عند ما كانت قوافل العرب تسير في الصـحاري الـتي تتحــرك رمالها كــانت الريــاح تســوق كثبــان الرمل فتبتلع القوافل بما فيها وبمن معها ، ولعلهم كـــانوا يســـمونها بالحاصب.

هذه طبيعة الإنسان بدل ان يشكر ربه على النعم اولا وعلى خلاصه من البلاء ثانيا بدل ذلك يكفر.

(**ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً**)

سـبق وان ذكر الله سـبحانه بأنه وكيل عن المؤمـنين في دفع الشـــيطان عنهم ، ولكن من هو وكيل الكـــافرين في دفع المــوت والضــرر هــذه الآية تشــير الى ضــرورة الرجوع الى الله لأنه القوي ، ولا قوة أعلى من قوته.

عند ما ذكر الله أسـاليب الشـيطان صـغرها وبيّن ان عبــاد الله أقــوى منها بفضل الله فــاذا كــان الشــيطان يستطيع إغواء اتباعه فان الله قادر على إهلاكهم رأسا بان يغرقهم في اليم ، أو يخسف بهم الأرض ، أو يرسل عليهم ريحا لا تبقى ولا تذر.

بعد البلاء أما العذاب أو الرحمة :

[69] (**أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيــدَكُمْ فِيــهِ تــارَةً أُخْــرى فَيُرْسِــلَ عَلَيْكُمْ قاصِــفاً مِنَ الــرِّيحِ فَيُغْــرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً**)

اي يعيـــــــــدكم في البحر ، فيرسل عليكم القاصف (القاصــف) هي : الأعاصــير البحرية الهائلة ، هــذه الآية تشـير الى غبـاء الإنسـان ، فـانى له ان يهـرب من عـذاب اللـه؟! فحـتى لو اسـكرته الفرصة واذهله تتـابع النعم عن شكر ربه ، فهل ينفعه ذلك؟!

الله قادر على ان ينسيك ما أصـابك ، وهـذا ليس من صــالحك ، إذا قد تلــدغ من الجحر الّــذي لــدغت منه في المرة السـابقة! انما عليك ان تتـذكر ما أصـابك من البلاء ليــذكرك بالله ســبحانه وتعــالى حينها لن تلــدغ من جحر مرتين.

ان الله سبحانه وتعالى عند ما يبتلي امة فانما يبتليهم بما كسبت أيديهم ويهدف إنقاذهم من السيئات التي كانت ســبب البلاء كما ان الألم علامة المــرض فكــذلك البلاء علامة الذنب فاذا كفروا وتمادوا في الغي فان الله عند ما يبتلي امة فان ذلك مؤشر إنـذار لهم بـأنهم مـذنبون ، وان الله لا ينجي من هذا البلاء الا عند خلوص النية ،

والخلاصة هي : ان الله سـبحانه وتعـالى يبتلي الإنسـان بـالبلاء ليعمق روح الايمـان فيه ، ولكنه قد يكفر إذا نجي منه وقد البلاء يتحول الى عذاب.

قال الله سـبحانه وتعـالى لعيسى (ع) : «**يا عيسـى! لا يغرنك المتمرد عليّ بالعصـيان ، يأكل من رزقي ، ويعبد غـيري ، ثم يـدعوني عند الكـرب فأجيبه ، ثم يرجع الى ما كان عليه ، فعليّ يتمـرد؟ أم لسـخطي يتعرض؟ فـبي لآخذنّه اخـذة ليس له منجي ولا دوني ملجأ**»

إذا البلاء مـيزان العبد فقد يهتـدي به فيرحمه الله ، وقد يطغى فيحـول الله البلاء الى عـذاب ، لقد رفع الله فوق بـني إسـرائيل الطـور وهـددهم بأنه سـوف يسـقطه عليهم ، ولكنهم أخلصـوا نيتهم فتـاب الله عليهم ، وعند ما عـادوا الى غيهم عـاد الله عليهم العـذاب ، إذا علينا ان نعرف أبدا ان البلاء جرس إنـذار ، فنصـحح انحرافنا ونتجه الى الله قبل ان يصبح عذابا شاملا.

[70] (**وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ**)

بالعقل والارادة وباسـتواء الخلقة ، وقـدرة الجسم على الحركة باسـتقامة ووجـود اجهـزة دقيقة له تسـاعده على التحكّم في الطبيعـة. وهكـذا كـرمهم بالهـدى وبـأنّ الأنبياء والصديقين منهم حيث أنزل لهم رسالاته. وكـرمهم بتسخير الطبيعة لهم ، وتوطئة ظهور الأشياء لهم.

(**وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**)

حملهم في الـبر : فـالأرض جعلها صـلبة يسـتطيعون التنقل عليها وسخر لهم الخيل والبغال والحمير ليركبوهـا. وسـخر لهم سـائر وسـائل الانتقـال في الـبر بفضـله كما حملهم في البحر فوق السفن التي تمر المحيطات.

(**وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّبـاتِ وَفَضَّـلْناهُمْ عَلى كَثِـيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً**)

الطيبـات : الـرزق الحلال وكل ما في الأرض حلال الا ما اســتثنى ، وتفضل الله على الإنســان ليس لذاته وانما ليتحمل به مسـئولية أكـبر ، لان لكل شـيء زكـاة فزكـاة المال بذله ، وزكاة العلم نشره وكذلك فان زكاة التفضيل ان تتحمل مسئوليتك بحجم هذا التفضيل.

يَـوْمَ نَـدْعُوا كُـلَّ أُنـاسٍ بِإِمـامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَـهُ بِيَمِينِـهِ فَأُولئِكَ يَقْـرَؤُنَ كِتـابَهُمْ وَلا يُظْلَمُـونَ فَتِيلاً (71) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَـلُّ سَـبِيلاً (72) وَإِنْ كـادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْنـاكَ لَقَـدْ كِـدْتَ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَـيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِـــدُ لَـــكَ عَلَيْنا نَصِـــيراً (75) وَإِنْ كـــادُوا لَيَسْــــتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُـــوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ

---

73 [ليفتنونك] : يزلونك ويصرفونك.
74 [تركن] : تميل.
76 [خلافك] : بعدك.

أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُـنَّتِنا تَحْـوِيلاً (77)
أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُـرْآنَ
الْفَجْـرِ إِنَّ قُـرْآنَ الْفَجْـرِ كـانَ مَشْـهُوداً (78) وَمِنَ
اللَّيْـلِ فَتَهَجَّدْ بِـهِ نافِلَـةً لَـكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّكَ
مَقاماً مَحْمُوداً (79) وَقُـلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُـدْخَلَ صِـدْقٍ
وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُـلْطاناً
نَصِـيراً (80) وَقُـلْ جـاءَ الْحَـقُّ وَزَهَـقَ الْباطِـلُ إِنَّ
الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

كيف نواجه خطط إبليس؟

هدى من الآيات :

في درس مضى بين القــرآن الكــريم مكر الشــيطان وكيـــده ، وها هو يبصـــرنا كيف نقاومه ، ويثبّت افئـــدة المؤمــنين بالحــديث عن ســنة الله الــتي اتبعها النــبيون فانتصروا.

عند ما يــدعو الله كل أنــاس بإمــامهم. فهل تريد ان يكون إمامك الشيطان؟ وعند ما تتطاير الكتب. فهل تحب ان تستلم كتابك بالشمال؟

هنا لك من يــؤتى كتابه بيمينه ، ويعطــون البصــيرة ، يقــرءون كتــابهم دون ان ينقص من أجــرهم شــيء ، فلا يظلمون بقدر فتيل ، بينما هنا لك من يـؤتى كتابه بشـماله وهم عمي لا يهتــدون ســبيلا. بلى انهم كـانوا في الــدنيا لا يبصرون ، فجزاؤهم ان يكونوا في الآخرة كذلك.

ان العاقبة الحسـنى انما هي من نصـيب أولئك الـذين يقاومون خداع الشياطين

الذين ضغطوا على رسول الله ليغيروا بعض ما اوحي اليه ، وانئذ يتخذوه خليلا ، وعصمة الله هي الـتي تحفظ البشر من السقوط في شرك إبليس ، ورسول الله معصوم عن الميل إليهم بــإذن الله ، ولو انه ركن إليهم شـــيئا قليلا لا ذاقه الله ــ إذا ــ ضـعف الحيـاة وضـعف الممـات ، ثم لا ينصره الله شيئا.

هكذا يستقيم المؤمنون امام مكر إبليس وشـياطينه ، الهادف تضـليلهم ، اما عن قـوتهم وارهـابهم فـإنهم أرادوا ان يســتفزوا رســول الله من أرضه ، ويخرجــوه منها ، ولكنهم ان فعلوا أطبق عليهم العـذاب. تلك سـنة الله في الماضين ، ولا تجد لسنة الله تحويلا.

ولكي نقاوم ضغوط الشـياطين علينا ان نقيم الصـلاة لدلوك الشمس (وقت الظهيرة والعصـر) الى غسق الليل (المغرب والعشاء) وقرآن الفجر (صلاة الصبح) ان قـراءة القـرآن تشـهده الملائكة ، وان نقـوم الليل للتهجد نافلة ، ان ذلك وسيلة التقرب الى الرب ولبلوغ المقام المحمــود ، وان نــدعو الله لكي يجعل مــدخلنا مــدخل صــدق ، ومخرجنا مخــرج صــدق ، وان يجعل لنا من لدنه سـلطانا نصيرا ، وان نحيي الحق ونميت الباطل.

تلك كــانت منــاهج الرســالة لتحــدي خطط إبليس ، ونلخصها في خمسة بنـود ، اقامة الفـرائض ، والتهجد في الليل ، والصــدق في جميع المواقف ، والتوكل على الله ، وأخـيرا الثقة بنصـره. وهـذا هو محتـوى رسـالة الله الـتي أوحاها الى عبده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

ولان سورة الإسراء تبين حقائق الوحي الإلهي تحـدثنا عنها في أغلب دروســها ، وضــمن بيــان حقــائق اخــرى تتناسب معها كقضية مكر إبليس الّذي يريد إغواء بني آدم ، فيوفر الله لهم حبل الخلاص برسالاته التي اوحى بها.

بينات من الآيات :

أمامة القرآن هداية وفلاح :

[71] (**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ**)

في ذلك اليــوم يــدعو الله ســبحانه كل امة بامامها ، والامام يعكس قيم أمته ، وهو تجسيد لكل فــرد في الامة ، وهكــذا يجب ان تنبع القيــادة من صــميم الامة ، وتعيش واقعها ، وكل قيــادة لا تنبع من صــميم الامة فانها لا تملك مبرر البقاء لأنها تتنافر طبيعيا مع كل فرد في هـذه الامـة. والامام هو القرآن المـوحى به ، وهو الّـذي يجسد القـرآن ويكـون قرآنا ناطقا فـالفكرة الرسـالية هي القائـدة وانما يمثلها ذلك الامــام النــاطق بها ، ويجب على الإنســان ان يتبع الفكرة قبل ان يتبع الشخص ، وان يعــرف خط القائد قبل شخصه ، فــاذا أردت اتبــاع قيــادة فلا بد ان تعــرف خطها اولا.

جاء في الحديث عن القرآن :

«من جعله امامه قــــاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار»

وكيف يمكن ان تجعل القــــرآن إمامك ، من دون ان تختار قيادته حسب موازينه.

(**فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتــابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**)

هؤلاء الذين اتبعـوا القـرآن يـدعون بـالقرآن ، وبـذلك الامـام الّـذي اتبعـوه باسم القـرآن وصـاروا قرآنـيين : أمّا وانهم صــاروا قرآنــيين ، فــان الله يعطيهم حقهم غــير منقـــوص ، دون ان يظلمهم فــــتيلا ، والفتيل هو الخيط الدقيق في شق نواة التمـرة ، ولعل نهاية الآية تـدل على ان الـوهم الّـذي يبثه الشـيطان في روح اتباعه بـأن عمل الخير لا جزاء له باطل.

وليس معنى هذه الآية ان الله يظلم من لا يؤتى كتابه بيمينه ، بل الله عـــادل ولو يؤاخذ النـــاس بعدله لما نجى أحد من البشر ، ولكن الله سبحانه لا يتعامل مع الناس الا بفضله ، وقد ورد في الـدعاء : «الهي عاملنا بفضـلك ، ولا تؤاخذنا بعدلك ، فانه لا طاقة لنا بعدلك ، ولا نجـاة لنا دون فضــلك» والله ســبحانه لا يظلم النــاس ، ولكن النــاس أنفســهم يظلمــون ، فـاذا عـاقبهم الله في الآخـرة فانما يعاملهم لقاء ظلمهم لأنفسهم.

[72] (**وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**)

غيّر الله سبحانه مسار الحديث ، فبـدل ان يقـول مثلا : «(**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَـهُ بِشِـمالِهِ**) ..» قـال : «(**وَمَنْ كـانَ فِي هــذِهِ أَعْمى**) ..» ولو انه قـــال مثل ذلك لما وضحت صفتهم الرئيسية ، وعلى كل حال فان هناك صفة ممـيزة جعلت بعض النـاس أصـحاب يمين والبعض الآخر أصحاب شمال ، وان ذكر هـذه الصـفة في أحـدهما يعـني وجود عكسها في الآخر ، فصفة أصحاب الشـمال العمى ، فاذا تكون صفة أصحاب اليمين الأبصار ، ولعل العمى في القرآن يرادف اللاوعي.

ان الـوعي في الحيـاة الـدنيا هو ضـمان السـلامة في الآخـــرة ، لان الـــواعي لا يعمل الا وفق تقـــدير وحكمة ، فلـذلك تقل نسـبة اخطائه ومعاصـيه ، ومن لا يمتلك وعيا في الحيـاة الـدنيا يحجـزه عن المعاصي فهو في الآخـرة أعمى عن النظر الى رحمة الله ، وكلمة «أضــــل» اسم تفضيل على وزن افعل اي أشد ضلالا.

ان الله وفر الفرصة للإنســان للهداية ، فـــان هو لم يتقبلها ، وكفر بالله ، وتغافل عن دواعي الهداية في نفسه ، فانه لن يكـون أقل عميا في الآخـرة عما هو عليه في الـــدنيا ، بل هو أضل ســبيلا ، ذلك لان «الجــزاء من جنس العمل» فمن اطفأ شعلة

الهداية في نفسه ، ولم يهتد الى الصـــراط المســـتقيم ، هكـذا تكـون عاقبته ، وهكـذا ينبغي ان يسـعى البشر نحو الهداية في الدنيا حتى لا يحشر أعمى ، ويبدو من الآية ان الشــيطان يســعى من أجل حجب بصــيرة البشر ، وذلك بتضليله الّذي عبرت عنه الآيـات السـابقة ب «**وَاسْـتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ**» وعلى الإنسان ان يتحـداه ولا يخضع لغـــروره ، وان يســـعى نحو أســـباب الهداية ، ويتجاوز العقبات التي وضعها إبليس في طريقـه. ذلك لأنه مسـئول عن إبقـاء بصـره سـليما. ولا يجـوز له ان يسـمح لأحد ان يجعله أعمى.

الرسول يتحدى الضغوط :

[73] وكل إنســان مســئول عن بصــيرته الا يحجبها الشيطان ، وعن هداه الا ينحرف عنه تحت وطأة الضغوط ، وهكذا كان الرسول يتحدى الضغوط التي يمارسها اتبـاع الشيطان لتغيير الرسالة.

والتعبير القـرآني بليغ في بيـان مـدى كثافة الضـغوط التي يتعرض لها صاحب الهداية ، حـتى انها تكـاد تـؤثر في الرجل العظيم الّذي يصفه الامام علي عليه السـلام بقوله :

«**صــــلّ على الـــــدليل إليك في الليل الأليل ، والماسك من أســـبابك بحبل الشـــرف الأطـــول ، والناصع الحسب في ذروة الكاهل الأعبل ، والثـابت القـدم على زحاليفها في الـزمن الاول ، وعلى آله الأخيار**»

يقول ربنا : وهو يشير الى تلك الضغوط :

(**وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ**)

يسـعى الكـافرون والمشـركون ان يفتنـوا الرسـول ، ويبعدوه عما اوحي اليه

بالتشـــكيك ، أو بالارهـــاب ، أو بالضـــغوط الاجتماعية ، والنفسية.

(**لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ**)

ليس فقط يريـــدون ان يبعـــدوك عن رســالتك ، بل يريدون ان تسخّر هذه الرسالة لصالحهم ، لأنهم يفكـرون لو انهم ابعدوك عن دينك ، فانه من الممكن ان ترجع اليه ، ولكن عند ما تفـتري على رسـالتك ، وتكـذب فيها آنئذ ستفهم هذه الرسالة بشكل مشوّه ، وبالتالي سـتبتعد عن دينك ، وهذا ما يفعله الاستعمار اليوم ، حين يصيغ الإسلام كما يريد ، ويحرفه عن مساره ، يحوله الى دين الطقـوس والشـكليات المجـردة بعد ان يفرغه من جـوهره ، ويختـار لذلك بعض ادعياء الدين.

(**وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً**)

إذا كيّفت رسـالتك حسـبما يريـدون فـأنت إذا مخلص لهم وما جـزاء المخلص لهم الا ان ترفع مرتبته عنـدهم ، وهكـذا يجب على الداعية ان لا يتنـازل عن مبادئه في اي ظرف من الظـروف ، وان يضـحي من أجل أداء رسـالات ربه.

[74] (**وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْنـاكَ لَقَـدْ كِـدْتَ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً**)

لـولا اتصـال الرسـول (ص) بينبـوع القـوة ، لكـانت الضغوط تجبره للتنازل عن رسـالته ، وحاشا الرسـول ان يتنازل عن مبادئه ، وينقل الرواة ان سبب النزول هو : ان المشركين جاؤوا الى الرسول وقـالوا له : (كف عن شـتم آلهتنا ، وتسـفيه أحلامنا ، واطـرد هـؤلاء العبيد والسـقاط الذين رائحتهم الصنان (الصنان : نتن الإبط) حتى نجالسك ونسمع منك ، فطمع الرسول في إسلامهم ، فنزلت هـذه الآية ، وجاء في حديث العيـاش عن الصـادق عليه السـلام انه سئل عن هذه الآية فقـال : لما كـان يـوم الفتح اخـرج رســول الله صــلى الله عليه وآله وســلم أصــناما من المسجد وكان منها صنم

على المروة ، وطلبت اليه قريش ان يتركه وكان مسـخا ، فلم يتركه ، ثم امر بكسره فنزلت الآية [1].

ولعل الآية توحي بان الداعية قد يهم لتغيير بعض بنود رسـالته طمعا في إدخـال النـاس في الـدين وهـذا بـدوره خطأ ، والروايتان تشهدان على هذا التفسير.

بالرغم من ان عصمة الرسول التي تـدل عليها الآية (74) بصراحة تشـهد على ان الرسـول لم يعـزم أبـدا على تقديم تنـازل للمشـركين ، ولعله اسـتعرض ذلك في ذهنه كأحد الخيارات المطروحة ، الا انه سرعان ما نبذه بسـبب عصـمة الله له ، وروي عنه انه صـلى الله عليه وآله قـال بعد نـزول الآيـات «اللهم لا تكلـني الى نفسي طرفة عين أبدا» [2]

[75] (**إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ**)

اي لأذقناك ضعف العذاب في الدنيا والآخرة ، ونظـرا لمقام الرسول وعظم مسـئولياته فانه يحاسب بقـدر تلك المســؤوليات فكلما ارتفعت مســئولية الإنســان ، كلما حوسب أكثر بعكس الذين لا يحملون مسئولية كبيرة ، لان انحراف القيادة يعني انحراف قطاع كبير من الامة.

(**ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً**)

هذه الآية هي جواب على الآيـات الاولى (**وَإِنْ كـادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْـرَهُ ، وَإِذاً لَاتَّخَـــذُوكَ خَلِيلاً**) اي لو انحــــرفت فقد تجد من ينصـرك في الـدنيا ، ولكن من الـذي ينصـرك من عـذاب الله.

(1 ، 2) : تفسير الصافي ص 208 ج 3

[76] (**وَإِنْ كـــادُوا لَيَسْـــتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها**)

الإنســـان الـــذي يحمل الرســـالة لا بد ان يضع في اعتباره انه سوف يتعرض للضغوط الاجتماعية ، والمادية ، ومن ضمن هـذه الضـغوط (الإخـراج والتهجـير والمقاطعة الاجتماعية والإيـذاء) ومن يقـرأ ما عـانى رسـول الله من الإيـــذاء لا يمتلك دموعه وخاصة عند ما فقد عمه وزوجته في عام الأحزان ، ولم يجد أحدا يمنع المشـركين عن أذاه ، فاشـتد ايـذاؤهم له ، وتـولى ابو لهب سـيادة قـريش ، ويـزداد أذى له وهو عمه وأقـرب النـاس اليه ، وإذا كـان عمه هكذا فكيف يكون المشركون؟!

ثم بعد ما ضـــاقت عليه الأرض بما رحبت هـــاجر الى الطـــائف ، ولقي من العنت مثلما لقي في مكة ، فـــاذا بصبيانها يدمون رجلي الرسول بالحجارة ، وعند ما تأزمت الأمور أكثر بين الرسول وأهل مكة حـاولوا إخراجه ، ومن ثم تـــآمروا على قتله ، فهـــاجر الى المدينة ليفتح بـــذلك صفحة جديدة أطلت على التاريخ ببوارق الأمل.

«يســـتفزونك» اي يخرجونك وينفرونك ، وهـــذه ثانية خطط إبليس وشياطينه حيث انهم حين يفشلون في تغيير الرسـالة لتوافق مصـالحهم ، ولا أقل لكي لا تضـرها رغم اغرائهم لصاحب الرسول بأنهم سوف يدخلون في دينه لو فعل ذلك ــ أقـول بعد فشـلهم هـذا يتوسـلون بالارهـاب ، ويحاولون طرد صاحب الرسالة ـ من أرضهم.

ونلاحظ ان القرآن أشار الى هاتين الخطتين في الآية (63) حيث قـــال : «**وَاسْـــتَفْزِزْ مَنِ اسْـــتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**».

وكأن السـياق هنا يـذكرنا بفشل إبليس مع نبينا ، وان علينا الا ندعه ينجح معنا أيضا ، أو لســـــنا اتبــــاع ذلك الرسول؟!

(**وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً**)

اي لن يستطيعوا ان يواجهـوك بعد ما يخرجـوك. لعل الآية تشير الى سنة إلهية ، قضاها الرب لعباده : ان رسل الله ، والـذين هم يسـيرون على نهجهم ، أوتـاد الأرض ، فمن دونهم تسـيخ بأهلها ، بهم يحفظ الله العصـاة ان يدمرهم شر تدمير ، فاذا طغى الناس واخرجوا هـؤلاء من بلادهم فان العذاب يصبّ عليهم صـبا. ولو لا ان نبينا (ص) اختار الهجرة الى المدينة لكان أهل مكة يتعرضون لعذاب شـديد ، بل انك تـرى انهم تعرضـوا للقتل والأسر ، وفتح بلدهم لأنهم هموا بإخراج الرسول.

[77] (**سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً**)

سـنة الله لن تتغـير حـتى يـوم القيامة ، فهـذه من الحتميات الالهية ، والتحويل هو تحويل الشيء الى غيره ، وسـنة الله المتمثلة بنصر الرسل ، سـنة ابديّة محتومة ، كما ان الظـروف الطبيعية تحتمها ، لان الكفر يسـير ضد التيـار العـام للطبيعة ، بينما تنتصر رسـالات الله ، لأنها تتحرك باتجاه التيار الطـبيعي للحيـاة ، كما انها تتوافق مع الفطرة.

الصلاة :

[78] كيف يقـاوم المـرء ضـغوط الشـيطان؟ يجيب السياق القرآني عن هذا السؤال بعد ان بيّن خطط إبليس في إغواء بني آدم ، وسـوقهم الى النـار ويتلخص الجـواب في اقامة الصلوات المفروضة ، والتهجد بالليل ، والصـدق في المدخل والمخرج ، والتوكل على الله ، والثقة بنصـره ، فهذه خمسة بـرامج يتحـدى بها المـؤمن مكر الشـيطان وكيده.

[78] (**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ**)

دلوك الشمس اي زوالها ، وسمى الدلوك دلوكا ، لان الإنســان يــدلك عينه عنــده لشــدة شـعاعها انئذ ، وقــال البعض ان الــدلوك هو الميل ، وســمي الــزوال دلوكا لان الشمس تميل عنـده الى جهة المغـرب ، كما ان المغـرب سمي به أيضا لان الشمس تميل الى الغروب.

(**إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ**)

غسق ـ دلجة ـ ظلمة ـ بمعنى واحد وهو شـدة الظلام ، وشموله ، ولعله يتم عند منتصف الليل.

(**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً**)

قرآن الفجر هو صلاة الصبح ، وصلاة الصبح مشـهودة من قبل ملائكة الليل وملائكة النهــار ، لــذلك اســتحب استحبابا مؤكدا صلاة الفجر في أول وقتها.

نلاحظ ان الله ســبحانه حــدد أوقــات الصــلاة بثلاث أوقات بدل ان تكون خمسة أوقات ، نظرا لتقـارب وقـتي الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء.

[79] (**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ**)

نافلة الليل هي الصـلاة غـير المكتوبة ، ولو كتب على المؤمن غير الفرائض الخمس لكان المكتـوب صـلاة الليل لما فيها من الثواب ، ومباهات الله ملائكته بمن يصليها.

التهجد : الســهر لصــلاة الليل ، وأخــذت الكلمة من الهجود وهو النوم ، وكأن المتهجد يغالب نومه.

(**عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً**)

هـذه فائـدة صـلاة الليل والمقـام المحمـود للرسـول الشـفاعة ، وللمؤمـنين درجـات الكمـال ، حيث جـاءت الأحـاديث تؤكد على صـلاة الليل ، وتوضح فوائـدها ، فهي تزيد في الـرزق ، وتزيد في العمر ، وترفع عـذاب القـبر وهي نـور في القـبر ، ونـور يـوم القيامة ، وترفع اسم الإنسان ، وتزيد في بهاء وجهه ، وتزرع الخشية في قلبه ، وتحببه الى إخوانه وعشرات من الفوائد العظيمة.

شفاعة الرسول في أمته :

عن الامـام الصـادق (ع): عن آية «**عَسى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً**» سأله رجل عن قـول الرسـول في تفسـير هـذه الآية «انا سـيد ولد آدم ولا فخـر» قـال (ع) «نعم يأخذ حلقة من بـاب الجنة فيفتحها ، فيخر سـاجدا ، فيقول الله : ارفع رأسك .. اشفع تشفّع ، .. اطلب تعطى فيرفع رأسه ثم يخر سـاجدا ، فيقـول الله : ارفع رأسك .. اشـفع تشـفّع .. اطلب تعطى ، ثم يرفع رأسه فيشـفع فيشفّع ، ويطلب فيعطى».

وفي رواية اخـرى عن الامـام الصـادق (ع) رواها عنه الامـام الكـاظم (ع) : يقـوم النـاس يـوم القيامة مقـدار أربعين يوما ، وتؤمر الشمس فتـنزل على رؤوس العبـاد ، وينجم العرق ، وتؤمر الأرض الا تستقبل من عرقهم شـيئا ، فيذهبون الى آدم فيشفعونه ، فيدلهم على نوح ، يقول : اذهبـوا الى نـوح ، ويـدلهم نـوح الى إبـراهيم ، ويـدلهم إبـراهيم الى موسى ويـدلهم موسى الى عيسى ، ويـدلهم عيسى على محمد ، فيقول : عليكم بمحمد خاتم النبيين ، فيقول محمد (ص) : أنالها ، فينطلق حتى يأتي بـاب الجنة ، فيدق الباب ، ويقال : من هذا؟ فيقـول محمد : افتحـوا ، فاذا فتح الباب ، واستقبل ربه ، فخر ساجدا لا يرفع رأسه حتى يقول الله له : تكلم ، فاسأل تعطى ، واشفع تشفّع ، فيرفع رأسه فيستقبل ربه ، فيخر ساجدا ، فيقال له مثلها ، فيرفع حتى انه ليشـفع من قد حـرّق بالنـار ، (ومـا) أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه

من محمد ، وهو قول الله تعالى : (**عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً**).

وبالرغم من ان الآيات تخاطب النبي صلى الله عليه وآله ، وفسرت في أكثر النصوص المأثورة عن علماء المسلمين جميعا بالشفاعة التي خص بها الرب حبيبه محمدا صلى الله عليه وآله ـ بالرغم من ذلك ـ الا ان القرآن نزل على لغة «إياك اعني واسمعي يا جارة» حسب النصوص المأثورة.

وهكذا نعرف انّ نافلة الليل هي معراج المؤمن الى الكمال ، انها تطهر القلب عن عقده واحقاده ، واهتماماته بصغائر الأمور ، وتوسع الصدر لاستقبال المسؤوليات العظام ، وتشحذ العزيمة لتحدي العقبات ، وتنهض الإرادة الخاملة ، وتعطى النفس قوة دفع ذاتية ، وكل ذلك بفضل القرب الى الرب ، ولعل كلمة «عسى» في هذه الآية كما لفظة لعل في آيات اخرى تذكرنا بان هذه الحقائق ليست مثل الحقائق الفيزيائية التي تقضي بحتميّة النتائج بعد الأسباب ، بل انها حقائق فوق مادية تتبع مشيئة الله ، والله سبحانه لا يتقبل العمل الا بالتقوى والإخلاص ، وهو ينظر الى روح العمل قبل مظهره ، فعلى الإنسان ان يستمر في الاجتهاد ، ويرجو رحمة الله ، فعسى ان يبلغه الله النتائج وبذلك يحرّض القرآن المؤمنين على المزيد من العمل والمزيد من التضرع الى الله ليبلغوا المقام المحمود بفضله.

نصرة الله :

[80] (**وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ**)

الالتزام بالصدق في المواقف ، في كل مدخل ومخرج منها هو أهم واجبات الرسول والرسالي ، ولان الإنسان يحتمل ان يدخل فيما يكرهه الله ، أو يخرج عما يحبه الله ، فهو بحاجة الى حاجز يمنعه عن الانحراف ، وهذا الحاجز انما هو من عند الله سبحانه ، والمراد من هذه الآية : يا رب ادخلني في الأمور إدخالا صادقا ، واخرجني

منها إخراجا صادقا.

(**وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً**)

إذا الـــتزم الإنســـان بالواجبـــات الشـــرعية ، وجسد الشخصــية القرآنية انئذ يصــبح تحت ظلال رحمة الله في الأرض ، فيصـــبح ســـلطانا من قبل الله ، بـــالطبع ليس سلطانا ماديا ، بل ســلطانا ربانيا رحمانيا ، ويبعث الله من ينصره من المؤمنين والملائكة.

إذا أردت ان تكون قائـدا أصـلح نفسك وكن مع الله ، لأنه من كان مع الله كان الله معه.

جاء في وصية الامام الحسن (ع) لجنادة :

«**يا جنــادة من أراد عــزا بلا عشــيرة ، وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله الى عز طاعته**»

ولو عمل المسـلمون بهـذه الآية الكريمة لاغنتهم عما في ايدي أعدائهم ، وهيأت لهم استقلالا اقتصاديا ، وثقافيا ، وسياسيا ، كيف؟

لقد أودع الله في الإنســـان معـــادن لا تنفد ولا تحد ، وسخر له الطبيعة بما أعطـاه من علم وارادة وقـوة. ومن أعظم المـواهب الـتي أتاها الـرب للخلق الطمـوح ، فكل واحد يتطلع الى العظمة ، ويحب الكمـال وهـذا التطلع هو جناح المرء في تحليقه في فضاء التقدم. الا ان الشـيطان يغويه ، ويوجه طموحه في الاتجــاه الخــاطئ ، انه يلـــوي مقـــود ســيارته عن الشـــارع المعبد الــذي يمهــده الجهد الصادق باتجاه الصخور الوعرة ، ويهمس في اذنه هـذا هو طريق المجد ، الكذب ، الغش ، السرقة ، وانتهاب ثروات الآخرين ، واستغلالهم ، أو اسـتجداء العـون منهم ، وهكـذا يخدعه مــرتين حين يسـلب عنه عزيمته ، وحين يخيل اليه ان الآخرين ينفعونه.

اما المؤمن فأنه يعلم ان قوة ساعده ، ونفاذ بصـيرته ، ومضاء عزمه كل أولئك كفيل بتقدمه ، وان رزقه موجود في الطبيعة ، في الأرض التي يزرعها ، في المعادن الـتي يستخرجها ويسـخرها ، وبالتـالي في التعامل الشـريف مع الناس.

وهكذا يبني بناءه على الصدق ، فـان دخل في عمل ، في مشـروع ، في حركة ، في شـركة ، دخل بنية صـادقة فلم يدخل ليسـتغل جهد الآخـرين ، ولا ليسـتريح من بـذل الجهد ، ثم لا يخرج الا بصدق فيكمل مسيرته حـتى النهاية ، ويتم عمله بأحسن وجه دون ان يخدعه الشـــــــيطان ، فيدفعه لترك العمل. متى ما رأى فيه صعوبة.

ولعل صدق العمل في المدخل والمخـرج هو التحـدي المناسب لخطة إبليس في مشـــاركة الأمـــوال والأولاد ، حيث قال الله سبحانه في آية مضت بينت مكر إبليس في تضليل البشر قـال : «**وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْـوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً**».

إذ ان صـدق المـؤمن لا يـدع مجـالا لمشـاركة إبليس الذي يهدف إفساد الاقتصاد والتربية ، وكيف يفسد اقتصاد قـوم لا يـأكلون الحـرام ، ولا يسـرقون جهد بعضـهم ، ولا يتعاملون بغش ، أو تطفيف ، أو تغرير ، أو كذب!

ونستوحي من تواصل بداية الآية وخاتمتها ان الصـدق في الـدخول والخـروج وسـيلة لـنزول نصر الله ، وبلـوغ القوة (السلطان) والعزة (النصر).

والصـدق في البداية هو خلـوص العمل ، بينما الـدعاء في الخاتمة هو التوكل وهما العمل الصـادق والتوكل على الله يتكاملان فلا توكل من دون عمل ، ولا ينفع العمل من دون التوكل.

[81] (**وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِـلَ كانَ زَهُوقاً**)

سبب ارتفاع الباطل هو خفـوت نـور الحق وتقوقعه ، ومتى ما وجد الحق غاب الباطل.

وهذه الآية تعطي الثقة بالمستقبل ولعلها تعالج غـرور الشيطان الذي أشير اليه ، وقول ربنا سـبحانه : (**وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً**) فبينما الشيطان يخدع الإنسان ، ويمنيه بالمستقبل كذبا ، فان الله سبحانه يعـده صـادقا ، إذ انه يبشـره بـان العاقبة للمتقين ، وان الحق منتصر وان الباطل كان زهوقا.

وهكذا يقاوم المؤمن كل مكر شيطاني بخطة رشـيدة ، وعمل مبارك :

1 ـ يتحدى صوته المضلل ببصائر الوحي.

2 ـ خيله ورجله وبالتالي ارهابه بالصلاة والتهجد.

3 ـ 4 ـ مشـاركته في الأمـوال والأولاد بالصـدق والتوكل.

5 ـ وعـوده وغـروره بالثقة بوعد الله والأمل في المستقبل.

عاذنا الله من شر الشيطان وكيده ومكره.

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيــــدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَســــاراً (82) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَـأى بِجانِبِـهِ وَإِذا مَسَّـهُ الشَّـرُّ كـانَ يَؤُساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شـاكِلَتِهِ فَـرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُـلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْــرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85) وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِـدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْــلَهُ كــانَ عَلَيْــكَ كَبِـيراً (87) قُــلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كـانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِـيراً (88) وَلَقَـدْ صَـرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هـذَا الْقُـرْآنِ مِنْ كُـلِّ مَثَـلٍ فَـأَبى أَكْثَـرُ النَّاسِ

---

88 [ظهيرا] : الظهير المعين وأصله من الظهر.

إِلاَّ كُفُوراً (89) وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (93)

---

92 [كسفا] : وهي جمع كسفة بمعنى القطعة.
[قبيلا] : مقابلة وعيانا.

القرآن بلسم الحياة وشفاء الإنسان

هدى من الآيات :

يبدو أن آيات هذا الـدرس تـتركز في بيـان الموضـوع الرئيسي لسورة الإسـراء ، وهو الـوحي ، وتعـالج الموقف السلبي الذي اتخذه الكفار من القرآن.

كلما نــزلت آية من القــرآن كــانت شــفاء عن داء ، ورحمة للمؤمنين ، بينما الظـالمون لا تزيـدهم الا خسـارا. لماذا؟

لان الإنسـان يتكل على النعم ، ويغـتر بها ، فـاذا أنعم الله عليه بنعمة اعـــرض عن ربه واســـتكبر ، فلما زالت النعمة عنه اســتبد به اليــأس ، ولعل هــذا أعظم ســبب للجحـــود والكفر بـــالقرآن ، كما يظهر من خاتمة هـــذا الدرس.

وكل إنســان يعمل حسب ما بــنيت شخصــيته عليه ، والله اعلم بمن هو أهـدى سـبيلا ، ولعل هـذا هو السـبب الثاني الذي يجعل الكفار يخسرون نعمة القرآن ، ولا

يستفيدون منه ، لا شفاء ولا رحمة.

والـوحي نعمة من الله وليس من الرسـول نفسه ولو شـاء الله لـذهب به دون أن يقـدر أحد على المطالبة به ، وانه لرحمة من الله ، وفضل عظيم ، ولعل زعمهم بـــان الوحي من الرسول سبب ثالث لكفرهم وهو معجز لأنه لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يقدرون على ذلك حتى ولو تعاون بعضهم مع البعض الآخر.

وهو يحتـوي على امثلة الحيـاة الـتي لو سـاروا عليها لاهتدوا ولكن أكثر النـاس يكفـرون بهـذه النعمة ، وتـراهم يطـالبون الرسـول بـأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا حـتى يؤمنوا به ، أو تكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهـار خلالها تفجيرا.

وقد يطالبونه بالعـذاب كـأن يسـقط السـماء عليهم كسفا ، أو يأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يقولون له لو كان لك بيت من زخرف ، أو رقيت الى السماء ، وأنزلت معك كتابا نقرؤه لآمنّا بك وهم يغفلـون عن حقيقة هامة هي ان الرســول بشر مثلهم يـوحى اليه ، وان القــرآن ليس منه انما هو من الله سبحانه.

بينات من الآيات :

شفاء القرآن :

[82] القـــرآن شـــفاء ورحمة ، شـــفاء يطهر القلب والبـدن والمجتمع من الجـراثيم ، ورحمة تنمي فيها الخـير والفضيلة.

(**وَنُنَــزِّلُ مِنَ الْقُــرْآنِ ما هُــوَ شِــفاءٌ وَرَحْمَــةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

كل القـرآن شـفاء الأمـراض ، وبعض القـرآن شـفاء لـذلك المـرض الـذي جـاء من أجل شـفائه ، ولان القـرآن نزّل حسب الظروف تنزيلا فقد كانت آياته شفاء

للامراض التي نزلت لعلاجها ، ولعل كلمة «من» تدل على ذلك.

والسـؤال هنا هو : كيف يكـون القـرآن شـفاء ورحمة للمؤمنين؟

اختلف المفسرون حول معنى الشفاء وابعاده ، ولكن الشفاء المقصود به هنا هو :

شفاء عام لكل جوانب الحياة.

القرآن شفاء القلب والمجتمع والبدن :

أولا : بين الإنســان ومعرفة الحقــائق حجب متراكمة من ضــغوط الشــهوة ، وعقد النفس ، وقيــود المجتمع ، وتخلص الإنسان من هذه الحجب لا يكون الا بإثارة دفـائن عقله ، وهزة ضميره ، والقـرآن يقـوم بهـذا الـدور ، إذ انه كالصاعق الكهربائي الذي يهز ضمير الإنسان ووجدانه من الصميم ، فيتحرك العقل من الداخل ليخترق حجب الجهل والضلال ، والغرور هو أعظم حاجز بين الإنســان والحقيقة ، لـذلك تصب هـذه الآيـات حمم الإنـذار من خلال تصـوير مشـــــاهد يــــوم القيامة ، وهلاك الســــابقين ، ليقطع الاسترسال في الغفلة وأحلام اليقظة ، وفي هـذا السـبيل يضع شرائع مفصلة لتنمية المواهب الخيرة في القلب بعد تطهــــيره من امــــراض الاســـتكبار ، والحسد ، والحقد ، والعجب ، والغرور و.. و..

إذ القرآن يعـالج تفكـير الإنسـان لئلا يقع في الاخطـاء المنهجية لفهم الحقــــائق ، وذلك عــــبر تقديمه للمنهج الصحيح.

ثانيا : والقــرآن الحكيم شــفاء للامــراض الاجتماعية حيث يعطينا برنامجا في الاقتصــــاد ، والسياسة والتربية ، والاســرة لنحل به جميع المشــاكل ، ولا يــدع شــاردة أو واردة بلا حكم واضح.

ثالثا : ويقدم القرآن لنا نصـائح توجيهية للحفـاظ على الجسد ، فهو يؤكد على ضــــرورة الطهـــــارة والنظافة ، وضرورة العمل ، ورفع الكسل والتواني ، وينظم للإنسـان حياته الاجتماعية ، والاقتصـادية ، وغيرها ليجنبه الأمـراض الروحية والجسدية.

ونحن عند أصابتنا باي مرض في اي مجال نحتـاج الى التسـلح بـالإرادة والحيوية ، وحينما تخلص نيتك لله ، فانه سيمن عليك بشفائه من حيث تعرف أو لا تعرف.

وهكذا جـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق عليه الســلام «إنما الشـــفاء في علم القـــرآن» لقوله : «**وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُـرْآنِ ما هُـوَ شِـفاءٌ وَرَحْمَـةٌ**» لأهله لا شك فيه ولا مريه ، واهله أئمة الهدي الذين قال الله «**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا**» [1].

وجاء في حديث آخر ، مأثور عن الامام الباقر (ع):

«**ما اشــتكى أحد من المؤمـــنين شـــكاية قط ، وقال : بإخلاص نية ومسح موضع العلة**»

«**وَنُنَــزِّلُ مِنَ الْقُــرْآنِ ما هُــوَ شِــفاءٌ وَرَحْمَــةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسـاراً**» الا عـوفي من تلك العلة ، أية علة كـــانت ، ومصـــداق ذلك في الآية حيث يقول : «**شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**» [2]

السعادة وأبعادها :

للسعادة جزءان الاول : (رفع النقمـة) وهو الشـفاء و (جلب النعمـــة) وهو الرحمة ، ويعـــني رفع الألم والفقر والمرض ، ومنع حدوث الفتن والحروب وما شابه.

---

(1) تفسير الصافي ج 3 ص 213
(2) المصدر

اما الجزء الثاني للسعادة فهو : السـكينة والاطمئنـان ببلوغ الإنسان غاياته. وهكذا كان القرآن شفاء ورحمة.

(**وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً**)

ان في القرآن منهاجك الـذي يصل بك الى اهـدافك ، ولكن لا يســتفيد من هــذا المنهج الا المؤمنــون الــذين يطبقون القرآن بوعي واستقامة وإخلاص ، اما الظـالمون الذين يغيرون معاني آيات القـرآن حسب مصـالحهم فـان القرآن سيكون لهم شقاء في الدنيا ، وخسارة في الآخرة ، فهو لا يـدع مناسـبة الا ذمّ فيها هـؤلاء الظـالمين بـائعي الحق ، وعبدة الشيطان والهوى ، ونتساءل : لمـاذا خصت الآية الظالمين بالذكر والجواب :

أولا : ان الظلم ظلام القلب ، وحجاب وظلمـات يـوم القيامة.

ثانيا : لان الظــــالم يفسق عن حــــدود الله ، ويعبد شهواته فانه يفسر آيات القـرآن حسب اهوائه ، وبـدل ان تدله آيــات الــذكر على صــراط الجنة تهدية الى ســواء الجحيم ، لأنه هو الذي حرفها ، وغـير معانيها ويكـون مثله كمثل الـذي يغـير علامـات الطريق ، فتضـله عن الجـادة ، ولو لم يتبع هواه إذا لاهتدى الى الجادة.

[83] كيف لا ينتفع الظالمون من القرآن الا خسارا؟

يبدو ان السياق يجيب عن ذلك في الآيتين التـاليتين ، حيث ان الآية الاولى تبين طبيعة الإنسـان والـتي لا تقضي اســتقبال النعم ، والانتفــاع بها اما الآية الثانية فتوضح اثر العادة في سلوك البشر وحيث ان ما تعود عليه الظالمون وهم سـائر النـاس غـير المؤمـنين من الـذين انـزل عليهم القرآن فلم يستجيبوا له أقول : ان سائر النـاس قد جبلـوا على الاعراض عند النعم ، كما انهم يعملون على الشـاكلة التي ساروا عليها سابقا ،

فلا يتركونها بسهولة الى القرآن ، بلى المؤمنـون وحـدهم يتجاوزون هذه الحالة ، ويرتفعون الى مستوى الايمان.

(**وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ**)

قـالوا : بـان معـنى الآية انه يعـرض عن ذكر ربه عند النعمة ، ويبطر بها ويتـولى ، فالآية حسب قـولهم نظـير قوله تعالى : (**إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً**).

ولعل الأقـرب الى السـياق أن نقـول : ان هـذه الآية تبين صفة اخرى للإنسـان وهي الاسـتهانة بـالنعم ، وعـدم الاستفادة منها ، وعدم تقديرها حق قدرها ، والاعراض هنا عن النعم ذاتها وليس عن الله ، بلى ان الاعراض عن الله وعن نعمه ينبع من صفة واحدة ، ذلك لان من يعـرض عن ربه ولا يشـكر نعمه ، ويـزعم انما اوتي النعم بعلمه وجهوده ، بل يـرى ان النعم جـزء من ذاته ، وان له طبيعة مميزة عن غيره بدليل انه خص دون غيره بالنعم فعنصره أفضل من سائر الناس.

أقول ان مثل هذا الفرد يستهين أيضا بـالنعم ويعـرض عنها ، وبالتـالي فـان هـاتين الصـفتين تنتهيـان الى طبيعة واحدة.

ولان الإنسـان يعـرض عن النعمة ، ويتعـالى عليها ، ويتولى بركنه ، وينأى بجانبه ، فانه لا ينتفع بالقرآن الحكيم ، ولا يكـون القـرآن بالنسـبة اليه شـفاء ، وهـذا أكـبر ظلم ذاتيّ ان يترك المرء الاستفادة من أكبر النعم استهانة بها.

بلى يبذل المؤمن جهدا كبـيرا حـتى يسـتفيد من نعمة الـوحي ، لأنه يتواضع له ، ويسـمع ويطيع ويقنت لله بخضوعه لكتابه ، فيكون الكتـاب شـفاء له ، وهكـذا سـائر النعم في الحياة.

أو ليس العلم نعمة ، ولكن من الـــذي ينتفع به ، هل الـذي يسـتهين به أو يتعـالى عليه أم الـذي يقـدره ويكـرم مقامه.

وحــتى الثمــرة الناضــجة لا ينتفع بها الا من يقطفها وينظفها ثم يطعمها ، اما من يتــولى عنها فهل يســتفيد منها؟!

(**وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً**)

لان الإنسان يرى النعم من ذاته فانه يرى اســتمرارها ، فيتكّل عليها ، فـاذا زالت تصـيبه الصـدمة وينهـار لأنه قد سقط متكأه ومعتمده ، وهكذا يستبد به اليأس.

أما المـؤمن فيشـافيه الله بـالقرآن الـذي يكمل هـذا النقص من طبيعة الإنســــان ، ويجعله يعتمد على الله ، ويلهمه الصبر والأمل.

الشخصية ونهج العمل :

[84] ويختلف النـاس في مـدى انتفـاعهم بـالوحي ، وينبع الاختلاف من شخصــياتهم الداخلية ، الــتي تكــون بالصفات والعادات المتباينة.

وبــالرغم من ان الله قد وهب للإنســان من القــدرة والمعرفة ما يمكنه من صياغة شخصيته حسب ما يشـاء ، الا انه لو لم يفعل ذلك فســوف يقـاد بلجـام شخصــيته ، وسـتكون اعماله في تجـاه شخصـيته ، حـتى مواقفه من المعارف الالهية سـوف تتـأثر بنـوع شخصـيته ، وصـفاته ، وعاداته ، وملكاته.

(**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ**)

الشاكلة مشتقة من كلمة (الشكل) وهو الجـام الدابة ، والشكل لجام الدابة ،

ويبدو ان المعنى المناسب لهـذه الكلمة بـالنظر الى أصل معناها اللغـوي وسـياق ذكرها هنا هو الطريقة والمـذهب ، أو الطبيعة أو الخلقة ، فيكـــون معـــنى الآية كل شـــخص يعمل حسب طريقته وطبيعته ، وبالتالي فـان مظهر عمله ينبئ عن مخبر ضميره ونيته ، وهكذا تكون اعمـال النـاس تعبيرا عن طرائقهم ، ومذاهبهم ، وطبـائعهم ، وعـاداتهم ، وعلينا ان نكتشف من خلالها نيّاتهم ، ونصبغ أعمالهم بها.

من هنا جاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق (ع) :

«**النية أفضل من العمـــــــــل. الا وان النية هي العمل**».

ثم تلا «(**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ**)».

وقد تكـون الأعمـال متشـابهة الا ان اختلاف النيـات ، وشخصـيات العـاملين ، واهـداف العمل يجعلها متناقضة ، فالصــلاة والصــيام والحج قد يقــوم بها المخلص فتكــون معراجا وجنة وجهادا أكبر ، وقد يقوم بها المـرائي فتكـون وبالا على صاحبها.

والله سبحانه وتعالى هو الحكم الـذي يقضي بسـلامة النية أو الغلّ فيها.

(**فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً**)

وإذا كنت تحب عملا ، أو تهوى طريقة أو تعودت على سـلوك ومـذهب فلا يعـني ان كل ذلك حق ، بل مقيـاس الحق والباطل هو الله الذي اوحى بالكتاب ليكون فرقانا ، ويهـدينا الى سـبل السـلام ، فلا تـزك نفسك ، ولا تجعلها مقياس الحق والباطل.

(**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**) :

[85] من انــــزل القــــرآن من عند الله على قلب الرسول؟ ومن يسدد الأنبياء ويؤيدهم بإذن الله؟

أو ليس هو الروح الذي قال عنه ربنا سـبحانه وتعـالى :

«**نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**» (193 / الشعراء)

فما هو الروح ومن أين يأتي ومن يسوقه؟

(**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**)

وهذا الروح ملك من ملائكة الله ، مخلوق مدبر ، وهو الذي ينزل في ليلة القدر حيث يقول ربنا سبحانه.

«**تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها**» وهو الذي يسدد الله به الأنبيـاء وهو أعظم من جبرئيل وميكائيل ، وكـذلك جـاء في الأحاديث وأضاف بعضها :

«**له ســـبعون الف وجه لكل وجه ســـبعون الف لسان يسبح الله بجميع ذلك**» [1]

ويرى بعض المفسرين ان الروح هنا هو روح الإنسـان ، والكائنات الحية ، بيد ان سياق الآية يدل على ان المـراد منه هو روح القدس ، أو ليس الحديث لا يزال عن القرآن وهو الـذي نـزل به الـروح الأمين ، بلى لا يمكننا ان نقـول روح الإنســـان ، وجميع الأحيـــاء بل حـــتى أرواح الملائكة تقتبس الحيـــاة من ذلك الـــروح ، والـــروح واســـطة بين الإنسان والحياة ، وهناك العقل هو ظل من ظلال الروح ، والعلم الانساني جزء من علم الـروح ، ذلك الملك العظيم ، وهكذا اختلفت الأحاديث المأثورة عن مصادر الوحي في معـنى الـروح هنا ، فبينما نجد بعضـها يؤكد على انه الملك العظيم ، يقول : بعضـها بأنه روح الإنسـان ، والواقع انهما معا من مشكاة واحد ، تعال نقرأ معا بعض تلك النصــوص :

---

(1) راجع كتاب نور الثقلين ج 3 ص (215 / 219)

1 ـ يـروي حمـران عن أبي جعفر (البـاقر) وأبي عبد الله (الصـــادق) عليهما السـلام بعد الســؤال عن قوله يسألونك عن الروح. قالا : «**ان الله تبارك وتعـالى أحد صمد ، والصمد الشـيء الـذي ليس له جـوف ، فانما الـروح خلق من خلقه (لـه) بصر وقـوة وتأييد يجعله في قلوب المؤمنين والرسل**»

2 ـ وروى ابو بصير عن أحدهما الباقر أو الصـادق (ع) قـال : سـألته عن قوله : «**وَيَسْـئَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُـلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**» ما الروح؟

قـال : «الـتي في الـدواب والنـاس» قلت : وما هي؟ قال : «هي من الملكوت ، من القدرة»

3 ـ روى ابو بصير أيضا قال : ســألت أبا عبد الله (ع) عن قوله الله عز وجل «**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**» قـال : «خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل ، كان مع رسول الله ، وهو مع الائمة وهو من الملكـوت» .[1]

وهكذا نجد الروح من الملكوت ، سواء الذي يؤيد الله به الرسول أو الـذي يحـيي به الله البشر والأحيـاء ، إلّا ان الله يعطي منه لمن يشاء كيف يشاء بقدر ما يشــاء ، وهو اعلم بحقيقته لذلك قال ربنا :

(**وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**)

[86] (**وَلَئِنْ شِئْنا لَنَـذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْـكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً**)

ان القرآن ليس من صنع الرسول ولا غيره من البشر ، انما اوحي اليه عن طريق

---

(1) المصدر

الـروح ، والـدليل على ذلك : ان باسـتطاعة ربنا سـبحانه أخذ هذا الوحي من نبيه ، ولا يستطيع النبي ان يفعل شيئا ، وهذا دليل على قدرة الله.

[87] (**إِلَّا رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْـلَهُ كـانَ عَلَيْـكَ كَبِيراً**)

ومن رحمة الله بعباده تنزيله الوحي عـبر الـروح على رسـوله ، وهـذه هي أكـبر النعم على امة الرسـول حيث يتبعـــون منهاجه ويستضـــيئون بقبســـات هديه ، والعقل والعلم ظلال لتلك الروح ومثل هذه الـروح لا تقهر ، ومثل هذا القرآن لا يهزم.

القرآن يتحدى :

[88] (**قُــلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَـأْتُوا بِمِثْـلِ هـذَا الْقُـرْآنِ لا يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كـانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**)

لو قام جميع سكان المعمورة بالاجتماع من أجل صنع آية كآيات القرآن لما استطاعوا ذلك ، والقصص التاريخية كثيرة في هذا المجـال ، فـذات مـرة اجتمع ثلاثة من كبـار بلغـاء العـرب وزنـادقتهم وفيهم ابن أبي العوجـاء الملحد المعروف ، وقرروا في اجتماعهم تأليف آيات بضاهون بها القـرآن ، وطـال بحثهم لمـدة سـنة كاملة فما رجعـوا الا بالخيبة والخسران ، وها هو القرآن بعد أكـثر من (1400) عام يتحدى الغرب والشرق ، فهل من منافس؟! كلا.

[89] (**وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هـذَا الْقُـرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**)

ومن معـــاجز القـــرآن انه يحـــدثنا عن كل شـــيء ، ويضـــرب لنا الامثلة في كل ناحية ، لـــذلك كـــان القـــرآن واقعي التشـريع ، صـحيح المنهج ، فواضـعه علّام الغيـوب الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

(**فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً**)
فبدل شكر النعم تراهم يكفرون بها ، لماذا؟
لان منطلق الناس في تقييم القرآن هو منطلق مادي بحت ، وهم يظنــون ان القــرآن يجب ان يــوزن بمقــدار الـذهب ، ومكاييل الفضة ، ومسـاحات العقـار ، وهـذا هو نمط تفكيرهم المنحرف.

حوار العاجزين :

[90] (**وَقـالُوا لَنْ نُـؤْمِنَ لَـكَ حَتَّى تَفْجُـرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً**)
يبــدأ المعارضــون في طــرح افكــارهم التبريرية ، وشـــــــروطهم التعجيزية في محاولة يائسة للتنصل من مسـئوليات الايمـان بالرسـالة ، فبـدل أن يسـألوا عن تطلعـات الرسـالة وبرامجها في الحيـاة يطلبـون من الرسول ان يفجر لهم ينبوعا من الماء ، وما قيمة الينبـوع امام منهج الحياة ، وتنظيم السلوك والمجتمع؟!
[91] (**أَوْ تَكُونَ لَـكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيـلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً**)
وهنا تتجلى بوضـوح مادية النمط التفكـيري للكفـار ، فهم يطـالبون بالمـاء والنخيل والجنـات والأنهـار لتكـون شواهد على صدق الرسـالة ، ولكن السـؤال الـذي يطـرح على أمثـال هـؤلاء هو : مـاذا يعـني تفجر الينـابيع بالنسـبة للرسالة؟ وما علاقة مبدأ الرسالة واحقيتها بهذه المطالب المادية؟ وهل تصلح هـذه لكي تكـون شـواهد صـدق على عصمة الرسالة وعظمتها؟
[92] (**أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ**

وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً).
ويستمر السفه الفكري ، والخواء الثقـافي النـابع من المنطلقــات المادية للمجتمعــات الكــافرة ، فهم تــارة يطلبون ينابيع الماء ، وفي اخرى يطالبون بالجنات والأنهار ، ويبلغ بهم الســفه حــدّا يطــالبون بحضــور الله وملائكته عنــدهم ليتأكــدوا من صــدق الرســالة (!!) انهم قــوم لا يؤمنون الا بالمحسوس ، وأما غـير ذلك فهم به كـافرون ، والقــرآن يــدعوهم لإثــارة عقــولهم ، والتخلي عن هــذه المنطلقات السخيفة في تقييم الأفكار وابعاد الحياة.
[93] (**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّـماءِ وَلَنْ نُـؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَـزِّلَ عَلَيْنا كِتابـاً نَقْرَؤُهُ**)
ومن مقومات الرسالة والرسـول عند أمثـال هـؤلاء : امتلاك الوســائل المعيشــية كــالبيت الجميل ، والمكانة الاجتماعية الرفيعة ، والكلمة النافــذة ، وان يكــون فــوق البشر انطلاقا من نظرتهم المادية القاصرة ، وهم يطلبون صعود الرسول للسماء ، وأخذ رسـالة من الله مكتوبة في ورقة.
ان كل رســــــالة ان لم تكن مختومة بختم الواقع ، ومدموغة بدمغة الحق الالهي هي باطلة بلا جـدال ، وهـذا هو المعيار الحق لتقييم الرسالات وليست تلك المنطلقات الهزيلة.
(**قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً**)
ان مشــكلة النــاس هي وقــوفهم عند نقطة بشــرية الرســول ، واختلاط المقــدمات بالنتــائج في شــكل غــير صحيح في تقييمهم للرسالة مما يـؤدي الى نشـوء معـايير ومقـاييس غـير سـليمة ، فمصـدر الرسـالة هو الله واليه المرجع والمصير ، وما الرسول الا بشير ونذير ،

يبلغ رســالات الله ، وامــره ونواهيه ، قد تم اختيــاره من البشر ، ومن مجتمعة بالـــذات لاعتبـــارات ذاتية واقعية ، واخــرى نفســية ، واجتماعية وغيرها مما لا يلم به الا علم الله الواسع.

وَما مَنَـعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُـوا إِذْ جـاءَهُمُ الْهُـدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً (94) قُـلْ لَـوْ كـانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَــةٌ يَمْشُــونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّـماءِ مَلَكـاً رَسُـولاً (95) قُـلْ كَفى بِاللـهِ شَـهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِــيراً (96) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (97) ذلِكَ جَـزاؤُهُمْ بِـأَنَّهُمْ كَفَـرُوا بِآياتِنا وَقـالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتـاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُـونَ خَلْقـاً جَدِيـداً (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

---

97 [خبت] : الخبو سكون النار عن الالتهاب.

وَجَعَــلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيــهِ فَــأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُـونَ خَـزائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكـانَ الْإِنْسـانُ قَتُـوراً (100) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقـالَ لَـهُ فِرْعَـوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْـحُوراً (101) قـالَ لَقَـدْ عَلِمْتَ ما أَنْـزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَـوْنُ مَثْبُـوراً (102) فَـأَرادَ أَنْ يَسْـتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَـهُ جَمِيعـاً (103) وَقُلْنا مِنْ بَعْـدِهِ لِبَنِي إِسْـرائِيلَ اسْـكُنُوا الْأَرْضَ فَـإِذا جـاءَ وَعْـدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104)

---

100 [قتورا] : القتر التضييق وهي مبالغة في البخل.
102 [مثبورا] : هالكا.
104 [لفيفا] : اللفيف الجماعات ، والمعنى قد لفّ بعضكم في بعض.

التكذيب أسبابه ونتائجه

هدى من الآيات :

ما الذي منع الناس عن الايمان برسالات اللــه؟ يجيب القرآن عن هذا السؤال ويعالجه.

أولا : تسـاءلوا مسـتغربين ومنكـرين ابعث الله بشـرا رسـولا ، وأجـابهم الـوحي بلى ، أو ليس النـبي ينبغي ان يكون من جنس من يرسل إليهم ، فلو كان سـكان الأرض ملائكة إذا كان رسولهم ملكا مثلهم.

ثانيا : ان الله هو الـذي يشـهد على صـدق الرسـالة وكفى به شـهيدا ، وان عليه الهـدى ، اما من يضـلله فلن تجد لهم أوليــاء لأنهم سيحشــرون على وجــوههم عميا ، وصما ، وبكما ، وجزاؤهم جهنم لماذا؟ لأنهم كفـروا بآيـات الله ، وأنكروا البعث والنشور.

نســتوحي من الســياق ان معالجة الكفر بالرســالات تكون بالتذكرة بالجزاء الموفور

الـذي ينتظر الكفـار في يـوم القيامة وهكـذا نجد القـرآن يـدفع هنا شـبهة الكفـار حـول البعث ، ويتسـاءل أو ليس خالق السماوات والأرض قادر على ان يخلق مثلهم.

وبعد ان يبيّن طبيعة الشح عند الإنسان (ولعلها سـبب من أســباب الكفر بالرســالات) يــبين قصة موسى كيف واجه فرعـــون الـــذي قـــال : (**إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً**) ، فأجابه ان الـوحي بصـائر ، وقـال له : «**إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً**» ولخصت هـذه القصة كثـيرا من حقـائق سـورة الإسـراء حيث أراد فرعـون اسـتفزاز موسى وقومه فاغرقه الله ومن معه جميعا ، وأورث بـني إسرائيل أرضهم الى أجل محدود.

بينات من الآيات :

من أهم الموانع الـتي تصد طائفة كبـيرة من النـاس عن الايمان بالرسالات شبهة عميقة الجذور تقـول : لمـاذا الرسل بشر ، ولعلها تعود الى احساسين شاذين :

أـ استصـغار الإنسـان نفسه مقارنة مع ما في عـالم الطبيعة من عجـــائب خلق الله ، ولـــذلك يـــزعم ان الله ســبحانه وتعــالى أعظم من ان يتصل بالإنســان بصــورة مباشرة أو يبعث من البشر رسولا!

ب ـ عدم معرفة الوسيلة الـتي يتم عبرها اتصـال الله باهل الأرض ، فهل يـــنزل من الســـماء ملك الى الأرض؟ من هو اذن؟ وكيف يكون؟

وقبل كل شيء لا بد ان نعرف :

ان التعجب نـــوع من الجهل وانه ســـيكون حجابا بين المرء والحقيقة ، وان الكثير من الناس يكـذبون بالحقـائق لاســـتغرابهم منها ، وعـــدم احاطة علمهم بابعادها ، كما يقـول ربنا «**بَـلْ كَـذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُـوا بِعِلْمِـهِ**» كـذلك يؤكد ربنا بان سنة الله قضت بان يرسل الرسل من نفس جنس المرسل إليهم ، ولو كان سكان الأرض ملائكة إذا

لبعث منهم رسولا إليهم.

[94] (**وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً**)

ان الحجاب الذي حجب الناس عن الايمان برسالات الله هو عدم تصديقهم بهذه الحقيقة : ان يبعث الله بشرا رسولا ، وكأن الرسالة مرتبة عالية لا يمكن ان يصل إليها بشر أو كأن اتصال الغيب بالشهود محال.

[95] (**قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً**)

لو كان سكان الأرض ملائكة لبعثنا إليهم رسولا منهم ومن جنسهم ، وهكذا فان الرسول ، اي رسول هو من نفس القوم الذي بعث إليهم قال ربنا سبحانه : «**رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**» «**بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ**» «**وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً**» «**كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ**».

وهناك تفسير آخر لهذه الآية يقول : ان ربنا سبحانه وتعالى يذكر بان من طبيعة الإنسان حاجته للتذكير ، لأن مادته ترابية تجذبه نحو الشهوات ، كما ان فيه ومضة روحية ترفعه نحو القيم لذلك فهو بحاجة الى عامل خارجي يقوي شعوره بالومضة الروحية حتى يعلوا ، فكانت هذه حاجته الى الرسالة : ولو خلق الله الملائكة كما خلق الإنسان من طبيعة ترابية تقوم بالفساد كما قالت الملائكة «**أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها**» إذا لبعث الله إليهم رسولا ملكا منهم ، وهذا التفسير يتبناه العلامة الطباطبائي رحمة الله عليه ، ويستدل على ذلك بكلمة «**يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ**» دلالة على جاذبية الأرض للإنسان التي تسبغ على حركته فوق الأرض طمأنينة وتوازنا ولولاها لصعد في الهواء ، أو لاضطرب في مشيه وحركته.

شهادة الله :

[96] (**قُـلْ كَفى بِاللـهِ شَـهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**)

تلك كانت شبهات تحول بين تصديق الناس للرسالات ، ولكن صـدق الرسـالات يتجلى عـبر عـدة مظـاهر جعلها الله شواهد على صدق الرسالة ، وكفى بالله شهيدا.

أولا : لقد أودع الله في عقل الإنســـان مجموعة قيم وتعـاليم ترشـده الى الحق ، والرسـالات السـماوية حين تـأتي للبشـرية تـدعو الإنسـان الى ذات القيم والتعـاليم وهكذا يطمئن الإنسان الى صدق تعاليم الرسـالة وقيمها ، لانطباقها على القيم والتعـــاليم الـــتي يحملها في نفسه ، وفي ذلك يقول رسول الله (ص):

«**ان لكل حق حقيقة ، وعلى كل صواب نورا**»

وذات مرة جاء رجل الى النبي (ص) وقال : يا رسول الله اني أعيش في الصـــحراء ولا أملك من يهـــديني ولا أستطيع ان آتي إليك باستمرار فعظني فأمره رسـول الله (ص) ان يـــدنو منه حـــتى إذا وصل بمحاذاته وضع النـــبي الأكـرم (ص) يـده على قلب الرجل وقـال : «ما أمـرك به هـذا فأفعله ، وما نهـاك عنه فانتـه» وهـذه شـهادة باننا لو تجردنا من الضغوط والأهواء والعادات والأفكار المسبقة ، لرأينا بوضوح انطباق تعاليم القرآن مع التعاليم التي تكنّها عقولنا وفطرتنا.

ثانيا : رغم كل الصـــعوبات والعراقيل الـــتي وضـــعها أعداء الرسالة ولا يزالون نجد ان الإسلام قد اجتاح الأرض كلها ، ولو لا تأييد الله سبحانه للمسلمين في حـروب بـدر وحنين والأحـزاب وغيرها إذا لانـدحر الإسـلام والمسـلمين منذ البداية ، ولو

لا نصرته لعباده في حطين وعين جالوت لانطفأت شــمعة الإسلام ، ولو لا تأييده للمؤمنين في إيران على الشاه لما انتعش الأمل بتحقيق وعد الله «**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْمُشْــرِكُونَ**» واســتمرار التأييد الغيــبي لدينه دليل على صدق النبي وصـدق رسـالته ، وما أكـثر الشـواهد الغيبية ، والألطاف الخفية والظاهرة التي أنعم الله بها على عبـاده المؤمنين في جهادهم.

ثالثا : عظم درجة رســــــــــول الله (ص) ومنزلته الخصيصة عند الله فقد جــرب بعض أصــحابه كيف كــان يشفع لهم عند الله في تحقيق مسـائلهم ، فيسـتجيب الله لهم ، بل لا تزال الشفاعة الى يومنا هذا ، فالله يســتجيب لكل مــؤمن إذا توسل اليه بجــاه رســوله ، وقد جــاء في الحــديث كتــاب (فيض القــدير) فيما روى الطــبراني في الأوسط عن علي (ع) موقوفا قال :

«**كل دعاء محجوب حــتى يصـلى على محمد وآل محمد**»

وهناك الكثير من الشواهد الــتي يوجزها الله ســبحانه بقوله : «**كَفى بِاللهِ شَهِيداً**».

هــذا وقد ذهب البعض في تفســيره لهــذه الآية «**قُــلْ كَفى بِاللــهِ شَــهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**» بأنها قطع للجــدل والصــراع بين الرســول (ص) وقومه حينما غضب عليهم لعنـادهم ، فقـال : «**كَفى بِاللـهِ شَـهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**» وهــذا تفسـير بعيد ، بل هــذه شـهادة من الله على صــدق الرسـالة كما فعل الله لأنبيائه السـابقين عليهم السـلام ، حيث حـول نـيران نمـرود الى بـرد وسلام على إبـراهيم ، وكانت حجة على صدق إبراهيم ، وإغراق فرعــون ، ونصر موسى عليهم السلام ، وأحياء الموتى على يد عيسى (ع) وكثير من الحجج التي حـدثنا عنها القـرآن من هـذا القبيل معاجز عاجلة أو آجلة تشهد

على صدق الرسالات.

[97] (**وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ**)

ثم يبين القرآن ان الله هو الهادي الـذي يهـدي العبـاد الى الرسالة والايمـان بها ، وسـبق ان أوضـحنا ان الهداية مرحلة متقدمة من التكامل البشري ، لان الإنسان لن يبلغ مرحلة الهداية الا بعد رحلة شاقة ، ولن يصل إليها الضـال الـــذي حجبته المعاصي عن رؤية الحق وأولئك لا ينفعهم أحد من أوليائهم شيئا.

(**وَنَحْشُـرُهُمْ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ عَلى وُجُـوهِهِمْ عُمْيـاً وَبُكْماً وَصُمًّا**)

لأنهم لم يسـتفيدوا من نعم الحـواس والعقل ، لـذلك سوف يسلبهم الله تلك النعم يوم القيامة ، وهذا جزاء من عطل وظيفة عينيه وأذنيه ولسانه.

(**مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً**)

كلما ضـعفت نـار جهنم باعتبارها مـادة ، يزودها الله سبحانه بالوقود لتزداد سـعيرا ـ والعيـاذ بالله ـ فالعـذاب دائم والنـار تتجـدد ، ولا منقذ لنا من عـذابها سـوى أخلاق الايمـــان ، ومحض الطاعة ، وانتهـــاز الفـــرص واختلاس لحظـات العمر ، لنقضـيها في عبـادة الله ، وأمامنا فرصة عند كل منعطف في مسـيرتنا. فرمضـان ربيع المؤمـنين ، والحج معراج الصالحين ، فيجب ان لا نفوّت تلك الفرص ، والحديث الشريف يقول :

«ان من لم يغفر له في شـهر رمضـان فلا يغفر له الا إذا أدرك عرفات»

فلننقذ أنفسنا من نار جهنم التي لا بد من ورودها كما قـال : «**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كـانَ عَلى رَبِّكَ حَتْمـاً مَقْضِيًّا**» فمن استطاع إنقاذ نفسه ، وتدرع ضد جهنم

بلباس التقوى فقد فاز.

[98] (**ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا**)

فعـذاب جهنم الـدائم جـزاء من يكفر بآيـات الله ، لا شـفقة ولا عطف عليهم لأنهم كفـروا ، ان حجب العصـبية وحب الـذات واتبـاع الشـهوات تغطي قلـوبهم ومن دون التخويف الــذي يوقظ القلب ، وينشط فيه العقل والارادة لا يمكن اخـــــــتراق تلك الحجب المتراكمة ، واي تخويف اعمق أثرا من تخويفهم بعذاب جهنم ، هكذا يعالج الكتـاب امراض القلب ، ويوفر للإنسـان أفضل فرصة للخلاص من حجب قلبه.

البعث من جديد :

(**وَقـالُوا أَإِذا كُنَّا عِظامـاً وَرُفاتـاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُـونَ خَلْقاً جَدِيداً**)

وكأنما هـذا الاشـكال سـينقذهم! ان الله قـادر على البعث ، وسـيرون العـذاب بعد حين ، وحالة الاسـتغراب والتعجب الـتي حـالت بينهم وبين الايمـان بـالآخرة لن تفيدهم.

[99] (**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللـهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**)

أو لا تكفي الطبيعة بكل روعتها وبهائها وما بها من جبال ، ووديان ، وبحـار ، وأنهـار ، ومنظومـات ، ومجـرات شـهادة على قـدرة الله سـبحانه و.. و..؟! وهل خـالق كل هـذا يعجـزه خلق الإنسـان من العـدم ، وما دام الفـرد قد خلق لا من شيء فهل يعجزه ان يعيد خلقه مرة اخرى؟!

(**وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ**)

للإنسان أجل لا ريب في ذلك ، وأموره جميعا بيد الله ، بقـــــاؤه ، حياته ، موته ، وحياته من جديد وإذا أخر الله سـبحانه عـذابهم فانما رحمة بهم ، وتنفيـذا لأجل مقـدر سـلفا ، ولعلهم يرجعـون ، ولكنهم بـدل ان يشـكروا نعمة الله وينتفعوا بهذه الفرصة الاخيرة التي منحت لهم تـراهم يكفـرون بالله ، ويكفـرون بنعمة الأجل ، بل يتخـذون من تـأخير الأجل دليلا على عـدم العقـاب ، أفليس ذلك منتهى الكفران بالنعمـة؟! بلى ، والسـؤال لمـاذا هـذا الكفـران؟ والجـــواب : لأنهم ظلمـــوا أنفســـهم. وظلمـــوا النـــاس ، وتجاوزوا حقوق الله وحقوق الناس.

(**فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً**)

كلما ازدادت الجـــرائم حجبت القلـــوب عن الايمـــان فيكفرون ، وهذه فكرة طالما تكررت في القرآن الكريم ، وهنـاك تجربة شخصـية يمكن لاي شـخص ان يلاحظها في نفسه فعند ما يدفع الشيطان الإنسان الى ارتكاب معصية ما تجد قلبه معرضا عن ذكر الله ، وخلال صـــلاته يكـــون مشغول البـال ، اما حينما يكـون القلب نظيفا فانك تجـده متصلا بنور الله سبحانه حتى في غير الصلاة.

[100] (**قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُـونَ خَـزائِنَ رَحْمَـةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً**)

الحــاجز الآخر الــذي يحجز الإنســان عن الايمــان هو (البخـل) فالإنسـان مجبـول على الشح سـواء كـان غنيا أو فقيرا ، فلو كان يملك خـزائن الله ، وخـزائن رحمته الـتي وسعت كل شيء لقبض يده خشية الإنفاق.

لقد تكـررت في سـورة الإسـراء المباركة مثل هـذه الآية التي تذكرنا بطبائع الإنسان كقوله سـبحانه : «**وَكـانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً**» وقوله «**وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً**»

(67) وقوله : «**وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَـأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً**» (83) ولعل السـبب يكمن في ان هذه السورة تـبين فوائد الـوحي ومن أعظم فوائــده : شـفاء البشر من طبائعه الضـعيفة والمنحرفة ، ومن هنا ذكرت السورة ببعض هذه الطباع.

[101] (**وَلَقَـدْ آتَيْنا مُوسى تِسْـعَ آيــاتٍ بَيِّنـاتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ**)

لقد كذبوه لأنهم نظروا اليه بمثل نظرتهم الى نبيكم ، فقد كــان راعيا ، ذا ملابس بســيطة وو حين قــال : اني رسول رب العالمين إليكم اتهمه فرعون بالجنون.

(**فَقــالَ لَــهُ فِرْعَــوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً**)

يبـدو انه زعم ان موسى قد ابتلي بالسـحر لأنه كـان شائعا في مجتمعة ، ولان عواقب هذه الدعوة كـانت تضر موسى ، ولا يقدم على مثلها عاقل.

هكـذا كـان يـزعم فرعـون ذلك الجبـار الكـافر بجبـار السماوات والأرض سبحانه.

والواقع ان تحدي أنبياء الله لسلطات عصرهم وفساد مجتمعهم كـان عظيما وشـاملا وجـذريا ، الى درجة كـانوا يتّهمـون بـالجنون لو لا ان كل تصـرفاتهم وأقـوالهم كـانت تفيض بالحكمة والمعرفة ، فلو لم يكونوا متصلين بـالغيب ، وواثقين من نصر الله لهم ، ومخلصــين لقضــيتهم فهل كـان تحـديهم غـير الجنـون ، إذا ذات التحـدي كـان أعظم شهادة على صـدق رسـالاتهم ، ولعل القـرآن ينقل لنا تهم الطغاة للأنبياء بالجنون لنعرف هذه الحقيقة.

ولم يكن موسى مسـحورا بل كـان رسـولا ، وعلامة رسـالته تحديه لسـلطة فرعـون ، وارهابه وتضـليله لـذلك قال :

[102] (**قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً**)

انك هالك يا فرعون فأنت تعلم ان الحق معي ، الا ان فرعون ما كان يعلم عن نبوة موسى علم ايمان ، وانما كان يعلم علم حجة ، بمعنى ان الحجة ثبتت عنده ، ولكن لم يؤمن ، وتلك الآيات العظام لا تجري على يد إنسان غير نبي لذلك قال ربنا «لقد علمت» يا فرعون ان الآيات التسع وهي : خروج اليد بيضاء من غير سوء والعصا ـ والسنون ـ ونقص الثمرات ـ والطوفان ـ والجراد ـ والقمل والضفادع ـ والدم انما هي من عند الله ولم تجر على يد إنسان عادي.

وقرء «ولقد علمت» بالضم يعني موسى هو الذي علم كما يؤيد ذلك حديث

يروى عن الامام علي (ع) يقول : فيما معناه :

«**كلا لم يعلم فرعون ان الله بعث موسى بتلك الرسالة ، انما موسى هو الذي علم فهو واثق من امره**»

والقرآن جعل الكتب السماوية بصائر تساعد الناس على رؤية الحقائق ، ولما كذب فرعون بتلك الحقائق كلها بصّره موسى (ع) بخاتمته «**وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً**»!

[103] حينئذ ثارت ثائرة فرعون.

(**فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ**)

حيث أراد ان يزعج موسى (ع) بطرده مع بني إسرائيل ، ونفيهم من البلاد الا ان الله سبحانه وتعالى وقف له بالمرصاد.

(**فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً**)

[104] وهــذا أحد معــاني شــهادة الله على صــدق رسـالات الأنبيـاء ، فقد أخذ الله سـبحانه وتعـالى فرعـون وملأه ، ونبــذهم في اليم فــابتلعهم المــاء كما يبتلع النهر الحصاة.

(**وَقُلْنا مِنْ بَعْـدِهِ لِبَنِي إِسْـرائِيلَ اسْـكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً**)

قالوا في معنى اللفيف انه بمعــنى متلاحم بحيث يلف بعضه ببعض ، فلا يمـيز البعض عن الآخر لشـدة انـدكاكهم ببعضهم.

وهكذا ذهب فرعون وبقي منه عبرة للعالمين!

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّـراً وَنَـذِيراً (105) وَقُرْآنـاً فَرَقْنـاهُ لِتَقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْـزِيلاً (106) قُـلْ آمِنُـوا بِـهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُـــوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُـــوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِـــهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِـــرُّونَ لِلْأَذْقـــانِ سُـــجَّداً (107) وَيَقُولُـــونَ سُـــبْحانَ رَبِّنا إِنْ كـــانَ وَعْـــدُ رَبِّنا لَمَفْعُـــولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109) قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَـغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْـكِ وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111))

---

106 [مكث] : مهل وتأن.

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل

هدى من الآيات :

هذا هو الكتاب ، وتلك هي رسالات الله التي فيه ، انه الحق الذي أنزله الله وسوف يحفظه ، واما الرسول فـان هو الا مبشر ونذير ، وانما نزله على دفعات ، لأنه أبلغ أثرا حيث يستوعبه الناس وان للقرآن فئة من النـاس يؤمنـون به ايمّا ايمانا ، فهم يخــرون للأذقــان ســاجدين كلما تليت عليهم آياته ، ويسبحون الله ويثقون بوعده ، ويسجدون له ويبكون ويزيدهم القرآن خشوعا.

ان هـؤلاء الـذين يصـوغهم الـوحي مثل حيّ للقــرآن وشـــهادة مبينة على صـــدقه ، وعلى انه من الله أو ليس القرآن يهدي النـاس المؤمـنين الى ربهم ويـأمرهم بدعائه وبأسمائه الحسنى ، يأمرهم بالصلاة دون الجهر من القول ويختم القــرآن ســورة الإســراء المباركة بحمد الله ، كما بــدأها بتســبيحه ، ذلك الله الواحد الأحد ، الــذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شــريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل.

التسبيح والحمد والتكبير هو نسب الله وصلة العبد به سبحانه وتعالى.

بينات من الآيات :

[105] ما هو محتوى الرسالات؟ انه الحق الذي انزل الله به القرآن ، وانه الذي الحق بقي القرآن عليه دون ان تمد اليه يد التحريف ، ولكن ما هو الحق؟

1 ـ وجود الكون والإنسان حق.

2 ـ قوانين الطبيعة ، تلك السـنن الالهية الـتي أجراها الله في كل شيء حق.

3 ـ عقل البشر الذي أودعه الله قلب كل إنسـان وبه يستوعب واقعيات الأشياء حق.

والقـــرآن حقيقة واقعة وقد نـــزل ليعكس الحقـــائق ويهدي الى السنن ويثير العقول كمحتواه حق لا ريب فيه.

(**وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**)

لقد قـدر الله ان ينزله بـالحق (**وَبِـالْحَقِّ أَنْزَلْنـاهُ**) ، وتحقق هـذا التقـدير (وبـالحق نـزل) وان محتـواه حق (**وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ**) وثمراته حق (وبـالحق نـزل) وان الحق الـذي أنزله الله به (**وَبِـالْحَقِّ أَنْزَلْنـاهُ**) سـوف يسـتمر (وبـالحق نـزل). أو لم يقل ربنا : «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الـذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحـافِظُونَ**» ، فلم ولن يقـدر أحد على تغيـيره ، هكذا ينبغي ان تفهم هاتان الكلمتان.

قال بعض المفسرين : ان نزول القرآن كـان مصـاحبا للحق ، كما ان الحق كـان مصـاحبا للقـرآن ، ونتسـاءل ما هو معنى الباء في قوله بالحق؟

الباء : حرف جر للاستعانة فـان قلت : اكتب بـالقلم ، اي استعن بالقلم في الكتابة وهذا المعنى يصح في الآية ، إذ ان الحق محتـوى القـرآن وجـوهره بل ان كل آية فيه دليل حق ، لان القرآن جاء لاحقاق الحق كله.

قال تعـالى : (**وَيُرِيدُ اللـهُ أَنْ يُحِـقَّ الْحَـقَّ بِكَلِماتِـهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ**) (7 / الأنفال)

(**وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً**)

الرسـول بالنسـبة الى من أرسل إليهم لا يعـدو ان يكون مبشرا لهم بالخير ان هم آمنوا ، ونذيرا لهم بالعذاب ان هم كفـروا ولم يكن الرسـول كفيلا أو وكيلا عليهم ولم يؤت صلاحية تغيير القـرآن ، وقد عصـمه الله من ان يغـير فيه شيئا.

[106] (**وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ**)

للقرآن عدة أسماء فمرة يقال : انه كتاب لأنه يكتب ، ومـرة يقـال : انه فرقـان لأنه يفـرق بين الحق والباطل ، ومـرة يقـال : انه ذكر لأنه يـذكر ، وهكـذا يسـمى القـرآن قرآنا لأنه يقـرأ ، وهكـذا تختلف المسـميات. والمسـمى واحد ولعل ذلك من أجل الا يعتقد الإنسـان ان أهمية القـرآن تكمن في كتابته أو في قراءته ، ولكن أهمية القـرآن تكمن في جـوهره. وما هـذه الأسـماء الا تلخيص لاهداف القرآن واشارة إليها.

(فرقناه) اي فصلناه وفرقناه «على مكث» : اي بتأن وتؤده ، بين فترة واخرى حتى يستوعبه الناس.

(**وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً**)

في الآيتين السابقتين قال الله كلمة واحـدة بـاختلاف بسيط ، فقال مرة : أنزلناه ،

ومرّة نزّلناه ، فما هو الفرق بين الكلمتين؟

الفرق هو ان كلمة (أنزلناه) اي أنزلناه جملة واحدة و (نزّلناه) اي على اقساط وهـذا يؤكد ما قيل : ان القـرآن نزل مرتين على قلب الرسول (ص)، مرة في ليلة القـدر ، والمـــرة الاخــــرى خلال ثلاث وعشـــرين ســـنة حسب المناســـبات والظـــروف لكي تترسخ آياته وتعاليمه في ضمير المؤمنين وفي واقع الحياة الاجتماعية.

[107 ـ 108] ان النفس العالمة لا تستطيع ان تصـبر امـام النـور البـاهر المنبعث من القـرآن ، ويخـرّ صـاحبها سجودا.

ولكن من هم الذين أوتوا العلم؟

الذين أوتوا العلم هم أحد اثنين :

1 ـ اما أولئك الـــذين أعطـــاهم الله العلم من أهل الكتـاب عن طريق الرســالات الالهية الســابقة ، وعند ما سـمعوا الآيـات القرآنية اسـتوعبوها ورأوا ان هـذه الآيـات مصدقة لما أوتوه ، بل هي أعظم فسجدوا للحق وخضعوا له.

2 ـ واما ان يكونوا من العرب الذين غمرت نفوســهم بزخات العلم ، فكانوا غير أولئك الجهّال الذين يبحثون عن الأمــور التافهة لــذلك فهم عند ما يســتمعون الى صــوت الحق ، ويرون النور الباهر يؤمنون به ، ويستجيبون لندائه.

كـان اويس القــرني يعيش في الصــحراء عيشة العز والشـــرف ، فعند ما ســـمع بالرســـول وبقرآنه ، آمن به وبقرآنه من دون ان يـراه فصـار بـذلك من المقـربين الى رسـول الله (ص) ، وأسـلم وأحسن إسـلامه فكـان يقضي نهـــاره بالصـــوم وليله بالعبـــادة ، ومثل أو يس أبو ذر والمقداد وكثيرون آخرون.

(**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا**)

لا يهمنا ان تؤمنوا أو لا تؤمنـوا ، فلسـنا محتـاجين الى ايمانكم ، إذا كان الله يريد ان يضـلكم ، فهنـاك من يـؤمن بالقرآن ايمانا عميقا ، وهم أهل المعرفة.

(**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ**)

أي أوتوا العلم من قبل نزول القرآن.

(**إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً**)

الخرور : هو الوقوع السريع.

خرّوا بسرعة على وجـوههم ، ولعلهم نسـوا أنفسـهم امام القرآن ووقعوا على أذقانهم ولم يقعوا على جبـاههم ، لأنهم وقعـوا من دون اختيـار ، فوقعـوا على أذقـانهم ثم سجدوا بوجوههم.

(**وَيَقُولُـــونَ سُـــبْحانَ رَبِّنا إِنْ كـــانَ وَعْـــدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً**)

يبـدو من هـذه الآية انهم كـانوا يتوقعـون شـيئا وقد تحقق في القرآن أو انهم عبروا ـ بهـذه الكلمة ـ عن غاية ايمانهم ، ومنتهى يقينهم حيث نزهـوا الله عن خلف الوعد ، وأكدوا ان وعده في الكتاب بنصر المؤمـنين في الـدنيا ، وحسن جزائهم في الآخـرة حـق. وسـيتحقق اكيـدا. وهـذا أحد معاني الحق الـذي جـاء في الآية السـابقة «**وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**».

ان مخففة بمعنى «**إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً**».

[109] (**وَيَخِـرُّونَ لِلْأَذْقـانِ يَبْكُـونَ وَيَزِيـدُهُمْ خُشُوعاً**)

يبــدو ان للإنســان امــام الحــالات الغريبة ، حــالتين متدرجتين :

الاولى : الانصعاق والدهشة.

الثانية : الانبهار الواعي.

ولعل الآية التالية تشــير الى هــاتين الحــالتين حيث يقــول سـبحانه : «**اللــهُ نَـزَّلَ أَحْسَـنَ الْحَـدِيثِ كِتابــاً مُتَشــابِهاً مَثــانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْـهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْـرِ اللـهِ ذلِـكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَـهُ مِنْ هادٍ**» (الزمر / 23) في البدء يرتجف الإنسان ويصعق ، ثم يستوعب الصعقة وهكـذا المؤمنـون فهم يخـرّون أولا لقــوة النــور ، وما يلبثــون ان يتعــودوا على قــوة النــور ، فيخرون خشوعا لله سبحانه.

توحيد الله :

[110] (**قُلِ ادْعُوا اللـهَ أَوِ ادْعُـوا الـرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى**)

كتب العلامة الطباطبــائي في تفســير المــيزان بحثا مطــولا في هــذه الآية فقــال ما محتــواه : ان البــوذيين والمجــوس وغــيرهم من اتبــاع الأديــان ، ومن تأسى بهم يعتقدون ان لله مظهـرا وجــوهرا ، وان مظهر الله يختلف عن جــوهره ، فمظهــره هي أســماؤه وهي منفصــلة عن جوهره ، أو بمعنى آخر منفصلة عن ذاته ، ويعتقــدون بــان الله أجل من ان يسمى بهذه الأسماء ، وأســماؤه انما هي الملائكة ، فكل ملك من الملائكة يحمل صــفة من صــفات الله ، فأحد الملائكة يمثل العلم ، وآخر يمثل العزة ، وآخر يمثل القــــدرة ، فهم يعبـــــدون الملائكة ويجســــمونها بتجسيمات مختلفة ، وبالتالي فهم لا يعبدونها الا

لتقربهم الى الله زلفى ، فصنعوا لله ثلاثمائة وستين إلها ، كل إله يختلف عن الآخر ، فجمـــال الله يختلف عن عمله وعلمه يختلف عن جلاله ، وجلاله يختلف عن قدرته وهكذا ..

هــذه هي الوثنية ، أما عقيــدة التوحيد فــترفض ذلك وتـرى ان أسـماء الله تشـير الى الحق الواحد فالله رحيم عزيز ، وبيد ان العـزة والرحمة تشـير ان الى ذات واحد ، وهكذا جبار وكريم ، ورؤف .. إلخ ، وهـذه الأسـماء مجـرد آيات تشير اليه سبحانه فعند ما نقول : سميع بصـير ، فهو سميع بصير بدون آلة سمع أو بصر ، وقد قال الشاعر :

عباراتنا شـــتى وحســـنك واحد وكل الى ذلك الجمـــــال يشـــــــــــــــير

قال كفـار قـريش عن الرسـول (ص) مـرة : انظـروا الى هذا الصابئي يأمرنا ان نعبد إلها واحـدا وهو يعبد الهين ، يقول : الله ، الرحمن ، فجاءت الآية لتقول : سواء قلت الله أو الـرحمن أو الـرحيم أو الواحد أو القهـار فـان ذلك يــدل على شــيء واحد ، وان الأسـماء الحسـنى كلها لله وهي ليست بعيدة عنه ـ فهي صفات له ، وهي غير ذاته.

جاء في الحديث عند سـؤال هشـام بن الحكم الامـام الصـــادق (ع) عن اشـــتقاق كلمة (اللـــه) فقـــال له : «يا هشام! الله» مشتق من «الـه» و «إلـه» يقتضي مألوها ، والاسم غـير المسـمى فمن عبد الاسم دون المعـنى فقد كفر ولم يعبد شــيئا ، ومن عبد الاسم والمعــنى فقد كفر وعبد اثنين ، ومن عبد المعنى دون الاسم فـذلك التوحيد ، أفهمت يا هشـام؟ قـال : فقلت : زدني فقـال : «ان الله تبارك وتعالى تسـعة وتسـعين اسـما ، فلو كـان الاسم هو المسمى لكـان كل اسم منها إلها ، ولكن الله معـنى يـدل عليه هـذه الأسـماء ، وكلها غـيره ، يا هشـام! الخـبز اسم للمأكول ، والماء اسم للمشروب ، والثوب أسم للملبوس ، والنـار اسم للمحـروق ، أفهمت يا هشـام فهما تـدفع به وتناضل أعــداءنا ، والمتخــذين مع الله عز وجل غــيره؟» قلت : نعم

قال : فقال «نفعك الله به وثبتك قـال هشـام : فو الله ما قهرني أحد في علم التوحيد حتى قمت مقامي هذا» [1]

(**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِـكَ سَبِيلاً**)

جاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق (ع):

«**الجهر بها رفع الصـوت ، والتخـافت بها ما لم تسمع نفسك ، واقرأ بين ذلك**» [2]

ولعل الآية تشـــير الى فكـــرة هامة هي انه لا ينبغي الصراخ في الصلاة لان الصراخ ليس من آداب الـدعاء ولا يجـوز الإخفـات الى درجة بعيـدة صـحيح ان الله بعيد عنك بعلوه وجلاله الا انه قـريب منك بلطفه وعلمه ، وكما جـاء في الـدعاء (الـذي بعد فلا يـرى ، وقـرب فشـهد النجـوى) ولذلك شرع في الصلوات الإخفـات في الصـلاة النهارية ، والجهر في الصلاة الليلية.

الله يتجلى في كتابه :

[111] لم تحر البشرية في مسألة كحيرتها في الرب ، لان عقل الإنســان محــدود فبــالرغم من ان الله علمه الأسـماء كلها ، قصر عن معرفة كنه وجـود الله سـبحانه ، إذ أن علمه وعقله ، وكل وجــوده أقل من ان يحيط بــرب الســـــماوات والأرض ، فكيف يحيط بكنهه وهو لم يحط بنفسه علمـــــا. بل الاحاطة بكنه الطبيعة من حوله الا أن الله سبحانه ما تـرك الإنسـان سـادرا في حياته تلك ، فقد عرفه نفسه وتجلى له مرتين : مرة في آفاق العالم ومرة في نفسه عبر الذكر الحكيم. وآيـات الـذكر تـذكرنا بآيـات الطبيعة.

---

(1) البحار ج 4 ـ ص 158

(2) نور الثقلين ج 3 ص 234

فنحن اذن أحوج ما نكون الى القرآن لكي نعـرف ربنا ، ونعــرف أســماءه الحســنى. وان معرفة الله ســبحانه أعظم فائدة يستفيدها الإنسان من خلال قراءته للقـرآن ، لو قرأها من دون حجـاب بينه وبينها ، وهي بالتـالي أعظم شهادة على صدق رسالات الربّ.

جاء في الحديث المأثور :

«**إنّ الله تجلى في كتابه لعبـاده ولكن النـاس لا يبصرون**»

فهذا القرآن أنـزل الله فيه ما لو نـزل على جبل لفته فتا ، فقال : «**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُـرْآنَ عَلى جَبَـلٍ لَرَأَيْتَـهُ خاشِـعاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْـيَةِ اللـهِ* وَتِلْـكَ الْأَمْثـالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**» (22 / الحشر)

هـذا هو حـال الجبل الأصم من عـبر القـرآن ودروسه فكيف بالإنسان.

(**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً**)

الحمد لله على انه لم يتخذ ولــدا ، لعل أحد معـــاني هـذه الكلمة انه سـبحانه لم يفضل عنصـرا على عنصر ولا جوهرا على جوهر الا بـالتقوى ، مما اعطى للجميع فرصة التعـالي اليه ، والكمـال بفضـله. والآية تفضح ما يعتقـده الوثنيون من ان الله أولادا هم الملائكة.

جاء في الحديث :

«**الحمد لله الــــذي لم يلد فيــــورث ولم يولد فيشارك**»

وحيث نفي الولد ، نفي الشـرك لان من لم يلد صـمد الا جــزاء ، فكيف يكــون مولــودا ومن لم يكن مولــودا لا يكون شبيها بشيء ، فلا كفو له ولأنه لا شريك له لا

ولي له من الـذي ينصـره لأنه غـني بدأته فكيف يسـتعين بغيره ..

(**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ**)

قيل ان هـذه الآية جـاءت ردا على اليهـود والنصـارى حين قالوا : اتخذ الله ولـدا ، وعلى مشـركي العـرب حيث قـــالوا : لبيك لا شـــريك لك الا شـــريكا هو لك ، وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا : لو لا أولياء الله لذل الله.[1]

وقد جـاء في الـدعاء المـأثور : **(الحمد لله الذي لم يتخذ ولـدا فيكـون موروثا ، ولم يكن له شـريك في الملك فيضـــاده فيما ابتـــدع ، ولا ولي من الـــذل فيرفده فيما صنع)** [2]

لم يكن عند الله شريك فيضـاده أو يسـاعده ، لأنه لو كان له شريك يضاده لتزعزع النظام ، ولو كان له شـريك يسـاعده فـالأول قـوي والآخر ضـعيف فما هي حاجتنا الى الضعيف.

في الحديث المأثور عن هشـام بن الحكم في حـديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله (ع) وكان من قول أبي عبد الله (ع) «**لا يخلـــوا قولك انهما اثنـــان من ان يكونا قديمين قويين ، أو يكونا ضعيفين أو يكـون أحـدهما قويا والآخر ضـعيفا ، فـان كانا قـويين فلم لا يـدفع كل منهما صـاحبه وينفـرد بالتـدبير ، وان زعمت ان أحـــدهما قـــوي والآخر ضـــعيف ، ثبت انه واحد كما تقـول للعجز الظـاهر في الثـاني فـان قلت : انهما اثنـــان لم يخل من ان يكونا متفقين من كل جهة أو متفـــــــرقين من كل جهة فلما رأينا الخلق منتظما والفلك جاريا ، والتـــدبير واحـــدا ، والليل والنهـــار والشمس والقمر ، دل صحة الأمر والتـدبير وائتلاف الأمر على ان المدبر واحد ثم يلزمك ان**

---

(1) مجمع البيان

(2) دعاء عرفة للإمام الحسين (ع) مفاتيح الجنان

ادعيت اثــنين فرجه ما بينهما حــتى يكونا اثــنين ، فصـارت الفرجة ثالثا بينهما قـديما معهما فيلزمـاك ثلاثة فــان ادعيت ثلاثة لزمك ما قلت في الاثــنين ، حتى يكـون بينهم فرجة فيكونـوا خمسة ثم يتنـاهى في العدد الى مالا نهاية له في الكثرة» [1]

ان ما يتوهمه المتوهمــون هو مخلــوق لهم ، مــردود عليهم ، فالله لا يوصف بتمثيل ولا يشـبه بنظـير فبـدل ان يفكــروا في ذات الله يجب عليهم ان يتفكــروا في خلقه الذي يقودهم اليه.

(**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً**)

ليس من الصحيح ان نقول ان الله أكبر من كل شيء ، فهل هناك شيء يحتمل ان يكون أكبر منه!؟ وانما نقول هذا الشـيء أكـبر من هـذا الشـيء لوجـود تقـارن بينهما ، ولكن الأصح ان الله أكبر من ان يوصف ، لا ان تقـول الله أكبر من الشمس فهنــاك إذ ليست هنا لك مقارنة بينهما ، كيف تضع الحقير المخلوق بجانب الخـالق الكبـير؟! ولكن يمكنك ان تقول : ان الشمس أكبر من القمر.

جاء في الحديث عن أبي عبد الله (ع) قـال لجميع بن عمير :

«**اي شيء الله أكبر**»؟

فقلت : الله أكبر من كل شيء ، فقـال : «**وكـان ثم شيء فيكون أكبر منه**»؟ فقلت : فما هو؟ قال : «**أكبر من ان يوصف**» [2] وجــاء في حــديث آخر : عن أبي عبد الله (ع) قال رجل عنده : الله أكـبر فقـال : الله أكـبر من اي شــيء؟ فقـال من كل شــيء ، فقـال : حددته فقـال الرجل : كيف أقول؟ قال : قل الله أكبر من ان يوصف [3]

---

(1) نور الثقلين ج 3 ص 238

(2 ، 3) نور الثقلين ص 239 ج 3

سورة الكهف

بسم الله الرّحمن الرّحيم

فضل السورة

عن الامام الحسين (ع) قال :

«**من قــرأ ســورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلا شــهيدا ، ويبعثه الله من الشــهداء ، ووقف يوم القيامة مع الشهداء**»

نور الثقلين ، ص 245 ، ج 3

عن الرســول الأكــرم (ص) قــال : «**من قــرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الـدجال ، ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة**»

م البيان ، ص 447 ، ج 3

الاسم :

معلوم ان اسم (الكهف) أخذ من قصة تاريخية وقعت بعد مبعث عيسى بن مريم (عليه السـلام) وكـانت شـائعة بين أهل الكتـــاب ، بل في أوســـاط الجزيـــرة العربية ، ولأهمية القصة ســميت الســورة بــالكهف الــذي هو رمز حماية الله للإنسان من الأخطار إذا التجأ إليه.

الإطار العام

تمهيد :

نور الشمس يغمر الأرض فيضيء الأشياء والأشخاص ، ويظهر الألـوان ، ثم يقف دوره عند هـذا الحد ليبـدأ دور العين بعملية الرؤية والملاحظة ، وكـذلك القـرآن يـؤدي دوره عند ما ينشر الهداية ويبيّن الحقـائق ، وبعد ذلك يبـدأ عمل القلب والبصيرة في ادراك هذه الحقائق واسـتيعابها ، وإذا اقفل الإنسـان بصـيرته وقلبه فأنه لن ينتفع بهـدى القرآن ولن يعرف الحقائق ، تماما كمن يغمض عينيه فأنه لا يرى الأشياء رغم سطوع نور الشمس عليها ووضوحها.

وهكذا فـأن القـرآن لا يلغي دور العقل والتفكر ، لكن العقل من المتعذر عليه ان يكشف الحقيقة بـدون القـرآن ، كـالعين الـتي يسـتحيل ان تـرى الأشـياء بـدون الضـوء ، وهكـذا التفكر لا يلغي دور القـرآن ، كما ان العين لا تلغي دور الضوء.

وبناء على ذلك فلا يجوز للإنسان أن يقول : ما دام القرآن موجودا فلا حاجة لأن اعقل وأتفكر واتبصر ، والا كان مثله كمثل من يترك النظر والملاحظة ويضع حجابا على عينيه انطلاقا من ان النور موجود ، والأرض مضاءة ، والألوان ظاهرة ، ان وضوح الأشياء واضاءتها يساعد على الرؤية ، وليس هو الرؤية بذاتها.

مفردات قرآنية :

ولذلك نرى القرآن يصف نفسه بالنور والذكر والبصيرة والهدى ، فنجد كلمة النور في آيات مثل :

1 ـ «**نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ**»

2 ـ «**إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً**»

3 ـ «**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**»

وكلمة الذكر ترد في القرآن بصيغ مختلفة مثل :

1 ـ «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**»

2 ـ «**وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**»

3 ـ «**إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**»

4 ـ «**كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ**»

وهي تعــني ان عقل الإنســان يعــرف الحقيقة ولكنه ينساها ، وكذلك قلبه يشعر بها ولكنه يغفل عنها ، فيحتــاج الإنسان الى من يذكره ويلفت انتباهه إليها.

وكلمة البصيرة تعبر عن الحقيقة البينة الـتي يبصر بها الشيء على ما هو به عليها في المجمع.

مجمع البيان ج 4 ص 345

«**قَـــدْ جـــاءَكُمْ بَصـــائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَـــرَ فَلِنَفْسِهِ**»

ومجمـوع البصـائر الـتي تفضل الله سـبحانه بها على عباده تمثل الهدى وهو نور القلب والعقل.

1 ـ «**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِـعَ هُـدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**»

2 ـ «**وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُـدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْـلِمِينَ**» وهـذه الصـفات لو تـدبرنا فيها قليلا لرأينا انها تعني الحقيقة التي تساعد العقل على التفكر ، والقلب على التـــــــدبر ، وليس ما يلغيها ويحل محلها.

اتجاه خاطئ :

وإذا تثبتت الفكرة وتوضحت ، فلا بدّ ان ندين الاتجــاه الخــاطئ في التفســير ســابقا وهو : تحويل القــرآن الى شيء بديل عن التفكير أو العقل ، بينما القـرآن هو طريق الفكر والعقل ، والــذي يجعل القــرآن بــديلا عن الفكر هو كمن يريد ان يجعل النظارة بديلا عن العين ، أو النور بديلا عن الرؤية ، أو كالذي يجعل الأرقام في الرياضيات

بديلا عن الحقائق التي وراءها.

التفسير والتدبر :

ولعل هــذا هو الفــرق جليّا بين كلمــتي : التفســير والتدبّر وهكذا الفرق بين كلمتي التفسير والتأويل.

فالتفسـير هو : شـرح وتوضـيح الآيـات القرآنية ذاتها فيما يرتبط بــالقرآن ذاته ، حروفه وكلماته وجمله وآياته ، وسـياق المجموعة التوجيهية في القـرآن وارتبـاط السـور مع بعضها.

بينما التـدبّر شــيء آخر ، وهو ما دعا القــرآن الى ان يكون وسـيلة لمعرفة التأويل أو النهايـات والنتـائج الواقعة لآياته ، والكلمة مشتقة من (الدبر) وهو مـؤخرة الشـيء ، وهـذا يـوحي بـأن التـدبّر هو عـدم الوقـوف عند ظـواهر المعاني والحوادث ، بل محاولة معرفة ما ورائها.

قال الطبرسي (قدس الله روحه) التــدبر : النظر في عواقب الأمور.

مجمع البيان ج 3 ص 81

وعاقبة الأمر : هي ما يؤول اليه الأمر ، وهو تأويله.

قال الله سبحانه وتعالى : «**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَـهُ يَـوْمَ يَـأْتِي تَأْوِيلُـهُ يَقُـولُ الَّذِينَ نَسُـوهُ مِنْ قَبْـلُ قَـدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ**» (53 / الأعراف).

وقــال في قصة يوسف : «**قــالَ لا يَأْتِيكُما طَعــامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ**» (37 / يوسف)

فتأويل الإنذار ما تحقق ما انذر به واقعا وتأويل الرؤيا تحولها الى حقيقة واقعة ، ويبـدو ان التـدبر هو البحث عن التأويل.

ولهذه الكلمة عدّة أبعاد :

البعد الأول :

هو التفكير منذ البداية في آخر الأمر ومآله ، فـالقرآن عند ما يقــول الظلم ظلمــات وعاقبته خــزي في الــدنيا وعذاب في الآخرة ، فلا نتوقف عند ذلك ، وانما نأخذ هذه المعلومة شمعة ونذهب الى الواقع الخارجي ، نـذهب الى الحيــاة ونفتش عن ظلم ثم نجعل تلك الشــمعة عند ذلك الظلم الذي يأخذ مجراه عمليا ، ونتحرك معه الى ان نرى نتيجته النهائية.

وعند ما يحــدثنا القــرآن عن قــوم عــاد وكيف انهم بطشــوا بطش الجبــارين ، وبالتــالي انتهى مصــيرهم الى الــدمار ، فعلينا ان لا نقــرأ ذلك قصة ونســتغني بها عن التفكـير ، وانما نحمل تلك القصة مصـباحا وهاجا بأيـدينا ، ثم نبحث في الحضارة المادية ، وعن طريق هذا المصـباح نعرف مصيرها في المستقبل والى اين تنتهي عاقبتها.

البعد الثاني :

ينبع من ذات كلمة (التــدبر) وهي من الصــيغ الــتي تنطوي على الاشارة الى بذل المجهـود في الأمر ، والـذي يسـتخدم الإنسـان فيه طاقاته ، فكلمة تصـرّف غـير كلمة صرف إذ الأولى تعـني السـيطرة على الشـيء ، ومحاولة صرفه بقوة أو بجهد ، كذلك التحدّث يعني استخدام الجهد في الحـديث ، وهكـذا فـأن التـدبر يعـني بـذل الجهد في التفكير للوصول الى نهايات الأمور ، وهنا نصل مرة اخرى الى ذات الحقيقة وهي ان القـــرآن ليس بـــديلا عن جهد الإنسان.

البعد الثالث :

هو ان كلمة التدبر مرتبطة بـالواقع الخـارجي ، فبينما التفسـير يرتبط بـذات الآيـات حيث نكتشف معـنى الآية الكريمة عن طريق تفسير الآيات ببعضها ، ومعرفة معاني المفـردات من المراجع اللغوية ، وربط الجمل ببعضـها ، والاسـتفادة من السـياق ، واسـتخراج معـنى الكلمة من مقارنتها بمفـردات مماثلة جـاءت في آيـات اخـرى من القـرآن الحكيم ، وتفسـير الآيـات بالروايـات والأحـاديث الشريفة وبالاستفادة من العلم الحديث.

فإننا في التدبر أو التأويل ، وبعد انتهاء عملية التفسير ، ومعرفة الآية معرفة ذاتية ، فإننا نحمل الآية القرآنية الى الواقع الخـــارجي ، ونبحث عن انطباقها على النـــاس والأشياء والأحداث المتغيرة.

فإذا جاء في القرآن كلمات مثل : الذين آمنوا ، الذين كفـروا ، المنـافقون ، المسـتكبرون ، المستضـعفون ... فينبغي علينا ان نحاول تحديـدهم وتشخيصـهم واقعيا ، ولا نكتفي بمعرفة معـاني هـذه الكلمـات ومـدلولاتها اللغوية فقط.

وإذا قرأنا عن مجتمعات مثل : عاد ، ثمود ، قوم لوط ، أصـحاب الايكة ، أصـحاب موسى (ع)، أصـحاب محمد (ص) فيجب ان نبحث عمن يمثلهم في واقعنا الحاضر الـذي نعيشه ، فمن الـذي يتبع عليا والحسـين (عليهما السـلام) اليـوم؟ ومن الـذي يمثل دور معاوية ويزيـد؟ وهكذا.

فالتـدبر هو : البحث عمن يمثل دور القصص والآيـات القرآنية في الواقع الخـارجي ، وبالتـالي معرفة معـاني الأشياء عمليا ومحاولة تحسسها والاقتراب منها.

والتـدبر بحاجة الى جهد فكـري وآخر جسـدي ، فلا يمكننا ان نتدبر ونحن نغلق

الأبــواب على أنفســنا وننفصل عن الواقع ، وإذا أردنا ان نتدبر فعلينا ان ندخل في حيـاة المجتمع ونعـرف خصائصه ومميزاته ، وندرس طبيعته ، ثم بعد ذلك نرجع الى القرآن ونسـأله : مـاذا نسـمّي مجتمعا هـذه ميزاته وخصائصه ، وتلك سلبياته وايجابياته؟ هل هو مجتمع لوط أو شـعيب أو ثمـود أو غـيرهم؟ والمطلـوب من الإنسـان في دراسـته للقرآن التفسير ثم التدبر والتأويل بمعناها المذكور آنفا.

التدبر والمسلمون في العصر الحاضر :

لقد توقف المسلمون اليوم عند القرآن ، كان القرآن منطلقا فجلســوا عند المنطلق ، وكــان مطــارا يجب ان يقلعوا بواسطته فمكثوا في المطار ، وكان مصباحا يضيء العالم فـاكتفوا بجعله زينة ، وكفّـوا عن الاستضـاءة بنـوره في دروب الحياة المظلمة.

انهم الغوا دور افكارهم وعقولهم ، وبذلك الغي التدبر من القرآن ، فسـدّ بـاب عظيم من أبوابه الـتي أمرنا الله بــدخولها ، اننا لا نجد في القــرآن الحكيم آية تشــير الى التفسير بينما توجد عدّة آيات حول ضرورة التدبّر.

1 ـ «**أَفَلا يَتَــدَبَّرُونَ الْقُــرْآنَ أَمْ عَلى قُلُــوبٍ أَقْفالُها**»

2 ـ «**كِتـابٌ أَنْزَلْنـاهُ إِلَيْـكَ مُبـارَكٌ لِيَـدَّبَّرُوا آياتِـهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ**»

وعشرات الآيات تأمرنا بالتفكر ، والسـير ، والحركة ، والتذكر ، وكلما يحرك طاقات الإنسان نفسه.

وهنا يكمن سر الغمـوض في فهم القـرآن لـدى أغلب المســلمين لأن عملية التأويل والتفســير متكاملتــان والتفســير إذا دعّم بالتأويل والتطــبيق فأنه يصــبح أكــثر وضوحا ويمكن اكتشاف خفاياه بصورة أفضل.

زينة الحياة والهدى :

ان القرآن الحكيم يتـابع في سـورة الكهف سلسـلتين من القضايا :

الأولى : عن زينة الحياة الدنيا ، وموقف الإسلام منها.

والثانية : عن القضـــايا الـــتي تتصل بالهـــدى والعلم والمعرفة.

ولا ريب ان بين هاتين السلسـلتين علاقـات هامة ، إذ ان الإنسان الذي يتسلح بالهـدى والعلم يتخذ موقفا ايجابيا ومتساميا من زينة الحياة الـدنيا ، اما ذلك الـذي يفقد هـذا السلاح ، فأن موقفه من زينة الحياة الـدنيا ومتاعها الزائل هو موقف الأتباع المطلق والاستسلام التام.

والواقع ان هـذا من مظـاهر اعجـاز القـرآن ، وبلوغه في البلاغة المنتهى ، حيث ان آياته الكريمة تتبع عـــــدة خطـــوط متوازية ومتناســبة تتظـــافر على توجيه القلب البشــري الى قضــية جوهرية واحــدة ، الا ان السلســلة الاولى كما يبدو هي المحور في آيـات هـذه السـورة حيث تتحـــدث ســـورة الكهف عن الرؤية الاســـلامية الى زينة الحياة ، وكيف ينبغي على الإنسان ان يتحـرر من ضـغوط زينة الحياة وحب الدنيا وينظر الى الحياة نظرة موضوعية قوامها معرفة عاقبة الحيــــاة ، والعلاقة الوثيقة بين زينة الحياة الدنيا والتمتع بها وبين عمل الإنسان.

فنجد في هذه السورة قصة أصـحاب الكهف والـرقيم الذين تحرروا من حب الجاه الذي كانوا فيه ، واسـتطاعت إرادتهم السـامية ان تقلع بهم من قـاع الحيـاة المادية الى سماء الحقيقة والقيم ، ونجد في هـذه السـورة أيضا قصة معاكسة لـــذلك ، وهي قصة صـــاحب الجنة الـــتي دخلها وزعم انه خالد فيها ، وكلما نصـحه الناصح الأمين وقـال : ان هذه الجنة انما هي بأذن الله ، ولو لا ان تقول ما شــاء الله حين تدخل جنتك ، فإنها

سوف لا تنفعك ولكنه لم يقبل هذه النصـيحة ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه وقـال : ما أظن ان تبيد هـذه أبـدا ، الى ان انتهت حياته وجنته جميعا الى الفساد والتلف.

وهنـاك مثلا عن واقع ذي القـرنين لأولئك الـذي بلغـوا جاها عظيما وملكا كبـــيرا ، ولكنهم رفضـــوا الخضـــوع لضغوط الجاه وزينة الملك.

وتعطينا الســورة الكريمة في اطارها العــام نظــرة شـمولية الى موقف الإسـلام من زينة الحيـاة الـدنيا ، اما القسم الأول منها فأنه يلقي نظرة عامة على موضـوعات السـورة كعـادة القـرآن في بـدايات السـور الـتي تتمـيز بحسن المســتهل ، حيث انها تلقي الضـــوء على اطـــار السورة ومجمل الموضوعات التي تبحثها.

حيث تذكر آيات هذا الدرس (1 ـ 8) بأن القرآن كتاب هداية ، وان الهداية هي طريق الإنســان المســتقيم الى نعم الله.

وتحدثت كذلك عن الحـوافز الـتي تـدفع الإنسـان الى الالتزام بهدى الله ومنها الإنذار والتبشير.

وأشـارت الى أخطـار الشـرك بنسـبة الولد الى الله سـبحانه وتعـالى عما يشـركون ثم أشـارت الى ان على الرسول أو القائد الذي يقـوم مقامه ، واجب التبليغ وبيـان الحقـــائق ، وليس له ان يقتل نفسه غما وكمـــدا ، إذا لم يستجب الناس لهدى الله.

وأخــيرا بيّنت الرؤية الاســلامية لزينة الحيــاة الــدنيا ومتاعها ، بأنها مـــادة للإبتلاء والامتحـــان الإلهي بالنســبة للبشر وانها بالتالي زائلة ، لأن الأرض سوف تصبح صـعيدا جرزا.

ثم تحدثت الآيـات من (9 ــ 16) عن وجـوب ملاحظة الإنسـان لسـنن الله في الكـون ، فيسـلم لحكم الله مهما كانت الحوادث التي يشاهدها أو يسمعها بالغة

الغرابة عنده وجديدة عليه والثورة على الظلم هي احـدى سـنن الله في الحيـاة ، لأن الله يـأمر بالعـدل وهو قـائم بالقســط. كما بينت الآيــات أســلوب الثــورة وهو : ان يستجيب الإنسـان لإلهـام فطرته ، ويفجر الثـورة على كل ألـوان الظلم ابتـداء من نفسه ، ويعـتزل مجتمع الشـرك والجاهلية ، ثم يأتيه تأييد الله الــذي يهديه الى الوســائل المادية والمعنوية للانتصار.

ثم تحدثت الآيات من (17 ـ 20) عن الألطـاف الإلهية والنفحـات الربانية الـتي يتعـرض لها الـذين يقومـون لله وباسم الله ، الى الحد الـذي قد يوقف الله سـبحانه معه بعض السـنن الطبيعية أو يغيّرها لمصـلحتهم ، ثم أشـارت الى سـلاح هـام يعطيه الله لأوليائه وهو سـلاح الـرعب ، وتعرضت الآيـات لـذكر بعض الصـفات الأخلاقية الثورية ، كما بيّنت ان أول مرحلة من مراحل العلم بالنســــــبة للإنســان هو الاعــتراف بالجهل ، ثم اقتبــاس العلم من منبعه الحقيقي وهو : الله العليم الحكيم.

ثم تـابعت الآيـات من (21 ــ 26) عن دور حادثة أهل الكهف كواحدة من الظواهر التي تبيّن للنـاس صـدق وعد الله وترفع من نفوســهم كل ريب حــول قضــية الســاعة والمبعث ، ثم أشـارت بطريقة ايحائية الى موقف القـرآن من زيـارة قبـور الأوليـاء والصـالحين ثم بينت ان الإسـلام يؤيد المنهج العلمي القـائم على الحقـائق لا على الـرجم بــالغيب والجــدليات العميقة ، وان القــرآن يــدعوا الى المرونة والتكيف الســليم مع الحيــاة ويــرفض الــبرامج الجامدة والأفكار المتحجرة.

وتحدثت الآيات من (27 ـ 31) عن الضمانات الوقائية للإنسـان تجـاه ضـغوط زينة الحيـاة ، وهي تلاوة القـرآن والاتصــال الــدائم بالله ، والانتمــاء الى التجمع الإيمــاني القـائم على أسـاس المبـادئ الرسـالية ، لا الاعتبـارات المادية ، وأخيرا التحلي بروح التحدي والاسـتعداد للصـراع ، ثم بيّنت المقيـاس الـذي يتبعه الإنسـان لمعرفة القيـادة الصـالحة ، ثم عرضت صـورا مجسـمة للجنة وللنـار فيها عبرة لمن اعتبر.

وبيّنت الآيــات من (32 ـــ 44) موقف الإنســان من النعمة والمنعم ، وان من مكر الله بالجاحــــدين ان يملي لهم فيوسع النعمة عليهم ، ومن ثم يــؤدي اغــترارهم بها الى إنزال العقوبة الصارمة بهم ، ثم بيّنت مراحل التدهور العقيـدي ومن ثم السـلوكي عند الإنسـان الكفـور ، الـذي يستند على معادلة خاطئة وهي ان العطاء في الـدنيا دليل رضى الله ، بينما هو في الواقع امتحان للعبــاد ، كما بيّنت ان الخضوع للثروة والأثرياء فيصبح بمنزلة الشـرك بالله ، وان الولاية الحقيقية على العبــــاد لله الصــــمد فقط ، لا لغيره من المخلوقات التي يطرأ عليها التغيير والزوال.

وصـورت لنا الآيـات من (45 ــ 49) الحيـاة من واقع قصة الطبيعة ، ودعت الى الاهتمــــام بزينة الآخــــرة وهي الباقيات الصالحات ، ثم بيّنت دور العمل الصـالح في بنـاء الحضـــارة ، ودعت الى شـــمول النظـــرة المســـتقبلية ، وامتدادها الى ما بعد هذه الحياة الزائلة.

ثم عرضت لنا مشهدا من مشاهد يوم القيامة يبين لنّا ان كل شيء في هذه الحياة يتحـرك ولا يثبت على حـال ، حتى الجبال الراسيات ، اذن فلا مسوّغ للاعتماد على زينة الدنيا لأنها هي الأخـرى تتحـرك وتـزول ، وحمّلت الإنسـان مســئولية اعماله كاملة امــام ربه ، تلك الأعمــال الــتي سيراها مسجلة بالكامل ومجسمة امامه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر.

ثم جاءت الآيات من (50 ـ 56) لتبين موقف الإنسان من أصــحاب الزينة ، وهم المســتكبرون في الأرض وعن طريق الصـور التاريخية والمسـتقبلية ، يحث القـرآن على إيجــــاد فاصل بين المؤمــــنين وبينهم ، فلا يتبعــــونهم ولا يتخذون منهم عضدا ، لأنهم أعداء أولا ، وجاهلون مضـلون ثانيا.

ثم تحــــدثت عن دور التصــــور الــــذهني في معرفة الحقائق الغيبية ، وبينت ان جدل

الإنسان لا حدود له ، مهما كـانت الحقـائق القرآنية كثـيرة امامه ، ثم أكـــدت على ان الإنســـان ليس مجـــبرا على الهداية ، وان الاســـــتهزاء هو اخطر حجـــــاب بين عقل الإنســـان وبين الهدايـــة. ومن أشد ظلما لنفسه وللنـــاس وللحقائق ممن أودع الله قلبه فطرة الأيمان ثم ذكرّه عبر رسـالاته بآيـات ربه فـأعرض عنها ونسي ذنوبه فجعل الله على قلبه ســـتارا ، ومنع عنه الفقه وجعل في اذنه وقـــرا فاذا به لا يهتدي أبدا.

ولأن الله غفـــور ذو رحمة ، فهو لا يعاجل الكـــافرين بالعـذاب إلا أن لهم موعـدا لا يحيـدون عنه ، وشـاهد ذلك تاريخ القـرى الـتي أهلكت في الموعد المحـدد لهلاكها ــ (57)

ويستمر السياق القرآني (60 ـ 64) يحـــدثنا عن قصة موسى مع العـــالم ، ومن خلالها يـــبين لنا صـــفات العـــالم والمتعلم ، وأهمية العلم ، كما يشـــير الى وجـــود خلفيـــات هامة للتقديرات الإلهية ، والأحكام الشرعية.

فلقد عقد موسى العــــــزم على الرحيل الى مجمع البحرين وأنبأ فتـاه ومرافقه بأنه حـتى لو مضت حقب من الزمـــان فلن ينثـــني عن عزمه هـــذا ، وعند ما بلغا مجمع البحرين نسيا حوتهما الذي ســرب في المـاء وعند ما تركا الموقع طلب من صـــاحبه الغـــداء ، الا أنه أخـــبره بقصة الحوت التي كان قد نسيها وقال : ان الشـيطان هو الـذي أنسـاه وحين عـرف موسى بقصة الحـوت علم بـأن موقع قرب الحوت في البحر هو بالذات ميعاده مع العالم فعـادا أو رجعا اليه.

عند الموقع وجد موسى العالم الذي أتـاه ربه الرحمة والعلم ، وحين سـأله موسى عما إذا كـان مسـتعدا لتعليم رشـــدا مما علمه الله ، أخـــبره انه لن يصـــبر على ذلك الرشد لأنه لم يحط بـــذلك خـــبرا ، وأصر موسى ووعـــده بالطاعة إنشاء ربه.

كان موسى نبيا ، وعارفا بأحكـام الرسـالة الظـاهرة ، ومن خلال تعلمه لخلفيات الأحكـام كـان ينتفض مسـتنكرا لأنه لم يعلم حكم الشريعة.

فلما خرق العالم السـفينة اسـتعظم الأمر ، اما حينما قتل غلاما فقد اسـتنكر ذلك بقـوة ، وهكـذا عند ما بـنى جدارا لقوم لا يستحقون ولم يطالبهم بأجر.

وفي كل مرة يذكره العالم بوعده ويعتذر منه موسى ، حتى افترقا ـ (65 ـ 78) ـ.

لقد أخبره ان السـفينة كـانت لمسـاكين وانه سـيقرر الملك مصـادرة السـفن الصـالحة فقط فـأردت أن أعيبها لمصلحتهم.

اما الغلام فقد كان يخشى على أبويه الكفر فأراد الله تبديله بمن هو ازكى وأقرب رحما.

اما الجـدار فقد كـان تحته كـنز ليـتيمين ، فـأراد الله سبحانه وتعالى حصـولهما على الكـنز كرامة لأبيهما الـذي كان صالحا ـ (79 ـ 82) ـ.

وفي اطار الحديث عن زينة الحيـاة الـدنيا في سـورة الكهف تناول السياق أهم زينة منها وهي السلطة وضـرب لنا عن واقع ذي القـــــرنين مثلا ، كيف مكّن الله به في الأرض وأتاه من كل شيء سببا ووسيلة اما هو فقد مضى على طريق الأســباب الى أهدافه النبيلة ، فبلغ مغــرب الشمس وسار في أهلها بالعـدل ، ومضى قـدما في اتبـاع الأســباب حــتى بلغ مطلع الشــمس حيث وجد النــاس يعيشـون حيـاة بدائية ، وحـتى انهم لا يجـدون ما يسـترهم عنها ، ومضى في طريق الأســباب فوجد منطقة جبلية ، كان أهلها يحتـاجون الى سـدّ يحفظهم من غـارات يـأجوج ومــأجوج المفســدين ، فبــادر الى بنــاء الســدّ دون ان يطالبهم بأجر ، بل شكر ربه على نعمة السلطة.

انما يسـخر طاقـاتهم البشـرية ومـواردهم في بنـاء الروم ، فجعل زبر الحديد على بعضها وأمرهم بأن ينفخـوا في النـــار الـــتي اججوها حولها فلما تحـــولت الى نـــار والتحمت ببعضها افـرغ عليها لباسا مصـنوعا من النحـاس المــذاب ، فأصــبح ســدا مرتفعا ومنيعا ، فلا اســتطاعوا عبوره ولا اختراقه.

وشـكر ذو القـرنين ربه على هـذه السـلطة بـدل ان يفرض على الشعب حمـده وشـكره ، وكما يفعله الملـوك عادة.

وأنبأهم بأن السدّ لا يقاوم امر الرب ، فإذا جاء الوعد الموعود فأن الله سيجعله دكاء وإذا بالناس يموج بعضــهم ببعض وينفخ في الصـور ، ويجمع الله النـاس على صـعيد واحد جميعا.

ليعـرض على أولئك العميـان الـذين لم يبصـروا آيـات الله ، ولم يســمعوا نصــيحة المصــلحين ، يعــرض عليهم جهنم لكفرهم بالله.

وهكــذا ضــرب الله لنا مثلا ، للمــؤمن الــذي تجــاوز الســـلطة فملكها ولم تملكه واســـتفاد منها لأهدافه ، ولم تستفد منه لها ـ (83 ـ 101) ـ.

وفي الدرس الأخير من هـذه السـورة نجد أهم العـبر القرآنية المبثوثة فيها ، وفي قصصها العجيبة ، ومن أبرزها ضــرورة توحيد العبودية لله ، والا يتخذ العبــاد أوليــاء من دون الله ، ويبيّن القـرآن ان الأخسـرين أعمـالا هم الـذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسـنون عملا ، بلى أولئك هم الكـافرون بآيـات الله ، الـذي لا يأبه بهم ربهم يـوم القيامة بـالرغم من مظـاهر الزينة والقـوة عنـدهم في الـدنيا لأنهم اسـتهانوا بالآيـات والرسل ، بينما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فـأن لهم جنـات الفـردوس نزلا ، يخلدون فيها ولا يبحثون لها عن بديل.

تلك السورة من كلمات الله وكلمات الله كثيرة حـتى لو كان البحر مدادا لكتابتها لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات الله.

وخلاصة كلمـــات الله توحيد الله ، والاعتقـــاد بـــأن الرســول بشر اوحي اليه ، وان من يرجو لقــاء الله فعليه ان يعمل عملا صالحا ، خالصا لوجه الله ، ولا يشــرك بربه أحدا.

سورة الكهف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلى عَبْـدِهِ الْكِتـابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْـهُ وَيُبَشِّـرَ الْمُـؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّـالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَـناً (2) مـاكِثِينَ فِيـهِ أَبَـداً (3) وَيُنْـذِرَ الَّذِينَ قـالُوا اتَّخَـذَ اللـهُ وَلَـداً (4) ما لَهُمْ بِـهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْـرُجُ مِنْ أَفْـواهِهِمْ إِنْ يَقُولُـونَ إِلاَّ كَذِباً (5) فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَـكَ عَلى آثـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (6) إِنَّا**

---

1 [عوجا] : اختلافا.
2 [قيما] : مستقيما معتدلا.
3 [باخع] : القاتل المهلك.

جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُـوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً (7) وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8)

---

8 [صعيدا] : الصعيد ظهر الأرض أو الطريق الذي لا نبات فيه.
[جرزا] : الأرض التي لا تنبت كأنها تأكل النبتة أكلا.

لنبلوهم أيّهم أحسن عملا

هدى من الآيات :

يحب البشر مصـــدر النعم. ويحمد أصـــحابها. بيد أن النعم من الله جميعا. فله الحمد كلّه. وأعظم نعمة وأفخم منّة الهدى الذي أنزله في كتاب لا عوج فيه يقوم به نظام حياة البشر ، ويرتفع على صرحه بنـاء سـعادته. وهو ينـذر بأسا شـديدا من لـدن الـرب ويبشر المؤمـنين الصـالحين بأجر حسن خالدين فيه.

هكـذا بـدأت سـورة الكهف ببيـان نعمة الهداية الـتي تكتمل بها نعم الله وهي تنذر الذين أشركوا بالله. وزعموا بأن له ولدا. أنها كلمة كبيرة خرجت من أفـواههم. وكـذب مـبين (بلى أو ليس الشـرك جـذر الضـلالة والانحـراف) وبـــالرغم من ذلك فعلى الرســول الّا يهلك نفسه أســفا عليهم لأنهم لا يؤمنــون بالكتــاب (انما يمتحنهم الله بزينة الأرض) ولقد جعل الله ما على الأرض زينة ، ولكنها غـــير دائمة إذ يجعله الله بعدئذ صعيدا جرزا.

وهكذا لخصت آيـات هـذا الـدرس دروس القـرآن في سورة الكهف. وبينّت

ضـرورة التسـليم لكتـاب الله ، حيث تتم نعم الله ، وذلك عبر توحيد الله. وعدم الانبهار بزينة الحياة الدنيا.

بيّنات من الآيات :

[1] تبدأ السورة بعد «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الـرَّحِيمِ**» تبـدأ بحمد الله ، ويـتركز الحمد على نعمة الهداية ، فنحن نحمد الله مرة على نعمة العين ، نعمة اليد ، نعمة العلم ، نعمة الحركة ، نعمة الأكل والشـــرب ، نعمة المســـكن والملبس ، ولكن هذه النعم تصبح ضئيلة على عظمتها في مقابل نعمة الهداية ، إذ لو لا الهداية لم تنفع نعمة اخـــرى مهما كـانت كبـيرة. الهداية هي صـبغة نعم الله سـبحانه وتعـالى والطريق إليها ، فلو كـان هنـاك طعـام وشـراب وكنت محتاجا إليهما ولكنك لم تعــــرف الطريق إليهما ، فهل يكونان بالنسـبة لك نعمـة؟ كلا .. فالهداية هي طريق الإنسان للاستفادة من النعم والتمتع بها.

وهداية الله تتكامل في كتــــاب إلهي يوحيه الى عبد من عبـاده يصـطفيه رسـولا ويـأمره بتبليغ الرسـالة لبـني جنسه من البشر ، وفي الآية اشـــارة واضــــحة الى أن الهداية لا تكون أبدا بمعزل عن الكتاب أي الرسالة الإلهية ، ولا عن الرسول الذي هو رجل من أهل الأرض.

سنن القرآن وسنن الطبيعة :

كتـاب الله كتـاب قـويم يربط الإنسـان ربطا مباشـرا بأهدافه ، وسائر النعم المتواجدة والمتوافرة في الكـون ، لذلك يؤكد القرآن في هذه السورة على هـذه الصـفة في الرسالة.

(**الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلى عَبْـدِهِ الْكِتـابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً**)

فكتــاب الله يعطي الــبرامج الصــحيحة ، والمنــاهج السليمة التي توصل الإنسان الى

اهدافه المنشودة ، عبر طريق مستقيم لا اعوجـاج فيه ولا نتوءات ، وبديهي انه يكون أقرب الطرق وأسرعها.

ونجد هذا الاتجاه أيضا في الطبيعة التي تجـري سـننها وقوانينها على أســـاس التوصل الى الهـــدف من اقصر الســبل وأســرعها ، فمثلا الضــوء والصــوت والحــرارة وموجات المذياع ، تتحرك عـبر أقـرب وأفضل الخطـوط ، وعند ما تتعــارض القــوى فــأن الطاقة المغناطيســية أو الكهربائية أو الطاقة الحركية للأجــــرام الســـــماوية في مـــداراتها الفلكية تختـــار اقصر الخطـــوط المنحنية في الانتقال وهكذا فأن الطبيعة لا تحب التراخي والتباطئ في أداء الأعمـال ولا الالتـواء في المسـير الى الهـدف وهكـذا الســبل القرآنية ، وهــذا التطـــابق بين الســـنن القرآنية والســـنن الكونية دليل على وحدانية الخـــالق ورحمانيته ، وان له الحمد في الأولى والآخرة.

الكتاب القيّم :

[2] (**قَيِّماً لِيُنْـذِرَ بَأْسـاً شَـدِيداً مِنْ لَدُنْـهُ وَيُبَشِّـرَ الْمُـؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّـالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْـراً حَسَناً**)

كتـاب الله كتـاب متكامل وحكيم ، فهو يجعل الأمـور في مواقعها ويعطي كل شـــيء حقه ، بنســـبة حاجته إليه دون زيادة أو نقصان.

وربما تشير كلمة «قيما» الى هذه الفكــرة ، وهي ان كل نظرة وكل حكم شرعي وبالتـالي كل وصـية وموعظة فيه إنما هي بقـــدر الحاجة ، وبنســـبة الواقع الخـــارجي ، وبموازين دقيقة.

فمثلا حين يقـول القـرآن أن الـزوج يـرث نصف مـال زوجته بعد موتها ان لم تخلف ولدا وراءها ، فلا يعـني ذلك الا ان هذه الحصة تتطابق مع حكمة الحيـاة ومع واقعيـات الاقتصـاد الأسـري ، مع حاجة الـزوج وطبيعة العلاقة الـتي تربط الزوج

بالزوجة ، أي ان هـــــذا الحكم متطـــــابق تماما مع كل الظروف المحيطة به دون زيادة أو نقصان.

وهناك تفسير آخر لهذه الكلمة وهي ان القــرآن ليس فقط رشــــيدا وحكيما ومتكـــاملا في ذاته ، وانما هو أيضا يعطي التكامل والحكمة للحيـــاة ، ويقيمها على أســـاس منظم ومتين دون اي خلل أو ثغرة ، كما قال ربّنا سـبحانه : «**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ**» وقيمومة الكتاب. والدين الإلهي ، نابعة من قيمومة الرب سبحانه حيث يقول تعالى : (**اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**) فكل شيء يقــوم به الرب في عالم التكوين. وكل شيء يصلح بكتابه في عالم التشريع.

ولأن الكتاب قيّم فهو يحفظ رسالات الله جميعـا. لأنه مهيمن عليهـا. ويحفظه الله من التحريـف. ويحفظ به امة الإسلام.

أهداف الكتاب وحوافز الهداية :

وهكذا فأن الكتـاب حينما يريد ان يسـتفيد النـاس من الهداية فأنه يثـير فيهم الحــوافز النفســية الملائمة الــتي تدفعهم الى الأخذ بها والعمل بمقتضاها. ومن حوافزه :

الإنذار :

وهو الأبلغ أثرا فالإنسان بطبيعته يخشى الضــرر أكـثر مما يتوقع المنفعة فلو قيل لك إذا لم تقم بالعمل الفلاني فلن تحصل على مليــون دينــار ، فأنك تهتم وتجتهد كثــيرا لأن تتجنب ذلك الضرر.

وهكـذا فـأن من طبيعة البشر الهــروب من الضــرر ، أكثر من البحث عن المكاسب والمنافع ، لذلك فان الإنذار يلعب دورا اساسيا في حياة الإنسان. والكتاب نذير حق

بعذاب شديد ينزل من لدن الرب القوي العزيز.

الحافز الثاني :

وهو حــافز التبشــير ، حيث يعد الله الإنســان حينما يهتــدي بالكتــاب ، ويعمل وفق برامجه بــالأجر الحسن والنعم الإضــافية ، الــتي هي أعظم من تلك الــتي بيد الإنسان ، حيث يمكث فيها مخلدا.

وهنا نجد إثــارة لإحســاس هــام في البشر وهو حب الخلــود والخشــية من زوال النعم ، ويســتفيد الكتــاب من هــذا الأحســاس وتلك الخشــية ليــدفع الإنســان الى تقبل الهداية الإلهية الــتي تضــمن له ان يظل ماكثا في نعم الله أبدا.

(**لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ**)

هناك فــرق بين البــأس والضر ، إذ الضر قد يــأتي من الطبيعة ، أو بسبب المرض ، أو ما أشبه ، بيد ان البأس لا يأتي الا من جهة عاقلة ، والكتاب ينذر الإنســان ببــأس من عند الله ، اي ان الله هو الذي يقدر ويمكر فيعذب ، وهــذا أبلغ في الموعظة. لأن الخطر الذي يأتي من الطبيعة ربما يتمكن الإنسان من تجنبه بطريقة ما ، ولكن سهم العذاب الــذي يوجهه الله إليك لا يخطئ هدفه أبــدا ، لمــاذا؟ لان ارادة العليم القــدير الــذي خلق الكــون وخلقك وخلق كل شيء هي النافذة حتما ، فــأين المفر من عــذاب الله وأين المهرب؟ وكما جاء في الــدعاء : «**ولا يمكن الفــرار من حكومتك**».

العلاقة الوثيقة :

(**وَيُبَشِّرَ الْمُــؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُــونَ الصَّــالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً**)

هنا يسعى القرآن في آياته الكريمة المرة بعد الأخرى ، وبتأكيد شديد وبأساليب

مختلفة من أجل ان يعمق الشعور عند الإنسان بأن هنـاك علاقة وثيقة بين عمله وبين حياته الحالية والمســـتقبلية ، ولكن الإنسـان يريد ان يفهم كل شـيء الا هـذه الحقيقة ، فهو يحـــاول ان يحصل على نعم الله دون ان يطيعه في بذل الجهد المناسب والعمل الصالح والتعبير ب «**يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ**» يدل على الاستمرارية.

أي انهم لا يزالون يعملون الصالحات وهـذا هو المهم. حيث لا ينفع عمل صـالح ما في وقت معين. بل ينبغي ان تكون نية العمل سليمة. ويكون سلوك الفرد سليما. حـتى تكون كل اعماله صالحة.

[3] (**ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً**)

أين ذلك الأجر الحســـن؟ هل هو في الـــدنيا أم في الآخرة؟ أهو في البرزخ أم يوم القيامة الذي يمتد خمسين الف سنة أم في الجنة؟

القرآن لا يحدد وهذا يعني الإطلاق ، اي ان هـذا الأجر أجر دائم يبـدأ من الحيـاة الـدنيا ويمتد عـبر كل المراحل القادمة وحتى دخول جنات عدن.

وفي ذلك تطمين وبشـارة للمؤمـنين بـأنهم ما دامـوا يعملون الصالحات ، فلا داعي لأن يخافوا من المـوت ، بل انهم بانـدفاعهم الى الجهـاد في سـبيل الله وإعلاء كلمته فأن الموت لا يكون بالنسبة لهم خسارة أو انقطاعا للنعم ، وانما هو مجـرد انتقـال من مرحلة نعمها محـدودة ، الى مراحل اخرى نعمها أدوم وأعظم.

ألوان الشرك :

[4] (**وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً**)

وأخطر ذنب يرتكبه الإنسان هو ان يخـرج عن التوحيد الخالص ، ويجعل لله

شـــركاء في وحدانيته ، كــأن يـــزعم جــاهلا أن لله ولـــدا سـبحانه وتعــالى عن ذلك ، وهو الكامل المــنزه عن كل نقص ، وهو الغني غير المحتاج الى الولد وغيره.

وقد تتخذ نسبة الولد الى الله تعالى صورة رمزية غير صريحة ، وهي ان يشرك الإنسـان في حكم الله وسـلطته وملكوته أحدا غـير الله ، فـردا كـان أم مؤسسة وتنظيما ، ويعتقد أنه امتداد لسلطة وحاكمية الله.

ومن المؤسف ان تنتشر هذه الخطيئة بين عـدد كبـير من المسلمين ، ولكن بصورة خفية دون ان يشـعروا بها ، حيث انهم يتبعون علماء السوء ويقلدون من يدعون الفقه والاجتهــاد وليســوا كــذلك ، فهــؤلاء يضــلون من يتبعهم ويقتــدي بهم ، وبالتــالي يحرفــونهم عن خط التوحيد الى منزلق الشرك.

ولهذا فأن المسلم عند ما يريد ان يقلّد في أمور دينه فعليه ان يتأكد من ان مقلّده انه عـالم مجتهد ومتق يـدعو الى الله وباذنه ، حـتى تكـون اعماله خالصة لله ، ويكـون مسلما موحدا بحق.

[5] (**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَـةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً**)

هؤلاء الذين يجعلون أبناء لله وأنـدادا له ، سـواء كـان ذلك صـراحة أو ضـمنا انهم يرتكبـون خطيئة كبـيرة ، وهم يعلمون في أنفسهم يقينا أنما يقولونه ويدعونه هو الكذب بعينه ، ولكنهم يســوغون ذلك عــبر التــبريرات الباطلة ، بهدف تحقيق المنـافع والمصـالح العاجلة حسب تصـورهم وتقديرهم.

ما على الرسول إلا البلاغ :

[6] العاقل يتعجب ، كيف يـترك أولئك البشر الطريق الصحيح ويتبعون طريقا

ملتويا ليهلكوا أنفسهم.

وكلما قـــوي إيمـــان الإنســـان ، وارتفعت درجة حبه للآخرين وإحساسه تجاههم بالعطف والحنـان ، كلما اشـتد حزنه وغمه على هــذا الانحــراف ، لــذلك تجد رسل الله (صلوات الله عليهم) حينما يواجهون هذا الانحراف الكبــير فأنهم يكادون أن يهلكوا أنفسهم لإصلاحه ، فيؤكد القــرآن هنا انه لا ينبغي للرســـول أو المصـــلح عموما ، أن يهلك نفسه في سبيل هداية الناس.

إن هذه حكمة من الله إذ خلق النـاس ليمتحنهم ، وما على الرسول الا ان يقوم بدور الإنذار والتبشير.

(**فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَـكَ عَلى آثـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُـوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**)

«**زينة الأرض فتنة البشر**»

[7] (**إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها**)

كل ذلك لهدف وحكمة.

(**لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**)

إنما جعلنا ذلك لكي نبلو الإنسان ونختبره ، حتى يتبين الذين يعملون الصالحات من الذين يرتكبون السيئات.

[8] ولكن لا تغرك زينة الحياة فإنها لا تدوم ، إنها أيام قليلة وسنوات معدودة وتنتهي.

(**وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً**)

تصور مدينة جميلة تزخر بالحياة فيها أشجار وحــدائق ، وشوارع وبيوت ، وريـاش وامتعة ، ووسـائل .. إلخ ، وإذا بصاعقة قاصفة ، أو زلزال رهيب ، أو حرب مدمرة تحـول تلك المدينة الجميلة الى صـــعيد أملس وارض جــــرداء ، ففي فترة قليلة لا تتعدى (1) من الثانية الواحـدة تحـولت مدينة (هيروشـــيما) ثم مدينة (نجـــازاكي) ربما فيهما من المصانع والعمارات والمنشآت ، الى ما يشبه الرماد.

على الإنسـان ان يعتـبر ، يمكن ان ينجـذب الى زينة الحيـاة ، ولكن ليس ذلك الانجـذاب المطلق ، الـذي يفقد معه قيمه وطريقه انما ينجـــذب الى الحيـــاة في حـــدود حاجته إليها ، وفي نطـاق احتفاظه بقدرته وسـيطرته على نفسه وعلى الحيــاة ، فيصــبح هو مالك الحيــاة لا مملوكا لمتاعها ، ولا ننسى ذلك الحـــديث الكـــريم المـــروي عن الأمام علي (ع) الذي يقول فيه :

«ليس الزهد الا تملك شـــــــيئا ، وانما الزهد الا يملكك شيء»

أَمْ حَسِـبْتَ أَنَّ أَصْـحابَ الْكَهْـفِ وَالـرَّقِيمِ كـانُوا مِنْ آياتِنا عَجَبـاً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَـةُ إِلَى الْكَهْـفِ فَقـالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَـةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَـداً (10) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْـفِ سِـنِينَ عَـدَداً (11) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِـزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُـوا أَمَداً (12) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِـالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَـةٌ آمَنُــوا بِــرَبِّهِمْ وَزِدْنــاهُمْ هُــدىً (13) وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِـهِ إِلهـاً لَقَـدْ قُلْنا إِذاً شَـطَطاً (14) هؤُلاءِ

---

9 [الكهف] : الغار المتسع في الجبل.
[الرقيم] : اللوح المكتوب فيه قصتهم.
14 [ربطنا] : شددنا وقوينا.
[شططا] : الخروج عن الحد بالغلو فيه وأصله مجاوزة الحد.

قَوْمُنَا اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ آلِهَـةً لَـوْ لا يَـأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَـذِباً (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْـفِ يَنْشُـرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِـهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (16)

---

16 [مرفقا] : اليسر واللطف.

أصحاب الكهف :

السنة التي تجري

هدى من الآيات :

في قصة أصحـاب الكهف والـرقيم دروس وعـبر في بيان ضرورة مقاومة الإنسان لجاذبية الشـهوات الدنيوية ، وإثبات قدرته على ذلك عن طريق الإرادة الذاتية أولا ، ثم التوكل على الله ثانيا.

وتبدأ هـذه المجموعة من الآيـات ببيـان الإطـار العـام لهذه القصة ، ثم تفصل الحديث حولها تفصيلا.

بينات من الآيات :

قصة أصحاب الكهف والرقيم :

[9] ان قيـــام هـــؤلاء لله وثـــورتهم ضد الطغيـــان وتحريرهم لأنفسهم من ضغط المجتمع الفاسد ، وبالتـالي نصرة الله لهم بطريقة غيبيّة ، لا يشكل شـذوذا في سـنن الله في الحيـاة ، ولا تثـير عجبا ، لأننا نراها ونلمس آثارها في كل لحظة وفي كل شيء ،

وهي تدل على وجود حكمة في تدبير الكون وقـوّة قـاهرة تجري تلك الحكمة.

فآثــار القــدرة والحكمة الإلهيّة واضــحة ، وأصــحاب الكهف والرقيم كانوا مجموعة بشر يعيشـون مجمل هـذه المعادلة الكونيّة الحكيمة ، اذن لا تعجب إذا جـــــاءت يد الغيب وانتشلتهم من وهدتهم وحررتهم من اغلالهم.

(**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً**)

يقــول المؤرخــون : انه حين قتل يزيد بن معاويــة. سـبط رسـول الله أبا عبد الله الحسـين (عليه السـلام). وطاف برأسه البلاد كان الرأس يتلو من فوق القنـاة هـذه الآية الكريمة.

أو تـدري لمـاذا هـذه الآية بالـذات؟ لعلّه لبيـان تلك المعادلة الكونية ولكي لا يتعجب النــاس كيف ان الــرأس الشريف يتلو القرآن.

وهكذا فأن ذلك الرأس المبارك يشـير الى ان الكـون يجري ضمن معادلة حكيمة من ابعادها نصرة المظلـوم إذ ان نصـرة المظلـوم هي ضـمن تلك المعادلة الـتي أجراها ربنا سبحانه وتعالى في كل ابعاد الكون.

ومعنى هذه الآية هو : هل تحسب ايها الإنســان ان ما جرى لهؤلاء هو شيء عجيب؟ كلا ..

هناك آيات وحقائق تعودنا على رؤيتها ، وهناك حقائق لم نرها ، فـأنت إذا دخلت مدينة لأول مـرة قد تتعجب من لغة وعـــادات أهلها ، وبنـــاء بيوتها وجســـورها ، ونظـــام الشـوارع والسـير فيها .. إلخ ، ولكن إذا بقيت فيها لمـدة سنة فكل شيء يغدو عندك آنئذ عاديّا.

والمجتمع يبــــادل بعضه بعضا التعـــــاون والعمل ، والأحساس والفكر ، فيبدو لنا ذلك الشيء طبيعيّا جدّا لأن هذه السنن حياتيّة ، حيث جعل الله الناس يحتاج

بعضـــهم الى بعض ، وهـــذه ســـنة إلهية عظيمة وعجيبة ، ولكننا لطول الألف بها نراها عادية لا تثير فينا الاستغراب.

والشـمس كل يـوم تطلع من هنا وتغـرب من هنـاك ، وتجري بدقة ونظام ، هـذه سـنة عجيبة ولكننا تعودنا عليها حـــتى أصـــبحنا لا نهتم كثـــيرا لهـــذا الأمر ، اما إذا حـــدث كسوف كلي للشمس مثلا ، فأن النـاس يظهـرون اهتماما بالغا لهذا الحدث ويهرع العلماء الى مراصـدهم واجهـزتهم العلمية لدراسة هذه الظاهرة.

وأن يحكم نظام طاغوتي في بلد ما ويخضع الناس له راضين بالواقع المنحرف ، هذا شيء ألفنـاه لكـثرة حدوثه وانتشاره حتى أصبحنا نعده شـيئا طبيعيا ، ولكن ان تتفجر ثورة الهية ويقوم الثوار المجاهدون بإسـقاط ذلك النظـام الفاسد ليقيمـوا نظـام الحق والعـدل والحرية ، فـذلك يعد شيئا غريبا وينظر الناس اليه على انه معجـزة عجيبة بينما هو في الواقع سنة الهية كسائر السنن التي نألفها.

وربما تشـير هـذه الآية الى ان الإنسـان عند ما يـرى حـوادث ووقـائع جديـدة عليه أو يسـمع بها لأول مـرة فلا يحق له ان ينكرها ، ويكذب بها ، لمجـرد انه لم يألفها ولم يتعود عليها ، فعـدم العلم بالشـيء لا يعـني العلم بعدمه ، وانما على الإنسـان ان يتأمل في سـنن الله في الخليقة ، وينظر الى عظمته وحكمته وقدرته ، ويؤمن بكل ما يصدر عن الله عز وجل من قول وفعل.

والقرآن يذكر لنا : ان الملائكة عند ما بشروا إبـراهيم (ع) بهلاك قـــوم لـــوط كـــانت امرأته قائمة ، فضـــحكت فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقـوب فقـالت : (**يا وَيْلَـتى أَأَلِـدُ وَأَنَا عَجُـوزٌ وَهـذا بَعْلِي شَـيْخاً؟ إِنَّ هـذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**). قالوا : أتعجبين من امر الله؟

والتعجب الذي ينهى عنه القرآن هو ذلك الـذي يـؤدي الى الاستنكار وعدم

التصديق ، اما التعجب بمعنى الانبهار بعظمة الله وقدرته التي تتمثل في بديع خلقه وإتقان صنعه ، الذي يؤدي الى سمو الأيمان وكمال التصديق فشيء حسن ، إذ ان كل خلق الله يثير العجب لدى التأمل والتفكر.

«**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً**»؟!

الكهف هو الفجوة في الصخور الجبلية ، والرقيم هي الكتابة ـ حسب أقرب التفاسير ـ وتختلف التفاسير هل ان أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم؟ أم ان أولئك طائفة اخرى؟

ويشير حديث شريف الى انهم كانوا طائفة اخرى ، ولكن بعض المفسرين يذكرون ان كلمة الرقيم تدل على الكتابة التي نقشها قوم أصحاب الكهف على باب الصخرة ، ولذلك سموا بأصحاب الرقيم.

حرية الإنسان تتحدى :

ومما يثير العجب في قصة أصحاب الكهف ، قدرة هؤلاء الفتية من البشر على الأفلات من أغلال الطاغوت ، وقيود الثقافة الفاسدة ، من دون رسالة ولا رسول. فنحن نعرف ان الله يبعث رسولا الى قوم يعظهم فيؤمن به جماعة ويكفر آخرون ، ولكن ان ينبعث ضمير نقي في مجموعة فتية يعيشون تحت ركام الخرافات وفي ظل الظروف الفاسدة فيثوروا ويتحرروا!! ان هذه قضية تبدو غريبة وتثير العجب ، ولكن لدى التأمل الدقيق يتبين ان فطرة الإنسان مهيأة لتمييز الانحراف من الاستقامة ، وان قدرة الله ونصرته تعين الإنسان الذي يستجيب لنداء فطرته.

فكما ان الله يبعث رسولا ، وينزل عليه الملائكة والكتاب ، ويؤيده بروح منه ، كذلك إذا استجبت ايها الإنسان لنداء فطرتك واتبعت الحقيقة بعد ان عرفتها ، فأن الله يزيدك هدى ويأخذ بيدك ، وهذه هي حكمة بيان قصة أصحاب الكهف

حسبما يبدو ، فلا تقل انك لست برسـول ولم يـنزل عليك وحي ، ففيك من الفطـــرة الإلهية ما لو اتبعتها أعانك الله على ظروفك.

[10] (**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً**)

لقد التجـــأوا الى الكهف حيث لم يجـــدوا في الأرض ملجأ ، ولم يكن هناك من يسمع كلامهم ، أو يستجيب لهم فيعينهم ، فأضطروا الى تلك الوسيلة التي لم يكن امامهم غيرها.

والإنسان عند ما تضطره الظروف للالتجـاء الى كهف داخل جبل في منطقة معزولة قفراء ، فأن ذلك يعـني انه منقطع من كل أسباب القـوة والأمن ، ومفتقد لكل نصـير ومعين ، وهذا هو ما يحدث للذين يريدون ان يتحـرروا من الأغلال ، ويثوروا على الأوضاع المنحرفة.

وحينما لم يجد فتية الكهف أحـدا في الأرض ينصـرهم التجأوا الى رب السـماء سـبحانه ، ودعـوا الله أن يعطيهم أمرين :

الأول : الرحمة اي الخير والتقدم ، وكل ما في الحياة من أسباب السعادة والفلاح.

الثـاني : ان يهـديهم الى الطريق السـوي صـحيح ان فطرتهم أوضحت لهم ان طريق قـومهم خـاطئ ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الطريق البديل. وقوله تعالى :

«**وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً**». يدل على ذلك.

خرق السنن الطبيعية :

[11] (**فَضَـرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْـفِ سِـنِينَ عَدَداً**)

ان الضـــرب على الأذان اشـــارة لطيفة الى ان أهم علامة للنوم عند الإنسان هي ثقل اذنه ، وانقطاع سمعه ، واما إغماض العين ، فليس كافيا لأن يـدل على النـوم ، إذ قد يغمض الإنســان عينيه وهو مســتيقظ ، ولكنه لا يمكن ان يقطع سمعه وهو كذلك.

هذا من جهة ومن جهة ثانية باستطاعة البشر ان ينام يوما أو يـومين بـدون أكل أو شـرب ، بينما نجد هـؤلاء قد نـاموا سـنين عديـدة ، حـتى انتهى العهد الفاسد ، وهكـذا كانوا يبدون في مظهر الأموات ، ولذلك يقول القرآن :

[12] (**ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِـزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً**)

فشـبه ايقـاظهم ببعث المـوتى ، بسـبب طـول فـترة مكوثهم نياما ، ولكن لماذا بعثهم الله يا ترى؟

ذلك لكي يرى الناس أنه قويّ قـدير ، وان حـزب الله هو الغـالب ، إذ أن هنـاك حزبـان فقط في سـاحة الحيـاة مهما اختلفت العنــاوين والأســماء ، حــزب المســتكبرين الراضـــين بحكم الظلم والجـــور ، والآخر هو حـــزب الله الثائرين على الظلم والجور.

وحزب الله لا يملكـون الا أنفسـهم في البداية ، حـتى انهم يضــطرون للالتجـاء الى الكهف ، أو كما في عصــرنا الى العمل الســـري أو الهجـــرة من البلاد ، وهـــذا دليل انقطاعهم عن الوسائل المادية.

حينما نقـــارن بين أصـــحاب الكهف وبين الحكومة الطاغوتية آنذاك ، حيث كان الملك وأعوانه يملكون القوة والهيبة والســلطان وكل الوســائل المادية ، نجد ان كفة أصـــــحاب الحق هي الراجحة بـــــالرغم من ذلك لأن الطـــواغيت كـــانوا يســـيرون على طريق الخطأ ، ولم يسـتطيعوا ان يحمـوا ما كـانوا يملكـون بينما نجد أولئك الــذين لم يكونــوا يملكــون شـيئا الا أنفســهم وإرادتهم ، حموها بالإيواء الى الكهف اولا ، ومن ثم

كسبوا الجولة في ساحة الصراع.
اما التفسـير الظـاهر للأحصـاء في الآية فهو معرفة عدد السنين التي مكثوها في الكهف. وعلى هـذا التفسـير يكون المراد من الحزبين هما الفريقان الذين اختلفـوا في عدد السنين الـتي قضـوها في النـوم كما تشـير الأحـاديث التالية.
هـذا هو المـوجز لقصة أصـحاب الكهف أما التفصـيل فتتعرض له الآيات القادمة ..
[13] (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ**)
القـرآن يقص الأنبـاء بـالحق فهو أولا : يـذكر الأنبـاء صحيحة ، وثانيا : يهدف من ورائها اهدافا سليمة ، اي عند ما تـورد الآيـات القرآنية قصة فإنها تسـتهدف من ورائها تكـوين حكمة صـحيحة في ذهن الإنسـان ، واقامة حكم الحق في العالم ، وثالثا : ان مجريـات القصة تتطـابق مع السنن الحق في الحياة وهـذه الأبعـاد الثلاثة موجـودة في كل قصة من قصص القرآن.
(**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً**)
ان هؤلاء الفتية بشر ولم يكونوا رسلا ، ولكنهم آمنـوا بربهم وتحرروا من ضـغط الجاهلية فأيـدهم الله ، وكـذلك كل إنسان في العالم يملك ارادة التحرر ، وعند ما يضـعها موضع التنفيذ فأن هدى الله يأتيه ويؤيده.
وفي الأحاديث إنّ هـؤلاء لم يكونـوا كلّهم شـبابا ولكن القرآن سماهم فتية ، لأن الفتى أقدر على التغيير والثورة ، وعلى ان يبدل مسـيرته ومنهاجه ، والقـرآن يتحـدث عن هذه الثورة في الآية التالية ، ويبـدو ان كلمة الفـتى تشـير إلى من يملك الفتـوة وهي الرجولة والبطولة والشـجاعة قال ابو عبد الله الصادق (عليه السلام) لرجل «ما الفتى

عندكم؟ فقال له : الشاب ، فقال : لا ، الفتى : المـؤمن ، إن أصـــحاب الكهف كــانوا شــيوخا فســـماهم الله فتية بأيمانهم» [1]

[14] (**وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا**)

اي ثـاروا وانتفضـوا ، ولكن لمـاذا يقـول وربطنا على قلوبهم؟

ذلك لأن الإنســـان الـــذي يريد أن يتحـــرر من ربقة الطـاغوت يـرى ــ في بداية أمـره ــ القضـية غامضة ، ثم يتقـدّم قليلا فتتضح معالمها أمامه ، ولكنه لا يملك القـدرة الكافية على الصــمود والمقاومة ، فهنا يزيـــده الله ارادة وعزيمة ، ويربط على قلبه حـتى لا يـتردد ، ويسـتمر في ثورته متحررا من الخوف.

ان بداية القيام أن تنطلق أنت ، ولكن بعد ذلك تجري حلقـــات النهضة بطريقة متتابعة وبتأييد الهي ، اي ان الله سـبحانه وتعـالى يتـولى أمرها فيزيد الثـائرين وضـوحا في الرؤية ، ويقوي معنوياتهم ، ويوفر للثـورة أسـباب النجـاح سواء بطريقة عادية أو غير عادية.

(**فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

هـذه الكلمـات الثورية الشـديدة القاصـفة كالرعد لا تصدر عادة الا عن رسول ، ولكنها صدرت عن هؤلاء بتأييد الله ، اي بعد ان ربط على قلوبهم.

ثم يعلنـــون انهم عـــازمون على المضي في الثـــورة وعدم النكوص ..

(**لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً**)

---

(1) نور الثقلين ج 3 ص 245

وكلمة «لن» تدل على الأبديّة ، أي مستحيل علينا أن نرجع الى واقعنا الفاسد ، ثم يذكرون سبب ذلك :

(**لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً**)

أي ان عودتنا الى افكارنا وأقوالنا السابقة هي ضـلال وانحراف وشذوذ.

الجذرية :

لقد ثـاروا ثـورة جذرية ، وهـذه من سـمات الثـورة الرسالية ، فمنذ البداية قالوا : لن نـدعوا من دونه إلها أي لن نخضع لهـذا الطـاغوت ولا لطـاغوت آخر يـأتي مكانه ، ولن نقبل ان يطـــاح بفئة حاكمة ظالمة لتســـتولي على الحكم فئة أظلم منها ولكن باسم آخر وشـعارات اخـرى ، أو يـذهب ملك فينصـبوا ابنه مكانه ويظل النظـام الفاسد كما هو.

فكلمة «إلها» تشير الى عدم التخصيص بالملك الـذي كـان يحكم في زمـانهم ، بل الى كل من يتصف بادعــاء الندية لله سـبحانه وهكـذا كـانت رؤيتهم صـافية. لأن الله سبحانه أيدهم وربط على قلوبهم.

ولذلك جاء في الحديث المـأثور عن أبي جعفر البـاقر (عليه السلام) انه قال : «**اما علمت إن أصحاب الكهف كـــانوا صـــيارفة يعـــني صـــيارفة الكلام. ولم يعن صيارفة الدراهم**» [1]

[15] لقد قطعـوا آيّة علاقة لهم بالماضي وسـفهوه ، ولم يكتفوا بذلك وانما أخذوا يسفهون الآخرين.

(**هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً**)

---

(1) المصدر

فاســتنكروا موقف قــومهم الــذين اتخــذوا الســلاطين والرؤساء آلهة من دون الله.

(**لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ**)

إذا أراد الإنســان أن يســلك طريقاً ما أو رجلا قائــدا فليفعل ، ولكن ان يأتي بحجة قاطعة ودليل قوي ، وهكـذا خطأ أصحاب الكهف منهج الكفار في اختيـار الإله بطريقة غــير عقلانية ، ولم يخطئــوا النتيجة فقط ، وانما بــدأوا بالســبب الجــذر للانحــراف ، وهــذه من أقــوى واعمق الثورات الثقافية والسياسية في العالم ، فهي لا تنظر الى النتـائج الظـاهرة والفسـاد القـائم فقط ، وإنما تبحث عن السبيل الذي سلكه الناس حتى وصلوا الى ذلك الفســاد ، أو طريقة التفكير التي أدت بهم الى هذه النتيجة.

سياسة الطاغوت :

(**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً**)

هذه الآية وآيات اخـرى شـبيهة تشـير الى ان الطغـاة يؤطرون عملهم بأطار القدسية ، ويحاولون تضليل النـاس وإيهــامهم بــأن ذلك هو من قبل الله ســبحانه وتعــالى ، ويربطون أنفسهم بطريقة ما بالله وبالمبادئ السامية.

حـتى ان هتلر الـذي جلب الـدمار للعـالم كـان يعتـبر نفسه المنقذ الذي أرسله الله لأنقاذ البشـرية ، والصـليب المعقــوف انما هو اشــارة الى انه يمثل الله في الأرض ، وفي هذه الآية يقول أصـحاب الكهف : ان قـومهم افـتروا على الله الكذب ، فقالوا : ان الله هو الذي أمرنا بأن نعبد تلك الألهة وهو بريء مما يدعون.

تأييد الله :

وأخــيرا وصل أصـحاب الكهف الى نتيجة وقــرروا ان يعتزلوا قومهم في البداية ثم

يلتجئــوا الى الكهف ويطلبــون رحمة الله لينصــرهم في حركتهم الثورية.

[16] (**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ**)

من الذي قال لهـؤلاء الفتية إنهم إذا اعـتزلوا النـاس ، والتجـأوا الى الكهف ، فـأن الله سـبحانه سينصـرهم؟ هل كان هناك رسول يبلغهم؟

كلا .. وانما كـان ذلك من إلهـام الفطـرة ، انه حينما يكون عمله الله العزيز فأن الله يؤيّده وينصره.

التأييد الإلهي :

(**وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً**)

اي ان الله ســبحانه يهيء لكم الوســائل لتطــبيق برامجكم. صحيح ان الوسائل منقطعة والطـرق مسـدودة أمامكم الآن ، ولكن اعتزلوا الكفار والمشركين ، والتجؤوا الى الكهف وانتظــــروا رحمة الله فهي آتية لا ريب ، وانه سوف يهيء لكم السبل الملائمة مادية ومعنوية.

وهكذا نستوحي من هذه الآية الكريمة أسـلوبا للثـورة وهو : اعتزال الطغاة وعدم اتباعهم ، وانتظار رحمة الله ، فلا نكـون مسـتعجلين للحصـول على النتيجة ، وانما علينا بالصبر وانتظار الفرج. وكـانت الثـورات الإلهية تبـدأ هكـذا عادة : يعتزل شخص أو مجموعة اشـخاص ، ثم يلحق بهم الآخرون ، وتأتيهم الأموال والسـلاح والرجـال من حيث لم يحتســبوا ، وفي ذات الــوقت يبــدأ الحكم الطــاغوتي بالضعف مع الزمن ، وتظهر فيه الثغـرات فتتهيأ الظـروف لتفجر الثورة ومن ثم انتصارها.

وَتَـرَى الشَّـمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَـزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَـرَبَتْ تَقْرِضُـهُمْ ذاتَ الشِّـمالِ وَهُمْ فِي فَجْـوَةٍ مِنْـهُ ذلِـكَ مِنْ آيـاتِ اللـهِ مَنْ يَهْـدِ اللـهُ فَهُـوَ الْمُهْتَـدِ وَمَنْ يُضْـلِلْ فَلَنْ تَجِـدَ لَـهُ وَلِيًّا مُرْشِـداً (17) وَتَحْسَـبُهُمْ أَيْقاظـاً وَهُمْ رُقُـودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّـمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِـطٌ ذِراعَيْـهِ بِالْوَصِـيدِ لَـوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَـوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِـراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبـاً (18) وَكَـذلِكَ بَعَثْنـاهُمْ لِيَتَسـاءَلُوا بَيْنَهُمْ قـالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قـالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَـوْمٍ قـالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَـابْعَثُوا أَحَـدَكُمْ بِـوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى

---

18 [بالوصيد] : الوصيد من أوصدت الباب أي أغلقته وجمعه وصائد.

طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْـعِرَنَّ بِكُمْ أَحَـداً (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَـرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُـوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (20)

وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً

هدى من الآيات :

وهذه المجموعة من الآيات الكريمة تبيّن لنا جانبا من قصة أصحاب الكهف ، الـتي تشـهد على هـذه الحقيقة أن الإنسان قادر على أن يقلع من أرض الشهوات والضـغوط ، ويحلق في سماء القيم بقوّة إرادته وبنصرة الله سبحانه وتعالى.

ان لطف الله بالإنسـان لطف دائم وقـديم وشـامل ، ولكنه بحاجة الى تحـــرك من قبل الإنســـان نفسه ، فلو تحـرك الإنسـان الى ربّه خطـوة فسـوف يتقـدم اليه ربه فراسخ وأميالا.

ان فتية الكهف حينما تركــوا قــومهم ، والتجــأوا الى الكهف طلبا لرحمة الله سـبحانه وتعـالى ، فـأن الله وسع عليهم الكهف ، وابعد عنهم الشـــمس حـــتى لا تحـــرقهم أشــعتها ، فكــانت تشــرق عن يمين كهفهم وتغــرب عن شــماله ، بحيث تمنحهم الأشــعة اللازمة للحيــاة دون أن تؤذيهم.

ومن ناحية أخرى فقد جعل الله نـومهم بحيث ، كـانوا يتقلبون بسـبب خفة نـومهم ، وهـذا بـدوره من رحمة الله سبحانه وتعالى ، لأن بقاءهم على حالة واحدة كان سيضر بأجسامهم كما أنه يخرق ثيابهم.

أما كلبهم فقد كـان يـربض أمـام بـاب كهفهم باسـطا ذراعيه ، كما يفعل عـادة عند ما يجلس للمراقبة ، والـذي يمر عليهم يحسب أن هـؤلاء مجموعة من النـاس ، جـاؤوا الى هـذا المكـان للقيلولة ، ثم الـذهاب الى عملهم ، لأن نومهم خفيف ، والكلب موجود ، وهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال بالرغم من استيلاء النوم عليهم.

فقد حماهم الله سـبحانه وتعـالى من الأعـداء بسـبب الرعب ، فالحيوانات كـانت تخـاف من الكلب ، أما النـاس فكانوا يرتعبون لأنهم إذ اطّلعوا على هـذا الكهف وقد نـام فيه هؤلاء ، يرون وكأن ابطالا يربضـون فيه فيولّـون عنهم فرارا ، ويمتلئون منهم رعبا.

لقد أبقاهم الله اجيالا وقرونا على هـذه الحالة ، حـتى تشـابهت حـالتهم مع حالة المـوتى ، لأن الله لما أيقظهم عبر عن ذلك بالبعث.

جلس هؤلاء من النـوم ، وبعد أن انهـوا تسـاؤلهم عن مدّة نومهم ، وحيث بلغ أقصى تقـدير لهم أنهم نـاموا يوما أو بعض يـوم شـعروا بـالجوع ، وكـان أحـدهم يملك نقـودا وكـانت عبـارة عن سـكة فضـيّة دفعها الى وزير الملك ، فتنكر بأن لبس ملابس الـراعي وأخذ تلك النقـود ، وذهب الى المدينة ليجد أمامه المفاجـأة ، فقد لاحظ أن المدينة تغيّرت وأن الأوضاع تبدلت.

كما ان النقـود الـتي كـان يحملها كشـفت حقيقته وحقيقة جماعته ، لأن حاشـية الملك وأعوانه لما افتقـدوا هؤلاء كان بعضـهم وزراء واداريين كبـار ، بحثـوا عنهم في كل مكـان فلم يجـدوهم ، فنشر ذلك الخـبر كحادثة مهمة وكتب ذلك في تاريخهم ،

وكـانت الأجيـال تحفظ هـذه القصة الغريبة وتتناقلها ، الى أن جـاء هـذا الـوزير متنكـرا بلبـاس الـراعي ، ومعه تلك النقــود المنقــوش عليها صــورة الملك في ذلك العصر ، فعـرف النـاس أنهم هم الـذين يـذكرهم التـاريخ المـدوّن لديهم.

بيّنات من الآيات :

[17] (**وَتَــرَى الشَّــمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَــزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ**)

ربّما يريد السياق ربط ثلاث حقـائق ببعضـها في هـذه الآية ، وليكوّن في أذهاننا صورة ذات ثلاثة أبعاد :

البعد الأول : يرينا آية الشـــــــــمس ، وكيف أن الله ســـبحانه أجراها في مســـيرها دون أن تتخطى المـــدار المرســوم لها ، والتزامها بنظـام معيّن ، وهــذه لفتة نظر الى السنن الكونية التي يجريها الله بقدرته وحكمته.

البعد الثاني : إذا كيّف الإنسان نفسه مع هـذه السـنن يستفيد منها ، فالشـمس الـتي تطلع وتغـرب في مسـيرة محـددة إذا تعـرض الإنسـان الى وهجها بصـورة مباشـرة فسـوف يتـأثر ، وإذا ابتعد عنها فسـوف يتـأذى ، وإذا كـان في وضع معيّن فأنه يســتفيد منها ، وهكـــذا فـــأن تكيّف الإنسان مع الشمس بصورة معتدلة ينفعه.

البعد الثـالث : أن تكيّف الإنسـان مع سـنن الكـون لا يمكن الا بهداية الله ســبحانه ، لأنه هو الــذي يحيط علما بهذه السنن ، ويعرّف الإنسان بها.

ومن خلال التـــدبّر في الآية يظهر لنا مـــدى لطف العلاقة بين كلماتها ، يقول القرآن : «**وَتَرَى الشَّـمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ**»

أي أن الشمس حينما تطلع فإنها تبتعد عنهم.

تزاور : تبتعد وتنحرف. وقال البعض ان مـادة الحكمة نابعة من الزيـارة وتتناسب مع شـروق الشـمس كـأن الشـمس عاقلة ومريـدة وهي ليست كـذلك ، ولكن الـذي قـدر للشـمس حركتها حكيم وقـادر وهو الله سـبحانه وتعالى.

(**وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ**)

أي تعـبر عنهم وتـتركهم ، وكلمة تقرضـهم تتناسب ومغيب الشمس.

(**وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ**)

أي كـان مكـانهم متسـعا ويعيشـون فيه براحة تامة ، ويقال أن باب الكهف كان على الشمال ، فكانت الشمس تطلع عن يمينه وتغرب عن شماله ، وهذه هي مواصـفات غرفة النوم الصحّية ، أن تكـون واسـعة ، ولا تشـرق عليها الشـمس مباشـرة ، ولكن قريبا منها ، ذات اليمين وذات الشمال.

(**ذلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ**)

وهنا ترتبط قصة الهداية بقصة الشـمس ، وحركتها حيث أنها من آيـات الله الـتي تشـير الى حكمته وقدرته الواسعة. كما ان بقاء هذه الفئة في الكهف هـذه السـنين من آيات الله.

(**مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ**)

ما دامت هذه من آيـات الله وحكمته ، وتـدل على أن الله هو الـذي جعل الأمـور بسـنن ثابتة دقيقة ، فعلينا أن نهتدي بهدى الله ، ونلتمس المعرفة منه سبحانه.

(**وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً**)

أي يرشــده الى طريق الحق ، الله هو وليّ الإنســان الـذي يرشـده ، ويـبيّن له المنـاهج الصـحيحة في الحيـاة ، والــذي يريد أن يتبع بــرامج الله ومناهجه هو المهتــدي ، ومن يعرض عن ذلك فليس هناك اله آخر يهديه من دونه.

[18] (**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ**)

يمرّ عليهم الرجل فيراهم وكأنهم في حالة الاستيقاظ ، وهذا يدل على أن نـومهم كـان خفيفا ولم يكن مسـتوليا على كل حواسهم وأعضـائهم ، بحيث لم يمكن للنـاظر أن يكشف لأول وهلة انهم نــائمون ، ولعله بســبب عيــونهم المفتحة ، وتقلبهم.

(**وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ**)

وهذا التقليب يسـبب راحة الجسد ، كما يسـبب عـدم تمزق الثياب وتخرقها.

(**وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**)

الكلب أيضا يـربض على بـاب الكهف ، وكأنه يـتربص بكل من تسوّل له نفسه من إنسان أو حيوان متوحش أن يدخل الكهف ويؤذي أصحابه.

(**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً**)

ومن جهة ثانية فـأن مظهـرهم كـان ينم عن قـوتهم وبطولتهم الخارقة ، ويـوهم النـاظرين بـأنهم مستيقضـون وليسوا نائمين ، كان يبعث على الخوف ومن ثم الفرار.

(**وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً**)

وهذا للدلالة على أن منظـرهم ومخـبرهم كانا يبعثـان على الــرعب ، إذ أن من يــراهم يخــاف وعند ما يهــرب ويبتعد فأن قلبه يمتلئ رعبا ومن ثم لا يمكن أن يفكر

بالرجوع ثانية ، وهـذه حماية الهية لهم من خطر الأعـداء ، ففي الأحـوال العاديّة قد يخـاف المـرء من شـيء ويهـرب منه ثم بعد ما يهدأ ويترويّ فأنه لا يجد مبررا للخوف ومن ثم يتمكن من العودة لذلك الشيء ثانيـة. أما بالنسـبة الى هؤلاء فانّ أسـباب الـرعب تبقى عند من يـراهم حـتى بعد ان يتركهم.

[19] لقد ناموا هذه الفترة الطويلة ، ولكنهم بعد ذلك بعثـوا من قبل الله سـبحانه وتعـالى لكي يسـأل بعضـهم بعضا.

(**وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ**)

هنا نتوقف قليلا لنطرح هـذا السـؤال : ما هي العلاقة بين بعثهم وايقاظهم من الرقاد وبين سؤال بعضهم بعضا؟

ربما تكون العلاقة بين بعثهم وتساؤلهم ، أن الإنسـان حينما يكـون نائما فأنه يكـون غـافلا عمّا حوله ، وحينما يستيقظ فأنه يفهم ويعلم وينشط فكره ، وأول شيء يأتي الى الإنسان بعد اليقظة هو عقله حتى قبل ان تسمع أذنه ، أو ترى عينه ، وتتحرك يـده ، فـأن عقله يتحـرك وعند ما يتحرك العقل فأنه يبحث عن معلومة جديدة.

وهـذه الحالة توجد عند الإنسـان حينما يبعث في يـوم القيامة ، حيث يتسـاءل النـاس بينهم يومئذ : كم لبثنا في قبورنا؟

فبعضـهم يقـول : يوما ، وبعضـهم يقـول : سـاعة من نهار ، المهم أنهم يطرحون هذا السؤال بينهم ويناقشونه ، وهناك علاقة وثيقة بين قصة أصحاب الكهف والعـبرة منها ، وبين قصة الإنسـان في رحلته الطويلة من الحيـاة الى الموت ، ومن الموت الى الحياة سنذكرها مستقبلا إنشـاء الله.

(قــالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قــالُوا لَبِثْنا يَوْمــاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

في البداية قـالوا : يوما وكـانوا يعتقـدون انهم نـاموا يوما كاملا ، ثم بعد ما حددوا مسير الشمس وفكروا جيـدا ، توصـلوا الى انهم لم ينـاموا هـذا المقـدار فاسـتدركوا قائلين : أو بعض يوم.

(قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ)

بعدئذ أخـذوا يفكـرون أكـثر وبـرزت امـامهم عـدة تسـاؤلات .. فربما كـانت هنـاك شـجرة امـام الكهف فلم يجـدوها ، أو شـاهدوا هنا صـخرة لم تكن من قبل ، وبلا شك فـأن بعض التطـورات والتغـيرات حـدثت في البيئة المحيطة بـالكهف ، فـتراجعوا عن قـولهم ، وعلمـوا بـأن هنـاك حقيقة مجهولة لا تـزال غامضة عليهم ، وهي طـول مدة نـومهم ، لـذلك سـكتوا عن هـذا الأمر وقـالوا : ربكم أعلم كم لبثتم؟ وكيف لبثتم؟

الطريق الى العلم :

وقبل ان ننتقل الى المجموعة الثانية من الآيـــات ، لا بأس ان نتدبر قليلا في هـذه الآية ، ان رحلة الإنسـان من الشك الى اليقين ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الغـــرور الى التبصر ، تشـبه الى حد بعيد رحلة الإنسـان من النـوم الى اليقظة ، فالنوم وسـبات الجسم يشـبه سـبات العقل والعلم أي الجهل ، فكما ان الله سـبحانه هو الـذي ينقل الجسم من حالة النـــوم والســـكون الى حالة اليقظة والحركة ، فهو أيضا الــــذي ينقل العقل من حالة الجهل والركـود الفكـري الى العلم والنشـاط الفكـري الخلاق ، فعلى الإنســان اولا : ان يهتــدي الى جهله وهـــذه بداية مسيرة العلم ، فيقول : انني لا اعلم ، ولكن ذلك لا يعـني ان العلم غـير موجـود ، فالله يعلم ، ولأن الله يعلم وأنا لا أعلم فلا بــدّ أن أتحــرك نحو الله حــتى اقتبس من نــور علمه.

وكلمة لبثتم تشـمل عـدة تسـاؤلات : كيف لبثتم؟ كم لبثتم؟ ما هي مجريـات الأمـور وتطـورات الأحـداث الـتي أحاطت بكم في هذه الفترة؟

(**فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ**)

في حصول الإنسان على العلم عليه الا يصبح متجـردا عن الواقعيـات ، فأجتهد في تحصـيل العلم الـذي ينفعك ، ولا تبحث في أمـور بيزنطية جدلية ، فـالقرآن يقـول : أن هـؤلاء جلسـوا وخططـوا وفكـروا وقـالوا : حسـنا كم بقينا على حالنـا؟ وكيف بقينـا؟ تلك قضـية جانبية ، أما القضـية الأهم فهي الجـوع ، فلنتحـرك الى ما يفيـدنا ونفكر في ما بورقكم : هو السكة الفضية.

(**فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ**)

ان الإنسان المـؤمن يبحث عن ازكى الطعـام ، زكـاة مادية ومعنوية ، فلا يبحث عن طعام يضـره ، كما لا يبحث عن طعام حرام ، بل يراعي النواحي الصحية والشرعية.

ثم يشير القرآن الى مسألة عدم الإسـراف في الأكل ، فلا ينبغي أن يأكل الإنسان بقدر ميزانيته بل بقـدر حاجته فقط ، لذلك قالوا : «**فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ**»

اي بمقدار ما تأكلونه وليس أكثر من ذلك.

(**وَلْيَتَلَطَّفْ**)

اي ليكن تصـرف الـذي يـذهب ليبحث عن الطعـام ويشـتريه مهـذبا ، وحركاته لطيفة فو قد يشـتري الإنسـان طعاما بقـدر حاجته ، ولكن بعد العـراك والخشـونة مع النـاس ، ولكن القـرآن ينهى ايحائيا عن ذلك فيقـول : «**وَلْيَتَلَطَّفْ**» وهذا من آداب

المعاملة.

(**وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً**)

وذلك حتى لا يحس الأعداء بهم ، وهذا يفيد بأن الـذي يعمل عملا ســــريا عليه ان يتكتم على عمله ، وأن يعمل بطريقة ذكية بحيث لا يشعر أحدا بـأن عنـده عملا سـري ، ولا يكفي أن يكتم عنهم نـوع عمله فحسب بل حـتى يكتم شخصه ، وذلك حـــــتى لا يدفعه فضـــــوله الى البحث واكتشـــاف اســـرار ذلك العمل ، وهـــذا منتهى الســـرية والكتمان المطلوب في العمل الثوري الناجح.

[20] (**إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَــرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُــوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً**)

اما يقتلـــونكم رجما وهو من أشد أنـــواع القتل واما يضغطون عليكم فيسببون ارتدادكم عن ايمانكم وفي ذلك ابتعـادكم النهـائي عن الفلاح والسـعادة ، وهـذا يعـني ان على الإنســـــان الا يعـــــرض نفسه وبمحض إرادته لتلك الضغوط الـتي يخشى على نفسه منها ، ولا يقـول أحد انا لا يهمـني السـجن أو التعـذيب لأني رجل صـامد ، فربما تكون الآن صامدا ، ولكن غدا إذا صبّ عليك العـذاب صـبا في سـجون الطـواغيت فقد تفقد ذلك الصـمود وتنهـار ، وبانهيارك ينهـار دينك ، لـذلك فـأن أصـحاب الكهف اتبعـوا شروط التقية والسرية من أجل الا تتسبب ضغوط الأعداء عليهم في عـــودتهم عن دينهم الى دين الملك آنـــذاك ، وبالتالي يحرمون من الفلاح والسعادة. والواقع انهم كـانوا ـ لفـترة طويلة ـ يعبـدون الله في السـر. وأعطـاهم الله أفضل الجزاء على ذلك جاء في الحديث الشريف المـأثور عن أبي عبد الله الصـادق (عليه السـلام): «**إن أصـحاب الكهف أسرّوا الأيمان وأظهروا الكفر ، وكـانوا على جهـــــار الكفر أعظم اجـــــرا منهم على الأســـــرار بالأيمان**» [(1)].

---

(1) نور الثقلين ج 3 / ص 244

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْـدَ اللـهِ حَـقٌّ وَأَنَّ السَّـــاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنـــازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْـــرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُـــوا عَلى أَمْــرِهِمْ لَنَتَّخِــذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْــجِداً (21) سَــيَقُولُونَ ثَلاثَــةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُــونَ خَمْسَــةٌ سادِسُــهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمــاً بِــالْغَيْبِ وَيَقُولُــونَ سَــبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِـدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيـلٌ فَلا تُمـارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِـراءً ظـاهِراً وَلا تَسْـتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22) وَلا تَقُولَنَّ لِشَـيْءٍ إِنِّي فاعِـلٌ ذلِكَ غَداً (23) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ

---

21 [أعثرنا] : عثر على الشيء اطلع عليه.
22 [رجما بالغيب] : ظنا من غير دليل.
[تمار] : من المراء وهو الجدال.

إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَــداً (24) وَلَبِثُــوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِــنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (25) قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَــهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26)

وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها

هدى من الآيات :

كنّا مع أصحاب الكهف وقد بعثوا بأحـدهم الى المدينة ليجلب لهم الطعـام بما يكفيهم رزقا ، وذهب الرجل بعد (309) سـنة وقد دارت الـدنيا وتغيّـرت الأحـوال وتبـدلت الملوك ، وجاء بسكة قديمة فعرفها الناس وتيقنوا أن هـذا واحد من الذين خرجوا من ديارهم ، وأسسوا نواة الحركة التوحيدية ، تلك الحركة الـتي كـانت في ذلك اليـوم وبعد السـنين الطويلة حاكمة على البلاد ، ثم مـاذا حـدث بعد ذلك؟ .. وهل عاد هؤلاء الى كهفهم مرة أخرى ونـاموا في رقـدة طويلة لا يسـتيقظون منها الا يـوم القيامة أو يـوم الحشر الأصـغر؟ القـرآن لا يجيب على ذلك والله وحـده العالم.

بيّنات من الآيات :

[21] يـذكرنا القـرآن بحقيقة يجب أن نعتـبر بها من خلال قصة أصـحاب الكهف ، وهي حقيقة البعث والنشـور الـتي يلخصـها الحـديث القائل : «**كما تنـامون تموتـون وكما تستيقظون تبعثون**» ، وإذا فكر الإنسان بأنه قادر على مقاومة الموت فليبدأ ذلك

بمقاومة النــوم ، وإذا أراد الإنســان ان يعــرف كيف يبعث بعد ان يموت فليفكر كيف يستيقظ بعد ان ينام ، وإذا أراد الإنســـان آية تـــدل على ذلك فلينظر الى الحيـــاة كلها ، فالحياة جميعا موت وبعث.

البعث في الحيـاة ليس شـيئا بـدعا ، فكل شـيء في الحيــاة له بعث ، وفي الإنســان نفسه دليل على البعث ، كيف كان نطفة في صلب أبيه ، ثم في رحم أمه ، ثم ولد طفلا رضيعا ، ثم نما فأصبح رجلا ضـخما قويا أو ليس ذلك بعث؟

وهذه الأرض تراها مرة فينزل الله سبحانه عليها مــاء من الســماء ، فــإذا بها تهــتز وتخضر ، ثم لا تلبث هـــذه الخضرة أن تموت وتصبح هشيما تذروها الرياح. هذه قصة الحيـاة كلهـا. أو يكـون صـعبا على خـالق هـذه الحيـاة أن يحيي الناس بعد موتهم؟!

هذا مع العلم بأن عقولنا القاصرة الصغيرة تعتقد بـأن الإحياء بعد الموت أسهل عند الله من الإحياء بعد العــدم ، وهـذه المعادلة خاطئة بالنسـبة الى قـدرة الله عـزّ وجل ، لأن قـدرة الله لا متناهية ، وهو لا يبـذل مجهـودا ولا يتعب حـتى يكـون عنـده شـيء أسـهل من شـيء آخر ، ولكن بحسب مفاهيمنا وخبراتنا الحياتية أن إعــادة صــنع شــيء أيسر من ابتداء صنعه واختراعه ، فكيف نؤمن بأن الحيــاة لم تكن ثم كانت ولا نؤمن انها بعد اندثارها ستعود ثانية؟

لــذلك علينا ان نســتفيد ، من قصة أصـحاب الكهف ، هذه العبرة.

(**وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْـدَ اللـهِ حَـقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها**)

نستطيع ان نستخلص من هذه الآية ثلاثة أمور :

أولا : صــدق وعد الله لعبــاده المؤمــنين الصــالحين بالنصر ، حيث نصر أصحاب

الكهف حين حمـــاهم من بطش الطغـــاة ، ونصر رســـالة أصـحاب الكهف حين أبـاد أولئك الطغـاة وحكم الصـالحين في البلاد ، وجعلهم خلفاء وأئمة.

ثانيا : أراد الله سبحانه أن يعـرّف الإنسـان أن الأمـور بيده ، وأنه قـادر على ان يفعل ما يشـاء من الأمـور الـتي يتصـور الإنسـان انها مسـتحيلة ، وهي كـذلك فعلا حسب قدرة المخلوق المحدودة ، أما حسب قـدرة الله المطلقة فهي سهلة وميسورة ، وذلك مثل قضية البعث والأحياء.

ثالثا : ان العلم والجهل ، والهـدى والضـلال ، انما هو من قبل الله سبحانه وتعالى ، فخلال هذه الفـترة الطويلة فتش الناس عن أصحاب الكهف الذين كانوا موجودين في منطقة قريبة جدا منهم ، بدليل أن ذلك الرجل الذي بعثوا به ليشــتري الطعــام نــزل من الكهف وتوجه إلى المدينة من فـوره ، الا أنهم لم يجـدوا لهم أثـرا ، ولكن الله اعـثر عليهم عند ما أراد أن يعلمــوا بــالأمر ، فــالعلم وأســباب العلم من الله سبحانه.

والسؤال ما هي العلاقة بين أن يكــون وعد الله حقا ، وان تكون الساعة لا ريب فيها؟

الجـواب : ان السـاعة تـدخل ضـمن وعـود الله ، فقد وعد بها الصـالحين وتوعّد بها المجـرمين ، ونحن نسـتطيع أن نبصر ذلك من خلال مجريات الأمـور في الحيـاة ، ومن خلال تـدبرنا في احـداث التـاريخ ، وان الله حينما يعد فأنه يفي بوعــده في الــدنيا ، وحينما وعد ان ينصر الصــالحين فعل ، وحينما وعد ان يســــتخلف المستضــــعفين فعل ، وحينما وعد ان يعين المتـوكلين عليه فعل ، والله سـبحانه صـادق الوعد ، وما دام كـذلك فأنه يـوم القيامة أيضا يفي بوعده.

زيارة القبور :

وقف هؤلاء على بـاب الكهف ، ووجد ان أولئك الـذين كانوا الى ساعة قريبة

احيـاء ، قد مـاتوا حينما شـاء الله ان يموتـوا ، فالحيـاة والموت بيد الله ، فوقفوا مدهوشين :

كيف بقي هـؤلاء احيـاء هـذه الفـترة الطويلـة؟ وكيف ماتوا فجأة؟

(**إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْـرَهُمْ فَقـالُوا ابْنُـوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ**)

ماذا نفعل بهم؟ كيف نمجدهم؟ كيف نبقي ذكرهم حيا في النفوس؟

(**قـالَ الَّذِينَ غَلَبُـوا عَلى أَمْـرِهِمْ لَنَتَّخِـذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً**)

أتخذ الملك وحاشـيته والـذين كـانوا غـالبين على امر الناس ، قرارا ببناء مسجد على مقابر تلك الطلائع الثائرة.

ونتوقف هنا قليلا لنـــــــدخل في حـــــــوار مع بعض المفســـرين ، فـــالمؤمن يجب ان يظل ذكـــره حيا في النفـوس لأنه قـدوة حسـنة ، والقـرآن الحكيم يـبين دائما قصص الأنبيـاء ويمـدحهم من أجل ان يجعل منهم قـدوات حسنة للأجيال ، ومن آثار المـؤمن قـبره ، لـذلك يسـتحب شرعا أن يزور المؤمن المقابر.

ان أفضل عمل نقـوم به عند مقـابر المؤمـنين هو ان نتعبّد لله سبحانه وتعالى هناك ، وان نقرأ القـرآن ونتـذكر المـوت ، ويعظ أحـدنا الآخر ، ونجـدد ذكـرى هـؤلاء ونـبيّن رسالتهم التي عملوا لها ومـاتوا من أجلها ونصـلّي لله ، أو ليس من الأفضل أن نصلي لله ركعـات ونبعث بثوابها الى أرواحهم؟

وحينما نريد ان نجعل بيننا وبين الأموات من المؤمنين والشهداء رابطة ، أو ليست أعمال الخير والبر ، والصلاة ، والدعاء ، وتلاوة القرآن وما أشـبه خـير رابطـة؟! بلى من هنا يـذكرنا القـرآن في هـذه الآية : «**الَّذِينَ غَلَبُـوا عَلى أَمْرِهِمْ**» (ويبدو أنهم كانوا من المؤمنين) قـالوا : لنتخـذن عليهم مسـجدا نتعبّد فيه لله ، ونتـذكر القيامة ، ونتـذاكر سيرتهم ، والقرآن يوحي لنا بأن هذا العمل عمل مشـروع ، بدليل انه ذكره

ولم يستنكره أو ينهى عنه .. كيف ذلك؟

اقرأوا القرآن وتـدبروا فيه ، لتعلمـوا ان هـذا الكتـاب الذي أرسـله ربّ حكيم لا يتكلم الا بمـيزان دقيق ، وهو لا يــذكر لنا قصة تاريخية ولا عملا قــام به الأولــون الا لأحد أمـرين : أما لكي ينهى عنه أو لكي يـأمر به ، فـإذا لم ينه عنه فهو يأمر به.

وهذا ردّ حاسم على البعض الـذين يفتـون بـأن زيـارة قبور الأنبياء والأئمة المعصومين (ع) والصالحين ، والصلاة والتعبّد في مقامـاتهم الشـريفة ، بدعة وضـلالة وحـرام ، ونحن نتساءل : من الذي قال أنه كذلك؟

ان القــرآن في هــذه الآية بالــذات يــبيّن لنا ان هــذا العمل كان جيدا ومشـروعا ، والقـرآن جـاء ليطبق لا لكي يناقش في آياته حسب الأهواء ، أو حـتى حسب الأحـاديث غير المعروف صحتها ووثاقة سندها ، ثم ان الحـديث مهما كان موثق السند ، فأنه لا ينسخ القـرآن ، والحـديث الـذي يتضارب مع القرآن لا بد ان نضرب به عرض الحائط!

المنهج العلمي لا الرجم بالغيب :

[22] (**سَيَقُولُونَ ثَلاثَـةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُـونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ**)

اي ان الـــذي يتكلم دون ان يســـتند الى معلومـــات وحقـــائق ثابتة ، فمثله كمن يقـــذف حجـــرا في الظلام الدامس ، لا يعرف أحد اين يقع؟

(**وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**)

لقد جــاءت الآية بكلمة رجما بــالغيب قبل ان تقــول سبعة وثامنهم كلبهم ، مما

يوحي بأن هذه الفكرة ليست رجما بالغيب.

(**قُـلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِـدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيـلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً**)

هنا تنتقل الآيـــات من الحـــديث عن البعث وعن وعد الله سـبحانه ، الى الحـديث عن قضـية اخـرى وتلك هي قضية العلم ، وماذا يجب على الإنسان أن يقول ويعتقد؟

ان عليه ألا يـــرجم بـــالغيب والا يغـــتر بمعلوماته لأن علمه مهما بلغ فهو قليل ، والـــذي عنـــده علم ، عليه الا يضع علمه للمـــراء والجـــدال ، بل يمر على المســـائل الجدلية العقيمة مســـرعا ما أمكن ، أي يـــؤمن بالحقيقة ويبيّن حجتها ثم يـذهب ، لأن المـراء يفسد العلم ، ويجعل فكر الإنسان متجها الى وسائل الاسـتعلاء على الآخـرين ، وليس الى الحقيقة ، وبالتـــالي يصـــبح فكـــرا مســـتعليا مستكبرا لا يسـتوعب الحقـائق ، والعلم هو ابن التواضع ، والمعرفة بنت الخلق السـمح ، كما ان الاسـتكبار حجـاب العلم ، والاستعلاء يهدم المعرفة.

(**وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً**)

لو فرضنا أن جاهلا يريد ان يسـتفتي ، فهل يبحث عن كل جاهل مغـــرور يجمع ركـــام الخرافـــات على ظهـــره ويستفتيه في أمور دينه ودنياه؟ كلا ..

وربما تـــدل هـــذه الآية على ما قلنـــاه آنفا ، وهو ان القـــرآن لا ينسخ بالحـــديث ، وعلينا الا نحجب انظارنا عن القـــرآن بحجب التـــاريخ ، حيث نجعله منظـــارا ننظر من خلاله الى القـــرآن ان علينا ان ننظر الى القـــرآن وكأنه أنزل علينا هذه اللحظة ، والا نجعل آيـات القـرآن مدفونة في أضلع التاريخ قبل 1400 عام ، وكأن هـذه الآية نـزلت لفلان ، والآية تلك نـزلت لفلان ، والآية تلك نـزلت لفلان ، وان الحادثة الفلانية هي

الــتي اســتنزلت القــرآن في بــدر أو أحد أو غيرهما ، لقد انزل الله القرآن ، لكل زمان ومكـان وإنســان ، فعلينا ان نقــرأه بهــذه الطريقة ، ولعل هــذه الآية تشــير الى هــذه الحقيقة ، وانه ما دام القـرآن قـائم بيننا ، فلم نـذهب الى التوراة والإنجيل ، والأفكار الموجودة في الكتب المنحرفة والأســاطير المبثوثة عند النــاس ، ونســتفتي من يعرفها ويحملها؟

الحياة بين تدبير الرب وتقدير العبد :

[23] (**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً**)

[24] (**إِلَّا أَنْ يَشـاءَ اللـهُ وَاذْكُـرْ رَبَّكَ إِذا نَسِـيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً**)

لأول وهلة تبــدو هاتــان الآيتــان غــير مترابطــتين مع بعضهما ، ولكن لنتدبر فيهما قليلا ..

لما كانت الحياة تتطور باستمرار ، كانت رسالات الله قد وضعت حسابات دقيقة لمتغيرات الزمــان ، وتطــورات الأحــداث ، فيجب على الإنســان ان يضع الرســالة الــتي أنــزلت عليه نصب عينيه في كل تصــرفاته واعماله ، ولا يتركها لأن فلانا قال كذا ، أو أن السابقين عملوا هكذا.

والقرآن الحكيم يأمرنا بهــذا في الآية الأولى ، أما في الآية الثانية فأنه يوجهنا الى موضــوع دقيق ، فيقــول : ان على الإنســان الا يضع لنفسه برنامجا طويل المــدى دون ان يحسب حساب متطـورات الزمـان في برنامجه ، فالله سبحانه لا يأمر بشيء جامد ، وانما يأمر بأتباع القيم الــتي تطبق في كل وقت بصورة معينة.

ليس لك ان تقـول غـدا سـأعمل العمل الفلاني ، لأنه قد يأتي الغد وتتطور

الأحداث فيه ، ويكون الـواجب عليك عملا آخر يختلف عما عزمت عليه ، فعليك ان ترتبط بالله ورسالته التي أنـزلت عليك ، والـــتي يفهمها عقلك ارتباطا وثيقا مباشـــرا ، ولا ترتبط بخطة معينة أو بتاريخ معين ، أو بأفكـار سـابقة ، أو بكتب مكتوبة ، أو بـــبرامج جامـــدة ، وهـــذا هو منتهى (التقدمية) في القرآن ان صح التعبير.

أما ربط العمل بالمشيئة فله معنيان :

الأول : المعنى الظاهر والمعـروف ، وهو ان مواهـبي وامكانـاتي كإنسـان ، وامكانـات الطبيعة وفـرص العمل ، كلها متصلة بإرادة الله سبحانه ، فـان له ان يوفقـني غـدا لعمل أو لا يوفقني ، وهذا الاسـتثناء بالمشـيئة هو المعـنى المألوف.

ومن هنا يقول الأمام علي (ع): «**عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم**» اي اني عزمت على شيء فجاء القضـاء وفسخ عزيمـتي ، وهممت بشـيء فجـاء القـدر ونقض همتي.

الثـاني : ان الله إذا أمـرني غـدا بهـذا العمل فسـوف أعمله ، وإذا نهـاني فسـوف اتركه ، فعملي وعـدم عملي غدا مرتبط بما يأمر به الله غـدا وليس اليـوم ، فقد يكـون أفضل عمل اليوم هو الصـلاة والتعبد في المسـجد ، ولكن غدا قد يكون أفضل عمل هو الاشـتراك في التظـاهرات ، وبعد غد أفضل عمل هو العمل المســلح ، وبعــده أفضل عمل ان اجلس على أريكة الحكم وادير شـؤون النـاس ، فعليّ دائما ان أضع خططي حسب ما يـأمر به الله وليس حسب مشيئتي ورغبـتي ، واجعل هـواي باسـتمرار موافقا لما يريده الله سبحانه.

جـاء رجل الى الامـام الصـادق (ع) فقـال له الأمـام : «كيف أصبحت؟ فقال : أصـبحت والله والمـرض خـير لي من الصحة ، والفقر خـير لي من الغـنى ، والـذل خـير لي من العزة .. إلخ. فقال الأمام : اما نحن فلسنا كذلك. قال : فكيف أنتم؟ قال :

نحن إذا أحب الله ان يمرضـــنا ، فـــالمرض أحب إلينا من الصـــحة ، وإذا أحب ان يرزقنا الصـــحة فالصـــحة أحب ، فالفقر أحب مع رضا الله والغـنى أحب مع رضا الله ، وان كان الذل في سبيل الله فهو محبوب ، وإذا كــان العز في سبيل الله فهو المحبوب»

هـذه هي أهم صـفة للمـؤمن وهي : أن يكـون راضـيا برضا الله ، وان يعمل بما يــأمر به الله وإذا وصـــلت الى هـذه الدرجة فأحمد الله أنك قد بلغت مســتوى رفيعا من الايمان ، والا فاسع للوصول الى هذا المستوى.

ولا بـــأس أن أضع برنـــامج للمســـتقبل ، ولكن على شــرط أن أســتثني فيه وأقــول : إنشــاء الله ، بحيث إذا تغيرت الظـروف وتغـير امر الله بالنسـبة لهـذا البرنـامج ، فاني سوف أغيره تبعا لذلك التغيير.

في بعض الأوقات يدخل الإنسان الى حـزب باعتبـاره وســيلته الى الله ســبحانه ، ولكن شــيئا فشــيئا يتحـــول الحـــــزب الى اله يعبد من دون الله ، وفي اخـــــرى يتبع الإنسان أحدا على أساس انه رجل مـؤمن عـالم ، ويجعله سببا بينه وبين الله يبتغي بـذلك مرضـاة ربه ، ولكن شـيئا فشـيئا يتحـول هـذا الرجل الى صـنم يعبد من دون الله ، وكــذلك في بعض الأوقــات يضع الإنســان لنفسه برنامجا ليطبقه امتثـــالا لأمر الله ، ولكن شـــيئا فشـــيئا يتحـــول البرنامج في حياته الى برنامج ضلالة وجبت.

حينما تتبع أحـــدا وظن نفسك على أن تتبعه من أجل الله ، وكذلك حينما تنمي الى جماعة فاجعل انتمــاءك الى الله أقـــــوى من انتمائك إليهم ، واطلب دائما من الله ان يرشــدك الى أتبــاع العــالم الأفضل ، والبرنــامج الأكمل ، والجماعة الأكـثر ايمانا وتقـوى ، وكن دائما أمـام زمانك ، ولا تسمح لنفسك أن تصبح قطعة متحفية مرتبطة بالتاريخ ، أو حتى بما قبل التاريخ.

[25] (**وَلَبِثُـــوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِـــنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً**)

كيف لبثوا هذه المدة؟ وباية حالة وبتدبير اية قوة؟

[26] (**قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا**)

لا تبحث حول هذا الموضـوع ، فالله اعلم كيف ومـتى وانّى لبثوا!

(**لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**)

ابصر واســـمع وما أشـــبه صـــيغ لغوية تفيد المبالغة والتعجب ، اي أعظم الله بما يراه بصرك أو تســمعه أذنك إذ كل شيء تراه أو تسمعه فهو اية لله سبحانه.

(**ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَداً**)

ليس لله شـــــــركاء من آلهة الثقافة والحكم أو كهنة المعابد ، انه الواحد الأحد ولا يشـــرك في حكمه أحـــدا ، لذلك على الإنسـان ان يتصل مباشـرة بالله سـبحانه ، ولا يجعل بينه وبين الله واسطة الا إذا امر الله بها وفي حدود ذلك لا أكثر.

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها

27 [ملتحدا] : ملجأ تعدل إليه.
28 [لا تعد] : من عدى يعدو بمعنى تجاوز.
[فرطا] : سرفا وافراطا.
29 [سرادقها] : السرادق هو الفسطاط المحيط بما فيه ـ ويقال السرادق ثوب يدار حول الفسطاط ـ وشبّه به لهب النار لأنه مخروطي الشكل يحيط بما حوله.

وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (30) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31)

[كالمهل] : كل شيء أذيب كالنحاس والرصاص ...
[مرتفقا] : متكأ ، أو مقرا.
31 [الأرائك] : جمع أريكة وهي السرير.

زينة الحياة وضمانات الاستقامة

من الإطار العام :

إن من مظـــاهر اعجـــاز القـــرآن الحكيم ، ان آياته الكريمة تتبع عدة خطوط متوازية ومتناسبة ، تتظافر على توجيه فكر الإنسـان الى قضـية جوهرية معينـة. فالسـورة الواحدة من القرآن تتحدث عن عدة أمور تبـدو متباعـدة ، ولكنها آخر الأمر تصل الى هـدف واحد ، أو عـدة أهـداف محددة ومترابطة.

وفي سورة الكهف ، وكما اكدنا على ذلك في بـدايتها ، نجد ان الموضـــوع الرئيسي فيها هو علاقة الإنســـان بالحياة الدنيا ، وموقفه من زينة الأرض ومتاع الغرور وهي أشياء زائلة ، إذ أن يد القدرة المطلقة وهي يد الله سوف تمسح زينة الحياة ، وتـدع الأرض صـعيدا جـرزا في لحظة واحدة.

ولذلك فأن على الإنسان الا يربط علاقته بهـذه الزينة ربطا متينا ، بل تكـــون العلاقة المتينة مع الله رب هــذه الحيــاة ورب هــذه الأرض ، وتكــون علاقته بزينة الحيــاة علاقة فوقية يتملكها دون ان تتملكه.

في قصة أصحاب الكهف كانت العبرة الرئيسية هي : إقلاع هؤلاء من ارض الزينة ، وتحليقهم في سـماء القيم ، وقـدرتهم على تجـاوز ضـغط السـلطة الطاغية ، والقـرآن يحدثنا عن صورة اخرى متقابلة ومعاكسة لصورة أصـحاب الكهف ، وهي صــورة ذلك الرجل الــذي اخلد الى الأرض واتبع هــواه ، وتملكته زينة الســلطة ، ولم تنفعه نصــيحة صاحبه.

هدى من الآيات :

لقد كان أصحاب الكهف مثلا لفــرار البشر من جاذبية المادة وزينة الحياة الدنيا. والسؤال كيف نصـبح أمثـالهم ، الجواب بما يلي :

أولا : العمل بالضمانات الوقائية التي تخلص الإنســان من ضغوط زينة الحيـاة ، وكيف يمكن للإنسـان ان يسـوّر نفسه بقلاع تحفظه وتمنعه من تلك الضغوط.

وأولها : تلاوة القرآن والارتباط المباشر بآياته الكريمة ، تلك الآيــات الــتي لا تتبــدل بــالرغم من تبــدل الحيــاة وتطورها ، وهــذا هو المهم ، إذ حينما تتعلق بزينة الحيــاة فأنك سوف تتعلق بشيء يـزول ولا يبقى ، انه حبل ينقطع وجـدار ينقض إذا ، لا بد أن تتعلق بحبل مـتين وتعتمد على جدار راسخ ، وهو كتاب الله.

ثانيا : ان يكون انتماؤك الى التجمع الايمـاني ، وحينما تنتمي الى مثل هـذا التجمع وتختـار الأفـراد على أسـاس القيم الرســالية ، فســوف تحصن نفسك بســور آخر من أسوار الحماية ضد ضغط الزينة.

ثالثا : التحــدي والاســتعداد للصــراع ، وهــذا يعــني استعداد الإنسان للصراع مع العـدو ومواجهته ، وهو سـور آخر يحتمي به الإنسـان من مغريـات زينة الحيـاة ومتاعها الزائل.

بعد أن يبين السياق هذه الأسوار الثلاثة ، يؤكد على بعض القيم المساعدة على توجيه الإنسان في هذا الاتجاه ، ويبيّن : ان كل عمل يعمله الإنسان يحفظ له سواء كان صغيرا أو كبيرا ، وسواء كان الإنسان منتميا الى الأيمان انتماء راسخا أو لم يكن كذلك.

ان العمل لا يضيع عند الله في أي شكل كان ، وبأي صورة ظهر ، والله يعوض الإنسان عن زينة الحياة الدنيا بالزينة الباقية في الحياة الآخرة ، تلك الحياة التي هي الحيوان عند الله المقتدر العزيز.

بيّنات من الآيات :

بين الثوابت والمتغيرات :

[27] (**وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ**)

القرآن مصباح ونور ، وعلى الإنسان ان يتلوه وان يتبصر ويتعقل ، وبالتالي فلا يمكن الاكتفاء بالنور عن الرؤية ، لأن الإنسان الذي يغمض عينيه سوف لن يرى شيئا ، حتى ولو كانت الشمس في كبد السماء.

وربما يكون المقصود بالتلاوة هو التدرج ، وأن يبحث الإنسان عن الشيء دفعة دفعة ، وفكرة فكرة ، وهذه قاعدة منطقية معروفة اليوم وهي : إذا أردت أن تعرف شيئا فقسمه الى أجزاء صغيرة ، حتى تستطيع ان تسيطر عليه وتفهمه.

(**لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ**)

وهذا يبين لنا أن هناك خطا ثابتا في الحياة وخطا آخر متطورا ، والخط الثابت هو كلمات الله ، وهو الذي يجب ان يتعلق به الإنسان ، اما الخط المتغير فهو زينة الحياة

الدنيا ، الذي يجب ان يسيطر عليه الإنسان.

(وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً)

إذا أردت أن تعتمد على شــيء فلن تجد من دون الله من تعتمد عليه وتلتجئ اليه ، فكل شــــيء ينهـــار ، ولكن توكلك على الله سـبحانه وتعـالى سـوف يبقى ، وهـذا هو السور الذي يحمي كيانك.

الانتماء ، شروطه ومقوّماته :

وبعد أن تهيأ نفسك في البداية ، وتنتهي من تكـــــوين شخصيتك ، فأن عليك ان تبحث عن رفاق المسيرة.

[28] (وَاصْـبِرْ نَفْسَـكَ مَـعَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

حينما تريد ان تنتمي الى جماعة فـأن هنـاك عقبـات في طريق انتمائك ويجب ان تتجــاوز هــذه العقبــات وان تصبر نفسك عليها ، فلكل انتماء ضريبة وعليك ان تـدفعها والسؤال : من الذين تنتمي إليهم؟

أنتم العابــدون لله ليلا ونهــارا ، ولكن الانتمـــاء الى خطهم صعب وبحاجة الى صبر :

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَـعَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»

ابحث عن هؤلاء وأنتم إليهم ، وتجاوز العقبـات ، وضح من أجل انتمائك إليهم ، ولا تبحث حينها عن فوائد ومصـــــالح خاصة ، بل وطّن نفسك على العطـــــاء ، وان حسن

الانتماء ليس في أن تحمّل افراد التجمع مؤنتك بل في ان تحمل معهم اعبـاءهم ، لـذلك أكد القـرآن هنا على كلمة الصبر.

(**وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا**)

قد يتـأثر الإنسـان بـاهتزاز في رؤيته الى الآخـرين ، والى التجمع الذي يجب ان يتعلق به ويتفاعل معه ، وذلك الاهـتزاز يـأتي نتيجة ضـغوط زينة الحيـاة الـدنيا ، قد يـرى الإنسان مؤمنا عجوزا أعمى ان دفعه دفعة يسـيرة سـقط ومات ، يـرى الى جانبه ذلك الكـافر ولكن البطل القرشي ذا المـال والنسب ، فيعـدّ هـذا أحسن من ذلك ، ويكـون شأنه كشأن ذلك الرجل المسلم من أصـحاب رسـول الله مع ابن (أم كلثـوم) ، حيث اعـرض عنه بـرغم ايمانه لأنه أعمى وفقـــير ، واقبل على من يمتلكـــون زينة الحيـــاة ويفتقرون الى زينة القلوب (التقوى). فجـاءت الآيـات من سورة عبس تنذره وتوعده.

اجعل نظـرك معلقا على هـؤلاء المؤمـنين واهتمامك موجها إليهم ، ولا تسمح بتسرب الإزدواجية في الولاء الى نفسك ، فتريد ان تنتمي الى جماعة رسـالية ، وفي نفس الـوقت تنتمي الى أصـحاب الحيـاة والـثروة ، حـتى إذا ما أحـــرز هـــؤلاء تقـــدما كنت معهم ، وإذا حصل أولئك على مكاسب انثـــــــــنيت إليهم ، ليكن ولاؤك خالصا ولا تكن انتهازيا!!

من صفات القائد :

(**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا**)

هـذا التجمع بحاجة الى قيـادة ، فمن هو القائـد؟ وما هي صفاته؟

القرآن يقول : ان أهم صفة للقائد هي الروح الإيمانية المتصلة بذكر الله ، فلا

تطع ذلك القائد الذي لا يتبع منــاهج الله ، وقلبه فــارغ من التقـــوى ، بـــالرغم من ان اعماله قد تكـــون في طريق التقوى ، كأن يصلي ويصوم أو يبني مسجدا وما شابه ، الّا ان قلبه فارغ من ذكر الله. كلا إذ كل يعمل على شاكلته ، (أي على نيته) ونية الإنسان هي التي تصبغ حياته ، وهدف الإنسان هو الذي يحدد مسيرته ، فكثيرون يبنون المساجد والمـدارس وينفـذون المشـاريع الخيرية .. إلخ ، ولكن بعد أن يصـلوا الى دفة الحكم يتخـذون مـال الله دولا وعبـاده خولا!!

فهل يجوز أن نتبع مثل هؤلاء؟

القـــرآن يقـــول : كلا .. ويعطينا مقياسا نميّز به من يصح اتبــاعهم ، وذلك المقيــاس هو القلب ، فـأن وجـدت قلب إنسان مضاء بذكر الله فلك ان تتبعه ، والا فلا يغـرّك مظهره.

(**وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**)

إذا أردت ان تعـرف هـذا الإنسـان يتّبع هـواه ، أو يتبع الرسالة ، فأنظر الى تصرفاته ، فالذي يتبع الرسالة تكون تصرفاته وسلوكياته ثابتة مستقيمة ، وتستوحي هـداها من برامج الله القويمة. اما تصرفات ذلك الذي يتبع هواه فهي تتغيّر حسب الهوى ، ويكـون امـره فرطا اي غـير منظم ، وهذا هو السـور الثـاني. والخط الثـاني للـدفاع ضد غـرور الشهوات.

وأما السور الثالث فهو :

[29] (**وَقُلِ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شـاءَ فَلْيُـؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ**)

حينما تقرأ القرآن وتسـتلهم منه ، وتنتمي الى التجمع الرســـالي ، آنئذ تحـــدّ المســـتكبرين وادخل معهم في المواجهة والصراع ، ولكن كيف يمكن تطبيق هذه الآية

والدنيا تمتلئ بالقوى الجاهلية؟

الله يقول :

(**إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها**)

سرادق النار في جهنم أشبه بالمعتقلات التي تحيط بها أسوارا عديدة ، بحيث يستحيل على المعتقلين ان يتخطوها ويفلتوا منها ، ودركات جهنم محيطة بأهلها ومغلقة عليهم ، فأين المفر؟

(**وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ**)

ان أهم شيء يحتاجه الإنسان الملتهب بالنار هو الماء ، ولكنه عند ما يطلب الماء فأنه يؤتي به شديد السخونة كالرصاص المذاب يشوي الوجوه.

والإنسان حينما يشرب شيئا ساخنا يحترق فمه وجوفه ، ولكن المهل لشدة حرارته فأنه يشوي جلد وجه الإنسان قبل ان يشرع في شربه ، فما ذا يمكن ان يحصل للبطن والأمعاء عند ما يستقر بها ذلك السائل الحارق؟

(**بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً**)

ليست جيدة تلك الضيافة التي يضيّف الله بها عباده الظالمين ، في نار جهنم التي «ساءت مرتفقا» ، ولكن الله ذكرهم فأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وانزل القرآن فلم يستمعوا له ولم ينصاعوا للحق ، واختاروا لأنفسهم هذا المصير الأسود.

[30] (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**)

وفي المقابل لا يضيّع الله أجر المحسنين ، وانظروا الى التعبير القرآني حيث يقول : «**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**» ولم يقل انا لا نضيع أجرهم ولعل معناه ان الأجر لا يضيع أنى كان ومن أي إنسان كان ، فالعمل الصالح إذا كان منك ايها المؤمن فأن الله لا يضيعه ، فأما ان يعطيك جزاءه في الدنيا واما في الآخرة ، وكذلك إذا كان من الكافر. فسوف لا يضيعه الله أيضا ، فأما يعطيه جزاءه في الدنيا أو يخفف عذابه في الآخرة.

ولقد قلنا سابقا : ان العمل الصالح تسبقه النية الصالحة ، حيث ان النية الصالحة هي التي تعطي للعمل صبغة الصلاح ، وبدونها يفقد العمل هذه الصبغة مهما كان ظاهره سليما وصالحا.

[31] (**أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ**)

اي جنات باقية دائمة بعكس الدنيا التي تزول.

(**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ**)

بعكس ذلك الشراب الذي يشوي الوجوه.

(**يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ**)

تماما بعكس تلك الضيافة السيئة.

(**وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**)

السندس والإستبرق أنواع من الأقمشة الحريرية الفاخرة.

(**مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ**)

اي هم في راحة وهـدوء لا يجـدون ما يجـده الإنسـان في الحيـاة من تعب ونصب ، ولا يحملـون همـوم العمل والاسترزاق.

(**نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً**)

جاء في حديث عن الأمام علي (ع) يـذكرّ فيه بـدعائم الأيمان يقول : «من تذكّر الجنة سلا عن الشهوات.» فـإذا رأيت قصرا لظالم بناه بهـدم بيـوت الآخـرين ، فلا تسـمح للشيطان ان يـدفعك الى أنت تظلم النـاس وتبـني قصـرا مثله ، ولكن قل إنشـــاء الله جعل لي قصـــرا في الجنة أفضل منه.

وإذا حـــدثتك النفس الأمــارة بـــاللجوء الى الكسل ، والراحة ، وتـــرك الأعمـــال والواجبـــات المطلوبة منك ، فتحامل على نفسك وقل : إنشـــاء الله ارتـــاح على آرائك وثيرة في الجنة.

وإذا لمست رغبة عندك في أن تتمحور حول أصـحاب الجـــاه والـــثروة ، فأســـبق الـــزمن بمخيلتك ، وانظر الى نفسك وأنت في الجنة بجـوار الأنبيـاء والأئمة والمؤمـنين الصـالحين ، الـذين هم أمـراء الآخـرة وملوكها ووجهاؤها ، وبين الإنسان والجنة خطوة واحـدة لا أكـثر وهي المـوت ، وبين غمضة عين وانتباهتها تجد نفسك انتقلت من الـــدنيا الى الآخرة. اذن ليفكر الإنسان بالحياة الأخروية القادمة ، ويتسلى عن الشهوات ، وبمجرد ان يفكر الإنسان بالموت والقـــبر والحســـاب ، فـــأن نفسه تنصـــرف تلقائيا عن الشهوات ، قال رسول الله (ص): «اذكروا هادم اللـذات» أي الموت ، فلنكن معا من الذاكرين.

وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَـدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنـابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْـلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعـاً (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْـهُ شَـيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصـاحِبِهِ وَهُـوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَـرُ مِنْـكَ مـالاً وَأَعَـزُّ نَفَـراً (34) وَدَخَـلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظـالِمٌ لِنَفْسِـهِ قـالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيـدَ هـذِهِ أَبَـداً (35) وَما أَظُنُّ السَّـاعَةَ قائِمَـةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَبـاً (36) قـالَ لَـهُ صـاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَـرْتَ بِالَّذِي خَلَقَـكَ مِنْ تُـرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ سَـوَّاكَ رَجُلاً (37) لكِنَّا هُـوَ اللـهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَـداً (38) وَلَـوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَـكَ قُلْتَ ما شاءَ اللـهُ لا قُـوَّةَ إِلاَّ بِاللـهِ إِنْ تَـرَنِ أَنَا أَقَـلَّ مِنْـكَ مالاً وَوَلَداً (39) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ

جَنَّتِـكَ وَيُرْسِـلَ عَلَيْها حُسْـباناً مِنَ السَّـماءِ فَتُصْـبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَـةٌ عَلى عُرُوشِـها وَيَقُـولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْـرِكْ بِـرَبِّي أَحَـداً (42) وَلَمْ تَكُنْ لَـهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (43) هُنالِـكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً (44)

---

40 [حسبانا] : عذابا كالصواعق والآفات.
[زلقا] : الأرض الملساء والمستوية التي لا نبات فيها.
41 [غورا] : غائرا ذاهبا في باطن الأرض.

الإنسان بين تأليه المادة وعبادة الله

هدى من الآيات :

سـبق وان تحـدثنا عن الإطـار العـام لسـورة الكهف ، والـذي يـبين لنا نـوعين من العلاقة بين الإنسـان والطبيعة هما :

أولا : علاقة السيطرة والتسخير للطبيعة.

ثانيا : علاقة الانبهار بما فيها من زينة.

وفي هـذه المجموعة من الآيـات يضـرب القـرآن مثلا من تلك العلاقة التي تربط الكفار بالدنيا ، فيعتمدون عليها ويحسـبون انها خالـدة لهم ، ولكنها لا تلبث أن تنتهي ، وإذ ذاك يكتشفون ان العلاقة الصـحيحة ينبغي ان تكـون بينهم وبين ربهم ، وان الولاية الحق هي لله لا للمـال والـثروة ، ولا للجاه والسلطة.

بيّنات من الآيات :

بين الشكر والكفر :

[32] رجل أعطـــاه الله جنـــتين ، وتـــوفرت له كل أســباب الزينة فبطر بها ، وبــدل أن يشــكر ربه اغـتر بما أعطاه من ثروة ونعمة ، وبـدل أن يعـتزّ بمن أعطـاه هـذه النعمة ، اعـــــــتز بالنعمة ذاتها ، في حين ان من اعطى النعمة خالد دائم والنعمة منقطعة زائلة ، وهو أولى بالشكر والعبادة منها.

وحينما جادله صـاحبه في هـذا الأمر جـدالا حسـنا ، وحـاول ان يـذكره وان ينـذره ويحـذره من عاقبة بطـره وغـروره ، أخذته العـزة بـالإثم ، فكـان مصـيره ان خسر جنتيه ولم تبق له الا أرضا جرداء خاوية على عروشها ، قد غار ماؤها واحترق زرعها وأصبحت صعيدا جرزا.

وهكـذا فقد اسـتولت على الرجل كآبة فجـرت قلبه ، وندم ندما شـديدا على اغـتراره بالنعمة ، واعـتزازه بالولد والعشيرة الذين لم ينفعوه شيئا في محنته.

اما ذلك الرجل الفقـــير بماله وعشـــيرته ، والغـــني بإيمانه بربه وتوكله عليه ، فقد أخذ يــردد هنــاك : هنا لك الولاية لله الحق.

وفي حديثه عن الجنــتين ، وعن علاقة ذلك المشــرك بهما ، يبين لنا القرآن بعض ضـروب وعوامل الغـنى الـتي وفرها لنفسه ولكنها لم تغنه عن الله شيئا ، فأصـبح يقلب كفيه وليس فيهما الا الحسرة.

(**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ**)

اولا : يجسد أحد الرجلين الأيمان المتسـامي عن زينة الحياة الدنيا ، بينما يستبد

بالآخر حب الدنيا ، ويشغله متاعها الزائل.

ثانيا : امتلاك الرجل لأكـثر من جنة ، يشـير الى بعض الأساليب الاقتصادية التي يلجأ إليها الرأسـماليون لضـمان تـدفق الأربـاح عليهم ، فـإذا خسـرت جنة هنا فـإن الجنة الأخرى والتي تكون في مكان آخر ستعوّض النقص وتعدل الميزانية.

(**مِنْ أَعْنـــابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْـــلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً**)

وهـــذه طريقة يلجأ إليها المزارعـــون ، فيحيطـــون بسـاتينهم بأشـجار مقاومة للريـاح والأعاصـير كالنخيل ، ويزرعون الأعناب في الوسط ، والأرض المتبقية بين هذه وتلك يزرعونها بالخضراوات المختلفة.

[33] (**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها**)

شاء الله سبحانه ان يملي لـذاك الرجل فأفـاض عليه الخير فيضا ، وأذن للجنتين ان تـدرأ المحاصـيل الوفـيرة ، وهكـذا إذا أراد الله بعبد سـوء لسـوء نيته فأنه يوسع عليه النعم في بعض الأحيـان ، ليسـتدرجه ويبتلي ما في داخل نفسه من سوء وفساد.

(**وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً**)

لقد اعطى الله لذلك الإنسان تلك الجنـان ، فـأعطت صـــاحبها كل ما يتأمله منها من ثمـــار طيبة ، ولم تظلمه ولكنه ظلم نفسه ، فواجه إحسـان الخـالق اليه بالإسـاءة الى نفسه ، عبر غـروره واسـتكباره ، واعراضه عن شـكر ربه المنعم المتفضل.

دركات الهبوط :

[34] (**وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ**)

الملاك والفلاحون ومن لهم ارتبـاط بـالأرض والزراعة ، يعلمون ان لحظة الحصاد

لحظة سـعيدة في حيـاتهم ، تبعث في أنفسـهم الغـرور ، لأنهم بعد صـبر وانتظـار طويل يـرون الثمـار وهي وفـيرة وزاهية ، فيختالون وكأنها ثمرة جهـدهم ، وينسـون ان الله هو الذي زرعها وأينعها في هذه اللحظة.

(**فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحـاوِرُهُ أَنَا أَكْثَـرُ مِنْـكَ مـالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**)

أخذ يتعالى على الآخرين ، اعتمـادا على أشـياء وقتية زائلة ، وليس في الآيات دلالة على أن هذا الرجل كـان له أنصار ، ولعل غـروره دفعه الى الاعتقـاد بأنه ما دام يملك شيئا من المـال فكأنه يملك النـاس أيضا ، لـذلك قـال : ـ «**وَأَعَزُّ نَفَراً**».

[35] (**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ**)

ان ظلمه لنفسه هو في اغــتراره بزينة الــدنيا الــذي جــره للتعــالي على الآخــرين ، واعتقـاده انه ما دام يملك المال فهو يملك الرجال.

(**قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً**)

هـــذه هي العلاقة الخاطئة بين الإنســـان والطبيعة ، وهي علاقة الاعتمــاد عليها والركــون إليها وكـأن الطبيعة خالدة له.

[36] (**وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً**)

في البداية اغترّ بنفسه وقـال : (**أَنَا أَكْثَرُ مِنْـكَ مـالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**) ، ثم ظلم نفسه باعتقـاده أن الجنة خالـدة له ، ثم أنكر المعاد ، ووصل الى نهاية دركـات الهبـوط حينما اعتقد بأن الله ، والـدين ، والرسـالة ، وكل القيم انما هي في جيبه.

ان الإنســان يظل صــالحا للهداية ما بقيت في نفسه جذوة الأيمان ، وما دام يعتقد ان عمله قد يكون خاطئا ولا يرضى الله عنه ، أما حينما يعتقد بأن الله والدين تابعان

له ، ويأخذ يــبرر اعماله ببعض الأفكــار الخاطئة ، فآنئذ لا تترجى له الهداية ، فأنه يتحول من إنسان الى ما هو أحط من الحيوان. وذلك حين يقول :

(**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً**)

اعتقد صاحب الجنـتين انه ما دام الله قد أعطـاه تلك الجنـتين وفيهما نخل وأعنـاب وزرع ، وأفـاض عليه الخـير في الـدنيا ، اذن ففي الآخـرة سـوف يعطيه أكـثر ، وذلك اسـتنادا الى معادلة خاطئة وهي : ان العطــاء في الــدنيا دليل رشــاد وهداية وفي هــذه بالضــبط هلاك الإنســان وخسـارته الأكيـدة ، إذ ان بسط الله للـرزق وتقـديره له ، انما هو لامتحان العباد وليس للتكريم أو الإهانة.

كيف نجبر ضعف الذات؟

[37] (**قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**)

هل وصل بك الحــال أن تكفر باللــه؟ وأنت تعلم علم اليقين كيف انه خلقك أطـوارا فقـدّرك ، وانك لا تسـتطيع ان تعتمد على نفسك وقــدراتك ، فكيف تعتمد على الجنة الخارجية التي هي نتيجة قدراتك ومكسب طاقاتك؟

لقد كنت ترابا ، ثم أصبحت نطفة ، ثم استويت رجلا ، اي انك كائن تطرأ عليه التغيرات ولست على حـال ثابتة ، وأنت معرض لكل الاحتمالات والأخطـار ، فمثلك ينبغي ان يعتمد على ركن ثابت شديد لا يطرأ عليه التغير ، ولا تجوز عليه الاحتمالات وهو الله ، لا أن تعتمد على أشياء متحولة ومتغــيرة كــذاتك ، لا تغــني عنك شــيئا إذا هجمت عليك نوائب الزمان.

ان القـرآن يعـالج طبيعة الإنسـان بعمق ، لأن مـنزّل القرآن هو الله الذي خلق هذا

الإنسان ، والخوف متوغل في اعماق الإنسان الـذي يـرى ان كل شـيء في الكـون والحيـاة ، وحـتى ذاته في تغيّر مستمر وحركة دائبة ، ولا شيء يثبت على حاله ، فهو في قلق مما سـيحدث له في المسـتقبل ، لـذلك يحـاول ان يعتمد على شـيء يطمئن اليه ، ولكن بـدل ان يدفعه هـذا الخوف الى الاعتماد على الله والتوكل عليه ، والمزيد من الالتصـاق بمناهجه ، فأنه كثـيرا ما يلجأ الى الاسـتناد الى متـاع الحيـاة الزائل ، والتكـاثر في الأمـوال ، ولـذلك ينبه القـرآن الإنسـان انه عند ما يخـاف من تغـيرات الحيـاة وتقلبـات الزمـان فـان هـذا شـعور سـليم ، ولكن عليه الا يوجه هـذا الشـعور نحو المـال لأنه يـزول ، بل يوجهه نحو الاعتماد على شيء يبقى.

[38] (**لكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي**)

أي انني لا أزال على ديني.

ان كثـيرا من الفقـراء والمحـرومين حينما يجـدون امامهم أغنياء يركعون لهم ، ويخضعون لسلطان ثرواتهم ، وبـذلك يـدفعونهم الى مزيد من الاسـتغلال والاسـتكبار ، والقـرآن يـرفض ذلك عـبر هـذه القصة وكأنه يقـول : ايها الفقـراء عليكم ان تعـتزوا بأيمـانكم بالله ، لأنه هو القـادر على أن يغنيكم كما اغنى هؤلاء.

(**وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً**)

ويبـدو ان السـياق هنا يسـمي الخضـوع للغـني شـركا واتخاذا لإله غير الله.

[39] (**وَلَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللهُ**)

في البداية اتخذ الفقير موقف الدفاع ، وحصّـن نفسه من الخضوع للغني ، ولكنه الآن أخذ زمان المبادرة محاولا إصـلاح الغـني ، وهـذا هو الـدور المطلـوب من الفقـراء ، فقـال له : لا بد ان تـدرك ان ما حـدث انما كـان بمشـيئة الله واذنه ، وحسب قضائه

وقدره ، لا حسب أرادتك وعلمك. فلما ذا لا تقول :
(**لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)

ثم انك الآن لا تستطيع ان تستفيد من هـذه الثمـار إلا بعون الله ، وهكـذا فـأن الخـير الـذي حصـلت عليه سـابقا كان من الله ، والخير الـذي تأمله في المسـتقبل هو أيضا من الله ، وهــذا هو الإطــار الــذي يجب ان نتعامل به مع الطبيعة والثروة والغنى.

(**إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً**)

ان غـرورك واسـتعلاءك قد يـدفعك الى خسـارة كل شيء ، وآنذاك سـأكون انا الـذي تنظر اليّ باحتقـار أفضل حالا منك ، لأن القناعة كنز لا يفنى.

ثم اني آمل فضل الله بشكري ، وأنت تعـرض نفسك لسخط الله بكفرك.

[40] (**فَعَسى رَبِّي أَنْ يُـؤْتِيَنِ خَيْـراً مِنْ جَنَّتِـكَ وَيُرْسِـلَ عَلَيْها حُسْـباناً مِنَ السَّـماءِ فَتُصْـبِحَ صَـعِيداً زَلَقاً**)

هذا هو الفـرق ، فـالفقير كـان يتمسك بأهـداب الأمل ويرجو رحمة الله ، بينما الغني كان يعـتز بـالغرور ، وهـذه عبرة كبيرة لك ايها الإنسان : ففي اي لحظة من لحظـات حياتك سـواء كنت غنيا أم فقـيرا ـ أنظر نظـرة بعيـدة ـ فالغنى قد يتحول فقرا فلا تبطر ، وكـذلك الفقر قد يكـون طريقا للغنى فلا تيأس ، هذه هي تعاليم الرسالة.

العقاب الإلهي :

يقــول المفســرون : ان كلمة الحســبان تــدل على الرماية المحسـوبة الـتي يقـوم بها الرمـاة في وقت واحد والكلمة مــأخوذة من لفظة الحســاب ، ثم اختلفــوا : هل الحسـبان عـذاب من السـماء ، أم سـيل في الأرض ، أم زلزال ، أم ماذا؟

وأتصـــور ان الحســـبان هو العـــذاب المحســـوب والمخطط له ، وفي هـذه الحالة بالـذات كـان سـيلا ، وقد يعـني ذلك ان الكلمة تـدل على سـيل من السـماء حـول الجنتين.

صعيدا زلقا : اي أرضا جرداء غـير قابلة للزراعة مـرة اخرى.

[41] (**أَوْ يُصْـبِحَ ماؤُها غَـوْراً فَلَنْ تَسْـتَطِيعَ لَـهُ طَلَباً**)

أي يتسـرب مـاء النهر الـذي يـروي المزروعـات الى بـاطن الأرض ، بحيث لا يمكن الوصـول اليه والاسـتفادة منه.

مـاذا حـدث بعد ذلك تفصـيليا لا نعلمه ، وما نعرفه ان هذا الرجل جاء الى باب بستانه فإذا بثمره الذي اغـتر به ، والذي كان حصيلة جهود مكثفة طوال سنين قد احيط به.

[42] (**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ**)

أي جـاء عـذاب وأصـاب الثمـار وأتلفها ، ثم دمّر كل النباتات والأشياء الموجودة.

(**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها**)

من عمر ومن مال ..

(**وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها**)

اي تهاوى بناؤها ووقع على بعضه.

(**وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً**)

اي لم أشــرك بــربي شــيئا ، فــأركن للغــنى ، واغــتر بالثروة ، واعتقد بأن المال يضمن البقاء والخلود. والقرآن يقول : «أحدا» ولا يقـول : «شـيئا» ربما للإشـارة الى ان الإنسان الذي يعبد الغنى والثروة اليوم سـيعبد من يملكها غدا ، وهو بالتالي يسير في خط الشرك.

[43] (**وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ**)

لعله كان لهذا الرجل عصبة اعتقد بأنهم قادرون على دفع عذاب الله عنه ، فهو لم يكن واحدا ، انما كان ضـمن مجموعة من الأثريـــاء نســـميهم بطبقة الرأســـماليين والمسـتكبرين ، وعبادته لم تكن للمـال فقط ، وانما لتلك الطبقة أيضا.

ولكننا رأينا ان تلك الطبقة تخلت عنه وتركته حينما جاءه عذاب الله ، لأنهم يريدون المرء ما دام ثريا مثلهم ، أما إذا أصيب بنكبة وأصبح فقيرا فلا شأن لهم به.

(**وَما كانَ مُنْتَصِراً**)

وحتى لو أرادوا ان ينصروه فأنهم لن يستطيعوا ذلك.

[44] (**هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلّهِ الْحَقِ**)

إذا أردت ان تعبد أحـــدا ، وتعتمد على ركن ، فـــأعلم بأن الله هو وليك وقائدك وإلهك فأعبده واعتمد عليه.

(**هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً**)

فهو الـــــذي يعطيك الثـــــواب الآن ، ويؤملك به في المستقبل.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45) الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48) وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49)

---

45 [هشيما] : الهشيم ما يكسر ويحطم من يابس النبات.
49 [مشفقين] : خائفين من وقوع مكروه.

ووجدوا ما عملوا حاضرا

هدى من الآيات :

ان سورة الكهف تبين العلاقة بين الإنسان وبين الدنيا وزينتها الزائلة.

وقد ضـــربت لنا في آيـــات ســـابقة مثلا في قصة الـرجلين اللـذين كـان لأحـدهما جنتـان من نخيل وأعنـاب وزروع ، فـــاغتر بهما واعتمد عليهما ، وكـــانت عاقبته ان خسر الدنيا والآخرة.

ويلخص القرآن في هذه الآيات العبرة من هذه القصة ، فيــبين ان مثل الحيــاة الــدنيا وما فيها من زينة ، كمثل الربيع الـذي لا يلبث ان ينقضي ، وانما لا تنقضي الباقيـات الصالحات.

ويصور القـرآن لنا مشـهدا من مشـاهد يـوم القيامة ، حيث لا يستطيع الإنسان أن يمسك بيـده شـيئا الا ما قـدّم من عمل ، فان كان ما عمل صالحا ، فهو خير ثوابا وخير

أملا ، والا فجزاؤه جهنم ولا يظلم ربك أحدا. وهكـذا يحـدد لنا نظـــرة (مســئولة) الى زينة الحيـــاة وان المـــراد من تطوراتها هو فتنة البشر وابتلاؤه ليعلم مدى مسئوليته.

والمثل الذي يضربه القرآن عن الحياة الـدنيا وزينتها ، مستوحى من دورة الربيع ، حيث ينزل المـاء من السـماء فاذا بالنباتات المختلفة تخرج من الأرض ، وتجعل الإنسان يـزعم بأنها باقية ودائمة ، وإذا بأيـام الربيع تنقضي ويـأتي الصيف فتحرق الشمس اللاهبة كل تلك النباتات ، وتحولها الى هشيم متفتت تذروه الرياح.

فما الذي يبقى بعد كلّ هذه الدورة؟

الشــيء الوحيد البـاقي هو قـدرة الله الـتي تغيّر ولا تتغيّر ، تلك القدرة التي كانت ولا تـزال ولن تـزول ، وكما تتغيّر الطبيعة. بفعل تقدير الرب الحكيم. فـان الـدنيا كلّها تنقلب في كف القدرة الإلهية ، وتعـود كما بـدأت ، وتقـوم الساعة ويسيّر الله الجبال على عظمتها ، وتبرز الأرض بلا زينة ولا نتوءات. ويحشر الله النـاس جميعا دون اسـتثناء ، ويقف النـاس مصـطفين امـام رب العـزة ، ويقـرر النـداء الإلهي واقعهم الضـــعيف انهم عـــادوا كما خلقهم الله لا يملكون ايّ شيء. وان هذه هي الساعة الـتي كفـروا بهـا. وإذا بكتـــاب أعمـــالهم موضـــوع أمـــامهم يشـــفق منه المجرمون ويزعمون لأنفسهم الويل لأنّ الكتاب لم يغـادر صغيرة من أفعالهم ولا كبيرة الا أحصاها.

هكذا تتجلى مسئولية البشر والتي هي الغاية من زينة الحياة الدنيا.

بينات من الآيات :

مثل الدنيا :

[45] (**وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَـلَ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا كَمـاءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ**)

المــاء أنزله الله ، فبــدل ان نعتمد نحن على المــاء ، ونبــني حضــارتنا وقيمنا الفكرية عليه كما فعل الفراعنة ، ينبغي أن نعتمد على رب المـــاء والمهيمن عليه وعلى كل شيء ونبني حضارة الهية سامية.

(**فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ**)

اي اختلط نبات الأرض بعضه مع بعض بواسطة المـاء ، والماء هو الذي جعل هذه النباتات التي كانت بذورا تحت الـتراب تنمو وتختلط بقـدرة الله ، والإنسـان يـرى وكـأن النباتـات قائمة بــذاتها ، ولا يعلم بــأن قســما كبــيرا منها يشكله الماء ، الذي جـاء من السـماء ، وسـوف يغـور في الأرض أو يعـود الى السـماء ثانية عن طريق التبخـر. وهنا لون آخر من ألوان الغرور وهو : اعتقاد الإنسان بـان هـذه الاعشـاب نباتـات ، بينما هي في الواقع ميـاه قد تشـكلت بهـذا الشـكل ، وإذا ذهبت تلك الميـاه فـان تلك الاعشـاب تتحول الى هشيم تذروه الرياح ، لا تقف على سوقها ، ولا تثبت في مكانها.

(**فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ**)

بعد ان كانت النباتات تبــدو ثابتة مسـتقرة ومختلطة ، بعضــها يــدعم بعضا ، تحــولت الى هشــيم متفتت تنقله الرياح من مكان الى مكان.

(**وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً**)

وقدرة الله هي التي تحـرك هـذه الـدورة الـتي تشـبه سائر دورات الحياة ، وعند ما تنظر بمقيـاس تـاريخي الى بعض الــدورات التاريخية ، فانك تــرى حضــارة جــاءت ونشأت وجرت عليها الأجيال ، ثم اضمحلت وبادت وانتهت ، والشـيء الوحيد الـذي بقي لنا منها هو سـنة الله ودلائل قدرته ، وكلمة «كان» تدل على الماضي أو على

الاســتمرار ، فــاذا دلت على الماضي فــذلك يعــني ان الشـيء الـذي سـبق كل هـذه الحيـاة انما هو قـدرة الله ، اذن فهي الــتي ســتبقى لأنها كــانت ولم تكن الحيــاة ، وسوف تكون بعد ان تنتهي الحياة.

الباقيات الصالحات :

[46] (**الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا**)

لأنها أشـياء تشـبه تلك النباتـات الـتي تختلط وتلتف ببعضـها ، وهي زينة يجب ان يسـتفيد الإنسـان منها على هذا الأسـاس لا أكـثر ، اما إذا أراد ان يعتمد عليها اعتمـادا كليا فسوف يسقط.

والــوردة الجميلة الجذابة ذات العبق الطيب انما هي زينة ، ولا يمكن ان تســتند عليها لأنها تقع ولو فعلت ذلك فستقع معها.

والمال والبنـون هكـذا ، فبقـدر ما تتعب وتحصل على المـال وتبـني بيتا تسـتفيد منه ، أو تحصل على بـنين يسر قلبك لمرآهم ، وترتاح نفسيا بهم ، بهذا المقدار سـائغ لك ، أما أن تغـترّ بالمـال والبـنين فهـذا خطأ كبـير ، لأن هـذا المال ليس باق وحتى إذا بقي فـأنت لا تبقى له ، والبنـون لا يبقـون لك أو لا تبقى معهم ، وينتهي دورهم بانتهـاء دور الزينة. فما الذي يبقى لك؟

عملك هو الـــذي يبقى. وما تـــدخره لنفسك من الصالحات هو الذي يـدوم ، وهو الـذي يشـكل زينة الحيـاة الآخرة.

(**وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْـدَ رَبِّكَ ثَوابـاً وَخَيْـرٌ أَمَلاً**)

فبـدل أن تـدخر جهـدك في الأمـوال وتكدّسـها على بعضها ثم تذهب في لحظة

واحدة ، أو تتعب نفسك وترهقها من أجل الأولاد ثم فجـأة يقلبون عليك ظهر المحن ويتركونك وحدك ، بدل كل ذلك اعتمد على الله بالأعمال الصالحة.

ما هي الأعمال الصالحة؟

أن تجلس في الـبيت وتـذكر ربك وتسـبحه؟ وتصـلي الفرائض الخمس بنوافلها؟ أم تزكي وتخمس؟ أم تجاهد؟ أم تبـــني مصـــنعا وتعبّد شـــارعا من أجل الله وفي خـــير المجتمع؟

كل ذلك عند ما يكـــــــون خالصا لوجه الله ، فهو من الباقيات الصالحات ، وهي تنقسم الى نوعين :

النوع الاول : ما يرى الإنسان جزاءه عليه في الآخـرة فقط ، وان كان يعود بالفوائد المعنوية في الدنيا كالصـلاة ، والتسبيح ، والذكر وغيرها.

النوع الثاني : ما يرى الإنسان جـزاءه في الـدنيا أيضا كما لو بـنى حضـارته ، ذلك لأن الحضـارات هي المكاسب البشـــرية الباقية ، فما تأكله وتشـــربه ليس حضـــارة ، أما الـــذي تبنيه فهو جــزء من الحضـارة ، والــذي تعرفه قد لا يكون من الحضارة ، ولكن الذي تقوله أو تكتبه من العلوم فهو من المكاسب الحضارية ، وبتعبير آخر من المـدّخرات الحضارية للمستقبل.

والحضارة انما تبـدأ ، وتنمو ، وتبقى عن طريق أولئك الذين يفكرون في المستقبل فيدّخرون الأعمـال الصـالحة للمستقبل ، يعبّدون الطـرق ، ويعمّـرون المـدن ، ويبنـون المصانع. و.. و.. التي تبقى.

والامة التي تستهلك أكـثر مما تنتج ، وتهـدم أكـثر مما تبني ، وتفسد أكثر مما

تصلح ، فانها لا حضارة لها ومصيرها الى الاندثار.
أما المجتمع الــذي يعمل فيعطي لما يبقى أكــثر مما يعطي لما يفنى ، وينتج أكثر مما يستهلك ، وبالتالي يصـلح أكثر مما يفسد ، فانه مجتمع يبني الحضارة ويحميها.
ونظرة القرآن للمستقبل تنقسم الى شقين :
نظرة الى المستقبل في الحيـاة الـدنيا ، ونظـرة الى المستقبل في الآخرة ، والحديث الشريف يقـول : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لأخراك كأنك تموت غدا» مشيرا الى هذا المفهوم ، وهو : ضرورة العمل للمستقبل بشقيه الدنيوي والأخروي.
ويشدد الإسلام على هذا الموضـوع أكـثر حينما يقـول رسول الله (ص): «إذا قامت الساعة وبيد أحـدكم فسـيل فليغرسـها» ، اي إذا كـان بيـدك شـتلة ، ورأيت أشـراط الساعة قد ظهرت وقامت القيامة ، فلا تتوقف عن عملك ، بل اغــرس تلك الشــتلة ، وذلك تأكيــده على ضــرورة العمل للمستقبل.

صور من القيامة :

لكي تتعادل نظرة الإنسان فلا يغتر بالحيـاة الـدنيا ، لا لكي تتعادل نظرة الإنسان فلا يغتر بالحياة الـدنيا لا بـدّ أن يذكّر بالآخرة. وبمـدى حاجته هنا لك للباقيـات الصـالحات. وهكـذا يـذكّرنا الـرب هنا بـذلك اليـوم الـرهيب. بلى ذلك اليـوم الـذي تعـود الـدنيا كما بـدأت وتنتهي هـذه الـدورة الحياتية على الأرض التي تشبه دورة الربيــع. الم يقل ربنا «**مَثَـلُ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا**» بلى ذلك كـان المثل وهـذه هي الحقيقة ، وان قدرة الله الـتي قلبت الطبيعة عـبر فصـول العام هي التي تقلبها عبر دورة الوجود.
ولو نظرنا الى الوجود من خلال هذه البصيرة القرآنية إذا لهانت زينة الدنيا في

أعيننا ، ولتحمّلنا مسـئوليتنا ، وأخـذنا من هـذا المعـبر السريع لـذلك المـنزل البـاقي ، أليس كـذلك؟ دعنا نعيش لحظـات في عمق المسـتقبل الحـق. في يـوم النشـور الرهيب.

وينتقل بنا السـياق ليصـور لنا مشـهدا من مشـاهد القيامة ، حيث تنتهي جاذبية الأرض ـ كما يبدو لي ـ وتصبح كالعهن المنفوش وتنبث بثا وتسيّر تسييرا. يقول تعالى :

[47] (**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ**)

هـذه الجبـال على عظمتها وضـخامتها تتحـرك ، وإذا تحـركت الجبـال ولم تثبت في مكانها فهل أسـتطيع أنا أن اثبت في مكاني؟

كلا .. كـذلك زينة الحيـاة الـدنيا ، فلا يمكنك أن تعتمد على شيء وتركن إليه ، لان هذا الشيء غير ثابت للأبد.

(**وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً**)

لا شيء يستقر على الأرض ، لا بناء ولا شجر ولا تلال ، فتصبح (**بارِزَةً. وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً**)

فلا ينسى الله أحدا لان قبره في مكـان بعيد ، أو لأنه مـات منذ زمن طويل ، أو لأنه لم يسـجل اسـمه في القائمة ، لا شـيء من ذلك أبـدا ، فكل النـاس بلا اسـتثناء يقفون على أرض المحشر التي تكون بـارزة ، مكشـوفين لا شيء يسترهم.

[48] (**وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا**)

ثم تـأتي مرحلة الاصـطفاف بين يـدي الله عز وجل ، في صفوف لا يعلم مداها ، الا الله حيث يتواجد آنـذاك كل النـاس الـذين خلقهم الله منذ ملايين السـنين والى يـوم القيامة.

(**لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)

أين الأمـوال؟ وأين البنـون والعشـيرة؟ وأين الألقـاب والمناصب؟ لا شيء بقي من ذلك اليوم.

(**بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً**)

كنتم تتصوّرون ان يوم القيامة لن يأتي وقد أتى اليوم ، فأين أنتم منه؟

قـال رسـول الله (ص) عن النـاس يـوم المحشر : «**يحشـرون حفـاة عـراة غـرلا (والغـرل هم الغلـف) فقالت عائشة حين سـمعت ذلك : واسـوأتاه! أينظر بعضهم الى سوأة بعض من الرجال والنساء؟! فقال (ص) : لكل امـرء منهم يومئذ شـأن يغنيه ويشـغل بعضهم عن بعض**»

فابصـارهم تكـون شاخصة الى الأهـوال والاحـداث الرهيبة الـتي تأخذ مجراها في ذلك الـوقت ، ويكـون تفكيرهم منصبا على مصيرهم.

[49] (**وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّا فِيهِ**)

ويتعجبـون : كيف رصـدت كل التفصـيلات الدقيقة ، المادية والمعنوية فيها فيرتجفون خوفا ، لان كل جرائمهم مكتوبة ، وهم مسئولون عنها.

(**وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا**)

أي الويل والثبور علينا.

(**ما لِهـذَا الْكِتـابِ لا يُغـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَبِـيرَةً إِلَّا أَحْصاها**)

كل سيئة أو خصلة أو حالة نفسية مسجلة في الكتاب ، وحـــتى النوايا القلبية والأفكـــار الذهنية تظهر واضـــحة امامهم.

(**وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً**)

امامهم ، وليس اسم العمل وحده الـذي يسـجل ، بل ويصـــبح العمل مجســـما يرونه ويحســـونه ، فـالطيب منه يتحول الى صور طيبة يـوم القيامة ، بينما يتحـول السـيء الى صـــور مرعبة كالعقـــارب ، والحيـــات ، والنـــيران ، والأغلال ، والظلمات .. و.. و.. لا بظلم من الله ـ حاشاه ـ فهو لم يخلق النـاس ليعـذبهم بل لـيرحمهم ، وانما يحصد الإنسـان ما يزرعه في الـدنيا ، إن خـيرا فخـير وإن شـرا فشر.

(**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**)

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (50) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْـقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُـداً (51) وَيَـوْمَ يَقُـولُ نـادُوا شُـرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَـدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْـــتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقـــاً (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُــونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِــدُوا عَنْها مَصْرِفاً (53)

---

51 [عضدا] : معينا.
52 [موبقا] : كل شيء حال بين شيئين.
53 [مواقعوها] : المواقعة ملابسة الشيء بشدة.
[مصرفا] : مكانا ينصرفون إليه.

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54) وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (55) وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (56)

---

56 [يدحضوا] : الإدحاض هو الذهاب بالشيء الى الهلاك.

ولاية الله أم ولاية الشيطان؟

هدى من الآيات :

في سـياق بيـان القـرآن الحكيم لزينة الحيـاة الـدنيا وموقف الإنســان منها ، ذلك الموقف المتســامي الــذي يجعله يمتلك هـذه الزينة بـدل ان تمتلكه ، يعـالج القـرآن أخبث صفة تجعل الإنسان يتكاثر في الأموال والأولاد وهي التعالي والتكبّر ، ويذكرنا الرب بعاقبة إبليس أو من تمــرد على ربّه واسـتعلى ، ويأمرنا بمقاومته ، كما يـبين ، ـ في هذا الإطار ـ موقف المؤمن من طائفة المستكبرين.

يـبيّن طبيعة هـؤلاء ليوجد حـاجزا نفسـيّا بين المـؤمن وبينهم ، فيضــرب في الأعمــاق التاريخية حينا ، ويصــوّر المستقبل البعيد حينا آخر.

اما من التاريخ فيضرب الله لنا مثلا من واقع ، إبليس الـذي اسـتكبر ورفض أن يسـجد لآدم بعد أن سـجدت له الملائكة جميعا ، وكــان إبليس من الجن. الــذين هم أقل رتبة وأدنى درجة من الملائكة.

ويوحي القرآن من هذا المثل بهذه الفكرة ، ويتساءل السياق مستنكرا : كيف تعبدون إبليس المستكبر المتمـرد على سلطان الله أو تعبدوا ذريته وهو لكم عدو مبين؟

من المستقبل يـبين الله لنا كيف أن المجـرمين حينما يرون النار ، ويتصورون أنفسهم وهم ملامسون لها ، فـأن فرائصـهم ترتعد خوفا وشـفقة على أنفسـهم ، ولكن أنّى لهم الهروب من النار؟!

وبين هذا المستقبل وذلك التـاريخ ، على الإنسـان ان يحدد موقفه من الثروة والسلطة وأصحابهما المسـتكبرين وهم ذرية إبليس ، وسبب الفساد في الأرض.

بيّنات من الآيات :

لمن الولاية؟!

[50] (**وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**)

لقد كان إبليس من الجن ، وكانت الملائكة ارفع منهم درجة ، وقد أمر إبليس كما الملائكة بالسجود لآدم ، ولكنه خرج عن الطاعة ، والفسـوق هو : الخـروج عن الحـدود ، وربما يكون الخروج أحيانا من مكان ضـيق الى آخر رحيب ، أو من مكان غـير مناسب الى آخر مناسب ولكن عند ما يكـون الخـروج من الحـدود المرسـومة للشـيء ، مثل أن يخــرج الإنســان من الحمى ، أو إذا خــرجت الفاكهة من قشرها فأن ذلك يسمى فسـقا ، لأن هـذا الخـروج خـروج غير مناسب ، وهو يؤدي الى نتائج سلبية.

يقــول القــرآن الحكيم ان خــروج إبليس عن الطاعة كان فسقا أي كان سببا لفساده وهلاكه.

(**أَفَتَتَّخِذُونَـهُ وَذُرِّيَّتَـهُ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**)

أي هل من الصـحيح أن تتخـذوا إبليس وليا من دون الله ، بينما ولي الإنسـان هو صـديقه الـذي يحبه ، بينما إبليس قد تمرد على الله واستنكف عن طاعته ، فكيف لا يستكبر على الناس وهو عدوّ لهم؟!

(**بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**)

انه بـديل سـيء لمن يتخـذه وليّا من دون الله ، ولكن من الذي يتخذ إبليس وليا؟

انهم الظـالمون ، فعمل الإنسـان يـؤثر على عقله وعقيدته ، فظلمه للآخـرين ومن ثم ظلمه لنفسه ينعكس على عقيدته ، ولا يبتعد الإنسان عن الشـيطان الا إذا كـان مؤمنا ، لـذلك فـأن القـرآن غيّر توجيه الكلام فلم يقل : بئس لكم بدلا ، وانما قال : «**بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**».

[51] (**ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ**)

ان هـؤلاء لا يعلمـون ما في السـماوات والأرض ، وبالتـالي لا يصـلحون للقيـادة ، والـولي القائد هو : الـذي يعـرف مـاذا في السـماوات حـتى يمكنه أن يقـود النـاس بـالطرق الصـحيحة ، وربما تعـني الآية الكريمة من تعبـير السماوات والأرض التشـريعات المعنوية والطـرق المادية للحيـاة ، وهـؤلاء لا علم لهم بها لأنهم لم يشـهدوا الخلق ليعرفـوا ما يناسـبهم من تشـريعات ، وليس هنـاك مصـدر آخر للمعرفة غير الله.

بينما الله سـبحانه وتعـالى لم يكن فقط شـاهدا على الخلق ، وانما كـان خالقا بالتـالي فهو أعلم بما في السـماوات والأرض وأولى بـأن يتبع هـداه ، أن هـؤلاء لا يعلمون ولا يعرفون حتى أنفسـهم ، والـذي لا يسـتطيع أن يقـود نفسه الى الخـير والهـدى ، فهل يمكنه ان يقـود الآخرين؟!

ومن جهة أخرى : لا يتصور الناس بأن الإنسان الضال يمكن ان تنفعهم قدرته وقوته شـــيئا. كلا .. لأن الضـــلالة تسـبب فسـاد القـوة والقـدرة مهما كـانت كبـيرة وهائلة ، ويذكرنا القرآن بهذه الحقيقة فيقول :

(**وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً**)

الذي يضـلـك لا يمكنك ان تتخـذه عضـدا لك ، ونلاحظ هنا ان القـــــرآن قد وصف المضــــــلين وهم جمع بكلمة «عضـدا» وهي مفـرد ، ولم يقل : اعضـادا ، لأنه يريد ان ينفي الموضوع تماما.

وذلك أبلغ لأن الإنسـان قد لا يتخذ مجموعة أعضـاد ، وانما يأخذ عضدا واحدا ، ونفي المجموع ليس ينفي الفرد الواحـــد. بينما نفيها حيث تنفي حـــتى الواحد فانه يعـــني المجموع أيضا ليس موجود.

حـــرام أن يتخذ الإنسـان في حياته الـدنيا رجلا ضـالا عضدا يستعين به ، وبهذه الدرجة من العنف ينفى القـرآن مسألة الاسـتعانة بالظـالمين والتعـاون معهم في أي حقل من الحقول.

وجعلنا بينهم موبقا :

[52] (**وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ**)

في يـــوم القيامة يـأتي الله بالنـاس الـذين اتخـــذوا الشيطان وذريته قادة ويقول : سأدعكم الآن لفترة تنادون أولئك القـــادة الـــذين كنتم تســـتعينون بهم في الـــدنيا ، فيقفون ويصيحون حتى تبحّ أصواتهم ولكن دون جدوى.

(**فَــــدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْـــــتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً**)

بين الشـــركاء والمشـــركين هـــوة ســـحيقة ومهلكة ، يسميها القـرآن بـالموبق وهي : الفجـوة العميقة الفاصـلة بين شيئين ، ولكن لماذا هذه الفجوة؟

بـالرغم من أن هـؤلاء وأولئك في كثـير من الأحيـان يسلكون سبيلا واحـدا ، ومصـيرهم جميعا الى النـار؟ لعـلّ هذه الهـوة العميقة ترمز الى الهـوة الـتي يجب أن تكـون بين الإنسان والشركاء.

[53] (**وَرَأَى الْمُجْرِمُـــــونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها**)

تأملوا هذ المشهد : الكفار لم يظنـوا أو تصـوروا أنهم سيقعون في النار ، وانما تصوروا لمسهم للنار واحتكاكهم بها فقط.

(**وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً**)

وجري بنا ان نتصور نحن هـذه الحالة أيضا ، فنحن لم نر تلك النـار اللاهبة الشـديدة ، ولكننا نسـتطيع أن نتصـور أنفســنا واقفين على نــار قعرها عميق ، وحرّها شــديد ، وعذابها غليظ ، ونتخيّل تلك النيران المحرقة وهي تلامس أجســادنا دون أن نجد مهربا منها ، لنتصــور هــذه الحالة ، فأن التصور يقرب الحقيقة الى ذهن الإنسان ويقوم بــدور الوسيط بينه وبين الحقـائق البعيـدة ، وبالتـالي فهو يـربي الإنسان وينمّي تقواه.

ان الطــالب الــذي يتصــور قاعة الامتحانــات في آخر الســنة الدراســية ، يتحصن ضد الســقوط عند ما يـدخلها ليؤدي الامتحان عمليا ، وهكذا الفـرد الـذي تتـاح له فرصة الجريمة ، ولكنه حين يتصــور قاعة المحكمة انه يبتعد عن الجريمة ، كــذلك نحن إذا تصــورنا تلك النــيران في جهنم سنمتنع عن المعاصي والفساد.

ذلك هو التاريخ البعيد ، وهـذا هو المســتقبل القـادم ، وبينهما ينثني السياق

القـرآني ليـذكرنا ويقـول : ايها النـاس تلك كـانت قصص ماضيكم ، وتلك حوادث مستقبلكم ، فانتبهوا لحاضركم.

كيف نتخلص من طبيعة الجدال؟

[54] (**وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هـذَا الْقُـرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**)

كل تجســيد للحقيقة يســمى مثلا ، والقــرآن يجسد الحقــائق المجــردة في امثلة تاريخية مضت أو حــوادث مسـتقبلية تقع ، لكن لمـاذا ، لكي يقـرب هـذه الحقـائق المجردة الى أذهان الناس وقلوبهم ، ولكن الإنســان مهما أوتي من أمثال ، وصـرفت له من قصص وحـوادث ، تـراه يجادل فيها.

(**وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**)

الإنســان يبحث عن أي وســيلة يتهـرب بها عن حفظ أمانة العقل ، وثقل مســئولياته انه يبحث عن مخــرج من الهداية للصعوبة القصـوى الـتي يعانيها في رحلته الشـاقة من ارض الطبيعة الى قمة الكمـــــال ، وما دامت طبيعته الجــدل ، فــأن عليه أن يعمل جاهــدا لكي يقــاوم هــذه الطبيعة ، ويعـرف بأنه لو تـرك نفسه وشـأنها فإنها نزاعة للهوى وأمـارة بالسـوء ، تـدعوه الى الجـدل والابتعـاد عن الحقيقة والهبوط الى حضيض الشهوات.

ان عليك ايها الإنســان ان تقــاوم ، العلم بحاجة الى جهـاد ، والهـدى بحاجة الى سـعي ، والكمـال بحاجة الى مقاومة مستمرة لنوازع الهوى حتى تكتمل.

ولعلّنا لو تعمقنا قليلا في كلمة الجـــــــدل نصل الى معرفة طبيعة الإنســـان الـــتي هي مخلوقة من مجموعة متناقضة من الأهواء ، والنزعات ، والتطلعـات وما أشـبه ، فالإنسان

دائما في حالة صـراع وتجـاذب داخلي ، ففي نفسك توجد مجموعة جـــواذب مختلفة كل يجـــذبك الى جهة ، عنصر يجذبك الى طاعة الآباء ، وآخر يــدعوك الى الغلو في حب الأبناء ، وثـالث يـدعوك الى الـذوبان في تيـارات وهكـذا ، وكل هـــذه العناصر لها تـــأثير على عقلك وتفكـــيرك ولا يمكنك الكمال الا إذا قطعت كل حبال الطبيعة.

لذلك جاء في الأحاديث أنه يوجد في قلب كل إنسـان 33 ملكا و33 شـــيطانا ، وهـــؤلاء الملائكة أحـــدهم يمثل الصبر ، والثاني يمثل اليقين ، والثالث يمثل التقـوى .. إلخ وأولئك الشـــياطين أحـــدهم يمثل الغيبة ، والثـــاني يمثل التهمة ، والثـــــالث يمثل الفجـــــور .. إلخ .. والملائكة والشياطين جميعا وما يمثلونه في حالة جدال مستمر في داخل الإنسان.

بعض المفسرين قـالوا : أن كلمة «أكـثر شـيء» إنما هي على سبيل المبالغة ، والواقع انه لا مبالغة هنـاك ، فلا يوجد شـــيء في الطبيعة أكـــثر جـــدلا من مخ الإنســـان ، ولنفترض ان شلالات الماء في (نياجارا) تحدث جـــدلا لأنها تـنزل وتصـطرع مع الميـاه الـتي تصـطدم بها ، ولكن هـذا الجـدل أكـثر أم جـدل الفكـرة؟ والتيـارات المتعارضة في بعض البحـار ، والريـاح المختلفة ، والزوابع العاصـفة أكـثر جـــــدلا أم القلب ، الــــذي تنعكس عليه كل تناقضـــــات الوجود؟!

وإذا بحثت فلن تجد تناقضا قائما في الـدنيا أكـثر من ذلك الموجـــود في فكـــرك ، لأن عقلك يحتـــوي على كل تناقضـات الـدنيا ، ماديـات ومعنويـات ، حق وباطل ، خـير وشر ، ففكر الإنســـان انعكـــاس لكل تناقضـــات الكـــون ، لذلك فهو أكثر شيء تناقضا وجدلا.

[55] ومن أنـواع التنـاقض والجـدل عند الإنسـان هو ذلك الموجـــــود بين الواقع والحقيقة ، فللواقع ضـــــغطة وجاذبيته ، وللحقيقة صحتها وعاقبتها.

ان الله يبعث بالهـدى للنـاس ، ويـأمرهم ان يصـحـحوا حياتهم وفق هذا الهـدى ويصـلحوا ماضـيهم ، ولكن هـؤلاء ينتظرون حتى يأتيهم العذاب ، فأما أن يأخذهم بغتة ، واما يأتيهم فيروه أمامهم مباشرة ، فهم ينتظــرون الواقع ، ولا ينظرون الى الحقيقة ، ويقول القرآن :

(**وَما مَنَـعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُـوا إِذْ جـاءَهُمُ الْهُـدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ**)

ان يؤمنوا بالهدى ، وان يصلحوا حياتهم الماضـية وفق ذلك الهدى.

(**إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ**)

اي العذاب المحيط بهم.

(**أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً**)

اي يرون العذاب امامهم مباشرة.

[56] اذن لماذا يـنزل ربنا العـذاب على النـاس حـتى يهتدوا؟

لأن المطلوب هو ان يهتدي الناس بعقولهم وإراداتهم ، ودور رسالات الله هو دور التبشـير والإنـذار ، وليس دور الجبر والحسم.

(**وَما نُرْسِـلُ الْمُرْسَـلِينَ إِلَّا مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ**)

يريد الكفـار ان يهـدموا كيـان الحق بسـلاح الباطل ، ولما كانوا لا يقدرون على ذلك ، فأنهم يتخذون سلاحا آخر هو سلاح الاستهزاء ، وهو اخطر سلاح يسـتخدمه الإنسـان في مقاومة الحقيقة.

(**وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً**)

تكمن خطـورة هـذا السـلاح في نـاحيتين : فمن جهة حينما يستهزئ الإنسان بالحقيقة ، فأنه لا يمكنه ان يهتدي بها أبدا.

ومن جهة ثانية حينما يستهزئ بها ، فلا يمكن لأحد أن يضرب له مثلا ، أو يـأتي له بـدليل على تلك الحقيقة لكي يقنعه بها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58) وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59) وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (61)

---

60 [لا أبرح] : لا أزال.
[حقبا] : الحقب الدهر والزمان وجمعه أحقاب.

فَلَمَّا جـاوَزا قـالَ لِفَتـاهُ آتِنا غَـداءَنا لَقَـدْ لَقِينا مِنْ سَـفَرِنا هـذا نَصَـباً (62) قـالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّـخْرَةِ فَـإِنِّي نَسِـيتُ الْحُـوتَ وَما أَنْسـانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَـبِيلَهُ فِي الْبَحْـرِ عَجَبـاً (63) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصـاً (64)

---

64 [قصصا] : يتبعانه ، ومنه اقتصاص الأثر.

من حقائق الهدى والمعرفة

هدى من الآيات :

في هذا الدرس يـذكرنا القـرآن الكـريم بثلاث حقـائق تتصل بقضية الهدى والمعرفة :

الحقيقة الاولى : ان اكتساب العلم والمعرفة وبالتالي الاهتداء مسـئولية الإنسـان الـتي تتعلق بمصـالحه العاجلة والآجلة ، فمن يرفض الاهتـداء ، ولا يتحمل مسـئوليته في الوصول الى المعرفة فانه يظلم نفسه ، ويكون مثله كمن يفقأ عينه ، أو يسـدّ أذنه ، أو يبلّد أحاسيسه ، فيقطع على نفسه ذلك الجسر الذي يربط ذاته بالطبيعة فما ذا عسـاه أن يفعل بعد ذلك؟ وما هو مبرر وجوده في الحياة؟

الحقيقة الثانية : ان الإنسان إذا رأى ان بامكانه البقاء فترة من الوقت في حالة الضـلالة دون أن يصـاب بـأذى ، فليعلم ان هــــذه مهلة منحها الله له رحمة به لعله يرجع عن ضلالته ويهتدي.

والا ففي اللحظة الـــتي تعمى فيها عين الإنســـان ، وتصمّ اذنه ، ويتوقف عقله

فانه يجب أن يموت وينتهي ، لأنه سوف يصطدم بالطبيعة وحقائقها الراسخة الصلبة فيتحطم شرّ تحطيم ، وبالتـالي فان الضلالة جريمة عقوبتها معجلة في الواقع ، ولكن الله يؤجل هـــذه العقوبة ، وهـــذا من فضـــله الواسع وحلمه الكبير. ولعله سيتدرجه الى مصيره الأسود استدراجا.

الحقيقة الثالثة : ان هـذا التأجيل ليس الى فـترة غـير محـــدودة ، وانما لموعد يـــوم معلـــوم عند الله ســبحانه وتعالى ، وإذا جاء فانه لن يتأخر ، وهذا بدوره قضـية هامة لو تحسس البشر بها لاسـتطاع أن يقـاوم جهالته ، وتعاليه على الحقائق.

ولكي يوضح القرآن الكريم هذه الحقـائق أكـثر ، فانه يضـرب لنا مثلا من واقع موسى (ع) واجتهـاده في البحث عن العلم والمعرفة.

وفي هذه المجموعة من الآيات ، يـذكرنا القـرآن بـان الإنســان في حــالات التعب ، والارهــاق ، وانشــغال ذهنه بقضايا ثانوية قد ينسى أمورا مهمة.

لقد قــام موسى مع مرافقه بســفرة طويلة مضــنية مليئة بالصعوبات ، فأصابهم تعب شديد من وعثـاء السـفر ، مما جعلهم ينســون غــذاءهم الــذي أحضــروه معهم ، فالنسيان اذن من الشيطان ، وتجاوز هذا النسيان لا يكون الا عن طريق التذكر المستمر لله سبحانه وتعالى ، وهناك سبب آخر من أسـباب الجهل وهو : اعـراض الإنسـان عن آيات الله وانصرافه عنها.

بينات من الآيات :

آثار الظلم :

[57] (**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيـاتِ رَبِّهِ فَـأَعْرَضَ عَنْها**)

فآيـات الله واضـحة ومنتشـرة في كل مكـان ، الا ان الإنسان بحاجة الى من يذكره

بها ، ولكن عند ما يــذكر وتتلى عليه الآيــات فيتركها ، ولا يهتدي بها ، فانه يكون أظلم الظالمين.

(**وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ**)

لقد نسي حقيقة رئيسية وهي : أنه إنسان غـير عـالم ولا فاضل ، بل هو جاهل ومتـورّط في الجـرائم ، إنسـان ظلم نفسه بارتكـاب الخطايا والـذنوب ، فـوقفت حـاجزا بينه وبين الهداية ، لـذلك ينبغي عليه أن يتسـلح بـالإرادة والعزم ، وان يتجاوز هذا الحـاجز بـدل أن يغفل وينسي ما قدمت يداه.

من هنا نعلم بـأن الوصـول الى الهداية بحاجة الى تجاوز الصعوبات ، وحسب التعبير القـرآني أننا بحاجة إلى (اقتحـام العقبـة) ومن لا يقتحم العقبة ، ويتسـلح بالعزيمة الكافية لتجاوز الحواجز ، فلن يهتدي أبدا.

(**إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**)

هناك حجب موجودة على قلوب هـؤلاء ، فما هي تلك الحجب؟

انها الـذنوب والمعاصي الـتي يرتكبونها ، ويصـرّون عليها ، فتتراكم على قلوبهم بصورة حجب سميكة ، تحول دون نفوذ الحقائق إليها. فيجعل الله على قلوبهم أكنّة.

(**وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً**)

أي انا جعلنا أذانهم تشكو من صعوبة السمع ، والـوقر هو : الشيء الثقيل ، والإنسان عند ما لا تسمع أذنه يحس وكأن ثقلا قد وضع فيها.

(**وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً**)

ما دامت الأكنة موجـودة على قلـوبهم ، والـوقر في آذانهم ، وما داموا قد نسوا

ماضــيهم الحافل بــالجرائم والــذنوب ، فلم يحــاولوا أن يستعرضــوا ويتــأملوا خطورتها ، ولم يتســلحوا بــالإرادة الكافية لمقاومتها ، فمن المســـتحيل عليهم أن يجــــدوا طريقهم الى الهداية.

وإذا كـانت الضـلالة ظلما ، فلما ذا لا يعجل الله عليها العقاب؟

يقـــول القـــرآن : تلك رحمة من الله ، وفرصة ثمينة لمحاولة الرجــوع الى الهداية ، فلا يغــتر الإنســان بهــذه الفرصة فانها قصيرة ومحدودة.

[58] (**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِـذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَـذابَ بَـلْ لَهُمْ مَوْعِـدٌ لَنْ يَجِـدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً**)

ليس باستطاعتهم أن يجـدوا مهربا يؤولـون اليه ، كما يحدث عادة على مستوى البشر حينما تريد الســلطات أن تلقي القبض على شـــخص فـــان هـــذا الشـــخص يأخذ بـالتفتيش عن مكـان يختفي فيه ، أو عن شـخص له نفـوذ لكي يتوسط له عند السلطة ، اما عند الله فلا يوجد شيء من ذلك أبدا ، فسـلطته واسـعة قوية قـادرة ، ولا مهـرب منها أبدا.

والموئل هو : المكان أو الزمان الـذي يحجب العقـاب عن الإنسان.

[59] (**وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُـوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً**)

وهلاكهم كان له موعد محــدد ، ولما جـاء ذلك الموعد انتهت الفرصة الممنوحة لهم ، ولم يكن باســتطاعتهم أن يكتسبوا لحظة اضافية.

لماذا النسيان؟

[60] ان نسيان الإنسـان لماضـيه وما قـدمت يـداه ، أحد الأسـباب الرئيسـية لجهله وعـدم هدايته ، والقـرآن يضـرب مثلا على ذلك من قصة موسى (ع) حيث انه كلف ـ فيما يبـدو ـ بـالبحث عن شـخص عـالم يرشـده وعـزم موسى عليه السـلام على السـفر الى حيث يوجد العـالم عند التقاء البحرين ـ ولعلهما خليج العقبة وخليج السـويس المتفرعـان من البحر الأحمر ـــ وعند ما بلغه وآوى هو وفتاه الى صخرة تسرب حوتهما في البحر ولعل الآية :

(**وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُـغَ مَجْمَـعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً**)

أي أنـني مصـمم أن أصل الى مجمع البحـرين أو أمضي سنين عديدة بالرغم من كل الصـعوبات المحتملة ، والفتى هو يوشع بن نون أقرب بـني إسـرائيل الى موسى عليه السلام ووصـيه ، ولعل التعبـير ب (الفـتى) عنه كـان لمعاني السموّ الروحي والكمال الرسالي الذي كـان يتمتع به ، وبالـذات في اتباعه لقيادته الإلهية ، وتفانيه في خدمة الرسول عليه السلام.

[61] (**فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما**)

أي المكان الذي يجتمع فيه البحران.

(**نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً**)

لقد تحرك الحوت بحالة السرب ، والسارب هو الـذي يسير الى الأسفل ولعل بالحوت كان رمق من الحياة فلما دخل الماء استعاد حياته وتسـرب فيه أو كـان هنـاك مـاء الحياة.

[62] (**فَلَمَّا جاوَزا**)
أي انتقلا الى الشاطئ الآخر.
(**قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هـذا نَصَباً**)
أي كان سفرهما متعبا للغاية وشعرا بالجوع ، والغداء هو طعام الغدو وهو أول ، النهار.

من عوامل النسيان :

[63] (**قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ**)
أي أتذكر حينما جلسنا عند الصخرة التي كانت في طريقنا لنستريح قليلا.
(**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**)
وضعته هناك ولم أجلبه معي ، ولكي يبرر هذا الواقع الذي فعله النسيان قال :
(**وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً**)
لقد نسي الفتى قصة الحوت ان يبينها لموسى عليه السلام ، وكيف أتخذ سبيله في البحر سربا.
[64] ويبدو أن علامة موسى لمعرفة مكان العالم. كانت هي بالذات حياة الحوت. وانطلاقه في البحر سربا ، وهكذا قال موسى عليه السلام :
(**قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ**)

أي ذلك المكان هو بغيتنا وهدف رحلتنا.

(**فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً**)

اي عادا على ذات الطريق وهما يبحثان عن الآثار.

وقبل ان نتـابع قصة موسى مع العـالم في الـدرس القادم دعنا نتـدبر في موضـوع النسـيان الـذي يتكـرر في هذه الآيات.

في آية سبقت بين القرآن قضـية مهمة فقـال : «**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَـداً إِلَّا أَنْ يَشـاءَ اللـهُ وَاذْكُـرْ رَبَّكَ إِذا نَسِـيتَ وَقُـلْ عَسى أَنْ يَهْـدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً**» وفي هذه الآيات نجد قوله تعالى وما انسانية الا الشيطان وهاتان الآيتـان صـريحتان في ان الشيطان ينسي ، والله يذكّر ، فما معنى هذه الفكرة؟

ان فكر الإنسـان يشـبه مصـباحا كامل الضـياء ، ليس بحاجة للوقود ولكن هناك حواجز هي التي تسد منافذ هـذا الضياء ، فما هي تلك الحواجز؟

أنها مجموعة عوامل مادية تقوم على أسـاس اهتمـام الإنســان بزينة الحيــاة الــدنيا ومتاعها ، وقد يكــون فــتى موسى (ع) وهما يمشــيان على البحر قد انشــغل بزينة البحر ، أو ببعض الأشـياء العجيبة الـتي رآها في الطريق ، المهم أن انجـذاب الإنسـان الى الطبيعة وخضـوعه لها هو من أسباب النسيان ، والحياة مليئة بـالجواذب والشـهوات الــتي يــدعمها الشــيطان ، ولكن ذكر الله يطــرد هــذه الشهوات ، ويعين على ضغط الجواذب ويزكّي النفس من العقد التي يكرسها الشيطان ، وذكر الله بالتـالي هو عـدو النســيان ، لأنه يحطم تلك الحــواجز الــتي تغلف قلب الإنسان.

وحينما تتذكر الله وقدرته وهيمنته على الكون ، يعــود إليك توازنك وتعــود الى نفسك تلك الارادة المفقــودة ، وتعود الى عقلك معرفتك بأنك أقوى من الطبيعة ،

وأسمى من زينة الحياة الدنيا فلا يجب ان تستسلم لها.
وهكذا فان القـرآن الحكيم يحـدثنا في سـورة الكهف عن زينة الحياة الدنيا من جهة ، وضـرورة التسـامي عليها من جهة ثانية ومن أبعـــاد التســـامي وفوائـــده في ذات الـــوقت هو : التـــذكر وعـــدم النســيان ، لأن الإنســـان المستسلم لحياة الدنيا وزينتها يفقد فكره ، بل يفقد حـتى الحياة نفسها ، فحب الشيء يعمي ويصم.

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69) قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (71) قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (72) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (73) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74) قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (75) قالَ إِنْ

سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْـدَها فَلا تُصـاحِبْنِي قَـدْ بَلَغْتَ مِنْ لَـدُنِّي عُـذْراً (76) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْـلَ قَرْيَـةٍ اسْـتَطْعَما أَهْلَها فَـأَبَوْا أَنْ يُضَـيِّفُوهُما فَوَجَـدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَـوْ شِـئْتَ لاتَّخَـذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِـكَ سَـأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78)

---

77 [ينقض] : يسقط.

إنك لن تستطيع معي صبرا

هدى من الآيات :

من مظـاهر اعجـاز القـرآن الحكيم ، ان آياته تتحـدث عن أشـياء عديـدة في وقت واحد ، فالآية الواحـدة مثـال لقـدرة الله في الكـون ، ولعلم الله بـالأمور ، وهي تـبين مختلف الابعـــاد للحقيقة الواحـــدة ، أو مختلف الحقـــائق للحياة.

وسورة الكهف إذ تحدثنا عن علاقة الإنسان بالحيــاة ، فانها تحـــدثنا أيضا عن علم الإنســـان ، وقد يبـــدو هـــذان الأمران في هذه السورة غير منسجمين أو حـتى مختلفين ، بينما الحقيقة هي ان علاقة الإنسـان بزينة الحيـاة الـدنيا وموقفه الســـليم منها ، ينشأ عن علم الإنســـان بحقيقة الدنيا ، فلو عرف الإنسان ظـاهرا من الحيـاة فقط اسـتبد به الغرور ، وزعم بأن هذا الظاهر الذي يراه هو الحقيقة ، بينما لو تعمق قليلا ووصل الى جوهر الحياة الـدنيا لعـرف مـدى تبـدلها وتغيّرها ، وان مخبرها غـير ظاهرها ، ولـذلك جاء في الحديث : «**الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ**»

وجاء أيضا : «كل ما في الدنيا ان تسمعه خير من أن تراه»

وهكذا الحديث عن الدنيا يسـتتبع العلم والهـدى ، لان هـدى الإنسـان ومعرفته للحقـائق معرفة عميقة وشـاملة يدعوه الى أن يتخذ موقفا سـليما من زينة الحيـاة الـدنيا ، وليس موقف الغرور والتسليم المطلق.

وفي قصة موسى (ع) مع ذلك العبد الصالح الذي جاء في الأحـاديث أنه الخضر (ع) يكتشف لنا جـانب من هـذه الحقيقة.

فموسى (ع) كان نبيا ، وكان عارفا بالأحكام الشرعية الظـــــــاهرة ، الا أنه بحث عمن هو أعلم منه ليتعلم منه الخلفيات ، أو حكم الأحكام العامة والخاصة.

وخلال تلقيه الدروس كان ينتفض أمام بعض الحوادث الـــتي يراها ولا يتحملها ، فعند ما ركبا في الســـفينة أخذ الخضر معـولا وثقب به جـدارها ، فـاذا بالمـاء يتـدفق الى داخلها ، وعند ما صــــادفا شــــابا في طريقهما حمل عليه الخضر فقتله ، وفي نهاية المطـــاف وصلا الى بلـــدة وجد فيها الخضر بناء متداعيا ، فبذل مجهودا كبـيرا في ترميمه ، ولم يطلب مقابل ذلك من القوم أجرا برغم ما بدر منهم من سوء استقبال واعراض عن الضيافة ، وكان وقع هــذه الحوادث على موسى من الشدة بحيث كان الزمـام يفلت منه كل مرة ، وينسى شرط الصبر الذي التزم به.

أن انتفاضة موسى امـام الأعمـال الـتي قـام بها ذلك العبد الصـالح ، لـدليل على ان الإنسـان لا يحتمل مجـرد احتمـال ان وراء علمه هـذا مسـاحات مجهولة أخـرى لم يبلغها ولم يتوصل إليها ، ان مجــرد هــذا الاحتمــال يجعل الإنســان رزينا ، حليما ، هادئا ، لا يتـأثر بالمظـاهر فقط ، وانما ينظر الى العمق أيضا.

بينات من الآيات :

بين العلم والرحمة :

[65] (**فَوَجَـدا عَبْـداً مِنْ عِبادِنا آتَيْنـاهُ رَحْمَـةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ**

(**مِنْ لَدُنَّا عِلْماً**)

هـذا العبد بالاضـافة الى العلم الـذي حصل عليه كـان قد حصل على الرحمة ، فهل هنـــــــاك علاقة بين العلم والرحمــة؟ أم ان ربنا ســبحانه وتعــالى قد أعطى العبد خصلتين من عنده الرحمة والعلم؟

بتدبر بسيط في مفهوم كلمتي العلم والرحمة نتوصل الى : ان العلم عـــادة ما يكـــون وليد الرحمة ، وجـــوهر الرحمة هو لين القلب الذي هو صفة مقابلة لصـفة أخـرى وهي قسـوة القلب ، وقسـوة القلب تسـبب عـدم نفـوذ حقـــــائق الحيــــاة اليه فينشأ الجهل ، ولين القلب على العكس من ذلك يسبب العلم ، لذلك نستطيع أن نقول ان للرحمة الفضل الاول ، وهو الشـــيء الــذي أعطــاه الله للخضر (ع) وكان سببا لعلمه وقد اسـتند البعض الى هـذه الكلمة وقـالوا : ان خضـرا كـان نبيا والنبـوة رحمة إلهية ، بينما رأى آخـــرون : ان ســعة صـــدر خضر وقدرته على احتمـال اعتراضـات تلميـذه موسى هي تلك الرحمة الـتي أعطاها الله إياه.

وفي الآية اشـــــارة واضـــــحة الى أن العلم من الله ســبحانه وتعــالى ، وانه نـــور يقذفه في قلب من يشــاء ، وليس العلم بكثرة الدراسة والتعليم كما يزعمون.

الصبر وزير العقل :

[66] (**قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُـكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**)

لقد عـــرف موسى (ع) ان الحصـــول على العلم لا يمكن ان يتم بـدون مجهـود ، لـذلك عـرض اتباعه للعـالم وهو يمارس اعماله اليومية ، ومن خلال العمل والقرارات والمواقف في الأحــداث المختلفة للحيــاة يتعلم الحكمة ، والعلم الــــذي يجب أن يبحث عنه الإنســـــان ليس علما مطلقا ، بل ذلك العلم الذي يعطيه الرشد

والبصــيرة في ســلوكه وعمله ، وهــذا هو العلم العملي ، فكما أننا نحتاج الى العمل العلمي ، كذلك نحن نحتاج الى العلم العملي ، وذلك بأن نتعلم ما ينفعنا.

أما خضر (عليه السلام) فقد أعطانا منهجا آخر للتعلم وقــال : أن أول وأهم صــفة لاكتســاب العلم هو الصــبر ، ولـذلك كـان الصـبر وزيـرا للعقل كما جـاء في الأحـاديث المأثورة.

[67] (**قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**)

وهـذه هي مشـكلة الإنسـان ، فهو بحاجة الى الصـبر لكي يتعلم العلم ، والصــبر بــدوره بحاجة الى العلم لكي يطمئن الإنسان ، فان «الجاهل جزع».

وهنا نـودّ ان نـذكّر بـأن اجتيـاز حـاجز الجهل من قبل الإنسـان عملية صـعبة ، ولا يمكن للإنسـان أن يجتـاز هـذا الحـاجز وهو خـائر العـزم ، ذلك لأن الحصـول على العلم بحاجة الى اجتياز الحاجز النفسي بالاضافة الى المسـاعي العملية فــنرى ان موسى (ع) بــرغم أنه يقــوم بســفرة طويلة طلبا للعلم ، ويلاقي أنواع المشقة ، وينسى غـداءه ، ويصحب معه فتاه وما أشبه وهو نبي يقـود أمة ، وبـرغم كل هـذه الأعمـال الجسـدية ، فانه يحتـاج أيضا الى جهـود نفسية كبيرة تعتـبر من وظيفة القلب أو بتعبـير آخر تعتـبر رحلة القلب ، ويشير إليها القرآن الحكيم في هذه الآيات.

[68] (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً**)

من المعلـــوم ان خضر العـــالم لم ينسى القـــدرة الحقيقة لموسى على الصــــــــــــبر ، فموسى (ع) من الناحية الحقيقية والفعلية كانت عنده القدرة على الصـبر ، ولكن العـالم بخبرته يـدرك ان النـاس الجـاهلين بأمر لا يصـبرون على صـعوبات العلم به ، فـالعلم يسـبب لهم صدمة ، ولأنه يسبب لهم ذلك فهم قد يكفرون به.

[69] (**قـالَ سَـتَجِدُنِي إِنْ شـاءَ اللـهُ صـابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً**)

وقد أعطى موسى تعهـــدا بالصـــبر والاتبـــاع ، فمثل العـالم كمثل الشـجرة المثمـرة الـتي تهـتز فتعطيك من ثمارها ، والعــالم يجب أن يــبرمج منهــاج تعليمك ولست أنت.

لقد ربط موسى (ع) صـبره بالمشـيئة الإلهية وقـال : «**سَـتَجِدُنِي إِنْ شـاءَ اللـهُ صـابِراً**» لأنه عـرف ان من الصعب على الإنسـان في هـذه المواقف ، أن يصـبر على الصدمات التي يتلقاها بسبب معرفة الواقع المجهول.

[70] (**قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْـئَلْنِي عَنْ شَـيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً**)

ان العالم (عليه السلام) عند ما اشــترط على موسى هـذا الشــرط ، فانه كـان يشـير الى أن على العلمـاء أن يضـبطوا أمـرهم مع المتعلم منذ البداية ، على أسـاس أن العالم هو الذي يحدد المنهج :

أولا : يخرق سفينة :

[71] (**فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّـــــفِينَةِ خَرَقَها**)

هنا انفعل موسى (ع) بأخلاقه الرســالية الــتي كــان يمارســها مع مجتمعة الاســرائيلي ، ذلك المجتمع المــائع الذي كان يستخدم معهم الشـدة ، بعكس الرسـول محمد (ص) الــذي كـان يعيش في مجتمع خشن غليظ ، فتسـلح بالرأفة واللين ، لذلك أنفعل موسى وصاح غاضبا :

(**قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها**)

وهو هنا لم يســـأل حـــتى لمـــاذا خرقتها ، بل أنكر الموضـــــوع رأسا ، ولم يســـكت على ذلك وانما أعطى للعمل صـبغة وهي أنه لم يخرقها الّا ليغـرق أهلهـا. وكـان هذا هو الهدف الوحيد المتوقع من وراء هذا العمل وقال :

(**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً**)

أي قمت بعمل عظيم ، وهـــذا خطأ آخر يـــدل على الجهل بالموضوع ، وهنا قال خضر (ع) :

[72] (**قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**)

[73] فذكره بكل هدوء أعصـاب بالاتفـاق الـذي كـان بينهما ، فانطفأت ثورة موسى فورا وذهب غضبه ، واعتذر عما بـدر منه ، فقـال لا تؤاخـذني بما يعسر علي تحمله ، فمن الصعب على الإنسان أن يصبر على شـيء لا يعـرف عمقه وعاقبته ، لـذلك طلب موسى من ذلك العـالم أن لا يؤاخذه بما نسي.

(**قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ**)

هناك أمران ضروريان للتعليم هما :

أولا : على العالم أن يكون واقعيا فيعرف ان الآخرين بشر ، ويتعرضـون للنسـيان لكـون المعـارف الـتي تعطى لهم أكبر من مستواهم ، وعـادة ما ينسى الـذهن الشـيء الغريب عنه.

ثانيا : ان هــؤلاء لا يتحملــون كسب العلــوم بطريقة الصــدفة ، انما يحتــاج العــالم أن يجعل برنامجا متــدرجا للتعليم. ولذلك قال موسى :

(**وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً**)

الإرهاق هو أطباق الشيء على الشيء. وكـأن العسر يطبق على الشخص من جميع جوانبه.

ثانيا : يقتل غلاما :

[74] (**فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَـهُ قـالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً**)

في المرة السابقة قال عمل عظيم ولم يقل جريمة ، ولكنه في هـذه المـرة قـال : «**لَقَـدْ جِئْتَ شَـيْئاً نُكْـراً**» ومرة اخرى قال الخضر (ع) وبأعصاب هادئة :

[75] (**قالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَـكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْـتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**)

فتذكر موسى مرة أخرى الشرط ، وأحس بأنه خالفه للمرة الثانية ، ولأنه كـان صـادق العزيمة في ارادة التّعلم فقد طلب فرصة أخيرة.

[76] (**قــالَ إِنْ سَــأَلْتُكَ عَنْ شَــيْءٍ بَعْـدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً**)

وهذا أيضا درس للعالم ، فالتلميذ يجب أن يعطي من جهده للاسـتفادة مما تعلمه ، والاسـتفادة ليس في سـبيل نفسه ، وانما في ســبيل تعليمه وتنميته وتربيته ، والتلميذ الحقيقي هو الـــذي يأخذ الى جنب المعرفة الصــــفات النفســية الفاضــلة ، فيتعلم ، ويتــدرب ، وينمي صــفاته الحسنة ، ويزكي نفسه ، أما أن يتعلم دون أن يتـدرب ، أو يزكي نفسه ، أو يربيها على التضحية والفداء ، فهـذا تلميذ غير نافع.

ثالثا : ويبني جدارا :

[77] (**فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ**

يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً)

وهنا رأى العالم (ع) ان هذه هي نهاية المطاف ، وان موسى (ع) لن يستطيع ان يصبر أكثر من ذلك فقال :

[78] (**قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً**)

ان ظواهر الأمور لا تكشف دائما عن حقائقها ، لـذلك على الإنسان أن يتسلح بالصبر ، والرؤية البعيدة الشـاملة ، لكي يعرف الحياة معرفة عميقة ، وآنئذ يتخذ منها موقفا سليما.

أَمَّا السَّـفِينَةُ فَكـانَتْ لِمَسـاكِينَ يَعْمَلُـونَ فِي الْبَحْـرِ فَـأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكـانَ وَراءَهُمْ مَلِـكٌ يَأْخُـذُ كُـلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79) وَأَمَّا الْغُلامُ فَكـانَ أَبَـواهُ مُـؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْيانـاً وَكُفْـراً (80) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْـدِلَهُما رَبُّهُما خَيْـراً مِنْـهُ زَكـاةً وَأَقْـرَبَ رُحْمـاً (81) وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكـانَ تَحْتَـهُ كَنْـزٌ لَهُما وَكـانَ أَبُوهُما صـالِحاً فَـأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَـبْراً (82)

---

79 [أعيبها] : أحدث فيها عيبا.

ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً

هدى من الآيات :

كنا مع خضر وهو يعلم موسى علما عمليا ، ويـــدر به على فهم الحيــاة ، وتحمل مصــاعبها ، وتـــدبّر عـــواقب أحــداثها ، ورأينا كيف أن موسى كــان ليتفجر غضــبا كلما رأى عملا يتنافى مع مظاهر الشـريعة ، الى ان قـال خضر لموسى : «**هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**» ولكني سأفسّر لك ـ قبل الفراق ـ تلك القضايا التي كانت غامضة عليك ، وأخذ يفسرها الواحدة تلو الاخرى.

يتبين لنا من ذلك ان بعض الأحكام التي يـأمر الله بها أنبياءه الكـرام مختلفة عن الأحكـام العامة الـتي يـأمر بها الناس العاديين ، فلقد كـانت السـفينة ذات ملكية خاصة ، واحــترام الملكية واجب ، الا ان علم خضر المســتمد من الله بوجـود ملك يأخذ كل سـفينة صـالحة غصـبا ، ان ذلك العلم دفعه وبأمر من الله الى خرق الســفينة ، لكي تبقى بيد أصــحابها المســاكين إذ كــان الملك لا يأخذ الســفن المعيبة.

وكــذلك يجب احــترام النفس ، ولكن احــترام النفس محدود بعدم وقوع ضررها

على الآخــرين ، أما إذا كــانت النفس ضــارة ، فــان الله سبحانه وتعالى يأذن لولي الأمر من قبله بإعدامها ، وإنقاذ المجتمع من شرها ، كما قدّر لخضر بــأن يقتل الغلام لكي لا يصبح ضارا بالآخرين ، وكذلك مسألة الجـدار ، وهـذا هو ظاهر ما نستفيده من الآيـات الكريمة ، وهنـاك عمق آخر سوف نتدبر فيه ونذكره.

بينات من الآيات :

لماذا خرق السفينة؟

[79] (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها**)

ان الســفينة كـانت لمســاكين ، ومن عــادة الملــوك ورؤساء الدول قديما وحـديثا أن يـأمروا بمصـادرة وسـائل النقل كلما واجهت دولهم حربا ، لان الحـــــرب بحاجة الى وســائل النقل كالســفن والجمــال قــديما ، والســيارات والباخرات والطائرات حـديثا ، فهي اما تصـادرها مصـادرة تامة ، وأما أن تسـخرها للأعمـال الحربية فـترة الحــرب ، وهـذه الســفينة أيضا كـانت من ضـمن الســفن المعرضة للمصادرة لو لا أن خرقها لتصبح معيبة ، وبذلك لا تشـملها أحكــام المصــادرة الــتي كــانت مقصــورة على مصــادرة السفن الصالحة فقط.

(**وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً**)

الآية لم تقل ان ذلك الملك كان يأخذ السفن الصالحة فقط ، لكن الكلمة السابقة تدل على هذه المعنى ، وهــذا من بلاغة القرآن.

لماذا قتل الغلام؟

[80] (**وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُـؤْمِنَيْنِ فَخَشِـينا أَنْ يُرْهِقَهُما**

طُغْياناً وَكُفْراً)

ان السبب في قتل الغلام من دون سـابق إنـذار هو : ان هـذا الغلام كـان سيسـبب لأبويه المؤمـنين الصـالحين الطغيان والكفر ، لأنهما ، من فرط حبهما لهـذا الغلام كانا سيتبعان أهواءه ، في حين أنه كـان قد تـربى على الـدلال والفسـاد الخلقي ، لـذلك كـان خضر يخشى على أبويه المؤمنين أن يطغيا بسببه ، ولذلك قتله ، لأنه وجود ضار.

[81] (**فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْـراً مِنْـهُ زَكـاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً**)

لقد كـان خضر يسـعى من أجل ان يبـدل الله هـذا الغلام بمولود أفضل زكاة ، أي نموّه يكون نموا زاكيا بـدل ذلك النمو الطـاغي ، فهنـاك نمو زاك ونمو طـاغ ، النمو الـزاكي هو : نمو طـاهر خـال من السـلبيات ، أما النمو الفاسد فهو : نمو خبيث مليء بالسلبيات.

وكـذلك فـرق بين صـلة الـرحم وبين الكفر بسـبب الرحم فالعلاقة التي تربط بين الأب وأبنه إذا كـانت علاقة بعيدة عن الايمان بالله سبحانه وتعالى وشكره ، فان هذه العلاقة هي علاقة الكفر وتنـاقص الشـكر لله سـبحانه ، بينما إذا كانت العلاقة هي علاقة الشفقة الـتي هي امتـداد لعلاقة الإنسـان بالله ، كـأن أقـول : اني أحب أبـني وأسـاعده لأنه نعمة من الله سـبحانه ، فهنا تكـون العلاقة امتدادية ، وآنئذ تصـبح هـذه العلاقة علاقة الـرحم ، والـتي يعبر عنها القـرآن فيقـول : «**وَأَقْـرَبَ رُحْمـاً**» والكلمتـان الأخيرتان جاء بهما القرآن لتتقابل مع الكلمتين الأوليـتين ، فالزكاة والرحم في مقابل الطغيان والكفر.

بين المصلحة العامة والخاصة :

الأحكـام الشـرعية عموما ليست محصـورة بمصـلحة الإفراد ، وانما هي متجهة الى المصلحة العامة والمصـلحة العامة هي : مصـلحة الإفـراد مجتمعين ، بينما المصـلحة الخاصة

هي : مصلحة الإفراد منفصلين ، ومن الطبيعي ان تتفـوق مصلحة الإفراد مجتمعين على مصلحة الإفراد منفصـلين ، وبصورة خاصة عند التعارض ، فمثلا مصلحة مليون إنسان أهم من مصلحة خمسة أفراد.

وعند ما نقـــول المصـــلحة العامة فنحن نقصد بها مصـلحة البشر ، وليس من المعقـول ان يـترك الإسـلام مصلحة البشر ككل من أجل مصلحة أفراد قلائل.

ان الثقافة الرأســمالية الــتي تؤكد على المصـــلحة الفردية هذا التأكيد المبـالغ فيه ، انما هي ثقافة اسـتغلالية يــبرر بها المنحرفـون الجشـعون اسـتثمارهم للآخــرين ، وسـيطرتهم اللامشـروعة عليهم ، وأنهم ينـادون بالملكية وبالمصـــلحة الفردية ، وأي مصــلحة للفـــرد في مقابل مصــلحة المجمــوع؟ وأي حرمة وحرية لفــرد في مقابل حرمة وحرية الناس ككل؟ وماذا تعني هـذه الكلمـة؟ وهل هي مصلحة أم مضرة؟

أننا نشك في أن تكون هذه الكلمة صـادقة (المصـالح الفرديـة) بل الأصح ان تسـمى بالمضـار الفردية ، فـالخير والشر لا يقاسان بـالفرد ، بل يقاسـان بـالمجموع ، الخـير هو ما ينفع النـاس ، والشر ما يضر النـاس ، فـاذا نفعـني شيء وضرّ الآخرين فهو شرّ ، ومفهـوم الكلمة منذ البداية مفهـوم شـامل جمـاعي ، ولا ريب أن كل شر في العـالم ينفع شخصا ما ، فهل يتبدل مفهوم الشر لأنه ينفع شخصا واحدا أو مجموعة صغيرة من أبناء المجتمع الانساني؟

وربما تكـون الآيـات الكريمة دالة على هـذه الحقيقة وهي : ان المصلحة حقا والمنفعة صدقا انما هما بالقيـاس الى المجمـوع ، وأن الأحكـام الشـرعية لا تعطي صـفات مطلقة لبعض المفـاهيم ، فالملكية الفردية ليست ســدّا أمـام الإسـلام ، وكـذلك حرمة الإفـراد علما بـاني لا أنفي اهتمام الإسلام بالملكية ، ولكنه محدود بمصالح الآخـرين ، وعند ما يبدأ الضرر بالآخرين فان حرمة الملكية تنتهي.

في العلاقة مع النعم :

ان نظرة الإسلام للحياة الـدنيا وزينتها هي : ان كثـيرا من أشياء الحياة الدنيا تبدو أمام الإنســان مفيــدة ، ولكنها عند الله غير مفيدة لما يعلم من مستقبلها ، فـان يشــرب الإنســان الخمر ، ويجلس على مائـدة القمـار ، ويأكل من أموال اليتـامى ، قد تبـدو مفيـدة ولذيـذة له حاليا ، ولكنها تحمل في طياتها عــواقب ســيئة جــدا ، والعكس كــذلك صـــحيح ، فأيهما أفضل الإنســـان الســـالم أم الإنســـان المريض؟

قد يكون الإنسان المريض أفضل في بعض الأحيــان ، لان الإنسان السالم في دولة الإرهاب يضعونه في السجن ، أما المريض فيتركونه آمنا في بيته ، وفي بعض الأوقـات تكون نظرتنا الى الحياة ، غـير حكيمة فلا نـرى المسـتقبل فنحبّ ما يضرنا ، ونكـره ما ينفعنــا. كلا .. يجب ان نرضى برضا الله ونسلم لقضائه فاذا أعطانا ربنا شيئا ليس بذلك الكمــال المطلــوب ، فمن الخطأ ان نصر على الحصــول عليه ، فباصـــرارنا قد يأتينا الله به ولكن يكـــون في ذلك ضرر لنا.

فمن جملة ســنن الله في هلاك الأقــوام فتح أبــواب الرحمة عليهم ، فاذا فتح أبواب الرحمة كلها على أمة فان ذلك تدبير لهلاكها ، وكـذلك بالنسـبة للإنســان ، فـاذا رأيت النعم تنهال عليك من كل مكان فالزم الحــذر ، وكن يقضا ، لان هـــذه النعم قد تكـــون اســـتدراجا وان الله يريد ان يجــرب أرادتك وقــدرتك على المقاومة ، ويريد أن يعطيك رزقك مرة واحدة حـتى لا يكـون لك نصـيب في الآخـرة ، على الإنســان ان يكـون معتـدلا وحكيما في تصــرفاته مع زينة الحياة الدنيا ، ولا يبالغ فيها ولا يطــالب ربه ان يعطيه كلها مرة واحدة.

من جهة اخرى فان علاقة الإنســان بنعم الحيــاة يجب أن تكـــون علاقة الشـــكر وليست الكفر ، وعلاقة الزكـــاة وليس الطغيان.

ان علاقة الشكر هي : علاقة المحافظة على العوامل والأسباب التي أدت الى النعمة فـاذا قمت بثـورة ونجحت فيها ، ووصـلت الى السـلطة ، ففكر في الـذي دفعك الى السـلطة من العناصر البشـرية والعوامل المعنوية ، وإذا عرفتهما فحافظ عليهما ، فـاذا حـافظت عليهما فـأنت شـاكر لنعم الله تعـالى ، أما إذا لم تحافظ عليهما فـأنت كافر ، والذي لا يحافظ على الأسباب والعوامل الـتي أدت الى حصوله على النعمة تتركه النعمة وربما بلا رجعة ، أما علاقة الكفر فهي الإهمـال لتلك العوامـل. كـذلك علاقة الزكاة ، فقد جاءت في القرآن بمعنى : الإنفاق وفي اللغة تأتي بمعـنى : التطهـير والنمو ، وذلك لأن كل إنفـاق وكل عطـاء انما هو بمعـنى النمو فالإنسـان لا تنمو عضـلاته الا عند ما يسـتخدمها في العمل ، ولا ينمو عقله الا عند ما يستخدمه في التفكير ، ولا تنمو قـدرات لسـانه الا عند ما يستخدمه في النطق والكلام ، وهكـذا فـان كل شـيء في الحياة يزكو وينمو عن طريق العطـاء والإنفـاق ، والعكس صـحيح ، فـاذا ادّخر الإنسـان جهـوده فسـوف تكـون هـذه الجهـود سـببا للطغيـان ، والطغيـان يكـون سـببا للهلاك والانتهاء.

هكذا يعطينا القـرآن الحكيم ـ فيما يبـدو ـ درسا في العلاقة مع زينة الحيـاة الـدنيا ، وقد سـبق وان قلنا ان سورة الكهف دروس وعبر تصحح علاقتنا مع الحياة الـدنيا وما فيها من زينة ، وأموال ، وأولاد .. إلخ.

لماذا بنى الجدار؟

[82] (**وَأَمَّا الْجِـدارُ فَكـانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَـةِ وَكـانَ تَحْتَـهُ كَنْـزٌ لَهُما وَكـانَ أَبُوهُما صـالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**)

فلو انهدم الجـدار وجـاء أهل المدينة وأرادوا أن يبنـوا مكانه شيئا ، لاكتشفوا ذلك

الكنز الذي كان عبارة من دراهم ودنانير ، أو كما جـاء في الأحاديث : ان هذا الكنز كـان كتبا خاصة بـاليتيمين ، حيث كتب أبوهما فيهما مختلف الأشـــــياء ، واحتفظ بها تحت الجـدار فـأراد الله أن يبلغا سن الرشد ويسـتخرجا كنزهما ويستفيدا منه ، فقد روى القمي عن الصادق عليه السـلام **«كان ذلك الكنز لوحا من ذهب فيه مكتوب بسم الله لا إله إلا الله محمد رســـول الله ، عجبت لمن يعلم ان الموت حق كيف يفرح ، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحـزن ، عجبت لمن يـذكر النـار كيف يضـحك ، عجبت لمن يرى الدنيا وتصرف أهلها حـالا بعد حـال كيف يطمئن إليها»** [1].

ان هـذه الآية والآية السـابقة تـدلان على فكـرة هامة وهي : ان الله سبحانه وتعـالى يكـرم الإنسـان لأجل أبويه وانه إذا عمل الإنسـان عملا صـالحا فـان الله يكرمه ليس في ذاته فقط وانما في أبنائه أيضا ، وان كثـــيرا من حكم الحــوادث في الحيــاة الــتي تقع دون أن نعــرف طبيعتها مرتبطة ليس بالشـخص ذاته ، وانما مرتبطة بشـخص آخر ، فلربما أكرم الله مريم الصـديقة ، وأنشـأها ، وربّاها منذ نعومة أظفارها تلك التربية الزكية بســبب والــدتها الــتي نــذرت ما في بطنها محــررا ، وأكــرم عيسى بسـبب أمه مريم الصديقة ، وربما أكرم الله سبحانه كثيرا من الرجال المصلحين الذين ترى فيهم منذ طفولتهم آيـات الشـجاعة والذكاء من أجل آبـائهم أو أمهـاتهم جـاء في الحـديث عن العياشي عن الصــادق عليه الســلام : **«ان الله ليحفظ ولد المــؤمن الى الف ســنة ، وان الغلامين كـــان بينهما وبين أبويهما سبعمائة سنة ، وقـال : ان الله ليصــلح بصــلاح الرجل المــؤمن ولــده وولد ولــده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالـون في حفظ الله لكرامته على الله»** [2].

(1) تفسير الصافي ج 3 ص 257
(2) المصدر

وهـذا التكـريم يشـجع على العمل ، فحـتى لو فكـرت أنك لن تحصل على النتيجة في حياتك ، ولكن الخـير حتما آتيك ان كنت لم تـزل حيا ، والا فسـوف يـأتي من بعـدك أبنائك.

كما ان العكس صـحيح أيضا حيث : ان الله سـبحانه وتعـالى قد يكتب هلاك إنسـان يعلم انه لو بقي حيا لأضر بالآخرين ، وقد قدّر هلاك ذلك الغلام لكي لا بسبب طغيانا وكفـرا لوالديه ، فـاذا رأيت شـيئا لا تفهمه فلا تنكـره ، فلربما كانت هناك حكمة خفية من هذه الحكم.

(**وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْـرِي ذلِـكَ تَأْوِيـلُ ما لَمْ تَسْـطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً**)

وفي نهاية هذه القصة القصـيرة نـذكركم مـرة أخـرى بـأن السـعي وراء العلم والخـبرة يجب أن يكـون هـدف الإنسان المؤمن أبـدا ، والخـبرة هي علم الممارسة الحية لحـوادث الحيـاة ، وهـذه الخـبرة هي من حكم الله في الحياة ، أو بتعبير آخر هي التي تجعل الإنسـان أكـثر إيمانا وفهما لحكم الله في الحياة ، وبالتالي أقرب الى الأحكـام الشرعية.

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَـرْنَيْنِ قُـلْ سَـأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْـهُ ذِكْـراً (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَـهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنـاهُ مِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ سَـبَباً (84) فَـأَتْبَعَ سَـبَباً (85) حَتَّى إِذا بَلَـغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَـدَها تَغْـرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَـدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَـذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِـذَ فِيهِمْ حُسْـناً (86) قـالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَـوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُـهُ عَـذاباً نُكْـراً (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْـنى وَسَـنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَـبَباً (89) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَـلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (90) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (91) ثُمَّ أَتْبَعَ

---

86 [حمئة] : ذات حمأة (الطين الأسود).
87 [نكرا] : منكرا فظيعا.

سَبَباً (92) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْمـاً لا يَكـادُونَ يَفْقَهُـونَ قَـوْلاً (93) قـالُوا يا ذَا الْقَـرْنَيْنِ إِنَّ يَـأْجُوجَ وَمَـأْجُوجَ مُفْسِـدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَـلْ نَجْعَـلُ لَـكَ خَرْجـاً عَلى أَنْ تَجْعَـلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَـدًّا (94) قـالَ ما مَكَّنِّي فِيـهِ رَبِّي خَيْـرٌ فَـأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (95)

---

94 [خرجا] : بعض من المال.
95 [ردما] : السد والحاجز الحصين.

الموقف السليم من السلطة

هدى من الآيات :

في سـياق الحـديث القـرآني عن موقف الإنسـان من زينة الحياة الدنيا ، تتناول هذه الآيات الموقف السـليم من شهوة التسلط ، والتي هي أكثر إثارة وأشد جاذبية من أية زينة أخرى في الحياة الدنيا ، وضــرب الله لنا مثلا من ذي القـرنين الـذي كـان في العهـود السـالفة ، والـذي لا نعلم بالضـبط فيما إذا كـان هو الإسـكندر المقـدوني الـذي فتح كثـيرا من بلاد العـالم انطلاقا من اليونـان أو هو ملك من حمير ، أو هو الملك الفارسي كـورش الأول ــ كما تؤكـده الدراسـات الحديثة ــ أو هو رجل آخر لم يـذكر التـاريخ لنا المزيد من قصصه ، سواء كان هذا أو ذاك فلقد كـان رجلا صـالحا ، لم تخدعه بهـارج السـلطة ، ولم تخرجه الزعامة والسـيطرة عن حـدود الشـرع ، وفي هـذه القصة يـذكرنا القرآن بعدة حقائق منها :

أولا : أن ما حصل لذي القرنين من سلطة ، إنما كـان بسـبب منه وسـبب من الله ، أما السـبب الـذي كـان منه فهو : إتباع هدى الله ، والاستفادة من الإمكانات المتوفرة في الطبيعة ، وأما السبب الذي كـان من الله : فقد علمه الله طريق الحياة وسننها ،

وأسـاليب السـيطرة عليها وتسـخيرها ، فعمل في سـبيل ذلك بهمة فكـــــان العمل منه وكـــــان من الله التوفيق والبركة.

ثانيا : أن ما قام به ذو القرنين من أعمال كان ضـمن إطـــار قـــدرة الله ، وعلمه ، وإحاطته ، فلا أحد يبلغ من السلطة مكانا في ملكوت الله الواسعة إلا بأذن من الله.

ثالثا : كـان ذو القــرنين رجلا صــالحا ، لم ينظر إلى الـدنيا نظـرة منحرفة ، فحينما أوتي السـلطة ، أوحى إليه الله (ألهمه إلهاما) : أن بقـدرتك أن تسـير في النـاس بما شئت ، أما أن تعذب ، وأما أن تعمل بالحسنى.

فقـال ذو القـرنين : إنـني سـوف أسـير في النـاس بالعـدل ، فمن ظلم فـانّي أعذبه ، ومن لم يظلم فسـوف أرحمه.

وانطلق الرجل في عملية تعميقية للســــــلطة من قاعـدة : إنها نعمة وفضل من الله ، وأنه يجب أن يسـتفيد منها اسـتفادة مشـروعة ، فجعلها لاقامة العـدل ، ودحض الباطل.

هذه المقالة توحي إلينا بحقيقة أخرى وهي عبرة هذه القصة ، وهي : إن الإنســـــان قــــادر على التغلب على شـــهواته ، وعلى موقعه الاجتمـــاعي ، فلأنك من طبقة الأثرياء أو من حاشية السلاطين وشـريف من الأشـراف ، هل يجب عليك أن تخضع حتما لســـــــلبيات طبقتك أو مركــزك أو مالــك؟ كلّا .. إن باســتطاعتك أن تنفلت من قيود المادة وأن أحـاطت بك ، وأن تحلق في سـماء القيم ، باسـتطاعتك أن تكـون سـلطانا أو غنيا وتقـاوم سـلبيات طبقتك ، وأن تكـون شـريفا ولا يسـتبدّ بك حب الشـرف والجاه فيخرجك عن طاعة الرّب.

والقرآن الكـريم يعطي الإنسـان الثقة بأنه قـادر على أن يتفـوق على جاذبية الأرض والمـادة. أن هـذا الإيحـاء المكرر والمستمر في القرآن الكريم هو حجر الأساس

في تربية الإنســان ، فلو لا شــعور الإنســان بالثقة بذاته ، وبقدرته على التغلب على ضغوط الحياة ، لما استطاع أن يصبح إنسانا صالحا مستقيما.

رابعا : أن على المؤمــنين أن يعملــوا من أجل رفاهية الإنسان في الأرض ، وأن الإسلام لم يأت لمصـلحة طائفة معينة من البشر وليس هدف الحكومة الإسلامية بناء دولة قوية ذات صــناعة متقدمة ، بل عليها أن تســعى من أجل كل المستضعفين في الأرض ، سواء كانوا مسـلمين أو لم يكونوا ، لأن الإنسان كإنسان محـترم في الإسـلام ، وعلى المؤمن أن يعمل من أجل رفاهية الإنسانية عامة.

وكذلك الحزب الإسلامي والتجمع الايماني ليس هدفه السلطة ، إنما عليه السعي من أجل الناس ، لرفع الضّــيم عن كل الناس سواء وصل الى السـلطة أو لم يصل ، نعم .. قد تصـــبح الســـلطة أداة لتنفيذ هـــذه المهمة ، ولكن السلطة بحد ذاتها ليست هدفا.

أن الإسلام لا يدعوك الى العنصـرية بـأن تـرى نفسك أحسن من الآخـرين ، وتعتـبر نفسك مركز الـدنيا فتسـعى من أجل إيصــــال نفسك الى مركز القــــدرة ، أن تلك العنصرية يعارضـها الإسـلام بقـوة ، وهي الانحـراف الـذي وقع فيه اليهود في التاريخ ، فبعد أن كانوا مجموعة عاملة من أجل الناس أصبحوا مجموعة عاملة من أجل أنفســهم على حساب الناس ، فاعتبروا أنفسـهم أبنـاء الله وشـعبه المختار.

لقد كان ذو القرنين عبـدا صـالحا ، تحـرك في العـالم شرقا وغربا ، ومن الطبيعي ان أبناء العالم ذلك اليــوم لم يكونـــوا مؤمـــنين ، ولكنه حينما وصل الى منطقة معينة ، وطلب منه أهلها أن يبني لهم سدا ، لم ينهـرهم بل قـال : نعم ، أن الله مكنـني وأعطـاني السـلطة من أجل رفاهية الإنسان ، من أجلكم أيها المحرومون سـواء كنتم مؤمـنين أو غير مؤمنين ، فبنى لهم السد ولم يطالبهم بأجر ، وهـذا مثل أعلى للدولة

الإسلامية.

فلنفترض أنه قد أصبحت دولة إسـلامية بمثابة أمريكا وروسيا في القوة والسلطة ، فهل تبحث كأمريكا وروسـيا عن أسـواق جديـدة لتصـدير سـلعها؟ ومـواد خـام جديـدة لتستفيد منهـا؟ أو شـعوب جديـدة لتسـتعمرها؟ كلا .. إنما يجب أن تسـعى تلك الدولة المسـلمة الغنية من أجل رفاهية الإنسـانية في العـالم ، وتبحث عن أي مظلـوم في العـالم فتهـرع إليه لتنقـذه من الظلم ، وتبحث عن أي محروم لتنتشله من الجوع والحرمان.

هذا هو هـدف الأمة الإسـلامية ، وهـذه في الواقع هي الحـدود الـتي تفصل بين الأيمـان والجاهلية ، فليست الحـدود هي الشـعارات والكلمـات ، وحـتى الطقـوس والعبادات ، إنما المؤمن هو الذي يخـرج من ذاته من أجل الآخـرين ، «وإنما المسـلم من سـلم النـاس من يـده ولسانه» والدولة الإسـلامية هي الـتي تخـرج من ذاتها من أجل رفاه الآخرين.

بينات من الآيات :

عودة للتاريخ :

[83] (**وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ**)

أن الذي ينفعنا من التاريخ هو أن نتذكر به ونعتـبر ، إذ أن الحقـائق معلومة ، وفطـرة الإنسـان شـاهدة عليها ، ولكن الإنسـان ينسى وتحجبه عن الحقـائق شـهواته وضغوط حياته ، لذلك قال ربنا :

(**قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً**)

لذلك فـأن الإنسـان بحاجة الى من يـذكره ، والتـاريخ خـير من يـذكر الإنسـان ، والقـرآن إنما يقص علينا قصص التاريخ لكي يذكرنا ويوجهنا من خلالها.

من هو ذو القرنين؟

هناك ثلاثة آراء فيه :

1 ـ قال البـيروني وقـوم من المفسـرين إنه ملك من الحمـير في اليمن ، وملـوك اليمن تبـدأ أسـمائهم بكلمة (ذي) والسد هو سد المـأرب المعـروف ، بيد أن شـواهد التاريخ لا تؤيد هـذا الـرأي ، لأنه لم يعـرف ملك من اليمن امتلك الشرق والغـرب ، ولأن سد المـأرب لا تنطبق عليه مواصفات القرآن للسد.

2 ـ ودافع الـرازي وجماعة عن الـرأي القائل بأنه الإسـكندر المقـدوني ، لأنه ملك الشـرق والغـرب ، ولأن قصته كـانت معروفة عند النـاس فسـألوا النـبي عنها ، إلا أنه نـاقش في هـذا الـرأي أيضا بـأن الإسـكندر كـان تابعا لأرسـطو ، وتعـاليم أرسـطو لم تكن إلهية فلا تنطبق عليه آيـات القـرآن ، علما بأنه لم يعـرف عنه بنـاء سـدّ بتلك الصفات التي يذكرها القرآن.

3 ـ أما الباحث الهندي المسلم (أبو الكلام آزاد) الذي شـغل لفـترة ما منصب وزارة الثقافة الهندية فقد رأى أنه كان كورش الكبير الـذي فتح الشـرق والغـرب وقـدم بحثا مفصلا في ذلك وأسـتدل على رأيه بـأن الرجل صـالحا حسب ما نقل عن المؤرخين اليونـانيين ، مثل هـرودوت ، علما بأنهم أعـداؤه ، وأن اليهـود يقدرونه لأنه أنقـذهم من أعـداء الـدين ، ويعتقد أنهم إنما سـألوا عنه النـبي لوثيق العلاقة بينهم وبينه ولوجود إشارة إليه في كتبهم ، وأضاف البـاحث أنه وجد في حفريـات منطقة الاسـتخر تمثـال لكورش له جناحا عقـاب وعلى رأسه تـاج فيه قـرن كبش مما يتناسب ومعنى ذي القرنين عند بعض المفسرين.

وأيدّ رأيه أيضا بأن السد الحديـدي الموجـود حاليا في جبـال «قوقـاز» في منطقة تسـمى حاليا (داريـال) بين وادي «ولادي كيوكز» ووادي «تفليس» تنطبق عليه

توصيف القرآن للسد علما بأن كورش هو الذي بناه ، دفاعا عن أهل المنطقة في مواجهة قبائل «يأجوج ومأجوج» المتوحشة التي كانت لهم هجمات على البلاد المتحضرة طوال التاريخ ، حيث كانت الأخيرة منها بقيادة جنكيز خان المغولي [1] هذا. ولكن الأحاديث الواردة في قصة ذي القرنين تتناسب وهذا القول والله أعلم.

[84] (**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً**)

مكن الله ذا القرنين في الأرض ، وذلك عن طريق تعريفه بالأسباب والعلل ، فذا القرنين علمه الله أسباب الحياة ، واستطاع عن طريق علمه أن يتمكن في الأرض ويسخّر الطبيعة.

[85] (**فَأَتْبَعَ سَبَباً**)

لقد تحرك ذو القرنين في طريق السبب ، واختار أحد الأسباب واتبعه بعد أن أتاه الله من كل شيء سببا ، أن علم الإنسان كثير ، ولذلك فهو يختار من بين معلوماته عما يمكن أن يطبق عمليا في إطار حياته المحدودة ، وإذا أراد أن يتبع كل ما يعلم فأن حياته لن تكفي لذلك حتما.

سياسة العدل :

[86] (**حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً**)

وصل ذو القرنين الى آخر الأرض المسكونة غربا ، وحينما وقف هناك رأى الشمس تسقط في بحر أو مستنقع مائي أو ما يشبه ذلك والإنسان إذا كان في البر فأنه يرى الشمس وكأنها تسقط في الأرض الملساء ، وإذا كان عند البحر يرى

(1) تفسير «نمونه» للشيرازي ـ ج 12 ، ص (545 / 549)

وكأنها تسـقط في جـانب من البحر ، وإذا كـان في مكـان وراءه مياه آسنة حينئذ يرى الشمس فيها. الحمأة : الطين الأسود العفن ، ويبـدو أن المنطقة الـتي بلغها ذو القـرنين غربا ، كانت مليئة بالمياه الآسنة ، حتى اعتقد أن الشمس تسقط فيها ، ويقال : إنه وصل الشـاطئ الغـربي لمنطقة آسـيا الوسـطى حيث يـرى الشـمس وكأنها تسـقط في الخلجـان العديـدة المنتشـرة في منطقة ازمـير بتركيا ، ولعل المنطقة كانت في ذلك العصر مليئة بالمياه الآسـنة لكثرة هطول الأمطار في هذه البقعة من العـالم في ذلك اليوم كما تشهد على ذلك البحوث العلمية الحديثة.

(**قُلْنا يا ذَا الْقَـرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَـذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِـذَ فِيهِمْ حُسْناً**)

كان أمام ذي القـرنين وهو صـاحب السـلطة أن يتخذ أحد الطريقين ، اما طريق الجـور والإرهـاب ، واما طريق العدل والإصلاح.

[87] (**قـالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَـوْفَ نُعَذِّبُـهُ ثُمَّ يُـرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً**)

يقول بعض المفسرين أن الظلم هذا هو الشرك. وأن الله إنما خيّر ذا القرنين بين التعذيب والتيسير ، لأن أولئك الناس كانوا كفارا ، وكـان يمكنه أن يعـذبهم حـتى يـنزعوا عن الكفر ، كما أنه كـان يمكنه أن يبـدأهم بالـدعوة فمن آمن منهم عـدل معه ، ومن أشـرك عامله بـالعنف ، قـال العلامة الطبرسي في مجمع البيـان : (في هـذا دلالة على أن القوم كانوا كفـارا ، والمعـنى أما أن تعـذب بالقتل من أقام منهم على الشرك ، وأما أن تأسـرهم وتمسـكهم بعد الأمر لتعلمهم الهدى ، وتستنقذهم من العمى [1] ويبـدو أن هذا التفسير أصح ويدل ذلك على : أن السلطة الإسـلامية هي السـلطة الـتي تتعامل مع النـاس حسب معتقـداتهم ، ولكنـــني أرى أن الظلم هنا إنما هو بمفهومه المعـــروف كاغتصاب حقوق الآخرين ، بدليل قوله سبحانه وتعالى :

(1) مجمع البيان ـ ج 6 ص 940

[88] (**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً**)

مما يـدل على أن السـلطة الإسـلامية تعامل النـاس على أساس أعمـالهم وليس على معتقـداتهم ، صـحيح أن المعتقدات تنتهي في الأعمال ، والأيمان ينتهي الى العمل الصــــالح والشـــــرك ينتهي الى الظلم ، ولكن المهم أن الجزاء ليس بالمعتقدات وإنما على الأعمال.

(**فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً**)

لقد أدى إيمــان ذي القــرنين بالله واليــوم الآخر الى اتخاذ السياسة الصـحيحة في الحكم والإدارة ، وهي إتبـاع العــدل والحق ، وخدمة النــاس وتيســير أمــور الرعية ، وتحريـرهم من الـروتين والبيوقراطية الـتي يتبعها الحكـام المنحرفون.

[89] (**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً**)

ذو القــرنين اســتفاد أيضا من الأســباب ، واســتخدم عمله وعلمه في طريق آخر نافع.

[90] (**حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُـعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً**)

أين وصل ذو القرنين شرقا؟ لا أعلم ، إلا أن المنطقة كــانت بدائية حيث أن القــوم فيها لم يكن يملكــون بيوتا تكنّهم من حرارتها ، كما جاء في حديث مـأثور عن البـاقر (عليه السلام):

«**لم يعلموا صنعة البيوت**» [1].

وقــال البعض أن المنطقة كــانت ســهلا بحيث تظلها الجبال ولعلهم كانوا يفتقرون

---

(1) الصافي ج 3 ص 262

الى الثياب أيضا.

[91] (كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً)

هذا التحول من المغرب الى أول المشـرق كـان دليلا على قدرة ذو القرنين وسلطته ، ولكنها لم تكن بعيدة عن سلطة الله ، فقد كان الله محيطا به.

[92] (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً)

[93] (حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ)

بين الســـدين اي بين الجبلين حسب الظـــاهر ، وقد سبق الحديث عن انه قد يكون في منطقة القوقاز وهكـذا تكون حملته شمالية.

(وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً)

كانت لغة هؤلاء بعيـدة جـدا عن تلك اللغة الـتي كـان يتحـــدث بها ذو القـــرنين ، بحيث لم يكد يفقهها ، وإنّ الله الـــذي علم الإنســـان البيـــان أوجد وســـيلة للتفـــاهم بين الطرفين.

يأجوج ومأجوج :

[94] (قـالُوا يا ذَا الْقَـرْنَيْنِ إِنَّ يَـأْجُوجَ وَمَـأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)

يقـــال ان يـــأجوج ومـــأجوج هي قبائل مغولية بدوية ، كانت تغـير على تلك البلاد ، فتعيث فيها فسـادا ، ولعل ذو القــرنين قد ســار الى تلك البلاد لمقاومة خطــرهم (على تفسير انه كورش الكبير) ..

(**فَهَـلْ نَجْعَـلُ لَـكَ خَرْجـاً عَلى أَنْ تَجْعَـلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**)

من عادة الملـوك الـذين يـدخلون البلاد انهم يقـدمون خدمة للنـاس ، ولكنهم في مقابل ذلك يسـتعمرون البلد ، ويسـتغلون مـوارده ، ويريـدون من اهله ان يوقعـوا على وثيقة العبودية الكاملة لهم ، وهـــؤلاء أيضا ظنـــوا ان ذا القـــرنين من هـؤلاء السـلاطين والملـوك ، ويبـدو انهم اسـتعدوا لاعطـاء المزيد من خـيراتهم من أجل درء خطر يأجوج ومأجوج عن أنفسهم.

ولكن ذا القرنين لم يطـالبهم بـالخراج ، أو يأخذ منهم مالا ، وانما.

[95] (**قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ**)

ان الله مكنـني وسـخر الحيـاة لي من أجل خـدمتكم وخدمة المحـــرومين والمستضـــعفين ، ثم اني ابحث عن الطرق المشروعة لاسـتغلال الحيـاة ، بلى .. ان السـلطة إذا أرادت ان تسخر الناس لاهدافها ، وتستثمر مـواردهم ، فانها لا تـــدوم ، اما إذا عملت من أجل اســتغلال مـــوارد الطبيعة مثلا ، تسـتفيد من الاراضي البـور وتبـدأ بتصـنيع البلاد وإستخراج معادنها ففي ذلك خيرها وخير الشعب.

(**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً**)

لقد طالبهم ذو القـرنين فقط بطاعته في طريق بنـاء السد (الردم) اي التعاون معه في سـبيل إنجـاز المهمـات الصعبة وهذه هي العلاقة المثلى بين السلطة والشعب.

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قـالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَـهُ نـاراً قـالَ آتُـونِي أُفْـرِغْ عَلَيْـهِ قِطْـــــراً (96) فَمَا اسْـــــطاعُوا أَنْ يَظْهَـــــرُوهُ وَمَا اسْـتَطاعُوا لَـهُ نَقْبـاً (97) قـالَ هـذا رَحْمَـةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكـانَ وَعْـدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُـوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنـاهُمْ جَمْعـاً (99) وَعَرَضْـنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكـــافِرِينَ عَرْضـــاً (100) الَّذِينَ كـــانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (101)

---

96 [الصدفين] : جانبي الجبلين.
[قطرا] : نحاسا مذابا.
97 [نقبا] : خرقا وثقبا.
98 [دكاء] : أرضا مستوية.

ذو القرنين أسوة الحكم الفاضل

هدى من الآيات :

مـاذا فعل ذو القـرنين شـكرا لنعمة السـلطة والقـوة الـتي وهبها ربه لـه؟ ومـاذا كـان موقفه من هـذه الزينة الحياتيـة؟ ومـاذا ينبغي أن يكـون عليه موقف المؤمـنين الصالحين من زينة الحياة الدنيا؟

كل ذلك مما تذكره هذه الآيات الكريمة ، في سلسلة أحـاديث القـرآن في سـورة الكهف ، عن علاقة الإنسـان بالطبيعة ، لقد بنى ذو القرنين سدا منيعا لا يخترق لقوم لا تربطه بهم علاقة الا علاقة الخدمة الانسـانية ، ورفض أن يأخذ منهم أجرا أو يطالبهم بشكر ، انما هو الذي شكر ربه الذي وهب له هذه القدرة.

ولقد شـكر ذو القـرنين ربه مـرتين ، مـرة حينما اسـتخدم القـدرة في سـبيل منفعة النـاس ومـرة حينما استخدم عمله وسـيلة لهـدايتهم ، وكشف للنـاس أن هـذه القوة مما وهبه الله له من فضله وعرف بأن حاجة الناس الى الرسـالة والهداية أعظم من حـاجتهم الى قوته وسـلطته ، فاسـتخدم تلك اللحظة الـتي شـعر فيها أولئك الذين كانوا

يتعرضون لهجوم مـرعب كل عـام مـرتين بـالأمن والراحة عند ما رأوا ان الله قد أنقـــذهم على يديه ، اســـتغل ذو القرنين تلك اللحظة في سـبيل توجيه النـاس وهـدايتهم ، وهـذا منتهى ما يسـتطيع أن يقـوم به صـاحب سـلطان أو صاحب قوة ، فهو حين يعطي ماله ــ مثلا ــ فيشـبع جوعة مسكين أو يغني فقيرا ، أو يـؤوي يتيما ، لا يكتفي بـذلك ، وانما يبدأ بهداية ذلك الفرد ، فيقول : هذا المـال ليس لي ، وانما هو لك ، وانه فضل من ربي ، ان الله قد يعطيك خيرا من هـذا المـال ، وهكـذا يتحـدث اليه فيفيـده بحديثه أكثر مما يفيده بماله.

جاء للإمـام الحسـين (عليه السـلام) فقـير يطلب منه حاجة ، فأخذ أربعة آلاف درهم وجعلها في طرف عباءته ، ثم فتح جـانب البـاب ودفعها له ، مسـتحييا منه لكي لا يجعل الفقـير يحس بـالخنوع ، ولكي يربيه ويزكيه ، ويـبيّن له ان إعطـاء المـال بحد ذاته ليس خدمة ، وانما الخدمة الحقيقية هي الأسلوب المهـذب المتواضع ، وبالتـالي فـان الامام يعطيه من التربية أكثر مما يعطيه من المال.

والامـــــام علي (ع) يأتيه رجل ويطلب منه حاجة ، فيشير اليه الامام بأن : أكتب حاجتك ، ولا تقلها مشافهة.

لكي يوفر عليه مـاء وجهه ، وبـذلك يعطيه من التربية أكثر مما يلبي حاجته المادية.

هــذا هو الموقف الســليم الــذي يجب ان يتحلى به المؤمنون ، فيشـكرون ما أعطـاهم الله عليهم من فضـله ويبنون علاقتهم بالآخرين على هذا الأساس.

وهنـاك درس آخر نسـتفيده من الآيـات وهو : موقف النـاس من صـاحب السـلطة ، وأنه مهما كـان عليه ذو القرنين من سلطة كبيرة وعظيمة ، فان هذه السلطة من الله وبالله والى الله ، ويـوم القيامة يحشر النـاس الى ربهم لا الى سلاطينهم أو أغنيائهم ،

وكل النــاس في يــوم القيامة ســوف يختلطــون ببعضــهم ويمــوج بعضــهم في بعض ، من دون ان يعــرف هــذا ســيد وهذا مسود ، وهذا كبير وهذا صــغير ــ بل يكونــون كالنحل الذي يدخل بعضه في بعض عند الخلية من دون ان تكــون هناك ميزة لواحدة دون أخرى ـ لا لكبــير على صــغير ، ولا لرجل على أنــثى ، ولا لشــيخ على شــاب ، لأن النــاس ســيقفون على صــعيد واحد عند ما يحشــرون الى ربهم ، اذن فلتسقط هــذه الاعتبــارات الذاتية ، ولــيرتفع الإنســان الى مستوى القيم.

بينات من الآيات :

بناء السّد :

[96] (**آتُــونِي زُبَــرَ الْحَدِيــدِ حَتَّى إِذا ســاوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**)

أي وفّـــــــــــروا لي قطع الحديد ، والزبر هي القطع المجتمعة من شــيء ، ســواء كــان ماديا كالحديد أو معنويا كالفكر ، فالكتاب الســماوي يســمى زبــورا لان فيه أفكــار مجتمعة الى بعضــها ، وكــذلك الحديد الــذي يجتمع الى بعضه يسمى أيضا زبرا.

وبعد ان طلب أهــــالي البلاد من ذي القــــرنين ان يساعدهم في محنتهم ، جمعهم ذو القرنين ونظم قواهم ، وطلب منهم أن يجمعوا قطع الحديد الــتي كــانت متــوفرة في بلادهم ، ثم أمــرهم بــأن ينفخــوا في النــار حــول هــذه القطع الحديدية ، فاشعلوا النــار وأخــذوا ينفخــون فيها كما ينفخ أصــحاب صــناعة الحديد قــديما في النــار بطــريقتهم الخاصة.

(**قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً**)

التهب الحديد من شــدّة النــار وهكــذا التحمت القطع الحديدية ببعضها ، ولم يكتف بذلك بل.

(**قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً**)

ثم طـالبهم بـأن يـأتوا اليه بالنحـاس المـذاب ، ثم يصـبّونه على القطع الحديدية المحمـاة ، ثم يتركونها مـدة حـتى تـبرد ، فـاذا بسد عظيم بين الجبلين مبـني من قطع الحديد المتلاصقة ببعضها ، وعليها النحـاس .. يزيـده قـوة لان الحديد تتضاعف قوته مع النحـاس كما يقـول أصـحاب الفن ، يسد الخلل بين قطع الحديد. ويمنع عنه الصدأ.

وإذا كـان هـذا السد هو الموجـود حاليا في منطقة القوقاز فان سلسلة الجبال التي تشكل حاجزا طبيعيا بين منـاطق المغـول ومنطقة القوقـاز تكـون قد اكتملت بهـذا السد وأصـبحت كحائط عظيم حيث ان مكانه هي الثغـرة الوحيـدة في المنطقة ولقد كـان من أروع الانجـازات المعارية في ذلك اليوم ولعله حتى اليوم يعتـبر أقـوى سد في العالم.

[97] (**فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً**)

كـان مرتفعا بحيث لم يسـتطيع يـأجوج ومـأجوج أن يتسـلقوه ، وكـان متينا بحيث لم يسـتطيعوا ان ينقبـوا من تحته نقبا ، ولعل ذا القـرنين كـان قد حفر حفـيرة كبـيرة وجعل الجدار الحديدي راسخا فيها بحيث لا يمكنهم النقب أيضا على المنطقة الصخرية الصلبة.

ان كل ما قـام به ذو القـرنين ، إعطـاء الخـبرة ، وتنظيم قـوة النـاس في بنـاء هـذا السد ، فهو لم يـأت بالحديد ، ولا بالقطر ، ولا بـالقوة البشـرية من بلـده ، كل الامكانـات كـانت موجـودة ومتـوفرة ، ومع ذلك لم يتمكن أهـالي تلك البلاد من الاهتـداء الى مثل هـذا العمل ، أما للاختلافـات الموجـودة بينهم ، أو لعـدم تنظيم قـواهم ، أو لنقص في خبرتهم الحضارية ، فلم يعرفوا أنه من الممكن ان يجمعوا قطع الحديد الى بعضها ، ويفرغـوا عليها قطـرا حتى تصبح سدا منيعا ، وهذا ما يؤكد على

ان السلطة القويمة هي السلطة التي تجمع قــوى النــاس وتعبؤها في سبيل مصلحتهم.

نحن نــرى بلادنا تفتقر الى الصــناعات الثقيلة بــرغم توفر كل الإمكانات لديها لانشائها. لماذا؟

لأن ذلك يستدعي تعبئة طاقات الامة كلها ، فالسلطة يجب ان تبني الجامعـات لكي تتـوفر الكـوادر القيادية من العلماء ، والفنيين ، والأخصائيين ، الذين يمكنهم الاستفادة من الامكانات البشرية ، والمادية بهذه الأمور ، وهــذه هي الفوائد الاساســية للســلطة الحكيمة وعليها ان تســتخرج المعـادن ، وتبـني المشـاريع الضـخمة لتوفـير الطاقة من بـترول وكهربـاء وعليها ان تمد الجسـور والطـرق. وتبـني الموانئ ثم تـوفر الخطة والمـال والقـوانين المنسـقة من أجل بنــاء صــناعات ثقيلة ، وهنــاك يبــدأ دور التعب في السعي والكّد والإبداع.

وعد الله :

[98] (**قالَ هـذا رَحْمَـةٌ مِنْ رَبِّي فَـإِذا جـاءَ وَعْـدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**)

أظهر ذو القرنين في تلك اللحظة التي أعجب النـاس فيها بعبقريته وأكـبروه أيما إكبـار أظهر عجـزه امـام الله لكي لا يفتن الناس به انما يعبدوا ربهم ، انه قال : ان هذا السد سدّ منيع وهو عمل حضاري عظيم ، ولكن سيتهاوى حينما يأتي وعد الله ، يـوم القيامة أو يـوم ظهـور الحجة ، أو يوم انتهاء مفعول السد تتقـدم البشر حضـاريا كعصـرنا اليوم ، أو يوم يضعف ايمان الناس الذين كانوا أمـام السد ، لا نعلم انما المهم أنه في اليوم الموعود سـيتهاوى السد ، والأمور كلها بيد الله.

انه وعد الله يــــأتي حتما وليس في ذلك أي ريب ، وعلى الناس أن لا يناموا على

حرير الأمل ، وأنما يكـــون عنـــدهم احســـاس بـــالخطر المستقبلي ، فيعملوا كل ما في وسعهم لتفاديه.

[99] (**وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**)

الناس يصـبحون وكـأنهم النحل ، أو كـأنهم الطـير في السـماء يختلط بعضـهم ببعض ، وتنعـدم المـيزات كلها بينهم.

(**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً**)

عند ما ينفخ في الصور يوم القيامة ، فـان كل النـاس يأتون فورا ودون أي تلكّؤ فلا أحد يرفض ، ولا أحد يتكـبر ، ولا أحد يتكاسل ، وهـذا دليل عجـزهم ، ودليل شـعورهم بالتسليم المطلق لأمر الله ، والـذي كـان ينبغي ان يكـون عندهم في الحياة الدنيا ولم يكن.

[100] (**وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً**)

يرى الكافرون يومئذ طبقات جهنم ودركاتها الملتهبة ، وحيّاتها الرهيبة كـــالتلال وعقاربها الضـــخمة كالبغـــال ، فيمتلئـون رعبا ويأسا ، ويعتصـرهم النـدم على ما عملـوه في الدنيا ولات حين مندم.

[101] (**الَّذِينَ كـــانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطـــاءٍ عَنْ ذِكْرِي**)

هذا الغطاء هم الذين وضـعوه على أعينهم ، باتبـاعهم لأهـــوائهم وشـــهواتهم ، وبخضـــوعهم للتضـــليل الاعلامي الكافر الذي يحاول جهده في أن يحجب أنوار الحقيقة عن أعين النـاس ، الّا ان ذلك الغطـاء سـيتمزّق يـوم القيامة فيرى أصحابه ما ينتظرهم من مصير أليم وعذاب مقيم.

(**وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً**)

لقد أغمضوا عيونهم ، وجعلـوا بينهم وبين رؤية الـذكر غطــاء من كبريــائهم وغفلتهم وعنــادهم كما جعلــوا في آذانهم وقــرا ، وذلك الــوقر هو الآخر نــابع من كبريــائهم وغطرستهم وتعاليهم الكاذب.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً (105) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً (106) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (107) خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (108) قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي

---

102 [نزلا] : النزول هو ما يهيء للضيف.

105 [وزنا] : قيمته واعتباره.

108 [حولا] : تحولا وانتقالا.

لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (109) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110)

---

109 [مددا] : الأمداد المساعدة.

جزاء المشركين

هدى من الآيات :

عادة ما تكون بدايات السور القرآنية ونهاياتها تلخيصا لموضوعها الرئيسي ، وإلقـاء للضـوء على مجمل الأفكـار التي بحثت في آياتها.

وفي نهاية سـورة الكهف الـتي حـدثتنا عن سلسـلتين متوازيــتين ومرتبطــتين مع بعضــها من الأفكــار ، وهما الحــديث عن موقف الإنســان من الطبيعة وزينة الحيــاة الدنيا ، والحديث عن العلم والذكر وكيفية الحصول عليهما ، نجد تلخيصا لهذين المبحثين.

الدرس الأخير يحـدثنا عن أولئك الـذين يتخـذون عبـاد الله من دونه أوليـاء ولعل مناسـبة الحـديث ذكر قصة ذي القرنين صاحب السلطة الشاملة الذي لم يكن سـوى عبد صالح. ولم يكن لأحد ان يعبده من دون الله وهكذا تخـوّف آيات هذا الدرس من يعبدون البشر ، وتحذّرهم بـأن جهنم هي مصيرهم المحتوم ، ثم تشير الى جذر هـذه المشـكلة وهي التبرير والخداع الـذاتي ، حيث يعتـبر ذلك في الواقع من أخطر الأمراض

الفكرية التي تواجه البشر.

ان المصاب بهذا الداء يعتقد أن ما يعمله صالح ، بينما هو في جـوهره فاسد ، وهكـذا تصـبح كل تطلعاته الخـيرة وراء ذلك العمل ، وتصـــبح وقـــودا للســـير الحـــثيث في الطريق الخطأ ، فلا يصل الى شــيء من أهدافه ، بل يجد كل الخسارة في انتظاره.

وهـــذا الـــداء لا يصـــاب به الإنســـان الا في المراحل المتقدمة من ضـــلالته ، ففي البداية تظل النفس اللوّامة تحـــذّره من الانحـــراف ونتائجه الوخيمة ، ويطل ضـــميره يوبّخه ، كما ان عقله يظل يضـــيء له شـــيئا من الطريق الصـــواب ، بالاضـــافة الى أنه كثـــيرا ما يجد من ينصـــحه ويعظه ويبين له الحقائق ، لهذا يبقى له أمل بأن يقـــوّم ما أعوجّ من أمره.

ولكنه إذا استمرّ وعاند ، فآنئذ يسلب الله منه ضميره وعقله ، ويجعل على بصـره غشـاوة وفي سـمعه وقـرا ، ويختم على قلبه ، وينفضّ الناصـــــحون من حوله ، ليحل محلهم من يـــزّين له الســـوء ويشـــجعه عليه ، فينتهي به الأمر الى أن يكون شيطانا مريدا.

ثم يـــبين القـــرآن حقيقة هامة هي : ان ما يحســـبه الإنسان ذا شأن خطير في حياته الدنيا ، من مـال ، وبـنين ، وجـاه ، وسـلطة وما أشـبه هو عند الله تافه الا إذا سـار في طريقه المستقيم.

وفور ما يحدثنا القرآن عن ضلالة الإنسان في الحيـاة الدنيا ، يذكر لنا هذه الشهوات الـتي تحجب قلب الإنسـان وتوقعه في وهدة الضلالة ، وتكون السبب في وصوله الى ذلك الـدرك الأسـفل ، حيث يعمل شـرّا ويحسب أنه عمل صالحا.

ثم يعـرج القـرآن الى الجـانب الآخر حيث المؤمنـون الصالحون عملا يسكنون الفـردوس وهي أعـالي الجنـان ، وحينما يدخل الإنسان ذلك المكان يجد أنه قد خلق

له ، فلا يجد في نفسه طمعا ولا طموحا ولا تطلعا آخر ، لأن جنة الفـردوس هي في مسـتوى طموحاته وتطلعاته ، ذلك الإنسان الذي لا يرضيه شـيء في الـدنيا ، والـذي إذا حصل على القارات السبع فانه يريد أن يصعد الى النجوم ويحصل عليها ، وعند ما يرى الجنة يقول : كفـاني ولا أريد عنها انتقالا.

وبالمقارنة بين هاتين الصورتين ، صورة الإنسان الذي تتحقق طموحاته كلها في الآخرة ، وصورة الإنسـان الـذي يعيش في الـدرك الأسـفل. هنـاك ، وهو يحسب أنه كـان يحسن صـنعا في الـدنيا نتوصل الى معرفة الفـرق بين طريق الحق (وهذه نهايته) وطريق الضلال (وتلك عاقبته).

هذه الحقائق هي من كلمات الله الـتي لا تنفد ، وهي المعارف والهدى والتوجيهات التي هي انعكاس عن سـنن الله في خلقه للطبيعة والإنسان ، ولذلك على الإنسان أن لا يغتر بعلمه المحدود ويعتقد أنه قد فهم كل شيء ، فهذا الغـرور هو الـذي يسـبب اعتقـاده بأنه على الصـراط المستقيم ، بينما الحقيقة عكس ذلك تماما.

وتنتهي هـذه السـورة بتلخيص فكـرة الاسـتفادة من فيض هـذه الكلمـات الـتي لا تنفد ولو كـان البحر مـدادا لكتابتها ، وهي عبـادة الإنسـان لله ، وإخلاص طاعته له ، والعمل برجاء لقائه.

بينات من الآيات :

[102] (**أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبـادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ**)

ان أكثر الكفر لا يكـون بإنكـار وجـود الله ذاته ، وانما يتخذ صـورا أخـرى ومن أهمها : انكـار ولاية الله وحاكميته التشريعية على البشر ، فنجد كثيرا من الكفار في الأزمنة السـابقة وهكـذا في زماننا الحاضر يقـرّون بـأن الله هو خالق السـماوات والأرض وكل ما فيهما ، ولكنهم يضـعون تشريعات من عندهم لادارة حياتهم

اجتماعيا ، وسياسيا ، واقتصاديا ، وغير ذلك بـزعم أن الله لم ينزل تشريعا سماويا عليهم ، بل تركهم في هذه الحياة سدى.

(**إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً**)

ان زعم هـؤلاء لا يقـوم على حجة سـليمة ولا على دليل مقنع ، بل ان كل الحجج والأدلة المنطقية تناقضه وتؤيد ما هو ضدّه ، ولذلك فـإنهم بهـذا يعرضـون أنفسـهم لسخط الرب الذي أعدّ لهم مكانا يليق بهم وهو جهنم.

الأخسرون أعمالا :

[103] (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً**)

[104] (**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**)

قـديما حينما كـانوا يريـدون التأكد من جنـون شـخص كانوا يحضرون له بـرميلا بلا قعر ، ويطلبـون منه أن يملأه ماء ، فان كان عاقلا امتنع عن ذلك ، وان كان مجنونا فانه يشرع في العمل بجد.

والأخسـرون أعمـالا هم كهـذا المجنـون ، يبـذلون مساعيهم وجهودهم في الحياة ثم لا يقبضون شـيئا ، كمن يصـطاد الهـواء بالشـبك ، انهم لا يعلمـون ما هو الشـيء البـاقي وما هو الشـيء الزائل فمثلا يتعب الواحد منهم على أولاده ، ويضع جهوده ودينه وقيمه عليهم حتى يكبروا ، وما ان يبلغوا أشدهم ويعتمدوا على أنفسهم حتى يتركوا أباهم وحيدا في حسرته ، وأقصى ما ينفعونه تشـييعه الى مثـواه الأخـير ، وقـراءة الفاتحة على روحه أما في القـبر والمحشر وعند الميزان فلا يغني أحد عن أحد شيئا.

وكـذلك عند ما يسـعى الإنسـان من أجل الأمـوال ليكرّس الملايين فوق بعضها ،

لقد مات (فورد) صـاحب شـركة السـيارات المعروفة في خـزائن أمواله ، حيث كـانت عنـده خزانة حديدية ضـخمة مؤلفة من عــدة غــرف متداخلة لكل منها بــاب ، وكــان يحتفظ بذهبه ومجوهراته وأشــــــيائه الثمينة في الغرفة المركزية ، وفي يـوم دخل الى مكانه المحبّب هـذا ليتمتع ناظريه ويرفّه قليلا عن نفسه وكان كلما يدخل بابا يوصده من ورائه ، حتى إذا دخل في غرفة السعادة أوصدها على نفسه ، وقد نسي المفتاح في الخـارج ، وعند ما شـبع من النظر الى متـاع الـدنيا الـرخيص أراد الخـروج فلم يقـدر ، فظل يصـرخ ويصـرخ ، ولكن صـوته لم يكن ليخـترق تلك الجدران الحديدية المتراكبة فوق بعضها ، فمكث عدّة أيام على هذا الحال الى أن مات.

ان هذا الإنسـان الضـال لم تنفعه أمواله ، ولم تنقـذه من الجوع والعطش في الـدنيا حيث المـال له قيمة ، فما بالك في الآخرة حيث لا قيمة للمال إطلاقا؟!

[105] (**أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ**)

ان السـبب في وصـول الإنسـان الى هـذا الـدرك الأسـفل هو : اعراضه عن آيـات الله ، وعـدم اسـتعداده للقائه ، وهذا هو الكفر بالمبدأ والمعاد.

وأساسا يؤمن الإنسان وجـدانيا بالله ، ويبحث بفطرته عن المعـاد ، ولكن من الصـعب عمليا أن يصل الإنسـان الى مستوى الايمان بالله واليوم الآخر ، لـذلك فهو يحتـاج الى مزيد من الارادة والعـزم ليصـعد على هـذه القمة فيحوّل ايمانه من اطار الفطرة والوجدان الى اطار العمل والتطبيق.

ان نفوس الكفار أصغر ، وعزائمهم أضعف ، وهممهم أتفه من أن تصل الى حقيقة الايمـان ، لـذلك تجـدهم ينكرون آيات الله ويكذّبون بلقائه.

(**فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ**)

ان أعمال الإنسان لا تحفظ الا في اطار الايمـان بالله واليوم الآخر ، كما يحفظ المـاء في البرميل السـليم ، أمّا وضع أعماله في أي ظــرف آخر فســوف تكــون كالمــاء الموضوع في برميل لا قعر له.

(**فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً**)

بـرغم أنهم كـانوا في الـدنيا أثريـاء وأصـحاب سـلطة وجاه ، وكان لهم وزن عند كثير من النـاس ، الا أنهم يــوم القيامة يأتون وليس لهم أي وزن ولا كرامة من عند الله ، وسوف يكونون أذل الناس وأحقرهم هناك.

[106] (**ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَـرُوا وَاتَّخَـذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً**)

ان الإنســان عند ما يلجأ الى الهــزء والســخرية في مقابل الحقيقة ومن يحملها ، فانه يكــــــــون في أقصى درجات العنـاد ، والانغلاق على النفس ، وقسـاوة القلب ، ان له الحق في أن يتشــكك في بــادئ الأمر ، ويطــالب بالــدليل ، ويجــادل بالعقل الى أن يقتنع ويطمئن ، أما أن يواجه الرسول والرسالة بالاسـتهزاء ، فهـذا دليل على أنه لا يريد اتبـاع الحق أساسا ، فيا تـرى أي مكـان يليق بمثل هذا غير جهنم؟!

جزاء المؤمنين :

[107] (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كـانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً**)

[108] (**خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً**)

يجب على الإنسان أن يكتشف أعماق ذاته ويتساءل : لماذا خلقت؟ وما الذي أطمح إليه؟

انه في محاسبة رياضية بسيطة يســتطيع أن يفهم أن هذه الدنيا وما فيها ليست كافية لاستيعاب طموحه ، فمن طموح الإنسان الخلود والاستمرار في الحيـاة ، انه لا يريد أن ينقلب الى العــدم بعد الوجــود ، وإذا كـانت الــدنيا قد خلقت لنا وخلقنا لها فلا أقل من أن نبقى خالدين فيها.

أحد الفلاسـفة القـدامى كـان يقـول : أنا مسـتعد أن يضعوني في جوف حمـار ميّت ، وأظل أتنفس من دبـره ، في مقابل أن أبقى حيّا في الدنيا!!

هــذا الكلام غــير منطقي ، ولكن يعــبر عن نزعة حب البقاء عند الإنسان.

ولكن هل بقي أحد في الــــدنيا؟ كلهم أرادوا البقـــاء وكلهم ماتوا ، اذن فالدنيا ليست لهم ، وطموحهم هــذا لن يتحقق فيها.

وبعيد عن حكمة الله ورحمته أن يخلق في كيـــــان الإنســـان رغبة لا تتحقق ، أو حاجة لا تلـــبى ، انه عند ما خلق العين خلق في مقابلها شـــيئا يـــرى ، وعند ما خلق الأذن خلق في مقابلها شيئا يسـمع ، وعند ما خلق الجهـاز الهضــمي ، خلق في مقابله شــيئا يؤكل ، وهكــذا قل في سـائر الحــواس والأعضــاء والغرائز ، وكـذلك حينما خلق طموح الخلـود ، والحصـول على ملك لا يبلى؟ خلق وراءه حقيقة مناسبة له ، فما هي تلك الحقيقية.

انها جنة الفردوس في الدار الآخرة ، وهــذا هو أبسط دليل وجداني على ضرورة البعث.

كلمات الله :

[109] (**قُلْ لَـوْ كـانَ الْبَحْـرُ مِـداداً لِكَلِمـاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِـهِ مَدَداً**)

لو تحوّل الماء الموجود فوق الكرة الأرضـية الى حـبر لكتابة آيات علم الله وقدرته وحكمته ، وآثار فضله ونعمته ، لجفّ هذا البحر ولما يكتب الا النزر اليسر منها.

تــرى أنهم في مجــال الفضــاء فتشــوا عن أحــدث الوســائل الالكترونية الـتي تســاعدهم على رؤية النجــوم والكواكب ، فاكتشفوا بعض المجرات ، ثم عـادوا وصـنعوا أجهزة أحدث فاكتشـفوا مجـرات جديـدة ، وهكـذا الى أن قال قائلهم : ان الله لا يـزال يخلق ، فكلما صـنعنا مراصد أضخم لرؤية ما تحويه السماء ، خلق الله في تلك الفــترة مجرات جديدة لم تكن موجـودة من قبل ، ولعـلّ هـذا هو مصــداق الآية الكريمة : «**وَالسَّــماءَ بَنَيْناها بِأَيْــدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**» 47 / الذاريات.

وخلق الله أسرع من صنع الأجهزة التي نـرى بها هـذا الخلق ، فكيف تنتهي كلمات الله؟

هــذه المجــرات الواســعة في الفضــاء المتناهية في الضـــخامة وتلك الـــذرات المتناهية في الصـــغر ، كلما درسوها وبحثوا حولها وجدوا فيها خصـائص غـير مكتشـفة سابقا ، وآخر خصيصة اكتشفوها في الذرة اســتفادوا منها في صنع القنبلة النيوترونية.

تــرى كم مجلد كتبــوا حولها ، في طريقة صـــنعها ، والأسرار المرتبطة بها ، والمعلومات الخاصة باستعمالها؟

هـذا بالنسـبة للـذرة المتواضـعة الـتي لا تـرى بـأقوى المجاهر وهي واحدة من كلمات الرب ، اذن فكلمات الله لا تنتهي ، ولهذا يجب أن يتحدد غـرورك أيها الإنسـان ، ولا تظن أنك قد وصـــــــلت الى نهاية الحقيقة ، وانك على الطريق الصـــواب ، دائما ضع علامة اســـتفهام أمامك ، وابحث عن الحقيقة ولا ترى نفسك أكبر منها أبدا.

[110] (**قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ**)

ان الرســول ليس ســلطانا ذا صــولجان ، ولا ثريا ذا كنوز ، انما هو بشر مخلوق مثل الآخرين ، وميزته الوحيدة أنه يوحى اليه من السماء ، وهذا الوحي يتلخص في جملة واحدة هي :

(**أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ**)

لــذلك أســقطوا الأصــنام في أنفســكم ومجتمعكم ، واعبدوا الله وحده.

(**فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلاً صـالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**)

انهما شــرطان بســيطان ، ولكنهما يمثلان مســئولية الإنسان في الحياة ، ويشكلان سفينة نجاته ضمن مسيرته في خضمّ الأمـواج المتلاطمة ، والأعاصـير العاصـفة ، نحو الله الذي هو منتهى أمل العارفين ، وغاية آمال الطالبين.

الفهرست

سورة النحل

سورة الاسراء

سورة الكهف